

المؤتمر العلمي الثالث

التاريخ والمؤرخون الحضارمة

(في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/
السابع عشر والثامن عشر الميلاديين)



المكلا
30 ديسمبر 2018 م

المؤتمر العلمي الثالث
(التاريخ والمؤرخون الحضارمة
في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين /
السابع عشر والثامن عشر الميلاديين)
حضر موت - المكلا 30 ديسمبر 2018م

ح) مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت (٢٥٦) ٢٠٢٠م
التاريخ والمؤرخون الحضارمة في القرنين الحادي عشر والثاني
عشر الهجريين/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، أوراق
المؤتمر الدولي الثالث الذي نظمه مركز حضرموت للدراسات
التاريخية والتوثيق والنشر - المكلا ٣٠ ديسمبر ٢٠١٨م.
٣٢٠ ص، ٢٤٨١٧ سم

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع - مصر

هاتف وواتس آب: 00201008170225

بريد إلكتروني: daralwefaqnet@gmail.com

المؤتمر العلمي الثالث

التاريخ والمؤرخون الحضارمة

(في القرنين الحادي عتتر والثاني عتتر الهجريين/
السابع عتتر والثامن عتتر الميلاديين)

حضر موت - المكلا 30 ديسمبر 2018م

+2001008170225

أو كلم

WWW.DARALWEFAQ.NET

للنسخة الورقية زر



كلمة المركز

الزملاء الأعزاء الضيوف الكرام

نرحب بكم ترحيباً جميلاً، ويشرفنا أن يتجدد اللقاء السنوي بكم فنحن في مركز حزموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر آثرنا أن يتم الاحتفال بالذكرى السنوية للمركز بتنظيم فعالية علمية نوعية وبحضور تشريفي من قبل رموز من المختصين والمهمين بالشأن التاريخي والثقافي بهدف خلق تظاهرة ثقافية ذات دلالات إنسانية تهى بيئة صحية تشجع على التفكير المبدع وتعزز التقارب وتنشد تبادل الخبرات بروح صادقة تحترم تنوع الرؤى، وتعدد الاجتهادات، ولهذا نجد في هذه القاعة ضيوفاً من مدن وبلدات متنوعة، ومن مختلف المشارب (وكل مبعداً مكاناً تجميعه) لكنها تأتي به راضياً مرضياً عزيزاً كريماً.

الزملاء الأعزاء

قدمت للجنة العلمية للمؤتمر عدد من الأبحاث، تم قبول أحد عشر ورقة بحثية اجيزت بحسب المعايير المعلنة في بروشور المؤتمر، وقد غطت هذه الأبحاث جوانب يسيرة من الحياة السياسية والحضارية والعلمية في حزموت لكنها فتحت مجالات أرحب للتعمق في أحداث التاريخ لاسيما أن هذه المرحلة شهدت تحولات تاريخية كبيرة ففيها انتهت السلطنة الكثيرة الأولى وخضعت حزموت لحين من الزمن لحكم الدولة القاسمية ثم لسلطة القوى اليفعية في بعض حواضر حزموت كما اتسمت هذه المرحلة بالانقسام السياسي والفوضى القبيلة لكن هذا لم يكن هو المشهد الوحيد في حزموت فأهل العلم والصالح كانوا حاضرين وكانوا يحاولون تغيير مسار التاريخ لصالح استقرار المجتمع وتطوره ولهذا تداخلت في بنية المجتمع لغة الرصاص مع كلمات البناء فخلق ذلك نوعان من التوازن في المجتمع وكان للثقل الثقافي الحضرمي بمدرسته الوسطية المنتشرة في الحواضر والبوادي دور كبير في تماسك المجتمع ولو في حده الأدنى، وهكذا ففي حين تطرقت بعض الأوراق لجوانب من الصراع السياسي تناولت بعضها دور العلماء وفي المقدمة منهم السيد عبدالله بن علوي الحداد الذي كان العلامة الثقافية البارزة كما تبين الأدبيات الحضرمية فقد عاصر التحديات الكبيرة التي شهدتها حزموت ولأنه لكل زمن دولة ورجال فهو رجل المرحلة



فقد عاش في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ولم يتخل عن دوره بالمواقف الإيجابية وفي تقديم النصيحة للحكام، ولعل في حاضرننا مشاهد مقاربة من تلك المرحلة الزمنية لكن بتفاصيل مغايرة وهذه من سنن التاريخ فلنأخذ العبرة حتى نتمكن من تأسيس حاضرننا ونحن على بصيرة من أمرنا والحاضر القوي الذكي يمهد الطريق نحو المستقبل الأيمن المزدهر.

الزملاء الأعزاء

ونحن على أعتاب عام ميلادي جديد فإننا في مركز حضرموت نجدد الدعوة للباحثين والمختصين والمهتمين للتفاعل مع أنشطة المركز ولا نضع أنفسنا منهم إلا في مواضع الند فنحن نرحب بالفكرة الجديدة الممكن تحقيقها ونقبل النصيحة والنقد البناء ونقول هذا لأننا على أعتاب مشروع علمي كبير هو مشروع الموسوعة الحضرمية المزعم إشهاره مستقبلا، فمن عنده القدرة والرغبة كلا من مكانه ومكانته سيكون شريكا مرحبا به،، أخير ندعو الله السداد والتوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. عبدالله سعيد الجعيدي

رئيس مركز حضرموت

٣٠ ديسمبر ٢٠١٨م - المكلا



ملاح من السيرة الذاتية في كتاب: (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) للحبيب علي بن حسن العطاس

أ.د. مسعود سعيد عمشوش
جامعة عدن

مقدمة:

يحتوي الأدب العربي القديم على عدد كبير من النصوص التي يرى الدارسون اليوم أنها تدخل في إطار فن السيرة الذاتية (أو الترجمة الذاتية)، منها (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ، و(المنقذ من الضلال) للغزالي، و(التحدث بنعمة الله) لجلال الدين السيوطي، و(النكت العصرية في تاريخ الوزراء المصرية) لعمارة اليمني، و(التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً). ولا شك أن تلك النصوص العربية تتضمن كثيراً من ملاح السيرة الذاتية كما قعد لها الناقد الفرنسي فيليب لوجون، وهو ما دفع عدداً من الباحثين الأكاديميين الأمريكيين إلى التأكيد بأن هناك من الغربيين من «غالط» حينما زعم أن كتابة السيرة الذاتية فنٌ غربيٌّ في المقام الأول، وقد ذكر أولئك الباحثون أن الدافع الرئيس لكتابة السيرة الذاتية عند العرب في الماضي يكمن في الرغبة للامثال لأمر الخالق بالتحدث بنعمه؛ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وذلك بهدف تحفيز القارئ على الاقتداء بهم وبسلوكهم الحميد، في حين أن الغربيين كانوا يكتبون سيرهم الذاتية رغبة في الاعتراف بأخطائهم وتحذير القارئ منها.

وفي الحقيقة بإمكاننا رصد كثيرٍ من أوجه الاختلاف بين السير الذاتية الغربية والسير الذاتية العربية القديمة، لا سيما تلك النصوص التي ألفها أشخاص يقتربون قليلاً أو كثيراً من التصوف، مثل تلك الكتب التي ألفها الغزالي والسيوطي والعيدروس، وكذلك كتاب (سفينة البضائع وضمينة الضوائع)، الذي ضمنه الحبيب علي بن حسن العطاس سيرته الذاتية، والذي اطلعت عليه في صيف عام ٢٠١٦، في المخطوطة رقم ٢٤٩٥ مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم، قبل أن أعثر على نسخة مطبوعة منه.

وقد اخترت أن أقدم -في هذا المؤتمر- دراسة للكتاب لأنني لمست أنه يتضمن سيرة ذاتية فريدة في الأدب العربي القديم؛ فبعكس السير الذاتية الأخرى فقد استطرد مؤلف (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) كثيراً في الحديث عن طفولته وزوجاته وعائلته بجرأة يندر أن نجدها في الأدب العربي القديم، كما أنه يتميز باستخدامه الواسع لتقاليد الكتابة العربية في العصور المتأخرة، مثل استخدام العامية، والسجع، والمزج بين النثر والشعر، والتوسع في استخدام التناس مع القرآن الكريم والحديث النبوي.

في الجزء الأول من هذا البحث ستم دراسة مدى تطابق كتاب (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) مع المعايير العامة لفن السيرة الذاتية، وفي الجزء الثاني سأتناول بنية الكتاب بوصفه نصاً سردياً استذكاريّاً استعاديّاً، وفي الجزء الثالث سيتم التركيز على دور الأحلام والكرامات في هذه السيرة الذاتية، أما الجزء الأخير فقد خصصته لرصد بعض الأبعاد اللغوية والفنية التي تميّزت بها (سفينة البضائع وضمينة الضوائع).

أولاً: (سفينة البضائع) والمعايير العامة لفن السيرة الذاتية:

(أ) ميثاق السيرة الذاتية ودوافع كتابة الحبيب علي بن حسن لسيرته الذاتية:

في مفتتح نص (سفينة البضائع وضمينة الضوائع)، وقبل أن يشرع في تبيان الأسباب التي دفعته إلى كتابته، يعترف الحبيب علي بن حسن العطاس بأن ما يكتبه هو سيرته الذاتية، ويحدد الخطوط العامة لمشروعه على النحو الآتي: «تحتوي كواميخ المائدة على تاريخ مولدي وذكر منشئي ومحتدي، وأذكر فيها إشارات إلى ما يسّر الله الكريم لي، ووفقني له من الأخذ في تعلّم القرآن العظيم، ثم طلب العلم الشريف الكريم على سيدنا وشيخنا الوالد الحسين ابن سيدنا الوالد عمر جزاهم الله عنا خيراً. ثم كذلك على يد ولديه: الوالد الجد عبدالله وأحمد ابني الحسين وغيرهما ممن أخذت عنهم أو زرتهم، وقد أترجم اختصاراً لبعضهم، وأذكر تعدد أجزاء من جزائل نعم المولى التي أمرنا بذكرها، وندب إلى التحدث بها، ونفى التمكن من إحصائها. وأذكر هجرتي من بلدي حريضة إلى بلد الهجرين ثم إلى بضة وغيرها، المشيرة إلى الاقتداء بالسلف الصالح. وأذكر جماعة ممن أدركتهم وزرتهم أخذت عنهم من صلحاء الزمن، مع الإشارة الوجيزة إلى اليسير الدال على الكثير من مناقبهم، وشكر بعض أهل الخير الذين حصلت لنا منهم المؤاساة والمعاونة والمظاهرة والمناصرة والمؤازرة، المشار إلى

الندب إليها بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ». والتعريف ببعض الأخبار الموجبة للاعتبار والتذكار، المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ص ٧-٨.

ثم يشرح الحبيب علي بن حسن العطاس في عرض الأسباب التي دفعته إلى كتابة سيرته الذاتية، وأولها: الانصياع لأمر الله، وذكر «نعم المولى التي أمرنا بذكرها، وندب إلى التحدث بها، ونفى التمكن من إحصائها». ثم عاد وربط هذا الانصياع بالرغبة في شكر الله على نعمه، مبيّناً ذلك قائلاً: «أعلم أن التحدث بنعمة الله تعالى هو أصل الشكر الذي هو أصل الذكر، وبه حصل الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾»، ص ١٣٠.

وحرص العطاس على تبرير إقدامه على كتابة السيرة الذاتية اتباعاً لخطى عدد من رجال الدين الذين سبقوه في كتابة تراجمهم، قائلاً: «وقد سبقني إلى مثل ذلك جماعة من السلف الصالح؛ منهم الإمام مالك بن أنس، الأصبحي نسباً، المدني بلدًا صاحب المذهب المشهور، ومنهم الشيخ عبدالله بن أسعد بن علي الياضي، ومنهم الشيخ إسماعيل بن أبي بكر المقرئ، والشيخ عبدالرحمن بن علي الديبعي، والشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس باعلوي، وغيرهم».

ومن أهم الأسباب التي دفعت الحبيب علي بن العطاس إلى كتابة سيرته الذاتية الرغبة في الدفاع عن نفسه ضد (الحساد والأضداد) الذين حاولوا تشويه سمعته وأجبروه أولاً على ترك حريضة، المدينة التي ولد بها، ثم إلى مغادرة الهجرين إلى (بضة)، ومنها إلى منطقة الغيوار التي أسس فيها (المشهد)؛ فهو يكتب: «وسأذكر في هذه الترجمة بعض ما حصل لنا من الأذى والعنات ليتأسى ويتعزى من وقع له شيء من ذلك [الذي وقع] بنا، كما تعزينا وتأسينا بالسلف الصالح من قبلنا، مما وقع لهم من أضرارهم، وقلنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾»، ص ٤٢.

ومن دوافع كتابة السيرة الذاتية عند الحبيب العطاس والمرتبطة بالرغبة في الدفاع عن النفس: الخوف من تشويه سيرته من قبل حاسديه وأعدائه، وبيّن ذلك قائلاً: «الزمان قد فسد وغلب على غالب أهله الغباوة والحسد، حتى انقلد باب التعريف بالخير والدلالة عليه

وانسد، فمالوا إلى دفن الفضائل ونشر المساوئ والذائل، وغير ذلك من الأسباب الموجبة لذلك»، ص ٢. ويضيف أن «هذا الشيء مما لا يتم غالباً إلا على لسان صاحبه؛ لأنه أدرى بحقيقة أحواله، ودقيقة أفعاله وأقواله ونوائبه... كما سيتضح لك مما ستسمعه من إيضاح خفيات المسالك وشرح الأحوال التي لا يملك شرحها غير مالکها مالک، وفي الآية ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾»، ص ٣.

ومن الأسباب التي يؤكد الحبيب علي بن حسن أنها وراء قيامه بتدوين سيرته الذاتية: الرغبة في تلبية طلب جماعة من علماء الحرمين الذين أعجبوا به وطلبوا منه كتابة ترجمته الذاتية ليتعرفوا عليه أكثر. ومن أهداف كتابة (سفينة البضائع وضمنية الضوائع)، التي ألفها رجل دين متصوف: سعي المؤلف للحصول على الدعاء له من القارئ، فهو يكتب: «ربما وقف على ذلك حبيب منصف فدعالي بالرحمة، وعرف مقدار ما أوليته من النعمة». ويقول أيضاً: «وأنت أيها الواقف على هذه الترجمة ادع لي بالمغفرة، فإن الدعاء للمؤمن من أخيه بظهر الغيب مستجاب، وتؤمن الملائكة على دعائه وتقول لك مثله، وهذا هو السبب الباعث على تسطير هذه الترجمة»، ص ٢.

وأخيراً يبدو لنا أن الحبيب علي العطاس قد أراد مثل كثير من رجال الدين، أن يوظف أحداث حياته في الوعظ؛ فهو يؤكد - كما سبق أن ذكرنا - أنه يريد «التعريف ببعض الأخبار الموجبة للاعتبار والتذكار، المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾».

(ب) جدلية الخاص والعام في (سفينة البضائع):

خلال قراءتنا لكثير من النصوص العربية القديمة، التي تُصنّف عادةً ضمن مدونة السيرة الذاتية، نلاحظ أن تلك النصوص تتضمن كثيراً من الأبعاد العامة، وبالمقابل يتقلص حجم الأبعاد الخاصة فيها؛ أي أن مؤلفيها لا يتحدثون إلا فيما ندر عن شؤونهم الشخصية، ويتعلق معظم ما يضعونه فيها بالحياة العامة ومشاركتهم فيها إما بعلمهم وإما بسلاحهم، أو من خلال إسهامهم في الحياة السياسية. ولذلك فضل كل من شوقي ضيف وإحسان عباس ومن تبعهم في الكتابة عن السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم تصنيف تلك النصوص انطلاقاً من السمة الغالبة عليها: سياسية أو فلسفية أو علمية أو صوفية.

ومن النادر مثلاً أن نعثر في تلك السير الذاتية التي كتبت قبل القرن العشرين، لا سيما تلك التي ألفها رجال الدين المتصوفون، استطرادات طويلة وجريئة عن مرحلة الطفولة أو العلاقة العائلية، وبشكل خاص مع الزوجات. ومقارنة بتلك السير تتميز سيرة الحبيب علي العطاس الذاتية بالتركيز على الحياة العائلية، وبدرجة عالية من الجرأة، إذ نعثر فيها على تفاصيل دقيقة من الحياة الخاصة للمؤلف، لا نصادف مثلها في السير الذاتية العربية القديمة الأخرى.

ومن اللافت حقاً أن مؤلف (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) لا يرى حرجاً في ذكر مختلف هفوات الطفولة، فهو يكتب مثلاً: «الصبا شعبة من الجنون، عجب ربك من شاب ما صبا. وهل بعد رفع القلم من قلم؟ أعلم [من] نفسي وأحفظ من حسي في تلك الأيام من الغرامة [شقاوة الطفولة]، التي هي على الهداية في الكبر أكبر آية وعلامة ما لا يحصر بعلامة، بحيث إنني لو ذكرته لخزيت وخشيت من كيت وكيت، فأعذر من شيت وأعذل من شيت، فعلى ذلك حييت. ومن جملته أني قد آتي بعض السقايا المُسبَّلة للشرب، وقد ملأها القائم بها من بئر بعيدة، فأخرج وكأها [رباطها]، وألعب بالماء الذي فيها حتى لا يبقى فيها شيء، وربما تسوّرت إلى بعض الخلوات للحويك فأسرق ما كان لهم من قصب ومواشي وما وجدته، وربما وجدت بعض الحمير قائماً في الشارع فأركبه جاعلاً ظهري إلى رأسه فأركضه حتى يزحف [يتعب]. وأما المحاذقة والمضاربة مع الصبيان فرأسي إذن مفقّع [مليء بآثار الجروح]. وإنما ذكرت ذلك لك لئلا تلوم الصبيان عليه، مع أني أعلم أنك تعلم من نفسك ما لا أعلم، والله أعلم وأحكم، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾، قل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»، ص ٢٥.

وبالفعل قبل أن يسرد الحبيب علي أحداث اختلافه مع حساده وأضداده من الكبار واضطراره بسبب ذلك إلى ترك مسقط رأسه حريضة، كرّس أولاً صفحات طويلة لسرد خصوماته و(مضارباته) مع الصبيان الصغار؛ فكتب مثلاً أنه حينما بلغ سن الرابعة عشرة: «كنت إذا خرجت إلى عند الصبيان للعب أندبر ما يقولون، وأصارع منهم العظائم في كل طبقة من أهل الوقت، فكلما كبر السن كبرت منهم العظائم؛ بحيث إنها تغلظ أربابها، فأسمعهم يقولون قال فلان لما لم أقل، وفعل فلان لما لم أفعل، وتدبرت من بعض الصبيان الخصومة البيئة التي لا أصل لها من قبلي، وذلك أني بنيت داراً على عادة الصبيان، وجعلتها

بسقيفتها، أي الضيقة [المدخل] التي يقال لها الدهليز، وأوضعها [مستودعاتها]، ورقادها [درجها]، فلما أتممت مبناها وأخذت في محضها [تلييسها بالطين]، وبقيت أقرب لذلك الطين من مكان بعيد، وكلما جيت بشيء طرحته وعدت إلى المكان الذي آتي به منه، فلما عدت منه وجدت بعض الصغار قائماً عندها وقد أخبرها عن آخرها، فضربته بالطين الذي بيدي في صدره فهرب مني فتعجبت من ذلك. فسبحان الله ما أخصم الخلق لبعضهم البعض، وما أشد ما عندهم من البغض، مع أنهم لا يخلقون ولا يرزقون»، ص ٢٢-٢٣.

ويتحدث الحبيب علي بن حسن العطاس كذلك باستطراد وصراحة عن زواجه، ويضمن نصه سرداً لحوادث تبين نوع العلاقة التي كانت بينه وبين كل منهن. فعن الأولى سلمى التي لا تدر بلبن، يكتب: «وتزوجت أنا ببلد حريضة قبل الخروج منها بالشريفة سلمى بنت محمد بن أحمد بن حسين العطاس، فولدت ابنتين؛ الأولى تسمى شيخة وقد توفيت، ثم الثانية فاطمة، وكانت ولادتها بفاطمة المذكورة في سنة ١١٤٥ هـ، ثم إنها [سلمى] كانت لا تدر بلبن لأولادها، فلبثت معي مدة حتى أزمنت بلد حريضة وحصل فيها الجذب الكثير، فقالت: عساك تسير بي إلى بلد كنيئة، بلد بالشق البحري قريب من حجر، وهي الجهة التي يقال لها ميفع.... ونرجع الآن إلى ذكر مسيرنا بالشريفة من حريضة إلى عند والدها السيد الصوفي ولي الله محمد بن أحمد، فأجبتها إلى ذلك، وسرت بها من حريضة قاصدين كنيئة المذكورة. فلما وصلنا بلد الخريبة أقمنا بها أياماً عند جدها شيخنا الوالد أحمد بن حسين بن عمر، فبينما نحن ذات غداة جلوس عنده في البيت الذي هو فيه ببلد الخريبة، إذ دخل علينا الشيخ حسن بن عبدالرحمن بن عبدالله باراس ويده ورقة، وكنت جالساً أنا وعبدالله بن سالم بن رضوان الحريضي، وهو قريب مني، فلما ناول الشيخ الوالد أحمد الورقة وفيها خبر موت، فإنه حصلت عندي منها وحشة، فلما قرأها أعطاني إياها فإذا فيها خبر وفاة السيد محمد بن أحمد المذكور، وذلك في حدود آخر سنة ١١٤٥ هـ»، ص ٦٨.

ثم يستطرده الحبيب علي بن العطاس في الحديث عن زواجه من شيخة بنت خاله سهل، التي حملت له بولد سُمع عطاسه وهو في بطن أمه، ومات بعد الولادة مباشرة، وقد سرد ذلك قائلاً: «ثم إني تزوجت ببلد هينن بشيخة بنت خالي سهل بن أبي بكر ابن الشيخ شيبان بن أحمد بن سهل، وكانت من النساء الصالحات المباركات، أمي عمتها، فولدت لي ابناً مباركاً

سُمع منه العطاس وهو في بطنها، شهدت بذلك جماعة من النساء منهن الشريفة فاطمة بنت السيد محمد باصرة باعلوي، ومات بعد الولادة، واسمه الحسن بن علي. وقد كنت ليلة وضعته أمه بهين وأنا بحريضة، رأيت كأني في جامع بلد هين، وكأن الناس قد اجتمعوا للصلاة الجمعة، وكأن الرداء الذي على كتفي وهو ثوب ريحاني سقط من على كتفي، فأخذه رجل من الموتى ولم يرده لي، فلما كان اليوم الثاني جاءني الخبر بوجود الولد وموته. ثم حملت أيضًا وولدت لي منها البنت المباركة مريم، ولقد كنت أنا وإياها ليلة مقبلين من بلد حريضة فسقطنا من ظهر البعير وسقط الحمل علينا، وهي حامل بها لها نحو ستة أشهر، وقلنا يتلف الحمل الذي في بطنها، فلم يضره شيء، ووضعت بها لخمس بقين من شهر القعدة الحرام سنة ١١٤٩ هـ، فلما كان في بعض الليالي ونحن ببلد حريضة بعد ما رجعنا من هين، رأيت كأن الشيخ عامر بن شيبان أقبل عليّ وهي بيدي، وقبّل صدرها، ثم قال: أما هذه فما هي إلا شمس، فمن يومئذ لُقبَت شمس»، ص ٦٩.

أما زيجاته الثالثة والرابعة فقد ربطهما بقراره الهجرة إلى الهجرين والاستقرار بها، وأسهب كثيرًا في شرح أسبابهما، وكيفية حدوث الخطبة ثم الزواج نفسه، وقد بدأ ذلك على النحو الآتي: «اتفق أنا تواعدنا نحن ومحبا الشيخ محمد بن عمر بن عبدالله بن عفيف، وولد أخيه ولدنا عبدالله المتقدم ذكره قريبًا، إلى جربة عيون التي حوَّطها جدهما أحمد بن محمد العفيف، فتوافينا بها وأقمنا بها نحو ثلاثة أيام، فخرجنا ذات عشية إلى مكان مرتفع فوق المخرج الذي يفيض الماء منها، فجلسنا بالجانب القبلي تحت الجبل في مكان مرتفع، فقلت لمحمد بن عمر: إني أريد الزواج ببلدكم الهجرين. فقال: تريد شريفة؟ يعني من آل باعلوي أو غيرهم من سائر أهل البلد؟ فقلت له: إن اتفقت شريفة فهي أولى وأحق وأفضل، وإلا فمن سائر الناس، فقال إن بالبلد من السادة آل الكاف فلانة وفلانة، وذكر فاطمة بنت علوي بن محمد أم ابني محمد المقدم وهود الأكبر وشيخة التوائم، ثم ذكر علوية بنت علوي بن محمد أم ابني الحسن، فقلت له الرأي أنا نرد الكلام إلى أم عبدالله فاطمة بنت الشيخ وجيه كريمة الشيخ أبي بكر بن وجيه بن عبدالله بن عفيف، وكانت من ذوات العقل والدين، ومن المحبين الأودين، ولها فينا غاية المحبة والقربة والعقيدة، فأَي هاتين الشريفتين اختارتها لنا فهي إياها. ثم رجعتُ أنا إلى حريضة، ورجع محمد وعبدالله إلى الهجرين، فلم نلبث أيامًا حتى وصل كتاب منهما أن فاطمة عفيفة أم عبدالله اختارت علوية بنت علوي، وأنهما

خطباها لنا من أخيها شيخ بن علوي وأمها مريم بنت عبد الله بن مقيبيل باعلوي، وشرطاً رد الرأي إلى ابني عمها، وإن ابني عمها رغبوا فيها وإن الأمر متباعد، فاتفق أني وصلت إلى حورة فإذا بالسيد شيخ بن علوي المذكور، أخو الشريفة علوية وصل إليها في حاجة، فكلمته أنا، فقال: إن محمد بن عفيف تكلم لكم في الكريمة ولكن العيال، أعني ابني عمها طلبوها، ثم إنهم اختاروا الترك لها، فحينئذ ثبت الخبر بيني وبين السيد شيخ، ورجعت إلى حريضة، ثم نفذت إلى الهجرين، وقلت لمحمد بن عمر: كلم السادة في الزواج، بغيناه في هذه المدة القريبة. فقال محمد: هذا شيء لا يمكن من وجوه كثيرة؛ الأول إن الوقت وقت ضيق [شدة] عند الناس الجميع، قلت له: ليس الأمر إليك وإنما الأمر إلى الله، فإن أذن الله وقبل قبلوا السادة وثبت، وإن وردوا فيكون الرد منه لا منهم ولا منك، فقال: صواب. وكلمهم وأجابوا مع أني لا أجد إلا بعض الجهاز وبعضه أخذناه دين من بعض المحبين، وأما الطعام وغيره من مهمات الزواج التي لا يتفق بدونها فلا نملك من ذلك كثيراً ولا قليلاً، حتى قال محمد بن عمر هذا الزواج (دَحَسَ)، يعني يشق ويتعذر، فيسر الله سبحانه وتعالى المقاصد، وأكرم القاصد، وأكبت الحاسد، فدخلت على الشريفة المذكورة عند أهلها، وفي بيتهم، والثلث والمجلس بالنهار يكون في بيت الشيخ محمد بن عمر المذكور مع المعاونة الكاملة واحتمال الأثقال، لا سيما الماء والحطب، مع كثرة الدُّخال وأهل قيل وقال بغير نوال، فأكثر المعاونة في هذه المؤونة وكل مؤونة لنا منه ومن ابن عمه أبي بكر بن وجيه بن عبد الله بن عفيف، ومن الوالد المبارك النجيب الصوفي عبود بن عفيف بن عمر بن عبد الله بن عفيف»، ص ٩٠ - ٩٢.

ومن المعلوم أن ما يميّز السيرة الذاتية عن المذكرات هو أن الأولى تركز على الحياة الخاصة للمؤلف، بينما تتناول المذكرات مشاركة المؤلف في الحياة العامة. وما دام الحبيب علي العطاس قد ركز كثيراً في نص سيرته الذاتية على الأحداث المرتبطة بحياته الخاصة، فمن الطبيعي أن يتقلص فيها بشكل كبير الحديث عن الشأن العام. وفي نص (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) لا نتعرف على الأوضاع العامة في حضر موت في القرن الثاني عشر للهجرة إلا من خلال انعكاسها وأثرها في الحياة الخاصة للمؤلف، أو من خلال أسفاره أو احتكاكه العرضي ببعض الساسة.

وفي الحقيقة تظل قليلة المعلومات التي نجدها في سيرة الحبيب علي بن حسن العطاس عن الحالة الاقتصادية والأمنية في حضرموت في القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري). نكتشف، مثلاً، أن حضرموت كانت في منتصف ذلك القرن تمر بأيام جفاف وقحط ومجاعة واختلال أمني، وذلك حينما يذكر المؤلف أنه في إحدى رحلاته مرّ بالقرب من الهجرين، وأشار إليه رفاق السفر بالدخول إلى البلدة لكنه رد عليهم: «ما نستجري على المطلع عند أحد من الناس في هذا الضيق الشديد، فراجعوني في ذلك ولم يرجحوا ما رجحته من عدم طلوع البلد، فقلت لهم نتقدم إلى الجابية [البركة] ونسقي الراحلة، ويدور الرأي في طلوع البلد أو عدمه، فطابقوني على ذلك، فلما بلغنا الجابية وسقينا الماشية لقينا الذي مرادهم أنا نقصده عند الجابية، فصافحناه ولم يعزم علينا للطلوع للبلد، وعرفنا ضعف حاله، وبدا للجماعة صواب ما عرفه العبد وقاله، وبتنا تلك الليلة عند خادم غيل الجابية، ومعنا من الدقيق الذي كفى الجماعة، وبتنا في مشاورة من شأن السروح في مخافة الغيوار أو عدمه، فرجح بعضنا الإقامة وانتظار السعف [المرافقين]، إلى أن يحصل الخفير... من ذوي الرمح والبندق والجفير، ولا تمضي فيه العير إلا بالنفير الكثير، وذلك قبل وضع المشهد المشهود الشهير بنحو خمس عشرة سنة، فقال السيد أحمد وكان مازحاً: ماذا نخاف عليه إذا سرحنا؟ إن كان هذا الخرش الذي أردنا نبيعه ولا نفق [لم يُقبل]، من شدة الزمان [الجوع] فلا مبالاة إذا أخذوه اللسان [للصوص]، وأما الناقة فهي ناقتي ولا أكره إن لقينا جماعة من اللسان وذبحوها وأكلناها نحن وإياهم! فقلت لهم: لا بأس نسرح ونقرأ يس وراتب الحبيب عمر، فاجتمع رأينا على السروح»، ص ٦٤.

ونتعرف كذلك أن سكان دوعن وأعالي وادي حضرموت (علوى) كانوا في تلك الحقبة يعتمدون اعتماداً شبه كلي على مياه الأمطار بعكس سكان أسفل ووسط وادي حضرموت الذين يعتمدون على السناوة؛ وهي رفع المياه الجوفية من الآبار بالحبال والحيوانات، وذلك عندما ينقل لنا الحبيب علي العطاس هذا الحوار القصير مع أحمد بن عبدالرحمن العيدروس الذي سألته: «أما أهل تريم فإنهم ملازمون السناوة، قائلين إن أمطرت أو ما أمطرت سنينا، وأما أهل شبام ونواحيها [فيقولون] إن أمطرت وإلا سنينا، وأما أنتم أهل العلوى فإن أمطرت وإلا كيف تصنعون؟ فقلت: ونحن: إن أمطرت وإلا بكينا».

والمرة الوحيدة التي تظهر في هذه السيرة الذاتية شخصية سياسية مهمة، السلطان علي بن جعفر الكثيري، يربطها المؤلف بوصوله ذات ليلة إلى منزل عائلة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التي كان لديها مكتبة جُعِلت وقفًا، ويريد أن يستعير منها بعض المجلدات، وتبين لنا الحادثة بعضًا من عادات حضرموت في تلك الحقبة. وقد سردها المؤلف بطريقة شائقة على النحو الآتي: «فلما ضوينا [وصلنا مساءً] عندهم تمالوا في عشاءنا، فقال بعضهم: هذا شريف من آل فلان، وهو يستحق الإكرام فاذبحوا له رأسًا من الغنم الذي للزاوية، فقال له الكبير منهم: نحن ما نقدر كلما جاء شريف نذبح له رأس غنم، ولكن ما حصل كفى، فكان العشاء من الخمير والروبة. فلما كان وقت العشاء وصل إليهم كتاب من السلطان علي ابن السلطان جعفر أنه مصبِّح للغداء عندهم، ومعه الأمير وجملة من العسكر، فبات المشايخ طول الليل في حركة للاستعداد لهم... فما كان بأسرع ما قربوا الغداء من أعضاء الذبيحة قوام بحالها، والمغاضيف مثل السبول في تفالها [سفرة من سعف النخل]. فقلت للوالد سالم بن رضوان وكان معي: هذه كرامة الشيخ عبدالرحمن ابن الشيخ عمر صاحب الخزانة [المكتبة] لما أراد الكرامة لنا ساق لهم السلطان يسوقهم إليها. وحصل لنا من السلطان غاية التأدب والإكرام بحيث إنه بعد الغداء لما قالوا له المشايخ أنك تقوم إلى بيت الفلاني تظلي فيه؛ لأنه بيت فسيح وسيع رفيع، قال لهم: إن قام السيد قمنا، وإن قعد قعدنا، فقلت لهم: تقدموا وأنا آتيكم، فلما طلعت إليهم وجدتهم في فاضلة [غرفة الاستقبال] وعندهم جملة من الرشب [المداعات] يمزون بها التمباك، فجلست. فقال السلطان: مرادنا حضرة ذكر، قلنا له: لا بأس ولكن شلوا عنا هذه الرشب، فشلوها إلى مصلى في تلك الفاضلة، وجعل كل من أراد المميز [التدخين] من المشايخ وأصحاب السلطان دخل ذلك المصلى. وكان السلطان في ذلك الأوان له أخلاق حسان، وهو بضدها الآن، فسبحان من كل يوم هو في شأن، ومن لا يشغله شأن عن شأن، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن من الأكوان، ثم إن المشايخ قدموا العشاء عشية وهو كالغداء بالسوية»، ص ١٤٠ - ١٤٢.

ثانيًا: خطية السرد في سيرة الحبيب علي بن حسن العطاس الذاتية:

أ- سرد الولادة وعلامات النبوغ المبكر:

تُعد (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) آخر الكتب التي ألفها الحبيب علي بن حسن

العطار، وبما أنه سبق له أن مارس السرد بشكل واسع في كتبه السابقة لا سيما في (القرطاس في مناقب الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطار) و(المقصد إلى شواهد المشهد). فطريقة السرد التي وظفها في كتابة سيرته الذاتية تفصح عن قدرته الفائقة في استخدام مختلف تقنيات السرد التي نجدها في السير الذاتية الحديثة، بما فيها تلك التي تهدف إلى إثارة فضول القارئ. وبشكل عام نلاحظ أن مؤلف (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) يُخضع السرد في نصه لمنطق التسلسل الزمني، بدءاً من يوم الولادة، في سنة ١٢١ هـ، ثم مرحلتي الطفولة والصبا، ثم الرشد حتى المدة التي سبقت وفاته عام ١١٧٢ هـ. لكنه في كل مرحلة لا يسرد كل الأحداث التي عاشها، بل يختار تلك الأحداث التي يرى أنها تشكل المحطات الرئيسة في حياته، والتي يحاول من خلالها أن يفسر نجاحه، وما سبب له هذا النجاح من جذب للحساد والخصوم، وهجرات متواصلة. وفي الجزء الأخير من النص قام المؤلف بتكرير فصل لسرد عددٍ من الأحداث التي تبرز الأذى الذي تعرض له من خصومه وحساده وأضداده، وذلك ليدافع عن نفسه من التهم التي وجهوها له. وخصص فصلاً آخر للحديث عن حكايته المثيرة مع الكتب. واختتم كتابه بسرد بعض الأحداث التي تتجلى فيها علاقته المتميزة بكل من والدته، والحبيب أحمد بن زين الحبشي.

من المعلوم أن معظم نصوص السيرة الذاتية العربية القديمة تعطي اهتماماً كبيراً بالنسب، وعادة يستطرد مؤلفوها في الحديث عن أنسابهم، ويضمنون نصوصهم تراجم طويلة لأبائهم وأجدادهم وشيوخهم، وأصبح هذا التقليد مُتَّبِعاً في معظم السير الذاتية للمتصوفين. لكن بالنسبة للحبيب علي العطار فهو يكتفي، في (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) بإيراد شجرة النسب التي تصله بالرسول ﷺ، كما أنه لا يتوسع كثيراً في نص سيرته في الحديث عن مناقب أبيه وأقاربه، ربما لأنه قد كرس كتاباً سابقاً لذلك الغرض، ويحيلنا مرات عدة إليه؛ فهو يكتب في ص ٤٠: «وقد حررت ذلك كله في صدر كتابي المسمى (القرطاس في مناقب العطار) فليراجعها من أراد الوقوف عليها، ولا سيما في السلسلة في مناقب العطار المنظومة المصونة، والخزانة المختومة المخزونة، التي أودعتها آخر فصل في لباس الخرقه، وهو منقولة من الديوان المسمى (قلائد الحسان في فرائد اللسان)». أما والدته فقد كرس لسرد علاقته بها صفحات طويلة من نص سيرته الذاتية.

إضافة إلى ذلك لا يخفي الحبيب علي بن حسن العطاس تحفظه على المبالغة في الحديث عن الأنساب، إذ يكتب: «يُذم ذكر الأنساب المتفاخر بها إلا لمعرفة ما توجه إليها من الحديث «تعلموا من أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم»، وأما من قصد بذلك امتثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فلا أرى بذلك من بأس بل له فيه ممن سبقه الأساس»، ص ٣.

وبعد الإشارة الموجزة إلى نسبه يسرد المؤلف بالتفصيل اللحظات الأولى من حياته، ولا يكتفي بذكر يوم ولادته، ليلة الجمعة في شهر ربيع الآخر عام ١١٢١ هـ، بمدينة حريضة، بل يضيف: «وقالت لي الوالدة رحمها الله: إنك وجدت وقت أذان العشاء، فكان سقوط رأسك مع أول التكبير من الأذان»، ص ٩، ونلاحظ أنه عندما يواصل الحديث عن الأيام الأولى من ولادته يربطها بعدد من العلامات المبكرة لنبوغه، وأولها عدم قبوله الرضاعة خلال السبعة الأيام الأولى من ولادته، فيقول: «فأخبر بذلك جدي الوالد الحسين بن عمر، فقال: إن لهذا لشأن، وإن هذا الولد إما أن يموت صغيراً عاجلاً، وإما أن يسلم ويكون من الأولياء». وقالت له والدته رحمها الله: «ولما أردنا أن نحلق رأسك أول مرة كان ذلك يوم غير يوم الربوع من أيام الأسبوع، فقال جدك عبدالله بن حسين: خلوا حلقته اليوم، واحلقوا له بالربوع، لعل الله أن يجعله من العلماء، قالت ففعلنا ذلك ولازمنا الحلاقة لرأسك بالربوع». وقالت له الوالدة أيضاً: «ووقعت المراجعة بيننا وبين جدك عبدالله المذكور حين أردنا تسميتك، فقال: نسميه علياً، فقلت بل نسميه فلاناً، وذكرت اسماً آخر، وربما ذكرت له شيئاً من كلام النساء، كقولهن: (سمي علي واصبري)، فقال: علي ويحمل صميلين، فاتفق بعون الله حصول الصميلين المذكورين وهما: رعيان والمصهر». والصميل هو العصا التي يحملها الرجل لتدل على الوقار والعلم. وسنأتي على بعض الكرامات التي حصلت للمؤلف بفضل (رعيان) عند حديثنا عن الأحلام والكرامات في (سفينة البضائع وضمينة الضوائع).

ونلاحظ أن الحبيب علي بن حسن يركز على علامات النبوغ المبكر كذلك عند سرده لأحداث مرحلة الطفولة؛ مثلاً، يحكي لنا أنه عندما كان في نحو السادسة من عمره حضر حفل المولد في هينن، ويكتب: «فجلسنا في طرف المجلس عند الأولاد الصغار، وكان حضر ذلك المولد رجل معروف بالولاية، ظاهر النسك والعبادة، يقال له عوض بن عبدالله حيسي، من آل زبيد أهل هينن الذين يقال لهم آل علي بن سالم، فلما قاموا في المقام الذي يقومونه

في أثناء المولد، جعل الرجل يتواجد ويدور في الحلقة، ثم خرج من بين الحاضرين وأقبل عليّ من بين هؤلاء الصغار الحاضرين واحتملني على عاتقه ودخل بي وسط الحلقة، وجعل يدور بي على رأسه والطيب يفوح منه، وقد سقطت خودتي، ثم إنه سقط فتلقاني بعض الناس. وكان قبل ذلك لا يعرفني لصغر السن، فلما كان من الغد سأله بعض المحبين للسادة أهل البيت؛ وقال له: أتعرف من ذلك الولد الصغير الذي حملته ودرت به في المقام؟ فقال: لا أعرفه إلا أنني رأيته قطعة نور تتلألأ في ظلمة الليل من بين أولئك الصغار. فقال له السائل: ذاك علي بن حسن بن عبدالله بن حسين بن عمر العطاس. فقال: إن طال بك العمر فسترى له شأنًا عظيمًا ومقامًا فخيمًا، وسيبلغ مقام جده عمر بن عبدالرحمن العطاس. فله الحمد والنعمة، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾، ص ١٣.

ومن علامة النبوغ المبكر التي يذكرها المؤلف (حمرة عينه) التي لاحظتها جدّته وهو في الثالثة من العمر وربطتها بوفاة أبيه، ويروي ذلك نقلًا عن أمه، قائلاً: «وأخبرتني والدة فاطمة بنت أبي بكر... فلما رأْتُ جدتك عائشة ما فيك من حمرة العين، الدالة على الفحولة عند كل ذي قلب وعين، مدّت يدها إليك كالبكية على ابنها والدك الحسن، بأنها كوشفت بأنه سوف يمرض ويموت وتعيش أنت يتيماً، وهي تقول عين اليتيم حمراء»، ويضيف المؤلف «فائدة: الحمرة في العينين من علامات النجاة في الرجل، على قدر ما أقيم فيه من العمل الصالح، وهي أشهر علامات نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم»، ص ١٤ - ١٥.

وتُوفِّي والده فعلاً سنة ١١٢٤هـ، وهو لم يتجاوز الثالثة من العمر، وقد سرد لحظة احتضاره بألم وإيجاز على النحو الآتي: «ثم إن الوالد الحسن بن عبدالله بن حسين توفي وأنا صغير جداً، قبل سن التمييز والتدبير، بحيث إني ما عرفته المعرفة الحقيقية، ولا أتقن من حياته إلا يوم وفاته، فإنه لما حصلت عليه تعبّة الموت [الاحتضار] كرهت ذلك وحزنت عليه جداً، بحيث إني أجد ألم ذلك إلى الآن. وكنت مشفقاً من ذلك غاية الإشفاق حتى توفي رحمه الله، فلما توفي حصل اللطف من ذي اللطف الخفي، وزال ذلك الشاغل وكفي، وذلك في شهر رمضان المعظم وأظنه سنة ١١٢٤»، ص ١٠ - ١١.

ومن علامة النبوغ المبكر التي أولاها الحبيب علي بن حسن اهتماماً خاصاً في (سفينة البضائع وضميمة الضوائع) الذاكرة القوية، أي القدرة الفائقة على الحفظ التي تميّز بها منذ

الصغر، والتي يسميها هو: ملكة الحفظ. وتذكرنا تقنية تراسل الحواس التي تعمل بها ذاكرته، تلك الطريقة التي تحدث عنها الروائي الفرنسي مارسيل بروست، في روايته (البحث عن الزمن المفقود)، التي ألفها في مطلع القرن العشرين.

فمثل مارسيل بروست الذي يربط استعادته لذكريات الطفولة بطعم الكعكة المبللة في الشاي، التي كانت تقدمها له جدته عندما كان صغيراً، يؤكد الحبيب علي بن حسن أنه، هو أيضاً، كان يربط بين ذكرياته والطعم والصوت الرائحة، إذ يقول: «وكلما سمعت قصيدة حفظتها، أو صوتاً كذلك أو مأخذاً أو سماعاً أو مولداً أو أي صوت كان. وكنت أحفظ والحمد لله بالصوت وبالريح [الرائحة] وبالطعم، مثال ذلك إذا جرت قصة أو قرئ كتاب أو غير ذلك مع صوت أو رائحة معروفة أو طعم، ثم أعيد ذلك الصوت أو تلك الرائحة أو ذلك الطعم مثلاً بعد عشر سنين، أتذكر ما قيل فيه وما قرئ معه»، ص ٢٣.

ولا شك في أن تلك الذاكرة الخارقة قد ساعدته على تضمين نص سيرته الذاتية كثيراً من ذكريات الطفولة بأدق تفاصيلها، ولن نبالغ إن نحن قلنا إن ملكة الحفظ تلك كانت حقاً: (ضمنية الضوائع). وحامداً لله على تلك النعمة كتب المؤلف: «من نعم الله عليّ أن آتاني ملكة الحفظ من فيض فضل المفضل المفيض، فكنت أحفظ بحمد الله ما لا أقدر على وصفه ولا وصف نصفه ولا نصف النصف، وأذكر كل ما حفظته وزمن الحفظ ذكراً واضحاً لا شك فيه، وكلما نظرته عقلته وعلمته ثم حفظته وإلى الآن، فسبحان خالق الإفهام والحوافظ والأذهان. وحين دخلت العلمة [الكتاب] وأخذت في قراءة القرآن العظيم، فكل من رأيت عليه أثر النجاة في القراءة تمنيت بلوغ مرتبته، وقلت متى أكون مثل هذا».

وقد وظّف الحبيب علي بن حسن، الذي كان كثير القراءة وواسع الاطلاع، ملكة الحفظ تلك في اكتشاف بعض السرقات في المصنفات الأدبية أو الفقهية التي كان يقرأها، فهو مثلاً يكتب: «ومنها أني كنت بحمد الله إذا قرأت الكتاب يبقى ما فيه في بالي ولو بعد مدة، نثرًا كان أو نظماً، وإذا قرأ القاري عليّ مثلاً في كتاب، وفصل القراءة مدة عشر سنين ثم جاء يقرأ ثانياً، قلت له وقفت في الفصل الفلاني والسطر الفلاني، وآخر قراءة لك في منزل كذا وبحضور فلان وفي ساعة كذا، وكنت إذا طبقت الكتاب وأردت نكشه [تصفحه] ثانياً أقول للذي يفتح الكتاب، إن الكلام المطلوب في صفحة نمور الفلاني. وكنت إذا قرأت في الكتاب الرفيع

[دقيق الخط] تتكون في نظري حروف كتابته كأنها العيدان الجليلة، بحيث إني أراها من بعد، وكنت إذا قرأت مثلاً كتاباً ثم قرأت كتاباً آخر قد نقل صاحبه، أعلم من أين نقل وأدري بما عزاه، وما لم يعز ما نقله منه إلى مصنفه، وأرى بعضهم والعياذ بالله قد ينقل باباً أو فصلاً أو مسألة مثلاً بجوابها من بعض المصنفات ولا يعزوها إلى مصنفها، وهذه هي السرقة، ورأيت الكثير من ذلك في مصنفات الشيخ دعسين الأموي لا سيما شرح الملح له، وشرح القصيدة التي للبوصيري التي يقول في أولها: إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن على كل ما قدمت مسئول. فإنه نقل في الكتابين من (مغني اللبيب عن كتب الأعراب)، للشيخ الحبر الإمام عبدالله بن يوسف بن عبدالله الأنصاري، بغير عزو [فصولاً كاملة] شرحها يطول، حتى سمعت أن مولانا الحبيب عبدالله بن علوي الحداد، لما قرئ عنده كتاب (الزواج عن اقتراح الكبائر)، وسمعه ينقل مثل هذا بغير عزو لأهله قال: «شف شف شف»، بنهر وإنكار لقلّة العزو، وكنت إذا سمعت بذكر الحفاظ من السلف، وعلمت ما من الله به عليهم، أقول الحمد لله الذي قال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، ص ١٥٧.

كما يتحدث الحبيب علي بن حسن العطاس عن قدرته الفائقة على حفظ الشعر وهو ما يزال صبيّاً، وحتى قبل أن يكمل حفظ القرآن، ويروي أن جده حينما اكتشف ذلك قال له: «احفظ القرآن والعلم واترك الشعر في هذا الوقت، وعائدتك لك [أي بإمكانك العودة للشعر]»، ص ٣٠، ويضيف: «وقبل ذلك، كنت إذا سمعت القصيدة مرة أو مرتين حفظتها في الغالب، فحفظت من ذلك جملة لابن علي المذكور وغيره مما كنت أسمعته عنده من المسمعين والحدادة والناشدين، رجالاً ونساءً. وكان بأي آلة كان، ومن أي من يحضر عنده، أكان من الرجال أو من النساء أو الولدان»، ص ٣٠.

ويعكف الحبيب علي بن حسن على حفظ القرآن ويكمّله بسرعة، يكتب: «ويسّر الله الكريم لي حفظ القرآن العظيم مع تفاسيره الحديث والقديم. فلما حفظت القرآن أثنائي وعد شيخني بالشعر، فكان نظمه عندي أهون من شرب الماء البارد في الهجور»، ص ٣٢.

وعلى الرغم من امتلاكه لتلك الذاكرة القوية، فإننا نلاحظ من خلال قراءتنا لسيرة الحبيب علي بن حسن، أنه حينما بات يمتلك مشروعاً واضحاً في التأليف شعراً ونثراً، حرص على أن

يكون معه في مقامه وترحاله شخص يقوم بتدوين ما يمليه عليه وكمية من الورق. نتبين ذلك خلال زيارته، سنة ١١٥٠ هـ، للشيخ عيدروس بن سالم بن عمر الحامد في عينات، الذي قام لي جلب ورقاً وناسخاً لتدوين إحدى قصائد الحبيب علي بن حسن، الذي قال له: «الناسخ معنا وهو كاتبنا الولد أحمد بن سعيد بادكوك، والبياض معنا»، ص ٣٣.

ب- سرد التكوين العلمي:

وبعد عرض علامات النبوغ، يشرع الحبيب علي بن حسن العطاس في سرد بعض الأحداث المهمة التي وقعت له عندما انتقل إلى بيت جده عبد الله هو وأمه وإخوانه وأخواته بعد وفاة أبيه. وقد استطرد بشكل خاص في الحديث عن ارتياده بعض الكتابات (العُلم) في حريضة عند الشيخ سالم بن علي باعتر، وفي هينن عند الشيخ عمر باحوّاقه. وعلى الرغم من الذاكرة القوية التي يمتلكها فقد تحدث عن المصاعب التي واجهته حينما أراد حفظ القرآن في تلك الكتابات، وأكد أنه لم يتمكن من القراءة بيسر في المصحف الشريف إلا في بيت جده عبد الله بن حسين. وتذكرنا الطريقة التي يصف بها صعوبة حفظه للقرآن في (العُلم) الطريقة التي استخدمها طه حسين، في كتابه (الأيام) حينما وصف ما لقيه من صعاب مشابهة عندما كان أبوه يرسله لحفظ القرآن في الكتابات.

وقد تحدث الحبيب علي بن حسن عن تجربته الأولى مع المعلمين قائلاً: «كنا نجد الأمر منهم لنا غاية الاشتغال، ونفرح بغياب المعلم وعدم وجوده وغفلة الأهل، وربما تعمدنا التخلف واستسهلنا أمر الضرب لخفتهم وثقل المجيء والمراح من عُلْمة إلى عُلْمة، وذلك من غير أن نحصل شيئاً مدة، ثم جاء الفتح في ذلك؛ فبينما أنا جالس في دار سيدي الوالد عبد الله رحمه الله أنظر في مصحف من غير معرفة للاستخراج للكتاب [قراءة الكتاب] فإذا أنا أعرف وأقرأ الكتاب، فقرأت فيه تلك السورة وهي: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَيُلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾»، ص ١٢.

ويذكر الحبيب علي بن حسن أنه خلال مدة إقامته في بيت جده عبد الله كان عليه أن يبدأ يومه بممارسة بعض الأعمال العضلية في المراعي والحقول، ويؤكد أن أعمال الزراعة والرعي مرتته على الرياضة والعزيمة والصبر على شظف العيش، والقدرة على تحمل متاعب الأسفار والتنقل في طرق جبلية وعرة، وفي ظل ظروف معيشية صعبة، ووسائل مواصلات

بدائية، وقد سرد ذلك قائلاً: «وحين قدرت على الخدمة عند الوالد عبد الله بن حسين بن عمر، استخدمني في الخلا [الحقول] والرعي أول النهار، وإذا طلعت البلد خرجت مع الأخدام إلى البئر ننزح الماء للبيت وللمواشي، وهي بئر شطون [عميقة] تقارب الخمس والخمسين أو الستين قامة، وكل واحد من أهل البلد معه زانة [حبال رفع المياه من البئر] وذلك لأنه لا يمكن تحسب الآبار، وهذا من شدة الوقت وطول السنين والقحط الشديد. فكنت أكابد هذه الرياضة طول النهار مع العري الذي لا يكاد يحصل لي معه إلا الثوب الواحد الذي هو الإزار، وإذا أردت حضور الدرس بعد صلاة العصر عند الوالد حسين استعرت مسدرة [قميص] من بعض الصغار حتى أخرج. ثم بعد المدرس نخرج إلى الخلا بالغنم وللخطة [تلقيح النخل] وللحطب».

ثم يعود الحبيب علي بن حسن العطاس إلى استكمال سرد تكوينه العلمي، وتحديدًا الجانبيين الفقهي والصوفي، وذلك برعاية جده وشيخه [جد أبيه] حسين بن عمر العطاس، الذي شجعه على قراءة أمهات كتب الفقه والتصوف المتداولة في تلك الفترة، على الرغم من أنه لم يبلغ حينها الرابعة عشرة من العمر. ويؤكد الحبيب علي أن ذلك قد سبب بروز عددٍ من الحُساد الذين حاولوا ثني جده من الاستمرار في تدريسه مبادئ التصوف، وقد شرح ذلك قائلاً: «وقد كنت لما ختمت القرآن العظيم على المعالمة المذكورين رحمهم الله تعالى، كما تقدم قريباً، أمرني الوالد حسين بالقراءة في العلم الشريف، والحمد لله الحمد لله الحمد لله، قرأت عليه (بداية الهداية)، للإمام حجة الإسلام الغزالي، و(الأذكار) للشيخ محيي الدين النووي، وكتاب (الفصول المهمة)، لابن الصباغ المالكي، وحصلت لنا بحمد الله بشارات جميلة، وإشارات جلية، ونفحات جزيلة، من سيدنا وشيخنا الوالد الحسين المذكور، نفع الله به، وذلك أنه لما أمرني بالقراءة في شيء من الكتب المذكورة، حصل من بعض الدرس الملائمين إنكار في ذلك، وقالوا إن علياً صبي صغير، ولا قد حله [حينما يأتي الأوان] يقرأ في الكتاب المذكور، وقالوا من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ظانين أن من قرأ في كتاب من كتب الصوفية فقد صار من جملة الصوفية، أو من قرأ في كتاب من كتب الفقه فقد صار من الفقهاء، وهيهات، إنما الصوفي من صفا باطنه من الغش والحقد والحسد وسيئ القول والعمل والنية والمعتقد، وإنما الفقيه العالم بأحكام الشرع، هو الذي يخشى الله ويتقيه، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰيِزُونَ ﴿٢٧﴾. واستمر منهم الإنكار ثلاثة أيام، وخشيت أنا أن يصدقهم شيخنا، فلما كان اليوم الرابع غضب عليهم غضباً شديداً، وقال لهم: هه هه هه، بماذا عرفتم أن علياً ما هو حله يقرأ في تلك الكتب، وتكلم بكلام فيه من الشاء على المملوك ما لا يمكن ذكره، فله الحمد والثناء، وقد كرهت كلام أولئك المنكرين أولاً لما ابتدأوا يتكلمون، ولكن لما حصل بسببه ما حصل من الشاء من شيخنا، حمدتهم، فجزاهم الله خيراً من حساد، لقد كانوا سبباً في حصول هذا الخير الجسيم، من هذا الإمام العظيم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أُنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾»، ص ٢٧.

ويروي المؤلف أن الصبي علي بن حسن لم يكتف بدراسة كتب الفقه والتصوف عند جده وشيخه حسين، الذي ربطته به علاقة روحية مميزة، بل إنه لم يتردد في أن يطلب منه تلبسه (الخرقة الصوفية) وهو في نحو الثالثة عشرة من العمر. وقد ضمن مؤلف (سفينة البضائع وضمنية الضوائع) وصفاً حياً لطقوس تلبس الخرقة الصوفية في تلك الحقبة في حضر موت، وقد سردها على النحو الآتي: «ثم بحمد الله حصلت الإشارة من شيخنا الحسين المذكور على لسان بعض المحبين له ولنا، المنسوبين إليه، إن طلبت تلقين التوحيد وتمكين عصبة الحبل المتين السديد الشديد، فقال لي ذلك الإنسان جزاه الله خير الجزاء من الإحسان: اطلب من حبيبك حسين تلقين الذكر ولباس الخرقة الصوفية، ففرحت بكلام ذلك الإنسان توفيقاً ولطفاً من قديم الإحسان وعظيم الامتنان، وقلت لشيخنا: أريد منك تلقين الذكر ولباس الخرقة أو كما قلت، فقال أتقدر أن تصوم ثلاثة أيام؟ فقلت: نعم. فأمرني بصيام ثلاثة أيام فصمتها وذلك في أيام الصبا وسني ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة، وهي أيام زمان عنيد وقحط شديد في بلد حريضة خاصة، وكان فطوري من عنده تمرّاً من تمر (حَجَر)، لأن التمر لا يوجد في تلك السنة المُجْدِبَة، فكنْتُ إذا كان آخر العشيّة آتي إلى عنده فأجده قد خبأ لي الفطور تحت مُصَلَّاهُ [...] فلما عبرت تلك الثلاثة الأيام وجئت إليه بأمره في اليوم الرابع وقت صلاة الضحى قبل أن يصلّيها، أمرني أن أغتسل وأنوي به غسل التوبة، وقال صلّ بعده ركعتين وانوها ركعتي التوبة. ففعلت ما أمر به في مصلى البيت الشرقي من بيوت داره بحريضة، ثم جئته وهو في بيته النجدي، فوجدته حين فرغ من صلاة الضحى، وجلس متربّعاً ووجهه إلَيَّ وأنا مستقبل القبلة، وتحتة الجودري [الفراش] المذكور أولاً، فوضع يده على

رأسي ولقنني كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وعلمني النفي والإثبات، وقال لي قلبك ها هنا في شقك الأيسر فإذا نفيت بلا إله فالتفت إلى شقك الأيمن وإذا أثبت بالله فالتفت إلى شقك الأيسر الذي فيه قلبك، ووضع إصبعه الشاهدة على قلبي، فالحمد لله والشكر لربي وأبي، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وألبسني طاقيته ثم أخذ مني الطاقية التي على رأسي فوضعها على رأسه، وقال أنت منّا وإلينا أو قال منّا وفينا وهذا إلا زيادة، فله الحمد الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وهذا مع صغر السن مني إنما هو بجاذب العناية السابقة من الله تعالى على يد كبير أهلي»، ص ٣٧-٣٩.

ج- سرد الدفاع عن النفس:

لقد أشار الحبيب علي بن حسن العطاس إلى أن علاقته المتميزة بجده وشيخه حسين بن عمر العطاس كانت سبباً في تكالب الحساد عليه، لا سيما من بين أقاربه وزملاء الدراسة. لذلك لن نستغرب أن يضطر، بعد وفاة جده إلى مغادرة مسقط رأسه حريضة إلى الهجرين، ومنها إلى بضة ثم إلى الغيوار. وسبق أن ذكرنا أن من أهم الأسباب التي دفعت الحبيب علي بن حسن العطاس إلى كتابة سيرته الذاتية الرغبة في الدفاع عن نفسه من كيد الحساد والأضداد الذين حاولوا تشويه سمعته وأجبروه على ترك مسقط رأسه: حريضة. ولا خير أن نكرر هنا ما صرح به في بداية نصه، حينما كتب: «وسأذكر في هذه الترجمة بعضاً مما حصل لنا من الأذى والعنا ليتأسى ويتعزى من وقع له شيء من ذلك [الذي وقع] لنا، كما تعزينا وتأسينا بالسلف الصالح من أهلنا قبلنا مما وقع لهم من أضدادهم، وقلنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾»، ص ٤٢.

ومن اللافت حقاً أن الحبيب علي بن حسن العطاس، حينما يدافع عن نفسه، لا يشعر بأي حرج في وصف معاناته والأفعال السيئة التي مارسها ضده كثير من الناس، بمن فيهم أقرباؤه وتلاميذه ومريدوه، بل إنه قد كرّس، لهذا الغرض، فصلاً كاملاً من سيرته الذاتية، يقول في مفتتحه: «فصل فيه تعزية وتسلية وتولية وتقوية لمن ابتلي بعقوق أصحابه وأولاده وجحdan الحقوق من أضداده وحساده ونسيان الجميل وإظهار القبيح من جيرانه وأهل بلاده. اللهم

يا من أظهر الجميل وستر القبيح، إنا نعوذ بك ممن يستر الجميل ويظهر القبيح». وبالفعل، يأخذ دفاع الحبيب علي بن حسن العطاس عن نفسه، في أحد أهم أبعاده، شكل فُضَح سلوك أعدائه من خلال عرضه بالتفصيل، وذلك بغرض إقناع القارئ بسوء تصرفهم وتبيان ظلمهم له، وتبرير رد فعله تجاههم.

ومن الواضح أن الحبيب علي بن حسن قد ركّز فعلاً على فضح المنافقين والمتلونين من حساده، لكننا نسارع ونؤكد أن ردود فعله تجاه سلوك أصداده لم تكن أبداً عنيفة أو متهورة، بل إنها كانت دائماً هادئة ومهذبة ومتسامحة. فهو يمتنع عادة عن الإساءة الفعلية لمن ارتكب جرماً في حقه. وفي الغالب ينحصر رد فعله تجاه من يُسيء إليه في فضح تلك الإساءة وسردها في ثنايا سيرته الذاتية. كما أنه حرص على عدم ذكر مرتكب تلك الإساءة إلا فيما ندر.

فهو يذكر، مثلاً، أن هناك عدداً كبيراً من أعدائه من سكان حريضة والهجرين وغيرهم كانوا قد أخذوا عنه القراءة في كثير من الكتب ثم انقلبوا عليه. «منهم رجل خطيب في مسجد الجامع متوسم ظاهره بالخير والعبادة، وقد قرأ عندنا كتاب (بداية الهداية) وغيره. و[مع] انتسابه إلى النبي ﷺ وتظاهره بأعمال الخير وإمامة الجامع والخطبة صار من أكثر الحاسدين وأنكر الجاحدين وأكبر المعاندين لنا على أمور الدنيا والدين؛ فابتدأ أولاً بالمهاجرة والمناكرة والمقاطعة والمدبرة، حتى إنه يوماً، لما أبصر بعض أصحابي قد وضع كراسية في طبق جلد دويل وجده خلي من الأوراق لا يُحتاج إليه إنما هو منبوذ في المسجد، وكان يقرأ فيه عندنا في المسجد أيضاً، فلما رآه قال على سبيل التنقيص والمناكرة والمجادلة بالباطل: ما لكم أخذتم أطباق المسجد وهي موقوفة؟ لا يصح لكم أخذها. فهممت بجوابه لقوله: إنما هي موقوفة على المسجد ونحن نقرأ فيه. ثم بدا لي ترك جوابه فتركته حتى قام بغير جواب مني»، ص ١١٥.

وتتجلى طريقة الحبيب علي بن حسن المتسامحة تجاه الحساد والحاquدين في تعامله مع جارة له اهتمته بالشعوذة حينما كان يقيم في الهجرين، وقد سرد الحادثة على النحو الآتي: «وكذلك كانت لنا جارة من أهل الهجرين، وكانت تكثر الأذى لنا، وربما رأت كثرة الناس إلينا من كل محل فتقول: إنما سبب هذا لأن السيد صاحب أسماء وطلاسم وعطوف وصروف، فلما بلغنا قولها السوء قلنا: لو كنا نجيب على مثل هذا القول لقلنا لها: لو كنا

نتعاطى شيئاً مما ذكرته من هذه الأشياء لفعلناها لك ولأمثالك من أعدائنا الساعين في دائنا وإيذائنا، وإنك جار الدار ونحن أحوج أن نفعله لإطفاء ما فيك من تلك النار وإبراد حرّك وشر كلماتك التي هي أشر من الشرار، لو كنا نفعله لكنا نفعله لك مكافأة لشرّك لأنك من جيران السوء الموعود بهم كل مؤمن في حديث: «ما كان مؤمن ولا يكون إلى يوم القيامة إلا وله جار يؤذيه»، ص ١١٨.

ويستطرد الحبيب علي بن حسن كذلك في الحديث عن أحد جيرانه الحساد الحاقدين المنافقين من بلدة الهجرين، قائلاً عنه: «ومن جملة ما من الله عليّ في بلد الهجرين أنه جعل أهل البيوت المحيطة ببיתי من أشد الناس عداوة لي، حتى أن بعضهم كان في الظاهر -والله المطلع على السرائر- كان من المنسويين إلى الخير، حتى إنك إذا رأيته قلت هذا من الذين سيماهم في وجوههم من أثر السجود ومن حملة القرآن ومن قوام المساجد، ومن الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ومن ضعفاء المسلمين العميان المنورين، ومن المعلمين الذين هم أخيار العالمين، ولكنه لما كان من جيرانك كنت أرى منه غاية القبض والحقد الذي هو منع الود الذي هو الدليل على البغض»، ص ١٢٢.

وبعد أن يروي الحبيب علي كيف أن هذا الرجل الحاقد قد غضب عندما رآه يُبعد حجراً من وسط الطريق، وأرسل إليه كتاباً يتهمه فيه «بالتصرف في بعض ألفاظ خطب المسجد»، يذكر أنه قد اضطر، هذه المرة، إلى الاستنجد بأجداده للدفاع عن نفسه والانتقام من ذلك الرجل، ويقول: «ولما كانت الليلة الثانية من وصول كتابه إلينا رأيت [في المنام] كأن مسجد الجامع مليء من سلفنا آل باعلوي وفيهم شيخنا الوالد الحسين والوالد محسن بن حسين، وكأني بينهما أقول لهما: هذه نسخة الخطبة فانظروا فإن وجدتم فيها شيئاً مما ذكره فاللوم عندي، وإلا فخذوا لي بثأري منه. فاتفق بعد ذلك أن هذا الرجل الجافي سار إلى حضرموت [ما يزال كثير من أبناء وادي دوعن والساحل يخصصون اسم حضرموت على وادي حضرموت] في نزاع بينه وبين قرابته، فلما بلغ بلد سيئون اصطاب [أصيب] مركوبه وذبحه، ثم قالوا لنا بعد ذلك إنه بعد ذلك سار إلى تريم للزيارة، فقلنا حاش الله إنه يحصل له قبول وهو يؤذينا ويتجرأ علينا، فلما رجع أصابته غدة كغدة البكر ومات، وسار واحد من الذين كلفوه أن يكتب لنا

ذلك الكتاب إلى مكة -وهو قد قرأ علينا في كتاب (منهاج الطالبين للنووي)- واستخلف من الكل واستحل من الكل إلا نحن، فلما توسط البحر غرقت السفينة التي هو فيها، فغرق مع من غرق من أهلها. لا حول ولا قوة إلا بالله»، ص ١٢٣.

وبيّن لنا الحبيب علي بن حسن العطاس، من خلال سرده لتفاصيل علاقته بأخيه من الرضاة أحمد عوض بن سلمة، كيف أن أعداءه يسعون إلى الإساءة له، أحياناً بطريقة مباشرة، وفي بعض الأحيان من خلال إيذاء من حوله من مريدين وتابعين، فهو يكتب: «بعد مسير [السيد ياسين] يوم أو يومين إذ بأحمد بن سلمة قد أقبل إلينا وقال: إني أريد التوبة والانقطاع إلى الله عندكم، وأريد أن أحلق الوفرة. وكانت عليه وفرة وشفرة، وكان قبل ذلك يقرأ القرآن، ويأتي إلى عندنا في بعض الأحيان، لأنه قد حصل له رضاع من والدتنا في حال كونها ترضعني، فلما كبر بقي ذلك الاتصال حاصل معه، فكان آخر ذلك لو دام، ولا حول وقوة إلا بالله، فأمرته عند ذلك أن يحلق الوفرة وألبسته كوفية، ولأزم مجلسنا من ذلك الوقت، ولم يفارقنا إلا لضرورة. فلما رآه والده أقبل علينا وانقطع إلينا وقع منه ما يقع من مثله من البشر الجاهل، وحصل منه كراهية لذلك، وساعده علينا بعض الشناة لنا، وقالوا: ما يصنع ابنك عند هذا السيد؟ يقطعه من حوائجه، ثم لا ينفعه بعد ذلك آخر الوقت ولا يغني عنه شيئاً، فكبروا عنده ذلك، فكبر علينا منه الأذى، فقلنا له: ما معنا عون عليك ولا على الذين تكلموا علينا إلا حسين بن عمر، فعند ذلك حصل له مثل الأدب، وسكون. ثم إنه لازمنا في أول الأمر ملازمة حسنة، بصدق ومحبة صافية أكيدة لله وفي الله، بحيث إنا لا نشك في إنا لو قلنا له نريد نبيك في السوق لم يراجع. وكان أول أمره من أهل الفضل والصلاح والأوصاف الجميلة الملاح، يواسينا بنفسه وماله، وله جد واجتهاد في العبادة، واستخلفناه في إمامة المسجد الجامع لما هاجرنا من بلدنا حريضة إلى بلد الهجرين الآتي ذكر هجرتنا إليها، فقام أول مرة أتم القيام مع تعليم القرآن للصغار من السادة وغيرهم لله تعالى من غير مكافأة منهم، بل وصل الأذى إليه من آبائهم، ثم إنه آخر الوقت لما أشرقت أنواره وذاعت بالخير أخباره تزامروا عليه وأخرجوه من إمامة المسجد حسداً لنا وبعيًّا علينا، وعدواناً وظلماً من غير موجب، وما ذاك في الحقيقة إلا [أذى] لنا وليس له، ولقد كابد أسلافنا من مثل هؤلاء أعظم مما كابدناه نحن من بن سلمة ومن غيره، فلنا بهم أسوة وفيهم قدوة، إنها سنة الله التي خلت في عباده. ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ثم إنه والعياذ بالله في آخر أمره ظهر منه الارتداد، وترك الامتثال وخلع ربقة الوداد،

ودخل في زمرة الحساد، وغمرة أهل العناد، وذلك مكتوب في سابق علم الله المقدر ما يشاء على عباده من إشقاء وإسعاد، أو تقرب وإبعاد، فأدبر عنا وترك الإقبال علينا. ثم إنهم بعد ذلك أحبوه وأرجعوه إلى وظيفة المسجد لما تحققوا من تركه لنا وتركنا له. ثم كان آخر أمرهم معه أن أخرجوه وزوّلوه [نفوه]. والعياذ بالله من أهل تالي الزمان، الذين لا خير فيهم ولا أمير لمن يستكفيهم الله. وهو السميع العليم»، ص ٥٦-٥٨.

ويتحدث الحبيب علي بن حسن في سيرته الذاتية عما تعرض له من استهزاء وسخرية ووجود وتشكيك في أثناء إقامته في حريضة، وذلك من قبل حساده وأعدائه الذين زعموا أن المطر انقطعت عنهم بسبب إقامته بينهم، وربطوا بين نزولها ورحيله منها إلى دوعن للاستسقاء عام ١١٥٢ هـ، فقال: «بلغني أن بعض الحساد قال وأنا بدوعن في تلك الزيارة قبل أن أرجع إليها [إلى الهجرين]: كرامة يوم راح السيد [يقصدون الحبيب علي بن حسن] من البلاد وقعت الرحمة لنا. كما قال فرعون لموسى [اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ]. فانظر رحمك الله إلى هذا الجفاء العظيم، واللؤم والعقوق، من هذا الآثم اللئيم، نحن في خيب وجهد واجتهاد بالدعاء والتوسل وترتيب قراءة الفاتحة للأنبياء والأولياء في جميع النواحي، صلوات الله عليهم، على الجمع والتعديد حتى من الله الكريم بالإجابة، وهؤلاء يقولون ما قالوا. قال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. وقال عز من قائل كريم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلُهم قَلِيلًا﴾»، ص ١٤٣ و ١٤٤.

ومن اللافت للانتباه أن الحبيب علي بن حسن يلجأ كثيراً للشعر ليعبر عن باطنه وآلامه ومعاناته، وكذلك ليدافع عن نفسه من حساده وأعدائه بطريقة هادئة. وقد اعترف هو بنفسه بذلك في نضه، وذلك في تقديمه لإحدى قصائده الشعبية التي ضمنها سيرته الذاتية، حيث كتب: «اعلم أن من جملة ما نقوي به جاش النفس ونسليها ونعزيها به إذا ورد علينا الأذى، الذي هو من المضرات والقذى، ننظم الأبيات والحكم المُسلّيات، حتى إن الحبيب عمر البار لما سمع قولِي المار في أول هذا المضممار، حيث أقول من الأشعار:

وخرجت من بلدي فراراً منهم
فوجدتهم خُلِقُوا بكل بلاد
قال قولك هذا ينسّم عليك، وقد صدق، فمن جملة ذلك قولي حين رأيت إدار وانفضاض
بعض من حولي مع الدين واللين المأمور به أفاضل النبيين....

بني مغراه قلبي وُحِلْ يا أهل المعاني
وصبري من شغوبي كمل والجسم ضاني
وفكري حار في وقتنا وقت الشواني
من صاحبتة وبالغت في وده جفاني
ومن شنت له كاس حلوا صرف هاني
جنا لي في الجزاء من حدج خس المجاني
ومن شيدت حصنه بيدي واللسان
هدم ما قد تقدم برجله من مباني
زمان العق فيه انبذل البرفاني
ولا تسهن كفى خير من رجل أو غواني
ولو عديت ذي باعدوا بعد التداني
وعادوا بعد ما دارسوني في المثاني
وطلبوا عندي العلم واستسقوا دناني
حسبت آلاف رجعوا لحُسّادي عواني
ولكن حسبي الله وتدبيره كفاني
إليه أرجع ومنه الفزع والكل فاني»

ص ١١٩ - ١٢٠.

وفي قصيدة أخرى تحدث عن علاقته بأقربائه وقال فيها:
«إن شاهدوا حسنه أرخوا دونها الأستار
وأن شاهدوا سيئة أبدوها على الحضار
وان شاهدوا نعمة أذكوا من حسدهم نار

دائم وحذف البلاء منهم إلى مشواي
ولا تجينا المصائب غير من قرباي».

د- سرد حكايته المثيرة مع الكتب: (إنما هي عَشَقَة وهوى ومحبة):

دأب معظم مؤلفي السير الذاتية في التراث العربي على تضمين نصوصهم عرضاً طويلاً لتناجهم العلمي، أي الكتب التي ألفوها، وأسباب تأليفها والتقريظات التي كُتبت فيها. والحبيب علي بن حسن كرس فصلاً كاملاً من (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) للكتب، لكنه لم يتحدث كثيراً فيه عن الكتب التي ألفها، بل سرد فيه حكايته المثيرة مع الكتب منذ نعومة أظافره، لعباً وقراءةً وعشقاً واستلافاً. فبعد أن ذكر أسماء الكتب التي ألفها، شرع في الحديث عن تعلقه منذ الطفولة بالكتب، وأولها القرآن الكريم، وكيف إنه كان يجعل لعبه على هيئة كتب، وكيف ينفق مصروفه اليومي لشراء بعض أوراق الكتب، وخاطب القارئ قائلاً: «اعلم أني كنت والحمد لله من أول النشوء مولعاً ذا نشوة بقراءة القرآن، وما والاه من المصاحف والكتب والمساجد والزوايا والخنوم والحضرات والموالد وجميع محامد الخيرات، فكنت بتوفيق الله تعالى ولطفه من حين ميّزت وعرفت أخب [أجري] دائماً، لقصدها أدبٌ، وعن أهلها أذب، وذلك لفرط الولاية، وشرط الحب، حتى أني ربما خرجت إلى الخلاء وأنا في سن نحو الخمس السنين فأخرج ورق العِشر الأصفر [العشر، بكسر العين وفتح الشين، نوع من النبات ينتشر في جنوب الجزيرة العربية، وله أوراق كبيرة وعصارة بيضاء تشبه اللبن لكنها مُرّة وحارّة وحارقة وتستخدم في دباغة الجلود]، وأشكّه [أرصه] في خيطين على هيئة تكعيب أوراق المصاحف والكتب حتى أني جمعت منه مثل غلظ المجلد الكبير الضخم وربما تصفحته متلذذاً بذلك على هيئة القارئ، وربما جعلته في إبطي مثل ما يفعل حملة المصاحف والكتب، وربما رأي بعض الناس وقد جعلته في إبطي ولبن العِشر يقطر من الورق فيصيب باطن بطني، فنهاني عن حمله ويقول إنه ربما جرح بدنك إذا فعلت ذلك»، ص ١٦٠.

ويروي المؤلف كيف أن تعلق الطفل علي بن حسن الشديد بالكتب جعله يفضل إنفاق مصروفه اليومي في شراء بعض أوراق الكتب التي كان رفاقه يسرقونها من كتب أهلهم، وذلك على النحو الآتي: «وكنت ربما إذا كان بيدي شيء من القوت [المصروف] جاني بعض

الصبيان بأوراق، وربما كان يسرقها ذلك الصبي من بعض مصاحف أهله فأشترىها منه بذلك القوت الذي معي، وربما أهله علموا وأتوا إلى أهلي يطلبونها فيجدونها وقد غيرتها بكل عطف ورقة أو ورقتين»، ص ١٦١.

وحينما كبر الحبيب علي بن حسن زاد تعلقه بالكتب، ولفت انتباه كل من حوله، ولم يتردد بعض الناس عن الإفصاح له عن استغرابه بسلوكه ذلك، وسرد الحادثة قائلاً: «فلما حصل بحمد الله تعالى لي الفتح في الطلب، واستقوى داعي الرغبة، كنت لا أشبع من مطالعة الكتب، ولا من المذاكرة في العلم، ولا من زيارة أهل الخير والتردد إليهم في أي مكان كانوا، وذلك مع شدة الاعتقاد وحسن الظن، حتى قال لي بعض الناس -وكان لا يأتي إلا ويجدني في قراءة أو مطالعة أو مراجعة أو تأليف أو مقابلة-: ما أصبرك على هذه الكتب! فقلت له: يا فلان ما هو صبر إنما هي عشقة وهوى ومحبة ونهم ومقه، ربما قلت: وفي الحديث منهومان لا يشبعان، طالب العلم، وطالب الدنيا»، ص ١٦١.

ويؤكد الحبيب علي بن حسن أنه لفرط تعلقه بالكتب وقراءتها، كان لا يسافر إلا ومعه كمية كبيرة منها يخصص لها جملاً أو جملين من رواجه، وكتب: «وكنت إذا سافرت إلى مكان، أي مكان، أستصحب معي منها [أي من الكتب] التي لا بد لي منها، إما الحمل وإما الحملين، دون ما أستغني عنه مما أتركه في البيت، حتى قالت لي الوالدة فاطمة بنت الشيخ أبي بكر بن شيبان رحمها الله تعالى: يا علي إذا جئت إلى عندنا، إلى بلد هينن، ومعك هذه الحمول من الكتب فأحسن أن تجعلها ظاهرة في أواعي رؤوسها مفتحة، لأن أهل البلد إذا شاهدوك وقد أقبلت بالحمول ربما ظنوا أنها من متاع الدنيا الذي لهم الرغبة فيه. فنضحك من ذلك، فكانت الوالدة تقول ذلك على سبيل المزح والمباسة»، ص ١٦١.

ومن الواضح أن الحبيب علي بن حسن كان قارئاً استثنائياً للكتب في عصره. وقد وصف اتساع قراءاته قائلاً: «وقد طالعت والحمد لله جملة من الكتب المصنفة، في فنون العلوم المؤلفة، مما لا يحصى ولا يستقصى». ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ربي زدني علماً. ولا تظن أنني عدت شيئاً مما يعد، ولا حددت بعض

البعض مما يحد، من نعم الله السوايح الجزيلة علينا وعلى الناس ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ على عاجل منها ولا آجل، ولكنني اختصرت واقتصرت في هذه الترجمة، على ما نظرت وسطرت من الفضائل والفواضل، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، ص ١٥٣.

وعلى الرغم من شهرة حضرموت بخزائن كتبها (مكتباتها) الكثيرة منذ تلك الحقبة، فإنها لم تستطع أن تلبى احتياجات هذا القارئ النهم الذي لم يخف معاناته وتذمره من شح الكتب في مدينته حريضة بشكل خاص. لهذا كان عليه أن يسعى لاستلافها أو مقايضتها من مختلف قرى حضرموت ومدنها، ساحلها وواديها. وقد كرس أكثر من عشرين صفحة من سيرته الذاتية (١٣٦ - ١٥٤) لسرد المصاعب الجمة التي لقيها عند سعيه للحصول على بعض المراجع الأدبية واللغوية والفقهية. ويؤكد أن الحسد وعدم تعاون أصحاب المكتبات، لا سيما في مدينة تريم المشهورة بعلمها ومكتباتها، لم يسهل حصوله على الكثير من الكتب. وبدأ حديثه عن تلك المعاناة قائلاً: «إني لما طلبت العلم حسبما حققته فيما تقدم، وكانت الجهة الكسرية والحضرمية والدوعنية، خصوصاً بلد حريضة ونواحيها قليلة وجود الكتب التي يحتاج الإنسان إليها في فنون العلم، وإن وجدت مع آحاد فغالبيتهم من الحساد الذين يضمنون ويمنعون الماعون، وخصوصاً أهل حضرموت [أهل الوادي]، وخصوصاً أهل تريم، ومن والاهم ومن جالسهم ومن والاهم من جهة أهل الكسر ودوعن»، ص ١٣٦.

ويسرد لنا الحبيب علي بن حسن كيف إنه اضطر في بعض الأحيان إلى البحث عن كتاب بعينه في مختلف قرى حضرموت ومدنها، ولم يعثر عليه إلا بالصدفة وبعد جهود مضنية. هذا ما حدث له مثلاً حينما حاول الحصول على نسخة من كتاب (طبقات الصوفية الكبرى) للشعراني، وقد حكى ذلك على النحو الآتي: «ومنها أي طلبت من بعض أهل العلم من أهل حضرموت المناصب، كتاب (طبقات الصوفية الكبرى) للشعراني، وهي عنده في جلدتين، فأنعم بها لي وتعلل بواحد من أجزائها [قائلاً إنها] عند إنسان، أعاره إياه، وأوعد بإرساله إلينا عند وصول الجزء المذكور، ثم ذاكرته بكتاب من حريضة إلى حضرموت [وادي حضرموت]، فأجاب بأننا قد نوينا إرساله إليكم وتراه يصلكم، فأرسلت له رسول معني، لأنني به معني، فاعتذر عنا، فلم نلبث إلا أياماً قليلة وتوفي صاحب الكتاب فجأة، فذكرت وارثه،

وأرسلت له كتاباً ونبهته على قوله في كتابه: قد نوينا إرساله إليكم، وقلت له: من حَقَّ إن ترسل إلينا الكتاب لتمام ما نواه والدك، فاعتذر علينا من إعاره الكتاب، فلما سرنا إلى الشحر في سنة ١١٦٣ هـ، اتفقنا بالحييب الحسين بن علوي بن جعفر مدهر... وسألناه عن (طبقات الشعراي الكبرى) المذكورة، فقال هي عندي في جلدتين، وهاكم إياها، فحين وقفنا عليها إذا هي طبقات المناوي، وهي أيضاً طلبنا وضالتنا الضاوي، فعبرنا فيها، وهي أجمع وأوسع من طبقات الشعراي، بسبب أنه متأخر بعده، وهو في العلم له مساوي، وترجمه فيها بأحسن التراجم والفتاوى. فلما كان بعد مدة سرنا إلى وادي عمد فاتفقنا بالحييب علوي بن عبدالله الكاف باعلوي، فسألناه عن (طبقات الشعراي) المذكورة، فقال هي عندي وهاكم إياها، فهي إلى الآن عندي في سنة ١١٦٩ هـ منذ سنة، فتقبل الله من أهل الفضل، وسامح أهل البخل، بمنه وكرمه، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة، ومعطي خيرى الدنيا والآخرة، إن أعطى فلا مانع، وإن منع فلا معطي»، ص ١٤٤.

ويضمّن الحبيب علي بن حسن الفصل المخصص بالكتب من سيرته وصفاً دقيقاً لطريقة تعامل الحضارم مع الكتب في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد). ويبيّن لنا أنهم عادة ما يحتفظون بها في صناديق يطلقون عليها (الخزائن)، وحينما يتوفى العالم الذي قام بجمعها يعينون لها ناظرًا ويوقفونها في الغالب للقراءة العامة. وهناك استثناءات كثيرة يقدم الحبيب علي بن حسن إحداها على النحو الآتي: «ومنها أي جئت إلى بعض الخزائن أستعير من أصحابها بعض الكتب، وهي أربع خزائن، وقد مات العلماء من أهلها وما بقي إلا أهل جهلها. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴿ فقلت لهم هاتوا كتاب الفلاني وكتاب الفلاني، إلى تسعة كتب، وهاكم تسعة مجلدات قباضة لكم حتى أرجع حقكم، فقالوا: قد منعنا فلان وفلان من أكابر السادة وأنت تكون كماهم، فقلت لهم: أما أنا فلا بأس، ولكن مثل هؤلاء الذين ذكرتم أنكم منعتم منهم ماعون الكتب المذكورة ما لقيتم خيراً في أنفسكم بمنعهم، وقد كنت في أول الطلب [طلب العلم] جئت إلى هذا المكان وعلى هذه الخزانة رجل قائم من الصالحين، وذلك في زمان جدي وشيخي ووالدي الحسين بن عمر، وكان هذا الرجل من أهل الخير وسلامة الصدور، وقد كان جدي عبدالله - بن حسين بن عمر العطاس - وصاني أن آتي له بكتاب [مشكاة المصابيح في شرح العدة والسلاح في أحكام النكاح]، مع صغر سني، قال لي: يا

ولدي ما لك حاجة بالنكاح، وعادك ما شبرمت [لم تصل سن البلوغ]، فقلت له إنه للوالد عبدالله، وعجبت من غاية غفلته مع كبر سنه ومنصبه، فأعطاني الكتاب»، ص ١٤٧.

ومن الواضح أيضًا أن الحبيب علي بن حسن قد دخل، في مرحلة تكوينه العلمي في حريضة، في منافسة للحصول على بعض المراجع المهمة مع أحد هواة الكتب الذي عُيِّن ناظرًا على إحدى مكتبات المدينة، والذي اكتفى بتسميته بالبخیل. وقد سرد معاملته مع ذلك البخیل على النحو الآتي: «ومنها أني جئت كذلك إلى بعض الخزائن الموقوفة بنظر بعض البخلاء المانعين الماعون، المصلين وهم لاهون، ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ١ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ»، فأعطاني الجزء الأول من كتاب (شرح صحيح مسلم) الذي فيه المقدمة العظيمة التي على كل علم من علوم الحديث مترجمة، فأخذت في قراءته حتى أتممتها، وطلبت الثاني منه فامتنع من إعارته، ثم جئته مرة ثانية وطلبت الجزء الأول من كتاب (القاموس المحيط في ما ذهب من كلام العرب الشماميط)، فأعطاني الجزء الأول منه وهو أربعة أجزاء بخط حسين مليح، وسرت من بلده إلى أخرى، فإذا به قد وصل خلفي وقال: هات الكتاب الذي أعرتك إياه، فإنه مما لا تسمح نفسي بمفارقته، فقلت له: إنه وقف آل فلان وأنا أعرفهم، إنهم غير ذلك الإنسان، فقال: لكنه بيدي وأنا أحق به من أهله ومن غيرهم، وكانت عنده جملة من الخزائن لأهل هذا الكتاب المذكور، ولغير أهله، هي وخزائن أخرى بنظره بحيث أن هناك عدد عدة شيء لا يحصى من الكتب الموقوفة والمملوكة لهم ولغيرهم، وأخذ الكتاب مني عدوانًا وظلمًا وحسدًا وبغيًا وشحًا وبخلًا بما لا يملكه وإنما هو مهلكه، فحينئذ قلت: اللهم سلط عليه من يأخذها منه كما أخذ هذا الكتاب هو مني، فقام عليه في الآن رجل صالح من أولاد أهل الخزائن، وأخذها خزا منه وهو غير زائن، فلم أدري إلا وهذا الرجل الصالح من الذين أخذوها منه قبل أن أعلم بذلك، يكتب لي أن أطلب ما شئت من هذه الكتب، وربما سمى لي بعضها مما لا أعلم باسمه. ومنها أني جئت إلى بعض الخزائن أطلب شيئًا من الكتب فلم أجدها؛ لأنها قد أخذها هذا الرجل البخیل المتقدم ذكره فلم يبق إلا جلد واحد وهو الذي عليه البار، وهوي كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)، المشار إليه في خطبته بقول مؤلفه: فهالك كتاب تشد الرحال فيما دونه، وتقف عنده فحول الرجال ولا يعدونه، فأخذته فإذا هو طلبتي، وفيه قضاء حاجتي، وهو عندي بحمد الله إلى الآن»، ص ١٤٤ - ١٤٥.

هـ- عناصر التشويق في سرد (سفينة البضائع):

ومن اللافت حقاً في سيرة الحبيب علي بن حسن العطاس أنها تحتوي على سرد مفصل لحوادث كان المؤلف شاهد عيان لها أو مشاركاً فيها، وذلك في مراحل مختلفة من عمره، ويبدو أن الهدف الرئيس من ذلك السرد ليس إبراز مناقب المشاركين في تلك الحوادث فقط، بل السعي الواضح إلى إضفاء شيء من التشويق على نص السيرة الذاتية، وشد انتباه القارئ وتشجيعه على مواصلة القراءة، وذلك بأسلوب لا يخلو من الحركة والحوار الحي، بل من الظرافة والفكاهة. فهو مثلاً يكتب:

«رجعنا إلى ذكر شيء من أحوال الوالدة والأحوال. مرة أخرى وأنا صغير في سن التمييز بحريضة، مررت في بعض الأزقة برجل شبيه وهو جالس وبه من الجوع ما لا يطيق على القيام معه، فقال لي: سلم على الوالدة وقل لها يقول فلان إن الناقة خبطته، إشارة إلى شدة الجوع، وهذه مقالة عند أهل الجهة الحضرمية يتداولونها كناية عن شدة الزمان، فلما طلعت إلى عند الوالدة وبلغتها كلامه قامت وملأت عتوة من التمر المليح وقالت: قم إلى عند الرجل وأعطه إياه، وقل له تقول لك الوالدة: اطرده الناقة بهذا. فخرجت في الحال، فوجدته لم يقم من مكانه، وأعطيته التمر ففرح به. وكان صنوها الشيخ سهل بن أبي بكر -وهو خالي- من الصلحاء الفضلاء العلماء الحلماء النبلاء الكملاء، صاحب معروف ومعرفة وطاعة وحسنات ومكارم أخلاق حسنة، فمن جملة ذلك أنه يواسي الضعفاء والمساكين، ويواصل المضطرين والمحتاجين، حتى إنه كان رجل يقال له عبدالله بن لهيغ من أهل بلد هين، قد كبر سنه ووهن عظمه فانطرح في سقيفة الجامع كالملقي الناجع، فكان الخال سهل المذكور ربما أرسلني إليه بالتمر، أنا والصنو صالح وهو أكبر سنًا مني، فوجدناه مرمي على ظهره، فقال: واحد منكم يرفدني وواحد يلقمني، فتعاوننا حتى أقعدناه، وكنت أنا الذي أرفده وأمسك ظهره مع شدة الثقل منه عليّ، وصالح يلقمه التمر المفحوس، فكان صالح ربما يصغر الصيم، فأسمع الشبية يقول: كبر كبر، يعني الصيم، فطعم المذكور حتى أكله جميعه، ثم تعاوننا على اضطجاعه كحالته الأولى. ومرة كنت ألعب مع الصبيان تحت بيت والدي وشيخي الوالد حسين بن عمر في بلد حريضة في ذلك السن، فجاءت عجوز يقال لها فاطمة وهّاسة، وكان شيخنا في ذلك اليوم قد ذبح ثورًا وقسمه على الضعفاء، فقالت لي العجوز:

خذ المحملة واطلع بها إلى عند أبيك الحسين، وقل له: تقول لك وهامة: هات قسمها من اللحم، وقل له إن العمر طال، وإني ضجرت من الحياة وأريد الموت، فادع لي به، وكانت من طول عمرها قد طلعت لها لحية، فكأنني أنظر إليها، وهو لحية لطيفة وشايية، فطلعت إليه وبلغته كلامها، فضحك منه، وأمرهم أن يعطوني لها اللحم، فخرجت به إليها. فرحم الله الجميع، ونفعنا بركات أعمالهم الصالحة، ونياتهم الحسنة الناصحة»، ص ٨.

وفي سياق حديثه عن الكتب وتحديداً عن كتاب (الأزرق في الطب)، يسرد المؤلف بشيء من الجرأة حادثة يقصد منها الفكاهة، وذلك حينما يكتب: «ومنها أنه بينما أقرأ في كتاب الأزرق المذكور إذ دخل علينا الشيخ الصوفي أحمد بن الشيخ علي باراس وقال: ما أرى لهذه الكتب المصنفة في الطب ونحوه شيئاً من الفائدة، والنفع والضر من الله. هذا معنى كلامه، ثم وصلنا بعد قوله هذا إلى دواء البحة في الصوت في الأزرق، وكانت به، فقال: انقل هذا لي، فنقلته له، وكذلك أنكر علينا في ذلك محمد بن أحمد بن حسين العطاس، وكان كبير الحال من الصوفية المجاذيب، فعارضني [التقى بي صدفة] مرة خارج من عند الوالد أحمد فقال كالمستخف: ما قرأت اليوم في الأزرق؟ فأردت أن أكيله بصاعه، فقلت له: قرأنا أدوية ما يقوي الذكر الضعيف للجماع. فقال: وتحفظ منها شيئاً الآن؟ فقلت: نعم. فقال: اكتبه لي فإني في طلب ذلك. فكتبته له، وقرأت عليه ما لا يحصيه إلا الله، وذلك في مدة نحو ثلاثة عشرة سنة صباحاً ومساءً، وما بين ذلك»، ص ١٥٥.

ثالثاً: واقعية السيرة الذاتية ودور الأحلام والكرامات في (سفينة البضائع):

من المعلوم أن السيرة الذاتية، مثل الرواية، تعتمد الشر والسرد الاستذكاري. ويكمن أهم اختلاف بين الرواية والسيرة الذاتية في أن الأولى تروي أحداثاً تظل ذات طبيعة خيالية مهما كانت درجة شبهها بالواقع، أما السيرة الذاتية فهي في الأصل، تروي حياة المؤلف كما عاشها في الواقع، وهذا يعني أنها تروي أحداثاً واقعية. وقد أكد فيليب لوجون في تعريفه للسيرة الذاتية على أنها «سرد نثري استذكاري يحكيه شخصٌ واقعيٌّ عن وجوده الخاص، عندما يركز على حياته الفردية وخصوصاً على تاريخ شخصيته». ومع تسليمنا المطلق بأن (سفينة البضائع وضميمة الضوائع) تعد نصاً يحتوي على جميع المعايير اللازمة لتصنيفه ضمن مدونة السيرة الذاتية العربية القديمة، علينا أن نساو ونؤكد أن هذه السيرة الذاتية

تتضمن سردًا لحشد كبير من الأحلام والكرامات التي قد تتجاوز بطبيعتها الواقع من وجهة نظر بعض النقاد. وفي رأينا أن (سفينة البضائع) تقترب، في بعض الأحيان، من السير الذاتية لبعض أعلام التصوف الإسلامي، مثل الحكيم الترمذي، وأبي شامة المقدسي، وجلال الدين السيوطي، الذين أعطوا دورًا كبيرًا للأحلام والكرامات في نصوصهم، إلى درجة أنه قد يصعب في بعض الأحيان رسم الحد الفاصل بين الواقعي وغير الواقعي في تلك النصوص السير - ذاتية.

ومن المعلوم أن الحبيب علي بن حسن العطاس قد حرص على لبس الخرق الصوفية وهو في الرابعة عشرة من عمره، وذلك على الرغم من أنه لم يكن مطلقًا يميل إلى العزلة، بل كان رجل عمل، ولا يؤمن إلا بالعمل والعلم المرتبط بالعمل، وقد أكد ذلك في مطلع الفصل الذي كرسه للكتب، إذ قال: «عَلَّمَكَ اللهُ وَإِيَّانَا مَا جَهِلْنَا، وَوَفَّقَكَ وَإِيَّانَا لِلْعَمَلِ بِمَا عَلَّمَانَا، وَرَزَقَنَا وَإِيَّاكَ لِلْإِخْلَاصِ فِيمَا تَعَبَدْنَا، وَمَنْ عَلَيْكَ وَعَلَيْنَا بِالرِّضَا وَالْقَبُولِ فِيمَا أَخْلَصْنَا. إِنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا هَبَاءٌ إِلَّا الْعِلْمَ، وَالْعِلْمُ كُلُّهُ هَبَاءٌ إِلَّا مَا عَمَلْتَ بِهِ، وَالْعَمَلُ كُلُّهُ هَبَاءٌ إِلَّا الْخَالِصَ لَوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، وَالْخَالِصُ كُلُّهُ هَبَاءٌ إِلَّا مَا تَقَبَّلَهُ اللهُ وَرَضِيَهُ». ص ١٥٩.

أ- الأحلام:

لا شك أن الحبيب علي بن حسن العطاس، الذي كان عاشقًا متميزًا للكتب والقراءة، ومهتمًا بالكتب الطبية المنتشرة في عصره، قد قرأ شيئًا عن الأحلام وتفسيرها. ويحتوي نص سيرته الذاتية سردًا مسهبًا لأنواع مختلفة من الأحلام. فهناك مثلًا الأحلام (النبؤية) التي يقدمها بوصفها إنذارات أو إرهاصات لما حصل بعد وقوعها، ويمكن أن تعكس نوعًا من قوة الحدس والصفاء الروحي عند المؤلف، منها تلك الأحلام المرتبطة بخسوف القمر أو سقوط الكواكب قبيل وعند وفاة الأولياء والصالحين الذين يحظون بمكانة عالية عند المؤلف.

مثلًا بمناسبة وفاة العلامة أحمد بن زين الحبشي ليلة الجمعة السادس عشر من شهر شعبان عام ١١٤٤هـ، كتب علي بن حسن في سيرته الذاتية: «ولما كان الليلة التي توفي بها سيدي الإمام غلام الساعتين الحبيب أحمد بن زين الحبشي، وهي ليلة الجمعة سادس عشر شعبان المعظم عام ١١٤٤ هجرية، وذلك فجأة بعد صلاة الجمعة، رأيت في النوم وأنا ببلد هينن كأني أنظر إلى القمر في وسط السماء وهو في غاية التمام، وكأنه خرَّ إلى مثناة [وسط]

حضر موت حتى توارى في الأرض، فلما أصبحت كنت كالمستشعر بخبر يأتي ب وفاة حبر مشهور، فإني جربت هذه الرؤيا وهي رؤيا سقوط القمر إلى الأرض وانكسافه في الأرض، بموت عالم شريف جامع بين العلم والولاية، وإذا رأيت في النوم سقوط بعض النجوم، مات من هو دون ذلك العالم الولي في المقام. جربت ذلك تجريياً محققاً، ونفذت من هينن صبح ذلك اليوم إلى حريضة، فلم يرعني إلا خبر انتقاله، ونزله حيث نواله، وإنزاله مع محمد وآله، في حضرة القدس». ص ١٧٧.

وحينما توفي العلامة عمر بن عبدالقادر العمودي، ليلة الأحد، العاشر من شهر رجب عام ١١٤٧هـ، رأى الحبيب علي بن حسن، الذي كان في زيارة أخرى لوالدته في هينن، حلمًا تنبؤيًا مشابهاً سرده على النحو الآتي: «فلما كان في بعض الليالي رأيت [في المنام] الناس يغفلون ويقولون: لا إله إلا الله يا غافلين، على عادتهم إذا خسف القمر أو كسفت الشمس، وكان القمر مشرقاً، فكأنني أقول الناس يغفلون والقمر سالم ما فيه خسوف، ثم نظرت فإذا القمر مقارب الجبال البحرية التي إلى جهة دوعن وإذا هو ينزل إلى الأرض، فقلت صدق الناس ما أرى القمر إلا يريد أن يقع على الأرض، فلما انتهت علمت إنما هذا الشيخ عمر سيموت، وكنت إذا رأيت القمر انخسف علمت أنه سيموت كبير من الأولياء أو قربت وفاته، وإن كان دون ذلك المقام رأيت كأن كوكباً سقط على الأرض». ص ٦٥-٦٦.

وإذا كان ولي الله الترمذي قد حكى في سيرته الذاتية بعضاً من أحلام زوجته فالحبيب علي بن حسن يروي في نصه أحلاماً لأخيه أبي بكر ووالدته. ويبدو أنه قد أراد أن يسرد حلم أخيه أبي بكر ليفسر من خلاله سلوكه لطريق العلم والدعوة، وكثرة حساده وأعدائه؛ لذلك فهو قد حرص على معرفة تفسيره عند عمه حسين بن عمر العطاس، وقد سرد ذلك على النحو الآتي: «إن الصنو العلامة الصوفي فخر الدين أبا بكر بن الوالد حسن رحمه الله تعالى، رأى في بعض المنامات كأن الوالد عمر بن عبدالرحمن العطاس يمشي على سبيل مستقيم وكأني أنا عن يمينه، والوالد عمر ممسكني بيده، وممسك الصنو أبي بكر بيده الأخرى وهو عن شماله، وكأن جماعة من الناس يرجمون إليه وإلينا بحجر، ولا يصيبنا منه شيء، فقلت للصنو أبي بكر المذكور ونحن ببلد حريضة: اذهب إلى الوالد الحسين وقص عليه هذه الرؤيا، فقال: كيف أرجع اليوم لأجل قص الرؤيا وأنا بالأمس فقط قد وصلت من حضرته؟ فقلت: لا بد

لك أن ترجع لأن هذه الرؤيا عليها عمدة، فامتثل الأخ المذكور ورجع، فلما وصل إليه وهو ببلد نفحون، قال له بعد أن قص عليه الرؤيا: أنت وصنوك علي تسلكون طريقة الوالد عمر إن شاء الله تعالى، ولم يفسر له بقية الرؤيا، فلما كان بعد مدة من وفاة شيخنا الحسين المذكور، ظهرت علامة صدق الرؤيا، وذلك أنه حصل علينا الأذى من الجماعة الذين رأهم الصنو أبوبكر يرمون بالأحجار إلى الوالد عمر وإلينا، فبدت فيهم العداوة والبغضاء والجفاء والقطيعة ومساعدة من يعادينا ومقاطعة من يوالينا، وذلك من غير سبب ظاهر منا، ولا دعوى ولا طلب حق لهم، وإنما هم مبطلون علينا بطلاً ظاهراً حتى آل الأمر إلى أن هجرنا البلد بالكلية، فلم يكفهم ذلك، حتى وصلنا آذاهم بعد الهجرة من البلد، وقد أشرت بقولي شعراً: وفرت من بلدي فرااً منهم فوجدتهم خلقوا بكل بلادي». ص ٤١.

أما حلم الوالدة فالهدف منه إبراز مناقبها وقدرتها على نظم الشعر، فقد كتب: «حكت لي الوالدة رحمها الله قالت: كنت ليلة في دارنا ببلد هينن، وهي ليلة سبع وعشرين في شهر رمضان، فرأيت وأنا بين النوم واليقظة، كأن خالي عبدالله بن سهل رحمه الله، قائم، وهو يقول: أصحاب كانوا نيام* بين القطف والخيام* والليلة أمسوا قيام* ردوا عليكم سلام. قالت ثم غاب عني، وانتبهت لما يكون في تلك الليلة من ثواب القراءة والتهليل التي يوهبها الناس لأمواتهم ليلة سبع وعشرين في رمضان، ولها نفع الله بها كلام مليح يفهمه العامة في التعريف بالخير والدلالة عليه، وتأتي به بسهولة من غير تكلف، ولها أشعار تذكر فيها أشياء قبل وقوعها، فتقع كما تذكرها، خصوصاً في أولادها، ولما ولد الصنو أحمد وكان سميناً، فدخل يوماً على جماعة من السادة وهم في البيت، منهم الوالد أحمد ابن شيخنا الحسين نفع الله بهما، فقال ما لهذا مثل قعر المعصرة، على سبيل المزح، فلما سمعته الوالدة قالت فيه أبيتاً تذكر فيها إن أحمد هذا سوف يسافر إلى أرض الهند وأنت بحريضة، فاتفق أن الصنو أحمد حفظه الله، وأعاد النظر فيه، سافر بعد وفاة والده، إلى مكة وحج، ثم خرج إلى الأرض [أي إلى حضر موت] بسبب شيء أزعجه، وكدر خاطره، فلم تطب نفسه بالجلوس في الحرم الشريف وهو مكدر خاطر، احتراماً لتلك البقعة الشريفة، وفراراً بدينه، حيث إن الأمر الذي أكلفه على الخروج هو مزاحمة على شيء من أمور دينه، ففر منه فراره من الأسد، وكان ذلك بإشارة بعض المجاورين بها من أهل العلم والفضل لما استشاره الصنو أحمد في ذلك، ثم جاء إلى الأرض وأخذ مدة قريبة، بحيث إنه لم يتفق بغالب المحبين، ثم بعد ذلك سافر إلى

أرض الهند، وله هناك نحو ستة عشرة سنة، أو يزيد من حال التاريخ للترجمة، وهو حفظه الله حيّ الآن، متعه الله بطول حياته، وقد توفيت الوالدة والصنو أحمد بالأرض المذكورة». ومن الأحلام النبوية التي لم تتحقق: سرد الحبيب علي بن حسن هذا الحلم: «وقلت مرة لشيخني الوالد حسين المذكور، أني رأيت في المنام كأني على منارة الجامع وكأني أذنت للصلاة، فقال: تحج إن شاء الله إلى بيت الله الحرام، وكأنه أخذ هذا التأويل من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ الآية». ص ٤٠. وفي الحقيقة، عزم الحبيب علي بن حسن على أداء فريضة الحج، وبدأ الرحلة فعلاً لكنه حصل له طارئ اضطره للعودة من رؤوس وادي عمد، ولم يتمكن من الحج. ص ١٤٧.

ومن اللافت للانتباه في السيرة الذاتية للحبيب علي بن حسن العطاس الربط بين الأحلام والإبداع الشعري، فهو يؤكد، في أكثر من مناسبة، أنه قد ألف أبياتاً أو قصيدة كاملة وهو في حالة المنام، كما كتب هنا: «كنت مرة نائماً في بيتي بالمشهد فرأيت في النوم كأني في جامع بلد حريضة، وفيه جمع كثير وجم غفير من السادات وأهل الفضل وجماعة من المنسوبين إليّ وكأني أعرض عليهم قصيدة لي من جملتها البيتين اللذين جعلتهما أول هذه الأبيات ولم أحفظ منها بعد الانتباه إلاهما. ثم انتبهت في الحال وأملتيتها بتمامها وذلك في الثلث [الأخير من] ليلة الخميس خامس صفر سنة ١١٦٧ هجري. وهي هذه:

قسماً لأنهي عن منامي مقلتي
حتى تُوسدَ في التراب عظامي
وأقوم في نفع البرية دائماً
لله والإسلام أيّ مقام
بالسعي فيما يستحق أمانهم
من خوفهم والسُّقي والإطعام
متطلعاً أبداً إلى الرُتب العُلا
قدماً بأقدام إلى إقدام
بالمال والحال المكين وبالدهاء
لا انثني عن شأوها لمام

بخميسها وخميسها فخميسها كم في الملاء من ضيغمٍ ضرغامٍ.

ب- الكرامات:

إذا كان بالإمكان تأصيل الأحلام، بشكل أو بآخر، في الواقع المعيش وفقاً لمقولات فرويد وغيره من علماء النفس، لن يكون من السهل إيجاد موضع قدم للكرامات في أرض الواقع إذا نحن لم نسلّم بدور الأولياء في منظومة المعتقدات الإسلامية، وهو ما قد يتحفظ عليه بعض المسلمين. وحسب علمنا يربط معظم رجال الدين المسلمين بين الكرامات والأولياء مثلما يربطون بين المعجزات والأنبياء. وتحتوي سيرة الحبيب علي بن حسن العطاس سرداً لعدد لا بأس به من الأحداث التي تدخل في إطار الكرامات، وسنركّز هنا على تلك الكرامات المرتبطة بالمطر.

سبق أن ذكرنا، عند تناولنا لعلاقة الحبيب علي بن حسن العطاس مع الكتب، إنه حينما يترك مكان إقامته يحرص على أخذ كمية كبيرة من الكتب -حمولة جمل- معه للمطالعة. ويؤكد أن الله قد سهل له الحفاظ على كتبه وحمايتها من البلل في موسم الأمطار. وقد سرد ذلك في سيرته الذاتية على النحو الآتي: «وكنت والحمد لله إذا عزمت [على السفر] ومعني شيء من الكتب في أيام الغيث [المطر] اعتدت من ذي العوائد الجميلة، بحرمة صاحب الوسيلة والفضيلة، أن تلك المخيلة [السحب الماطرة] لا تصيب بالمطر البليلة ما معي من تلك الحميلة [الحمولة]، بحيث إنني إذا خرجت وهي تمطر كفت المطر حتى نصل المكان المستقر، وأن تباعد السفر فحينئذ تعود المطر بحمد الله تعالى ولطفه الخفي الذي إذا لطف به لأحد من عباده كفى وشفى، جربنا ذلك مراراً عديدة. وربما مطرت حوالينا ووقع الفرق علينا، فلا يصيبنا من تلك السحب الماطرة إلا الظلال إذا سرنا في الهاجرة. فوالله ثم والله إنا إذا كنا في الهجور الحارة نشاهد نحن ومن معنا السحاب تظلنا وتسير في الطريق بعدنا وقبلنا وفوقنا وعن أيماننا وعن شمائلنا بحيث نشاهد ما بعدنا من جنبات الوادي، وقد شرقت فيه الشمس والظل عندنا مع تقارب جنبات الوادي. فالحمد لله والشكر لله». ص ١٦١ - ١٦٢.

وفي الحقيقة، الأمطار في حضرموت نادرة وغير منتظمة بشكل عام، ومعدل سقوطها أكثر قليلاً في وديان دوعن وعمد والقرى الواقعة في غرب وادي حضرموت. وفي القرن الثامن

عشر الميلادي كان سكان تلك المناطق يعتمدون اعتمادًا كليًا على مياه الأمطار للشرب والزراعة، وقد يضطرون للمغادرة إذا طالت فترات انقطاعها. وفي مثل هذه الحالات يدعون المولى عز وجل أن يغيثهم، مستخدمين في ذلك صلاة الاستسقاء ومختلف الوسائل التي يعتقدون في فعاليتها. ويؤكد الحبيب علي بن حسن العطاس أن كثيرًا من قصائده حازت على إعجاب معاصريه، وأصبحت وسيلة للحصول على قضاء بعض الحاجيات، لا سيما المطر، فهو يكتب: «لما سار سيدي الوالد عبدالله بن أحمد بن حسين بن عمر العطاس إلى مكة -شرفها الله-، استصحب معه القصيدة التي مطلعها:

يا ذا الجلال والإكرام	يا ذا الجلال والإكرام
يا ذا الجلال والإكرام	يا ذا الجلال والإكرام
يا من بالأسرار علام	يا ذا الجلال والإكرام
يا من علم بأمرنا تام	والنقض بيده والإبرام

فلما سمع بها الشريف الوالي بمكة وهو مسعود بن سعيد، وذلك في أيام جذب وضرورة في مكة وغلاء في الأسعار، فأرسل الشريف مسعود إلى الوالد عبدالله المذكور يقول له: اجمع كل من بمكة من السادة آل باعلوي والفقراء والمساكين وجميع أهل الحرم، واجتمعوا في مقام إبراهيم، وتوسلوا إلى الله في نزول الرحمة بهذه الوسيلة الجامعة التي أنشأها صاحبكم علي بن حسن العطاس، فاجتمعوا وشلوا بها أول يوم وثاني يوم وثالث يوم، وفي اليوم الرابع انفتح الباب وثار السحاب، ونزلت الرحمة والحمد لله الذي أجاب. ولما حصلت علينا الضائقة العامة والحاجة الطامة بجهة حضرموت والكسور والوديان في سنة ١١٦٤، زرنا مشايخ الكسور من حورة إلى هينن إلى عندل، إلى حريضة إلى الشيخ سعيد عمود الدين إلى الشيخ أحمد بالوعار، ومشايخ دوعن الجميع، ووصلنا إلى حريضة منتصف رجب، وحين دخلنا البلد أنشأنا القصيدة التي مطلعها:

ضيفنا يا المحضار	الله وضيفانك
عسى تجي الأمطار	وتسقي أوطانك

فبينما نحن في بيت الوالد عبدالله بن سالم بن رضوان بحريضة إذ دخل علينا الوالد عبدالله بن أحمد بن حسين المذكور بعد صلاة الظهر، ونحن نستسقي على العادة بعد كل صلاة

بآيات الاستغفار، ونستغفر بالصلاة على النبي ﷺ، ونتوسل إلى الله به في نزول الرحمة، ونأتي بجملة من قصائد الأولياء التي فيها الدعاء، مثل المنفرجة، وقصيد سيدي الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس التي مطلعها: (بسم الله مولانا ابتدئنا). على ما أخذ:

إلهي يا كريم بحق سته بحق أهل الكسا انظر إلينا

وغير ذلك، فقال الوالد عبدالله بن أحمد: لم لا تتوسلون بالوسيلة التي لكم والتي مطلعها: (يا ذا الجلال والإكرام) المذكورة، وقال إنها مما لا يستكفى عنها بشيء، وأخبرنا بالقصة التي وقعت له مع الشريف مسعود، وقال: شلوا بها الآن المأخذ، وتوسلوا بها، وكنا إذا أردنا الشل بها نجعل مأخذها أربع مرات: يا ذا الجلال والإكرام. ودمننا عليها مع الوسائل المتقدمة للسلف والزيارات لقبور الأولياء والصالحين الأحياء، والاستسقاء بأهل كل بلد نأتيها، فوالله ما لبثنا أياماً حتى فتح الله أبواب رحمته وأكرم طلابه، ومن بالرضى والقبول والإجابة، ودام الغيث سبعة أسابيع، وحصل الموسم الشبيع، حتى كان الناس بعد ذلك في الكسور والوديان يسمونها حميمة علي بن حسن، ولها طعام من الطعام المشهور بين الطعام، والحمد لله الفتاح العليم الوهاب الكريم. ولما سار صاحبنا الشَّاد عبدالله عوض باقني إلى الجهة الحجرية [نسبة إلى وادي حجر - غرب المكلا]، في أيام الخريف، أنشد بها ونزل المطر الكثير الذي يتغير منه التمر تغييراً كثيراً، جاء جماعة من آل بادغار وقالوا له لا تنشد بهذه القصيدة في أرضنا في مثل هذه الأيام، فإنها تأتي بالمطر ويجيب الله الداعي الذي ينشد بها، فإذا وصلت إلى أرضك فأنشد بها». ص ٣٣ - ٣٥.

ويورد الحبيب علي بن حسن بعض الكرامات التي حصلت له بفضل عصاه (رعيدان) الذي قام بتزيينه ببعض الأبيات الشعرية، نقشت بماء الفضة، قائلاً ص ١٠: «أما رعيدان فلوصوله إلينا قصة عجيبة ونصة غريبة، قد حققنا شيئاً منها في قصائد من الديوان (قلائد الحسان وفرائد اللسان)، وأعجب ما شاهدناه منه أنه فر من بين رقتين ووقع رأس إنسان وهو يجادلنا في بعض الأحوال حتى فاض الدم من قرنه هتان، وكم أشياء أخرى لا يحصيها الحسبان، ورسمنا بعض القصائد بتحلية فضة حلينا بها رعيدان المذكور ومطلعها:

يا رعيدان يا مبرك مسيرك على الناس

فيك شيء من عصا موسى وذا النون وإلياس

ذي سببها غرق فرعون في البحر واهتاس أو هراوة محمد ذي جلبت كل حنداس كسرت رأس باجهل الشقي قد بالفاس». ص ١٨٠.

وفي خاتمة الحديث عن الكرامات والأحلام نكرر قولنا إن الكرامات تقع في إطار الاعتقاد بالأولياء. ومن المعلوم أن مصادر الفكر الصوفي تؤكد أن الكرامات تُعد معيارًا للمعرفة الولي. ومع ذلك نؤكد أن معظم الأولياء لا يجذبون الإفصاح عن كراماتهم أو الحديث عنها؛ لأن ذلك يمكن أن يثير ردود فعل مختلفة. ويمكن أن نذكر أن الحكيم الترمذي حينما تحدث عن أحلامه ورؤيته للنبي اتهم بالزندقة وسُجن. ونقل الطوسي عن الجنيد، أحد مشايخ الصوفية قوله: من يتكلم في الكرامات ولا يكون له من ذلك شيء مثله مثل من يمزج التبن.

وفي الحقيقة لم نقرأ أي رد فعل سلبي لما جاء من كرامات في كتاب (سفينة البضائع وضمينة الضوائع)، الذي لم يُنشر إلا قبل شهور، ولم نستطع أن نعود للنسخة المطبوعة عند قيامنا بهذه القراءة. وقد استبق مصطفى عبدالرحمن العطاس أي نقد محتمل لما جاء من كرامات في (سفينة البضائع)، وضمن كتابه (العبقري المجدد الحبيب الإمام علي بن حسن العطاس) هذا الرد: «ولا نشك في أن الكثير من أدياء العلم، سوف يلوون رؤوسهم إعراضًا وصدًا واستنكارًا واستكبارًا من تحدث صاحب الترجمة ﷺ بنعمة ربه، وقوله إن الله بعوائده الجميلة، وببركة صاحب الوسيلة والفضيلة، مدينة العلم ومصدره سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، عوّده على حفظ كتبه التي يحملها معه في رحلاته المتصلة للدعوة إلى الله ونشر العلم وإصلاح ذات البين من أن تمسها مياه الأمطار والغيوث التي يتصادف هطولها في أماكن عبوره أو إن الله يأمر واكفها بأن تكف حتى يبلغ صاحب الترجمة مأمنه ومكان وجهته، ناسين قول إمام العلم والعلماء وخاتم الرسل والأنبياء سيد الأولين والآخرين حبيبنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه في الحديث الصحيح (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب). وإذا كانت الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم فما الذي يحول دون الغيوث أن تكف صبيها وهاطلها للعالم بقدرة خالق الملائكة وأجنحتها والغيوث وصبيها والعلماء وما يعلمون ويعملون. قال من عز من قائل كريم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. وقال جل ذكره وتقدس أسماءه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

الصُّدُورِ ﴿١﴾. حفظنا الله من عمى القلوب، ورزقنا حسن الظن وسلامة العقيدة في كل عالم عامل محب لله.

رابعاً- الأبعاد اللغوية والفضية في (سفينة البضائع وضمنية الضوائع):

أ- اللهجة العامية الحضرية في (سفينة البضائع وضمنية الضوائع):

(سفينة البضائع وضمنية الضوائع) نصٌّ يتوق إلى الارتقاء إلى مستوى أدبي رفيع وفق التقاليد الأدبية السارية في الحقبة التي أُلِّف فيها. والحيب علي بن حسن العطاس عاش في القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري)، أي في نهاية العصور المتأخرة، التي تُسمَّى أحياناً عصور الانحطاط، والتي اتَّسم خلالها الأدب العربي، في الغالب، باستخدام واسع لأسلوب السجع، والمحسنات البديعية، والأحاجي اللغوية، والمفردات العامية والأعجمية أو المولدة. فنص (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ مثلاً مليء بالكلمات العامية الشامية، والكلمات الأجنبية.

لهذا من الطبيعي ألا يتجنب مؤلف (سفينة البضائع وضمنية الضوائع) كثيراً من المفردات والتراكيب اللغوية الخاصة باللهجة الحضرية. وهي سمة ملازمة لمعظم النصوص الأدبية والدينية والتاريخية التي كتبت في حضرموت قبل مطلع القرن العشرين. ومن المؤكد أن الحبيب علي بن حسن، الذي توفي عام ١١٧٢هـ، قد أُلِّف (سفينة البضائع) في السنوات الأربع الأخيرة من عمره؛ فهو يشير فيها إلى أحداث عام ١١٦٩هـ. وكان حينها لا يكتب بيده بل يملي ما يؤلفه. وربما كان أسلوب التأليف بالإملاء الشفاهي من أسباب ارتفاع عدد المفردات والتراكيب العامية في (سفينة البضائع وضمنية الضوائع).

ومن المعلوم أن اللهجة العامية تتجسد في الغالب في انزياحات معنوية أو شكلية/ صوتية (أو كلاهما معاً) عن اللغة الفصحى. ومن الواضح أن الحبيب علي بن حسن قد استخدم في نصه، الذي يتضمن حشداً كبيراً من الكلمات والتراكيب العامية، مختلف مظاهر انزياحات اللهجة العامية الحضرية عن اللغة العربية الفصحى، وذلك على المستويين الشكلي (أو الصوتي) والمعنوي. وقبل أن نورد بعض الأمثلة على ذلك نؤكد أن علينا، عند دراسة العلاقة بين العامية واللغة الفصحى، لا سيما في القرون المنصرمة، أن نتحلى بكثير من الحذر والحيطة؛ إذ تبين لنا أن هناك مفردات ضمنها المؤلف نصه، واعتقدنا أن ذلك

كان من قبيل الاستخدام العامي، لكننا فوجئنا أنها كلمات فصحي واستخدمت في معناها المعجمي الفصيح. ففي صفحة ٢٦ مثلاً، استخدم المؤلف الفعل (زحف) بمعنى (تعب، أو أنْهَكَ)، وهو معناه الأول في لهجة حضرموت، ومن خلال الرجوع إلى المعاجم تبين لنا أن معناه المعجمي ليس التقدم إلى الأمام بدون أرجل أو بأرجل بل تعب أو أصابه التعب. والأمر نفسه ينطبق على كلمة (المثار) التي استخدمت في صفحة ٢٤ بمعنى النهوض أو الاستيقاظ، وكلمة (السترة) التي استخدمت بمعنى الجدار في صفحة ٤٣، وكلمة (عارضته) بمعنى قابلته في صفحة ٤٧، و(عبرت) بمعنى مضت أو مرّت في صفحة ٣٨، و(الخلاء) بمعنى المكان الواسع الخالي من العمران في صفحة ٢١. ولا شك أن ارتفاع عدد هذا النوع من الكلمات يبيّن أن عامية حضرموت (ربما مثل غيرها من اللهجات العربية العامية) قد احتفظت بثروة هائلة من الكلمات الفصيحة التي اختفت كلياً أو جزئياً اليوم من الاستخدام الفصيح أو الكتابي.

وفي (سفينة البضائع) يرتبط الانزياح العامي المعنوي لبعض الكلمات الفصحي بالموقع الجغرافي لوادي حضرموت ووادي دوعن تحديداً، مثال على ذلك استخدام كلمة (نجلي) بمعنى شمالي، أي باتجاه نجد، وكلمة (بحري) بمعنى جنوبي أي باتجاه البحر، و(علوى) بمعنى أعلى وادي حضرموت و(حدرى) أسفله.

ومن ناحية أخرى، في أثناء قراءتنا لنص (سفينة البضائع)، تبين لنا أن المؤلف قد استخدم الصيغة الشكلية/ الصوتية العامية الحضرمية لكثير من مفردات اللغة العربية الفصحى دون إدخال أي إضافة أو تعديل في معناها المعجمي. فهو استخدم، مثلاً في صفحة ٢٢ (ضيفان) في مكان الفصحى ضيوف، وفي صفحة ٢٥ (المتهوم) في مكان المتهم، وفي صفحة ٣١ (جفاوة) في مكان جفاء، وفي صفحة ٤٤ (نجوب) في مكان نجيب، وفي صفحة ١٢٣ (اصطاب) في مكان أصيب.

وهناك بعض الكلمات التي استخدمها الحبيب علي بن حسن مع انزياح عامي في المستويين الشكلي/ الصوتي والمعنوي؛ مثل (زوّلوه) في مكان أزالوه، بمعنى: نفوه أو أبعدوه من بلاده، وذلك في صفحة ٥٧، وكلمة (لهينا) في مكان لهونا وبمعنى وجدنا متسعاً من الوقت، وذلك حينما كتب في صفحة ٣١ «فقلت في نفسي ما لهينا نأكله مخبوز مفتوت فكيف

نخرج إلى الخلاء نصره؟». ولن يكون من السهولة بمكان الجزم بأن استخدام كلمة (ريح) بمعنى رائحة مجرد انزياح معنوي لكلمة (ريح) نفسها، أو أنها انزياح صوتي لكلمة (رائحة). ومن المؤكد أن (سفينة البضائع) تتضمن عدداً كبيراً من الكلمات الخاصة باللهجة العامية الحضرية (وربما بعض اللهجات المجاورة لها)، التي سيصعب تحديد أصلها بسبب غياب المعجم العربي التاريخي. من تلك الكلمات: في صفحة ٨ (الصيم) بمعنى التمر المهروس الذي نُزِعَ منه النوى، وفي صفحة ٢١ (الفخطة) وهي مسحوق لقاح النخل، وفي صفحة ٦٤ (الجابية) بمعنى بركة الماء، وفي صفحة ٣٧ (العُطْب) بمعنى القطن، و(المسدرة) بمعنى القميص أو الشميز.

وفي أحيان نادرة جداً، وبسبب غياب الحقل الدلالي والقربنة الصوتية اللتين يمكن أن يرشدا المتلقي غير الحضرمي إلى معنى بعض الكلمات العامية حَبَدَ المؤلف شرح معنى بعض تلك الكلمات في النص مباشرة. مثال على ذلك كلمة (الضيقة) التي وردت في قوله: «إني بنيت داراً على عادة الصبيان، وجعلتها بسقيفتها، أي الضيقة التي يقال لها الدهليز، وأوضعها [مستودعاتها]، ورقادها [درجها]، فلما أتممت مبنائها وأخذت في محضها [تلبسها بالطين]...». ص ٢٣.

وعلى الرغم من أن هجرة الحضارم إلى الهند وجزر الأرخيبيل الهندي وسواحل شرق إفريقيا قد بدأت قبل القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) [ذكر المؤلف أن أخاه أحمد قد هاجر إلى الهند]، فلا يبدو أن تلك الهجرة قد أفرزت منذ ذلك الحين دخول عدد كبير من الكلمات المولدة، الهندية والجاوية أو الملايوية، إلى عامية حضرموت كما هو الحال اليوم. لهذا ظلت الكلمات الأعجمية أو المولدة في نص (سفينة البضائع) نادرة جداً. وقد حرص الحبيب علي بن حسن على شرح بعضها في نصه، مثلاً عندما يتحدث عن المعدات الموسيقية المستخدمة في تلك الحقبة يورد كلمة (القنبوس) مع مرادفها في السياق الآتي: «وكنت ربما أحضر عند الوالد الحسين إذا كان عنده بعض المُسمَّعين من الرجال أو النساء، على القصبة والطبول أو على العود الذي يقال له القنبوس، والمزهر». ص ٢٢.

وحاول المؤلف أن يفسر أيضاً استخدام كلمة (الجودري)، لتسمية الفراش القطني الرفيع، التي كانت [وربما ما تزال] تستخدم في بعض لهجات الجزيرة العربية الأخرى لا

سيما في الحجاز، والأرجح أن أصلها تركستاني، على النحو الآتي: «وأجده قد خبأ لي الفطور تحت مصلاه؛ وهو طنفس من البز الأبيض البلدي، محشو من العطب، وهو الجودري بلغة أهل حضر موت، لكن الجودري هو الذي يُرتق بأحمر وأسود وأخضر وأصفر، وأصله أبيض، فأشتق له الاسم، أظن أنه يماثل وجه صاحب الجدري الذي تبقى آثاره في وجهه...». ص ٣٨.

واستخدم المؤلف في الفقرة الأولى من نص (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) كلمة (كواميخ)، وهي صيغة عامية لكلمة كوامخ، جمع كامخ، التي دخلت العربية من اللغة الفارسية بمعنى إدام، وَيَخْصُ بِهِ أَنْوَاعُ مُخَلَّلَاتِ الطَّعَامِ وَمُشَهَّيَاتِهِ.

ب: أسلوب السجع ومزج النثر بالشعر:

أ- أسلوب السجع:

ظل استخدام السجع والمحسنات البديعية سمة ملازمة للنثر العربي حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وحتى نهاية العصر العباسي كان يأتي في الغالب عفويًا وغير متكلف، وبعد ذلك شرع بعض الكتّاب في المبالغة في استخدامه وتعقيده، وقرنوه باستخدام أنواع مركبة من المحسنات اللفظية والمعنوية، والألغاز اللغوية، ولتتمكنوا من تنميته اضطروا إلى استعمال كثير من الكلمات الجزلة والغريبة.

ومن المعلوم أن أسلوب السجع الذي ارتبط أساسًا بفني الخطابة والوعظ اللذين يجعلان من إيقاع الكلام وسيلة للإقناع. وفي اعتقادنا أن الطبيعة السردية لفن السيرة الذاتية قد فرضت على الحبيب علي بن حسن استخدام أسلوب النثر المرسل في معظم أجزاء نصه المكرس لسرد أحداث حياته، وسبق أن لمسنا من خلال الاقتباسات الكثيرة التي أوردناها في هذه الدراسة من متن (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) أن المؤلف لم يستخدم أسلوب السجع إلا في فقرات محدودة وبشكل عفوي. كما أن السجع في نص (سفينة البضائع وضمينة الضوائع) لم يرتبط باللجوء إلى الغريب أو الموحش من الكلمات، ويمكننا أن نلمس ذلك في المثال الآتي: «ثم إنهم آخر الوقت، لما أشرقت أنواره، وذاعت بالخير أخباره، تزامروا عليه وأخرجوه من إمامة المسجد حسدًا لنا وبغيًا علينا، وعدوانًا وظلمًا من غير موجب، وما ذاك في الحقيقة إلا [أذى] لنا وليس له، ولقد كابد أسلافنا من مثل هؤلاء أعظم مما كابدناه نحن من بن سلمة ومن غيره، فلنا بهم أسوة وفيهم قدوة، إنها سنة الله التي خلت في عبادته. ولن تجد

لسنة الله تديلاً. ثم إنه والعياذ بالله في آخر أمره ظهر منه الارتداد، وترك الامتثال وخلع ربة الوداد، ودخل في زمرة الحساد، وغمرة أهل العناد، وذلك مكتوب في سابق علم الله المقدر ما يشاء على عباده من إشقاء وإسعاد، أو تقرب وإبعاد، فأدبر عنا وترك الإقبال علينا. ثم إنهم بعد ذلك أحبوه وأرجعوه إلى وظيفة المسجد لما تحققوا من تركه لنا وتركنا له. ثم كان آخر أمرهم معه أن أخرجوه وزوّلوه [نفوه]. والعياذ بالله من أهل تالي الزمان، الذين لا خير فيهم، ولا أمير لمن يستكفيهم الله. وهو السميع العليم». ص ٥٦ - ٥٨.

وتماشياً مع عادات الكتابة في القرون المتأخرة استخدم الحبيب علي بن حسن السجع والمحسنات البديعية في العنوان الذي اختاره لنص سيرته الذاتية (سفينة البضائع وضمينة الضوائع)، وكذلك في عناوين جميع مؤلفاته الأخرى، مثل: (القرطاس في مناقب الحبيب عمر العطاس)، و(المقصد إلى شواهد المشهد)، و(مزاج التسنيم في حكم لقمان الحكيم)، و(قلائد الحسان وفرائد اللسان).

ب- مزج النثر بالشعر:

لقد أكد فيليب لوجون، في نصه المرجعي ((L'autobiographie، أن السيرة الذاتية سرّدٌ ثري استعادي، ونحن هنا نسلم مع فيليب لوجون أن معظم نصوص السيرة الذاتية، القديمة والحديثة، تعتمد السرد والنثر. ومع ذلك هناك عددٌ من السير الذاتية كُتبت شعراً، منها سيرة الشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هوجو الذي يقدم ديوانه الرئيس (التأملات) على أنه سيرته الذاتية. وفي الأدب العربي كتب محمود درويش ملامح من سيرته الذاتية في أربعة من مؤلفاته، هي: (يوميات الحزن العادي)، و(ذاكرة للنسيان)، و(في حضرة الغياب)، و(أثر الفراشة)، وقد مزج في بعضها الشعر بالنثر. ونعثر على الظاهرة نفسها عند الشاعر اليمني عبدالعزيز المقالح، الذي منذ بداية هذه الألفية شرع في نشر سلسلة من النصوص تحمل كلها في عنوانها كلمة كتاب، منها: (كتاب القرية)، و(كتاب الأصدقاء)، و(كتاب صنعاء)، وتمزج جميعها بين الشعر والنثر، ويعترف المقالح أنه تناول فيها سيرته الذاتية. وفعل ذلك قبلهم كلهم الحبيب علي بن حسن العطاس، الذي -كما رأينا- ولع بالشعر منذ نعومة أظفاره وحفظه قبل أن يحفظ القرآن، في سيرته الذاتية التي ضمنها عدداً من أبياته وقصائده.

والسؤال الذي يهمني هنا هو: لماذا ضمّن الحبيب علي بن حسن سيرته الذاتية بعضاً من شعره؟ ونعتقد أن الحبيب علي بن حسن لم يلجأ للشعر سعياً لاستعراض قدرته على النظم أو لتزيين نصه، بل نرى أنه كان يرمي من خلاله للتعبير عن باطنه وآلامه ومعاناته وانفعالاته، وكذلك ليدافع عن نفسه من حساده وأعدائه بطريقة هادئة. فمن المعلوم أن الشعر أنسب من النثر للإفصاح عن مختلف الانفعالات الشعورية العميقة بما فيها: الغضب والحب والكراهية. ويبدو لنا أن مؤلف (سفينة البضائع وضمينة الضوائع)، رغم ما يتميز به من جرأة، قد عبّر في شعره عن بعض المواقف التي لم يكن يستطيع تناولها نثراً. وقد رأى دويت راينولدز أن الشعر في نصوص السيرة الذاتية العربية القديمة «كان يعمل كشفرة مقبولة للتعبير عن أشياء قد لا تقبل ثقافياً إذا تم التعبير عنها بلغة أو أفعال واضحة. وإذ إنه من غير المناسب أن يفقد الإنسان السيطرة على انفعالاته، فقد كان التعبير عن المشاعر المهتاجة نفسها في النظم يقدم بديلاً مقنعاً من الناحية الاجتماعية»، (ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، ص ١٤٢).

وقد اعترف الحبيب علي بن حسن نفسه بذلك في نصه، وذلك في تقديمه لإحدى قصائده الشعبية التي ضمنها سيرته الذاتية، حيث كتب: «اعلم أن من جملة ما نقوّي به جاش النفس ونسلّيها ونعزّيها به إذا ورد علينا الأذى، الذي هو من المضرات والقذى، نظم الأبيات والحكم المُسلّيات، حتى أن الحبيب عمر البار لما سمع قولي المار في أول هذا المضمّار، حيث أقول من الأشعار:

وفررت من بلدي فراراً منهم فوجدتهم خُلِقوا بكل بلاد

قال قولك هذا ينسّم عليك، وقد صدق، فمن جملة ذلك قولي حين رأيت إدبار وانفضاض بعض من حولي مع الدين واللين المأمور به أفاضل النبيين:

بني مغراه قلبي وُحِل يا أهل المعاني
وصبري من شغوبي كمل والجسم ضاني
وفكري حار في وقتنا وقت الشواني
من صاحبتة وبالغت في وده جفاني
ومن شنفت له كاس حلوا صرف هاني
جنا لي في الجزاء من حديج خس المجاني».

وتحدث الحبيب علي بن حسن كذلك عن علاقته المتوترة بأقربائه في قصيدة أخرى له قال فيها:

إن شاهدوا حسنة أرخوا دونها الأستار
وإن شاهدوا سيئة أبدوها على الحضار
وإن شاهدوا نعمة أذكوا من حسدهم نار
دائم وحذف البلاء منهم إلى مثواري
ولا تجينا المصائب غير من قرباي

وفي قصيدة أخرى طويلة ينفعل ويفضح سلوك أقربائه ويسرد هجرته إلى الهجرين قائلاً:

قل للمغني جوابك من علي بن حسن
يا مرحبا بالذي هو للقفواني لحن
أبيات حلوات والسماع لها ما فطن
يذكر حريضة وعنده من قداها شجن
ويقول في قصيدة أخرى طويلة:
ولو كان يقدر قريب النسب
يوالي قريبه رضي واستكان
ولكن إذا الله عليهم غلب
غدوا يطعنونك بحد السنان
يودون من غيظهم والغضاب
عدمك أو مسيرك إلى أقصى مكان
ص ١٠٩.

وينفس الحبيب علي بن حسن عن الهموم التي سببها له تقلب أصدقائه وانقلابهم ضده في قصيدة طويلة، يقول فيها:

تعجبت يا ناس حد العجب
من الكون ذي بالعجائب ملان

كثير المكاره قليل الطرب
كثير المساوي قليل الحسان
إذا ما طلع ذا علي ذا غرب
ومهما بعد ذا ترى ذاك دان
بتقدير من قد علا واحتجب
وقدر ودبر وما شاء كان
وساعات بالعسر تأتي الكرب
وساعات باليسر يأتي الأمان
جعل فتنة البعض من بعض صب
ليعلم بها صبرنا يا فلان
وكم من صديق عدو انقلب
وكم من عدو قسائم لان
فجل في تصارييف حال العرب
وفند وسلم تهون الحزان
ولا تجعل إن حد لنفسه وهب
ولافادها من قضى الله كنان
وما رأته عينك من الله وجب
من الزين والشين في كل شان
خلق لك شواني وفيهم كلب
يريدون ضرك على كل آن
يودون لو كنت وسط اللهب
ويرضون لو تندرج في الدمان

المرجعية الفكرية للتدخل الخارجي في حضرموت حملة الإمام الزيدي المتوكل على الله إسماعيل في القرن الحادي عشر الهجري

أ. صالح مبارك عصبان

رئيس مركز وادي حضرموت للدراسات والنشر

مقدمة

تمثل المرجعية الفكرية أداةً من أدوات التدافع في حياة الدول والجماعات، وتستند إليها غالبًا التوجهات السياسية والبرامج الاقتصادية والاجتماعية في تدخلاتها وفرض ما تسعى إليه من أهداف، ولما لها من أهمية في التحولات الجذرية للمجتمعات عبر تغيير البنى الفكرية السائدة أو تعديلها، فقد أفردت لها كتب التاريخ أبوابًا وفصولًا تستعرض فيه أثرها في تكوين الوعي المجتمعي وتغيير المفاهيم، وازداد التأليف عن الفكر أو ما يعبر عنه بـ(العقائد) أو (الأيدولوجيا) أو (الثقافة) ومدى علاقتها بالمجتمعات.

وفي التاريخ الإسلامي يمثل الكتاب والسنة المصدر الرئيس للتشريع، باعتبارهما وحيين من الله سبحانه وتعالى، ويرتبط الفكر الإسلامي باجتهد علماء الأمة فيما أتاح لهم الشرع من خلال البحث والنظر والاستدلال في النصوص الشرعية، وأنتج هذا العمل الاجتهادي تراثًا علميًا في مختلف فنون المعرفة، وجعل الأمة الإسلامية في أزهى عصورها العلمية في مقدمة الأمم، وكان لظهور الفرق والمذاهب آثارًا كبيرة ومختلفة (إيجابية وسلبية) في الفكر الإسلامي)، وأحدث الصراع الذي دار بين تلك الفرق حراكًا علميًا، بالرغم من جنوحه أحيانًا إلى العنف والقسوة بدلًا من المناظرات والمحاورات.

وانتقلت تلك الفرق والمذاهب إلى حضرموت بطرق سلمية عبر رحلات العلماء والأسفار وطرق أخرى كان للأطماع السياسية فيها نصيب، وتدخلت القوة أحيانًا، وحملت معها مرجعيتها الفكرية لتبرر دخولها، وأخذت مسألة الفكر والعلم والثقافة

جزءاً من كتابات المؤرخين الحضارمة، ونشأ سجال فكري في وجود علم وثقافة في بعض أدوار التاريخ الحضرمي.

وخلال القرن الحادي عشر الهجري وصلت جيوش الإمام الزيدي المتوكل على الله إسماعيل القاسم (ت ١٠٨٧هـ) إلى حضرموت، وقد سبقها تمهيد فكري عبر مكاتبة السلاطين، وإرسال العلماء، ودعوة أهل حضرموت إلى الطاعة والدخول تحت راية الإمام. وتأتي هذه الورقة لتسلط الضوء على المرجعية الفكرية لتلك الحملة وآثارها، وموقف الساسة والعلماء منها، وتتضمن مقدمة، وتمهيداً نحاول فيه الإشارة إلى انتشار الأفكار عبر المذاهب والفرق في حضرموت، ويعقبه فصلان: يناقش الفصل الأول المذهب الزيدي وأئمة اليمن الزيدية ونماذج من علاقتهم بحضرموت، أمّا الفصل الثاني فيتحدث عن حملة الإمام المتوكل على الله إسماعيل على حضرموت، مقدماتها ومراميتها ومرجعيتها الفكرية وسيرها ونتائجها وآثارها، وخطوط التواصل التي حصلت بين أئمة اليمن وحضرموت بعد الحملة، والصراعات الداخلية بحضرموت في تلك الحقبة.

تمهيد

نبغ من الحضارمة بعد إسلامهم أعلام في فنون العلم، نهلوا من الكتاب والسنة، فكان لهم سهم في التراث العلمي والفكري في بلادهم وخارجها، وخاصة في مصر والشام، وشهد العلم والثقافة حضوراً في حواضر حضرموت، ومع وصول الفرق والمذاهب إليها أثر رجال العلم فيها وتأثروا بها، وتركوا ثروة علمية تحكي جهدهم، ولا يصمد القول بعدم وجود علم بحضرموت في بعض القرون - أمام ما كان من تواصل فكري بين الأجيال، وهو ما تؤكدُه الأخبار المتناثرة في بطون الكتب، ولا شك أن دورات التاريخ تشهد مدّاً وجزراً، لكن ذلك الحراك الفكري لم يخب، فانتشرت المدارس وتوسعت المناظرات، ووجد الحكام والغزاة الوافدون على حضرموت في الفكر وسيلةً لتمرير أهدافهم، ووفد إلى حضرموت شتى أنواع الفرق والمذاهب، فالبشاري يذكر بعضاً من مذاهب جزيرة العرب في القرن الرابع الهجري، وأن أهل الأحقاف نواصب غتم، وأن لأهل حضرموت في العلم والخير رغبة، إلا أنهم شراً. وللمرجعية الفكرية أثر في إدارة الصراعات الداخلية بحضرموت، أو التي جاءت من خارجها، فهذا هو طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي يخرج سنة ١٢٩هـ على الخليفة الأموي

مروان بن محمد الجعدي الذي كتب إلى عبد الملك بن عطية السعدي لتعقب أصحاب طالب الحق في اليمن وحضرموت، وما كان لهذا التعقب أن يتم لولا وجود اختلاف فكري، وحينما تمكن الفكر السني من الانتشار بحضرموت أسهم في دعمه الوزير الزيايدي الحسن بن سلامة (ت ٤٠٢ هـ) القادم من خارج الحدود، وهكذا كان الأمر في انتشار المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية، يقول الأستاذ سعيد عوض باوزير: ((يتمثل نشاط الحضارم الفكري خلال عهود الإسلام الأولى في مشاركتهم في صراع المذاهب والعقائد التي حفل بها تاريخ الأمة الإسلامية أثناء حكم بني أمية وفي العصور الأولى من حكم بني العباس))^(١).

ومن صور الصراع الفكري ما حصل في القرن الخامس الهجري بين الأمير الإباضي أبي إسحاق إبراهيم بن سليمان الحضرمي والصلحي الذي غزا حضرموت سنة ٤٥٥ هـ واستنجد بالدولة الفاطمية العبيدية في مصر، يقول أبو إسحاق:

يخوفني أن المعز ملاذه بمصر وما خوفي بأهل المظالم
إذا وفده ولّى إلى مصر رائداً مضى وفدنا قصداً لخير المعالم

وفي مقتل الفقهاء بتريم سنة ٥٧٥ هـ على يد عثمان الزنجيلي أو الزنجيلي دلالة على تذر الهدف السياسي بغطاء فكري وعقائدي^(٢)، وفي سنة ٦١٦ هـ نكّل جنود ابن مهدي بأهل حضرموت، وتوالى الأحداث والتدخلات، كما بسطت ذلك كتب التاريخ، ويكون للمرجعية الفكرية وجود في تفاعلاتها.

والصراع الداخلي في حضرموت كذلك لم يكن الخلاف فكري ببعيد عنه، فقد نشب صراع بين فارس بن سليمان النهدي وعبد الله بن محمد بن عثمان العمودي أدى إلى إحراق الكتب، وسوّغ العمودي استيلاءه على الجانب الأيمن من دوعن بأنه ((من أجل إقامة الشريعة ومحو البدعة))^(٣).

ويورد المؤرخ سالم بن حميد الكندي (ت ١٣١٠ هـ) في تاريخه ((أن المكرمي من قبائل صنعاء (قيل: من يام وقيل من نجران) أتى عام ١١٧١ هـ - وهو من أهل البدعة - بجيش

(١) باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص ٦٥.

(٢) مفلح، حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة، ٨٧.

(٣) السقاف، بضائع التابوت (مخطوط)، ١/ ٣٠٥.

عظيم، واسمه هبة الله، وكان صاحبَ جدلٍ، واتفق بعلماء الجهة الحضرمية وناظرهم وامتحنهم بالمسائل، وممن ناظره السيد سقاف بن محمد الصافي وأفحمه^(١).

ويرجح المؤرخ العلامة عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف (ت ١٣٧٥هـ) أنَّ سببَ خروج المكرمي استنجاؤ بعض أمراء آل كثير ورجال يافع بحضرموت به على أصحابهم، وقد نصحه أحد علماء آل السقاف بعدم الانتقام من الناس. وينقل ابن عبيد الله عن شيخه عيدر وس بن عمر الحبشي ((أنَّ المكرمي أظهر العدل بحضرموت، وأشاع الدعوة إلى الله والعمل بالشرعية، حتى ظنَّه الناس أنَّه صاحبُ حق)). وأضاف يقول: ((وكتب الحبيب سقاف بن محمد للحبيب محمد بن زين بن سميظ يطلب منه الدعاء للمكرمي لعدله وحسن سيرته في الناس، مع أنه إسماعيلي باطني... فأجابه الحبيب محمد بأنَّ دعوة المنابر كافية))^(٢). أمَّا الأديب عبدالله بن محمد بن حامد السقاف فقد وصف المكرمي بأنَّه نجدي وهابي. ويستدرك الأستاذ كرامة مبارك بامؤمن معلقاً على الأديب السقاف ((بأنَّ النزعة الذاتية الشيعية للسيد السقاف في سرد المعلومة التاريخية واضحة البيان))^(٣)، ويصفه المؤرخ علوي بن طاهر الحداد بأنَّه شيعي، أما المؤرخ محمد بن علي باحنان فعنده أنَّ المكرمي إباضي. وهكذا نرى الاختلاف بين المؤرخين في توصيف المرجعية الفكرية للمكرمي الذي تذكر المراجع التاريخية عنه أن اسمه الحسن بن هبة الله المكرمي (ت ١١٨٩هـ) وهو إسماعيلي شيعي. ويشبه هذا الاختلاف ما قيل في قضية خروج الوهابية إلى حضرموت سنة ١٢٢٤هـ؛ فالمؤرخ عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف يقول: ((وفي أيامه [أي عبدالله عوض غرامة] كان وصول الوهابية إلى تريم بقيادة الأمير علي بن قملا، فطوى بهم حضرموت، ولم يُفسد حرثاً ولم يهلك نسلاً، وإنما هدم القباب، وسوّى القبور المُشرّفة، وألقى القبض على المناصب آل عينات وآل تاربة، وأهانهم، وأتلف قليلاً من الكتب كثره بعض العلويين))^(٤). ولنقرأ ماذا

(١) ابن حميد الكندي، تاريخ حضرموت (العدة المفيدة)، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، ٣١٤/١.

(٢) السقاف، مصدر سابق، ١٠٣/٢، ١٠٦، ١٠٤.

(٣) باكثير، رحلة الأشواق القوية إلى مواطن السادة العلوية، ٣٣، انظر: علوي بن طاهر الحداد، جني الشماريخ ٤٣، بامؤمن، الفكر والمجتمع في حضرموت ٣٠٤.

(٤) السقاف، إدام القوت، ٥٤٠.

يقول المؤرخ باحنان عن الحدث نفسه: ((وفي سنة ١٢٢٤هـ وصل إلى حضرموت ناجي بن قملا النجدي بجيش عرمرم من قبائل الدرعية، فاكثسحوا القطر الحضرمي... ودخلوا تريم وكسروا قبابها وحرّقوا بعض كتبها - كما قيل - وتوايبتها، وكسروا ألواح قبورها، وحبسوا بعض مناصب الجهة، ومنعوا الأذكار والتذكير والحضرات والطرق))^(١)، ويذكر مثله المؤرخ الأستاذ محمد بن هاشم في (تاريخ الدولة الكثيرة).

لقد رأينا - فيما تقدّم - كيف جاءت الحملات وهي تحمل مرجعيات فكرية، ورأينا أيضاً اختلاف المؤرخين الحضارمة فيها، يقول الأستاذ عبدالقادر الصبان: ((إن لكتّاب التاريخ الحضرميين المعاصرين اتجاهاتٍ مختلفةً، وتكاد تكون متضاربةً، نابعةً عن المذاهب المتصارعة في حضرموت، والتي بقيت ردود فعلها إلى تاريخ قريب))^(٢).

الفصل الأول: الزيدية

أولاً: المذهب الزيدي وأئمة اليمن

يُنسب المذهب الزيدي إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام (ت ١٢٢هـ)، والزيدية هي إحدى فرق الشيعة الثلاث (الزيدية، الاثنا عشرية، الإسماعيلية)، وهي أقربها إلى مذاهب أهل السنة والجماعة، وأهم نقاط الاختلاف بينهم: أنَّ الزيدية تنزع في الاعتقاد إلى المعتزلة، والقول بالإمامة، ويرتكز المذهب الشيعي على وجوب الخروج على الظلمة، وأن يكون الإمام واجب الطاعة، وجواز أكثر من إمام في وقت واحد في بلدين مختلفين، والقول بالإمام المفضول مع وجود الإمام الفاضل، ويزيدون في الأذان (حيّ على خير العمل)، وإرسال الأيدي في الصلاة، ويعدون صلاة التراويح بدعة، ومن عقائدهم تفضيل أمير المؤمنين علي عليه السلام على سائر الصحابة عليهم السلام، وأولويته بالإمامة، وقصرها بعد الحسين في البطنيين، أي في ذريتي الحسن والحسين^(٣)، ومن شروط الإمامة عندهم: الذكورة والاجتهاد وأن يكون علويًا فاطميًا، وغيرها من الشروط، ومعظم الزيدية يقرون بخلافة الشيخين أبي

(١) باحنان، جواهر تاريخ الأحقاف ٢/ ٢٢١.

(٢) مفلح، مصدر سابق ٣٦٥.

(٣) الأكوغ، الزيدية نشأتها ومعتقداتها، ٨، ٥٤، وانظر: الكلدي اليافعي، المذهب الشافعي في اليمن، ١٢٠.

بكر وعمر عليهما السلام، ولا يلعنونهما كما تفعل فرق الشيعة، بل يترضون عنهما، ويقولون بصحة خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، مع مؤاخذته على بعض الأمور^(١).

ويعد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي (ت ٢٩٨هـ) مؤسس المذهب الزيدي في اليمن، وبايعه أهل صعدة سنة ٢٨٨هـ، ((وبقيام الدولة الزيدية في اليمن ودخول مذهبها وانتشاره في اليمن الأعلى وتزامنه في الوقت نفسه مع انتشار المذاهب السنية الأخرى في اليمن الأسفل - قد أوجد حالة متميزة من الجدل الفكري بين هذه المذاهب))^(٢).

ولئن كان للزيدية هذا الانتشار فإنَّ للمذاهب الأخرى رجالها الذين كافحوا ونافحوا عن أفكارهم، فالشيخ الفقيه موسى بن عمران المعافري أظهر المذهب الشافعي في اليمن، وقصده طلاب العلم، وحملوا مذهبه إلى المدن والقرى، وأقاموا المدارس وحلَّق العلم، وحينما وجدت عقائد خالفت عقائد أهل السنة والجماعة تصدَّى لها العلماء^(٣)، بل شارك الحكام في ذلك، وقد عرفت اليمن كل المذاهب السنية وكذلك الإسماعيلية والإباضية والقرامطة، ويلخص الدكتور محمد عبدالله الميسري علاقة الأئمة الزيدية مع أهل السنة الشوافع في طابعين: الأول سلمى، عبر المراسلات والإقناع للتحويل إلى المذهب الزيدي، والثاني حربي، عبر الحروب، ومن ذلك إخضاع أهل مأرب السنيين من قِبَل الإمام المهدي، مما اضطرهم إلى قطع ذكر خلفاء بني العباس في الخطبة، وزيادة (حيَّ على خير العمل) في الأذان، ويصل الأمر أحياناً إلى العنف، كقتل الفقيه السني أحمد بن زيد الشاوري بسبب آرائه الفكرية، إذ إنَّ الزيدية يصفون أهل السنة بأنهم ((أهل المذاهب الرديئة))^(٤)، وفي صراعهم مع العثمانيين الأتراك وثورتهم عليهم كان العامل الفكري أهم عوامل الصراع.

ثانياً: أئمة اليمن الزيدية وحضرموت

لم تكن حضرموت حالة استثنائية من البلدان الإسلامية، فقد عرفت الفرق والمذاهب الإسلامية كما تم عرضه سابقاً، ولعلَّ أكبر تغيير فكري بعد وجود المذهب الإباضي هو

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ٢٥٩.

(٢) الكلدي، مصدر سابق، ١٢٤.

(٣) المصدر السابق، ١٦٤.

(٤) الميسري، الزيدية في اليمن، ٢٨٩، ٢٩٤.

انتشار المذهب الشافعي، ويذكر المؤرخ ابن سمرة الجعدي أن من تلاميذ الإمام يحيى بن أبي الخير (ت ٥٦٨هـ) محمد بن عبدالله الحضرمي، ومسكنه تريم، ثم يذكر عددًا من فقهاء حضرموت من آل بني أكدر وأبا جحوش وابن أبي الحب وغيرهم^(١)، ونشأت حينها (مدرسة الفقهاء) التي حملت لواء العلم، وكان الشيخ يحيى بن سالم أكدر أحد أعلام هذه المدرسة، وله صلة بالإمام محمد بن علي القلعي الذي انتشر به المذهب في حضرموت وضواحيها، وأخذ عن أكدر علماء وفقهاء كثر في القرن السابع الهجري، ((وخلصت تريم للفقهاء يُبدون فيها ويعيدون))^(٢)، وجاء في (المشعر) أن فتاوى السيد سالم بن بصري على أساليب أولي الاجتهاد، وفي ج ٢، ص ٥ منه: ((أن أهل حضرموت يشتغلون بالعلوم الفقهية وجمع الأحاديث النبوية))، وكان الشيخ سالم بن فضل بافضل (ت ٥٨١هـ) قد عاد من العراق بأحمال من كتب الحديث والفقه وغيرها، وأحيا العلم بحضرموت^(٣).

وبدخول التصوف إلى اليمن دخل حضرموت أيضًا، يقول المؤرخ باحنان: ((وإذا صح ما ذكره صاحب (المشعر) عن دخول التصوف إلى حضرموت على يد الفقيه المقدم، فإن الطريقة الصوفية دخلت متأخرة جدًا إلى حضرموت بالنسبة لمبدأ ظهورها في العراق))^(٤). وتميز الموقف بين الصوفية والفقهاء في اليمن، وخاصة في تهامة وعدن بالصراع والتنافس والجدل العنيف... أمّا في حضرموت فقد حدث في البدء غضب من الفقهاء على الفكر الصوفي الغازي عليهم... فغضب العلامة والفقيه الشيخ علي بن أحمد بامروان على تلميذه محمد بن علي العلوي الذي استجاب لدعوة أبي مدين، فتصوف^(٥). ثم تصالح الفقهاء والصوفية فيما بعد، وموقف الأئمة الزيدية من التصوف يتسم بالعداء في جوانب منه، فقد قتلوا عددًا منهم، وهدموا أضرحتهم، وقد أمر الإمام المتوكل إسماعيل سنة ١٠٧٤هـ بإحراق كتاب (الفصوص) لابن عربي الصوفي.

(١) ابن سمرة الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، ٢٢٠.

(٢) أكرم عصبان، التحفة السنية من البلاد الحضرمية، ١٥، ١٣.

(٣) السقاف، مصدر سابق (الإدام)، ٤٣٠، ٤٩٢.

(٤) باحنان، مصدر سابق، ١٣٣/٢، ١٣٤.

(٥) بامؤمن، مصدر سابق، ٢٢٤، ٢٢٥.

ولأئمة اليمن الزيدية وعلماؤها تواصل مع ساسة حضرموت وعلماؤها، فالعالم الزيدي المعتزلي نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٦هـ) زار حضرموت، ودخل تريم ومكث بها زمناً، وأثنى على علمائها، وقد عاصر الإمام أحمد بن سليمان بن محمد المطهر (ت ٥٦٦هـ)، ولا تسعفنا المصادر التاريخية بشيء عن تحركاته في تريم وأسباب زيارته لها. ويقول المؤرخ ابن عبيد الله السقاف: ((سمعت من بعض الشيوخ، ولا أجزم بأن كان شيخنا أبا بكر بن عبدالرحمن بن شهاب أو غيره، أن الاتصال كان وثيقاً بين العلويين وأئمة اليمن إلى أثناء القرن السادس، وعن بعض آخر، من أن العلائق كانت قوية فيما بينهم إلى آخر ذلك القرن، فإن كان الأول فهم منه أن ذلك الاتصال لم ينقطع إلا لما حدث من دخول العلويين في أتباع الأشعري))^(١). ويؤكد قوله في (إدام القوت) بأنه ((كان للعلويين اتصال بالسادة الزيدية إلا أنه تلاشى بعد التمهذب))^(٢).

وسياسياً كان لأئمة اليمن اتصالات بحكام حضرموت، فعلى سبيل المثال توجه السلطان بدر أبو طويرق إلى اليمن في ذي الحجة سنة ٩٢٥هـ، وطلب من الإمام أن يمدّه بجيش لترسيخ دولته، واعتمد على دعم الإمام في حربه مع أبي دجانة في حيريج عام ٩٤٢هـ، وانحاز العمودي إلى الأئمة في القرن العاشر في أثناء صراعه مع آل كثير، وسوّغ هذا الانحياز بتوجه أبي طويرق إلى الأتراك، أمّا الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن العمودي فقد طلب من الإمام أن يعقد له ولاية رسمية على دوعن، فأجابه وكتب له ما طلب، وفي سنة ١٠٦٥هـ تدخل الإمام المتوكل إسماعيل - كما سيأتي - لعقد صلح بين العمودي والسلطان الكثيري.

ولأن الأئمة يعدون حضرموت إقليماً يمينياً؛ لم تهدأ محاولاتهم لإخضاع حكامه لدولتهم، ففي سنة ٩٣٠هـ أرسل الإمام المتوكل شرف الدين (ت ٩٦٥هـ) كتاباً ضمنه قصيدة إلى السلطانين محمد وبدر بني عبدالله بن جعفر الكثيري، يستنهض فيهما الهمم لمواصلة طريق آبائهم بموالة الأئمة والسير في ركايبهم، ومما جاء فيها:

وإنا لندعوكم لما فيه رشدكم ودعوتنا موصولة بالمراحم
فلا تهملوا ما سنّ آبؤكم لكم فما شبه الآباء منكم بظالم

(١) السقاف، مصدر سابق (البضائع)، ٢/ ٧٠.

(٢) السقاف، الإدام، ٤٣٣.

وكلهمو والى إمامَ زمانه
ولما توسمنا الهداية فيكمو
مولاة حُرٍّ مُظهرٍ غيرِ كاتمٍ
وأخباركم مشهورة في المواسمِ
بعثنا لكم طرفين من آل لاحق
نجيين موصوفين بين الصلادم

وقد أجابا هذه القصيدة بنظم ونثر من إنشاء الشيخ عبدالله بن عمر بامخرمة (ت ٩٧٢هـ)^(١) الذي كان بمنزلة سكرتير للسلطنة. وفي قصيدة الإمام ما لا تخطئه عين من دعوة السلطان لسبيل الرشd الذي يعني به الإمام الانضواء تحت راية الدولة الزيدية، وتأكيد وجوب مولاة إمام العصر بوضوح ومن غير تستر، وتكشف رسالة الإمام المؤيد بالله محمد بن المنصور بن القاسم (ت ١٠٥٤هـ) إلى السلطان عبدالله بن بدر أبي طويرق (ت ٩٨٥هـ) (*) أن المراسلات لم تنقطع لإقامة الحجة على السلاطين من خلال وعظهم وبيان الحق لهم، ومما جاء فيها: ((فاعلموا رعاكم الله وثبتكم أننا لم نكرر الدعوة إليكم ونتابع ورود الرسائل عليكم إلا تبليغاً لحجة الله على عباده، ومعذرة إلى الله في الجهاد فيه حق جهاده))، وأفاض في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الطاغين^(٢). وفي عام ١٠٤٤هـ أرسل الإمام نفسه رسالة إلى السلطان بدر بن عمر بن بدر (ت ١٠٧٥هـ) تضمنت الأمور الآتية:

- وجوب مولاة أهل البيت وإعلان شعار الإمامة والثبات عليه.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- الاستقامة في الجَمع والجماعات.

- الرجوع إلى العلماء.

- وعدهم بإرسال علماء إن أرادوا ذلك، قال: ((وأشكر ما منَّ الله به علينا وعليكم وعلى المسلمين من قطع دابر أهل الظلم)). وعلّق ابنُ عبيدالله بأن المراد بأهل الظلم: الأتراك^(٣).

وهكذا نرى أن الصبغة الفكرية ومحاولات نشر مبادئ الفكر الزيدي لا تنفصل عن الهدف السياسي الرامي إلى التوسع وزيادة الرقعة الجغرافية للدولة، فإظهار شعائر الفكر مطلب يتكرر في المكاتبات.

(١) السقاف، مصدر سابق (البضائع)، ٢/ ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٤٣١.

(٣) المصدر السابق، ٢/ ٤٣٤.

وفي سنة (١٠٥٦هـ) تبدأ مرحلة جديدة من العلاقات، مرحلة التدخل العسكري في عصر الإمام المتوكل إسماعيل، كما سنرى في الفصل الآتي.

الفصل الثاني: حملة الإمام المتوكل على الله إسماعيل على حضرموت

أولاً: الأوضاع السياسية والفكرية في حضرموت قبل الحملة وفي أثنائها

دخل القرن الحادي عشر الهجري والأوضاع السياسية بحضرموت تمخض بمخاض عسر؛ نتيجة للأوضاع التي عاشتها المنطقة من صراعات وحروب وتدخلات خارجية، بعد أن بسط السلطان بدر بن أبي طويرق سيطرته على أغلب الجهات الحضرمية، ولم يسلم ملكه من المناوشات القبلية، كثورة الحموم وقبائل دوعن والهجرين ورخية والعمودي وأهل المسفلة والمهرة وغيرها، وتناوشته الصراعات الداخلية ومن أشهرها خروج علي بن عمر بن جعفر الكثيري، واستبداده بشبام وخلعه طاعة بدر، ثم بدأت جولة أخرى من الصراع في البيت الكثيري حينما أزيح السلطان عن الحكم سنة ٩٧٦هـ^(١).

ولعل أهم حلقة في التاريخ السياسي لحضرموت متصلة بموضوع بحثنا، تسلم السلطان بدر بن عمر بن بدر بن أبي طويرق للحكم سنة (١٠٢٤هـ)، وسرعان ما ساءت العلاقة بينه وبين ابن أخيه بدر بن عبدالله الذي كان يتطلع للسلطة، وبالرغم من الأسباب التي تذكرها كتب التاريخ لهذا الخلاف، ومنها الخلاف العائلي على السلطة، وهضمه - أي بدر بن عمر - لحقوق ابن أخيه، إلا أن العلاقة المتينة بين السلطان بدر بن عمر وأئمة اليمن كانت مدخلاً لابن أخيه لإزاحته عن الحكم، ((وحاول إثارة الرأي العام في حضرموت الذي لا يميل إلى الزيود لاختلافهم معهم في العقيدة والمذهب، وبدأ بجمع جماعة من آل كثير والشنافر وغيرهم، ويؤلبهم على عمه، زاعماً أنه سيسهل للأئمة احتلال حضرموت))^(٢)، وتمكن أخيراً من القبض على عمه وابنه محمد المردوف وأودعهما السجن، وبدأ عقد السلطنة ينفرط، ووجد الأئمة فرصة للتدخل، والملاحظ على هذه الحقبة ظهور صراع البقاء والحكم بين السلاطين، واستمرار الحروب، وتطاحن ذوي القوة على السلب والنهب.

(١) للمزيد انظر: ابن هاشم، تاريخ السلطنة الكثيرية، ٧٩، باوزير، مصدر سابق، ١٥٢، باحنان، مصدر سابق، ١٨٤، ١١٥.

(٢) باوزير، مصدر سابق، ١٥٢.

أمّا الناحية العلمية والفكرية فقد كانت هذه الحقبة زاخرةً بالعلم ورجاله، ففي القرن العاشر كثر التأليف في الفنون المختلفة، واستمر خلال القرن الحادي عشر، فكان شيوخ هذا العصر وأعلامه يتصدرون للتدريس والفتيا، ومما لا شك فيه أن اصطباغ الحياة بالفكر الصوفي كان واضحاً، ويحدثنا الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري عن هذا الأمر فيقول: ((وكان ولعهم خاصة بكتب حجة الإسلام الغزالي، ولا سيما الإحياء والبيسط والوسيط والوجيز، يكررون قراءتها المرة بعد الأخرى، ويحتفظون بنسخ منها ينسخونها بخط أيديهم))^(١)، واشتهر عدد كبير من الفقهاء والمتصوفة والأدباء وذاع صيتهم.

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى ارتباط الحكام ومشايخ القبائل بأصحاب العلم، وأثر الفكر في توجيه دفة بعض الحكام، وخاصة أن تأثير التصوف قد شمل الحياة السياسية والاجتماعية، فظهر (المناصب) و(الحَوَظ) رموزاً روحية لا يمكن لأصحاب الحكم تجاوزها، يقول الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري: ((وطبيعة حضرموت وظروفها من شأنها أن توجد فيها هذه المؤسسات العظيمة النفع، ولهذا توجد روابط وثيقة بين هؤلاء المناصب الذين يتمتعون بالوجاهة وحسن العقيدة فيهم - وهو ما يسميه البعض بالنفوذ الروحي - بين القبائل المسلحة، ولهم نفوذ عليهم في حدود معينة... فترى النفوذ القبلي والنفوذ الديني أو الروحي... يمشيان جنباً إلى جنب في تلكم الأزمان))^(٢)، واستشهد لصلة العلماء بالحكام بما كان يقدمه الفقيه الحداد من نصائح لهم، وأنه ((شارك مضطراً في العمل السياسي من أجل وطنه وشعبه... وكان يشير عليهم في نواح اجتماعية فيحترمون إشارته))^(٣).

وفي جانب آخر كان للفكر أثره في توجيه الحكام وحثهم على أخذ زمام الأمور السياسية، يقول الأستاذ محمد بن هاشم عن السلطان جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري: ((وكان المتصلون به من رجال السادة العلويين كثيراً ما ينشطونه إلى القيام بنصرة قومه والتصدي لنيل السلطة))^(٤)، ويورد مثلاً آخر، أن ((السلطان بدر بن عمر بن بدر تولى السلطنة عام

(١) الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ٤١ / ٢.

(٢) المصدر السابق، ٨٠.

(٣) المصدر السابق، ١١٤.

(٤) ابن هاشم، مصدر سابق، ٤٨.

١٠٢٤هـ بإشارة من سيدنا الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوي^(١). وكثيراً ما يصف بعض المؤرخين الحضارم السلاطينَ والحكامَ بأنَّ لهم مسحةً صوفيةً، فقد قال المؤرخ ابن هاشم عن السلطان محمد بن علي بن عمر بن جعفر أنَّ له نزعة خاصة إلى التصوف ورجاله، أمَّا السلطان عبدالله بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر (ت ١٠٤٥هـ) فقد حصلت له جذبةً ربانيَّة - حسب قوله - جعلته يتجرد عن ملكه وأهله، وكان السلطان محمد المردوف يغشى (أولياء الله ومحبيه) في زواياهم، ويستضيءُ بآرائهم^(٢).

ثانياً: الإمام المتوكل على الله إسماعيل (١٠١٩ - ١٠٨٧هـ)

وُلد الإمام إسماعيل بن القاسم عام ١٠١٩هـ، ونشأ في بيت علم وإمامة، فأبوه القاسم (ت ١٠٢٩هـ) وأخوه المؤيد بالله محمد بن القاسم (ت ١٠٥٤هـ) كانا من أئمة اليمن البارزين، وأصبح إسماعيل إماماً بعد أن ناظر معارضيه وتفوق عليهم بالحُجَج، وبدأ حكمه بالتخطيط لتحقيق حلم من سبقه بإقامة الدولة الزيدية المركزية في اليمن، وتمكَّن فعلاً من بسط نفوذه على مناطق كثيرة في الشمال، واتجه بعد ذلك إلى المشرق والجنوب، واستخدم المكاتب والحروب في تنفيذ ذلك، وكان عالماً في المذهب، فحرص على إرسال العلماء والفقهاء إلى البلدان؛ لنشر الفقه الهادوي، إذ كان متعصباً لمذهبه، وله آراء متطرفة تُجَاه مذاهب أهل السنة، مع مرونة في التحوار معهم، وأثارت بعض أفكاره ردوداً من قبل علماء عصره، ومن ذلك رسالته التي سمَّاها (إرشاد السامع في نهب أموال الشوافع) التي ذكرها المؤرخ محمد بن علي الأكوخ في كتاب (حياة عالم وأمير)، وحين غزا يافع والمشرق، وحصل ما حصل من نهب للأموال على اعتبار أنَّها بلاد خراجية، كتب العالم الشهير الحسن الجلال (ت ١٠٨٤هـ) رسالة (براءة الذمة في النصيح للأئمة)، انتقده فيها على إجازته لجنده أخذ أموال الرعايا. وفي جهاده العلمي تصدى لطوائف الإسماعيلية والجبرية والإباحية، وأقام علاقات تجارية وسياسية مع بعض البلاد، وله مؤلفات عدَّة، ومن أشعاره بعد أن بسط سيطرته على حضرموت:

يقول إمام العصر والله ناصره على خاذل للحق رام التباسه
عزمننا على اسم الله ننصر دينه ونهدي إليه من أراد اقتباسه

(١) المصدر السابق، ٩٥.

(٢) المصدر السابق، ٨٣، ٩٣، ١١٢.

وكان يصف مخالفه بالبغاة، وبلغت عداوته للأتراك في مبدأ أمره مبلغاً عظيماً؛ لأنَّ الأتراك عنده من أهل المذاهب الرديئة، واستمر حكمه من عام ١٠٥٤هـ إلى ١٠٨٧هـ.

مقدمات الحملة وأسبابها

ساعد خروج الأتراك من اليمن عام ١٠٥٤هـ - بعد حروبهم فيها - على تسريع أطماع المتوكل لتحقيق أهدافه السياسية والفكرية وحكم اليمن من شرقه إلى غربه، وكان للبُعد الاقتصادي أيضاً مكانته لتمويل نفقات الدولة من خلال الزكوات والخُمُس ومداخيل الموانئ وخاصة مينائي الشحر وعدن، وكذا البُعد الخارجي لمنع وجود الأتراك في الأراضي اليمنية، فعقد العزم على التوجه إلى الجنوب.

وقد أشرنا فيما سبق إلى مكاتبات الأئمة السابقين للمتوكل لسلطين حضرموت، وتبادلهم الهدايا معهم، وقد استغل الإمام إسماعيل ما حصل في السلطنة الكثيرة من صراع على الحكم بعد أن خطب السلطان بدر بن عمر الكثيري للإمام، فضلاً عن محاولة أبناء أخيه انتزاع الحكم منه، وما حصل من بدر بن عبدالله الكثيري من سجن عمه السلطان بدر بن عمر وابنه محمد المردوف، فبدأ يعد العدة للوصول إلى حضرموت.

البعد الفكري للمكاتبات وإرسال العلماء

مثَّلت المراسلات وإرسال العلماء من قِبَل الإمام إحدى المقدمات الفكرية للتمهيد للحملة على حضرموت، ففي عام ١٠٥٧هـ أرسل إلى السلطان بدر بن عمر كتاباً مع الفقيه بدر الدين بن محمد بن عبدالله، وأمره بإقامة الجمعة، وضرب المرفع، وإظهار الشعار، والتأذين بـ(حيَّ على خير العمل)، والخطبة للإمام. ونفَّذ السلطان بعض ذلك، وخاصة الخطبة، فنازعه أقاربه فيما فعل.

ويُصوِّر لنا المؤرخ ابن حميد الكندي أثر الرسالة في السلطان، فيقول: ((حصل على السلطان بدر بن عمر بو طويق نوع من الوسوسة والخيال والخوف القلبي من تهاويل الزيدية واضطرب حاله، ولم يفده نصح الناصحين في الثقة بالله تعالى، وأَنَّهُ تعالى حافظ الجهة وناصر الملة ببركات مَنْ فيها من (الأحياء والأموات)، حتى خطبوا للإمام في حضرموت والشحر وغيرها، وعظَّم ذلك على أهل حضرموت، واستمرت مكاتبته للإمام بنوع مجاملة؛ ظناً منه أَنَّهُم يكتفون بذلك))^(١).

(١) ابن حميد، مصدر سابق، ١/ ٢٣٨.

لقد زلزلت هذه التصرفات أهل حضرموت، وحصلت منهم ردّات فعل لما تحمله من أفكار مخالفة للسائد من المظاهر الشرعية، ومما زاد من تعقّد الأمور ما سرت به الإشاعات من خصوم السلطان بأنّه اعتنق المذهب الزيدي، فأخذ الناس ينفرون عنه، واستغلّ ابنُ أخيه هذا الأمر بتحريضٍ من بعض الأعيان، وأشاع ابنُ أخيه عنه أنّه يمهّد السبيل للإمام لاحتلال حضرموت، فدبّر له مكيّدةً، وأودعه السجن^(١)، فما كان من بدر بن عمر إلا أن أخبر الإمام بما حصل له، ومن هنا بدأت المكاتبات بين الإمام والسلطان بدر بن عبد الله، واحتوى كتاب (تحفة الأسماع والأبصار مما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار) الذي ألفه المؤرخ المطهر بن محمد الجرُموزي (ت ١٠٧٦هـ) على نصوص الرسائل المتبادلة، واعتمد المؤرخون الحضارمة الذين كتبوا عن الحملة على هذا الكتاب المخطوط حينها، ويسمونه (بالسيرة المتوكلية)، ومهّد مؤلفه بذكر الحالة الفكرية بحضرموت، واعتمد في ما كتب - كما يبدو - على رسل الإمام الذين كانوا يفدون إلى حضرموت، وهي وجهة نظره على كل حال وتحتاج وقفات ليس هذا محلها، فقال: ((أهل حضرموت وبواديهم وسواحلهم غلب عليهم الصوفية، مع أن غالبيتهم جبرية محضًا، وفيهم أشعرية وغيرهم ممن يلحق بهم في التأويل))^(٢). وبعد أن ذكر أهل يافع بأنّهم يكرهون الزيدية، قال: ((وأهل حضرموت بدوها وحضرها كذلك مع ما تقدم)). وسطر الجرُموزي هذا أشياء أخرى عن استحلال الملاهي وغيرها، وهو لا يكتب عن مشاهدة كما تقدم، مما يجعل احتمال الوهم والخطأ واردًا، واستدرك عليه المؤرخ العلامة ابن عبيد الله في مواضع من كتابه، ومنها وصفه لبعض أهل حضرموت (بالحلولية)، فقال ابن عبيد الله: ((هذا ما يقوله الجرُموزي من غير خبرة تامة بأحوال الشيخ أبي بكر بن سالم، ولا معرفة بدخيلة أمره، وإنما تلقى ذلك من أفواه الحسدة والمرجفين، فوهم في ذلك كما وهم في الاسم)). وعقد فصلاً في (بضائع التابوت) عن (الحلول ووحدة الوجود)، ثم قال: ((ثم ليس الشيخ أبو بكر - حسبما أعتقد - في شيء من الحلول، وإنّما لعله يفنى من الوجود بالاستغراق في شهود المعبود))^(٣).

(١) انظر: ابن هاشم، مصدر سابق، ٩٦، باوزير، مصدر سابق، ١٥٢.

(٢) الجرُموزي، تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار، تحقيق عبد الحكيم عبد المجيد الهجري، ٦٧/٢.

(٣) السقاف، البضائع ٣٥/٢.

وبعد الانتصارات التي حققها الإمام في يافع عام ١٠٦٥ هـ أطلق السلطان سراح عمه، وأعلن الطاعة للإمام، فأرسل إليه الأمير صالح بن حسين الشويح للتأكد، وعاد الشويح بكتاب للإمام تضمن مدائح وثناءً، وتهنئةً بانتصاراته في يافع، ومما جاء فيه: ((فعلما أن لا حياة في الدارين لمن لا يواليكم، حيث إنكم عترة الرسول ﷺ... ولسنا نجهل أن مصير من ييغض البيت المحمدي إلى سقر)). وذكر أنه أرسل للإمام فقهاء من حضرموت ومنهم أحمد بن عبدالله الجفري وأحمد بن علي بن أحمد عباد^(١)، وأجاب الإمام برسالة شكر فيها السلطان، وأثنى على فعله، وامتدحه، ووعظه بالآيات والأحاديث، مذكراً إيَّاه بواجب الطاعة واتباع الأئمة والقيام بأوامر الشريعة، وقال وهو يصفه: ((منطوياً على تحقيق تولىه لله ولرسوله، ولنا قولاً وفعلًا... وإقامة فرائض الطاعة ومعالم الدين الحنيف من الجُمع والجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإجابة دعوة الله ودعوة رسوله ودعوة هذه الإمامة))^(٢)، وتوالت المراسلات بينهما بعبارات يغلب عليها السجع والمجاملات، كما وصفها الأستاذ محمد بن هاشم، وتحدث بعضها عن إخبار الإمام بالصلح مع العمودي، وفي صفر عام ١٠٦٦ هـ أرسل الإمام كتاباً يعلن فيه أنه سيخضع كل المناطق لاتباعه وإقامة الشرع كما يقول: ((فمن أحب الخير والرجوع إلى الله والتوبة قبلناه، ومن أدبر عن الحق واستكبر واتبع هواه قاتلناه))^(٣).

وفي عام ١٠٦٨ هـ يقرر الإمام إتباع رسائله بعمل لتثبيت طاعة السلطان له، فأرسل القاضي الحسن بن أحمد الحيمي، الذي كان أحد أذرع الإمام العلمية، لمساعدة السلطان فيما يقرره الإمام، وأعطاه كتاباً تضمّن عهداً وبيعة، ويتلخص ذلك العهد في: ((ضرورة القيام برفع منار الدين الحنيف بالجُمع والجماعات، وتعيين من يقوم بهذه الوظيفة الشريفة في كل جانب من تلك الديار من ذوي التفقه في الدين والتقوى والطاعة، وفصل الخصومات بين المتخاصمين والحكومات بين المتحاكمين إن شاء الله، ونصب النواب المعترين والحكام المرتضين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود الشرعية على مستحقيها كما شرع الله وذكر، وإحياء السنة المأثورة ومحو آثار البدع المنكورة، والتذكير بحق الله عز وجل وطاعته،

(١) الجرزموزي، مصدر سابق، ٧٦٦/٢. وانظر ما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ٧٣٣/٢.

(٣) المصدر السابق، ٧٨٨/٢.

وحق رسوله ﷺ الموجب لشفاعته، وحق أهل بيته المطهرين المخصوصين بحفظ سنته وجماعته... وأخذ ما أمر الله بأخذه من واجبات الأموال من نحو الصدقات والأخماس والمظالم^(١). وقد علق الأستاذ سعيد عوض باوزير في (صفحات من التاريخ الحضرمي) على هذا العهد بقوله: ((والرسالة صريحة في تمسك الإمام بحقه في الإشراف المباشر على شئون السلطنة الكثيرة، وحتى في فرض الرجوع إلى مذهب أهل البيت في الأحكام والعقائد، كأنه يريد العمل بالمذهب الزيدي بين أهل حضرموت الشوافع))^(٢).

وبحس العالم الذي يحمل مهمة فكرية، يصف الحيمي جزءاً من الحالة العلمية في حضرموت في رسالة إلى الإمام في جمادى الآخرة ١٠٦٧ هـ، وذكر أنه اتصل ببعض فقهاءها، وأن لهم عناية في إحياء المساجد بذكر الله عز وجل ودروس القرآن وتعليم الصبيان، من غير أن يقارف ذلك شيء من البدع التي يتوهم بها، وأرسل السلطان رسالة للإمام يبين فيها الصلح مع العمودي والالتزام بما ورد في العهد، وقد أرسل هدايا من الخيول، والزكاة والفطرة ومحصول الشحر، وما تم أخذه من البونيان (التجار الهنود) ضرائب^(٣).

وقبيل أن نعرض ملخصاً لسير الحملة يحسن بنا أن نسلط الضوء على ما ساقه الجرُموزي من مسوِّغات فكرية للتعجيل بالحملة، مبتدئاً بما حصل من مشاحنات بين بدر بن عمر وابني أخيه جعفر وبدر، وما دبَّراه لعمهما من حيلة لأخذ ظفار منه، مما أدى إلى توجيهه إلى الإمام الذي تأكد لديه أن السلطان بدر بن عبدالله شريك في المؤامرة على واليه في ظفار، فتبادل معه الرسائل لحل القضية، غير أنه - كما ذكر الجرُموزي - يتلوّن ويروغ، وبعث السلطان الشيخ محمد بن شيبان (من صوفية حضرموت) ومعه كتاب لقائد الجيش الإمامي أحمد بن الحسن، فكان جواب أحمد للشيخ محمد بن شيبان: ((قل للسلطان: هذا كتابي وبعده ركابي وسيفي هذا))^(٤)، وقد قال قبله الإمام حينما وصله بدر بن عمر: ((نُصِرْتَ يا بدر بن عمر))^(٥).

(١) المصدر السابق، ٢/ ٧٩١.

(٢) باوزير، مصدر سابق، ١٥٤.

(٣) الجرُموزي، مصدر سابق، ٢/ ٧٩٦.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٨٣٩.

(٥) ابن القاسم، تاريخ اليمن، ٧٧.

ويضيف الجرموزي من التسويغات الفكرية: ((ولما قررت النواصب في نفوس كثير من الأمة المحمدية وغالب أهل المذاهب المخالفة للذرية النبوية، سوء الاعتقاد في آل محمد ﷺ))، ثم أورد قصة قديمة الحدوث عن السلطان عبدالله بن عمر بن بدر (ت ١٠٤٥هـ) مفادها أن رسل الإمام إليه لم يسمعوا منه وأصحابه إلا كراهة أهل بيت الإمام وأهل البيت ومذهبهم، وأنه قال: ((ما يريدون الزيدية بالكتاب إلينا؟ وتأفف بهم، وتهكم برسلكهم))^(١). وهكذا تعددت الأسباب، فقرر الإمام تجريد حملة على حضرموت.

سير الحملة

بعد أن بسط الإمام سيطرته على عدن ولحج ويافع وما والاها، تطلّع إلى حضرموت، وشارك الشعراء في تحريضه، ومن ذلك قصيدة للقاضي أحمد بن سعد الدين المسوري، حين عزم الإمام على الحملة على بلاد الرصاص وما والاها من بلاد المشرق، يقول فيها:

عزمت على اسم الله بالفتح والنصر وباليمن والإيمان تصدع بالأمر
وحرص جنود الحق في قمع شافة الـ عدو رماء الله بالهلك والبر
تقيم عمود الدين في كل وجهة وتظهر معروفا وتزجر عن نكر

يقول الجرموزي: ((وقامت الخطباء والدعاة إلى الجهاد في صنعاء وجهاتها، فأجابه أهل الهمم العالية والنيات الصادقة))، وخرج قائد الحملة أحمد بن الحسن الملقب بـ(الصفى) (ت ١٠٩٢هـ) في شوال ١٠٦٩هـ بعد أن جمع له الناس مؤونة لجيشه وخيولاً وأغناماً وحبوباً وأغلاً، وانضم إليه من المناطق التي مر عليها أعداد كبيرة من الرجال، وأحمد بن الحسن هذا كان من قادة المتوكل، وكان يميل إلى عقيدة الروافض الاثني عشرية، وأشار على المتوكل بالاحتفال بيوم الغدير، وقاد حملة الإمام على يافع وبلاد الرصاص، وقد امتدحه حينها الأديب علي بن الهادي الصنعاني قائلاً:

سيفتح أقصى الأرض عصمة عصرنا ويُنفذ حكم الله فيمن عصى قسرا
ويملك أقصى حضرموت وشحرها وتخفق في سيئون رايته الخضرا
وينشر فيها العدل من بعد جورهم بأجناد حق لم تزل نحوهم تترى^(٢)

(١) الجرموزي، مصدر سابق، ٢/ ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٧١٩.

وقد مر الجيش بالجوف وبلاد المعصيين وبيحان وبلاد الرصاص وبلاد العولقي، ورافقهم السلطان بدر بن عمر، ومن العلماء عز الدين بن دريب التهامي، والحسن بن أحمد الحيمي، والهادي بن عبدالله الحارثي، وأحمد بن الهادي بن هارون الهادي، وجمال الدين علي بن صلاح الجملولي، ونزل الجيش في بير حليلة من بلاد العولقي، ووصف الجرُموزيُّ العولقيُّ بأن معتقده في أهل البيت سيء، وأمر بعض عسكر الإمام أحد المؤذنين بهذه الناحية أن يؤذن بزيادة (حيٍّ على خير العمل)، فتهدد العولقيُّ المؤذن، ودخلت القوات بلاد الواحددي وعزان وميفعة وأحور، واعترضت الجيش في الطرق عوائق كثيرة، وتعرضت الخيول والجمال للإرهاك والموت، واشتد العطش ونفد الزاد، وقد أرسل أحمد بن الحسن رسالة إلى الإمام يخبره فيها بوصول الشيخ محمد بن شيان من قبل السلطان بدر بن عبدالله الذي اعتذر عن مقابلة قائد الحملة، وأرسل أخاه وابنه.

ولاقاهم الشيخ العمودي واستضافهم وزودهم بالغنم والطعام والجمال دعماً للجيش، ووصلوا يبعث وريدة بامسدوس، وأخذوا ما في حصون السلطان بدر من طعام وتمر.

سيطر الجيش على الهجر الأعلى والهجر الأسفل، ثم وصل محلة نجران وأمامهم جيش السلطان، وحرص الصفي أحمد الجيش على الجهاد، وذكّرهم بأنّه لا يسعهم مع نصر الله تعالى إلا صدق العزيمة وإخلاص النيات، ومن وصاياهم للجيش: ((من خالف تدييره فهو مؤاخذ، وكل فارس يطعن وينزل لقطع الرأس فهو مؤاخذ))، وغيرها من الوصايا، وتلخص الرسالة التي أرسلها الصفي أحمد إلى الإمام سيطرته على حضرموت وتفصيل الحملة، وقد وصفت الاستيلاء على حضرموت بـ(النصر المبين والفتح المستبين)، وافتتحها بقوله تعالى ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ومما جاء فيها:

- الاستيلاء على قطر حضرموت وتسليم حصونه ومصانعه وما فيها من الذخائر والسلاح.

- إذعان أهل الحق جميعاً بالطاعة.

- هروب القبائل التي اجتمعت مع السلطان.

- خروج السلطان إلى هينن بعد قتال شديد وأسر الجند وحصول غنائم من المال والسلاح.

- وصول رسول السلطان إلى المخينيق، وطلبه الأمان.

- وصول قوات الإمام إلى شبام، وإرسال قوات لاستلام حصون سيئون وتريس وغيرها.

- الذهاب إلى سيئون، وتأمين حاشية السلطان وأقربائه وحفظهم من (معرة الجيش).
- أخذ بيت مال السلطان وذخائره غنيمةً، ووصول أهل تريم وسيئون وعينات ومريمة وتريس والغرفة.
- استسلام السلطان^(١).

ولما استقر أحمد بن الحسن في سيئون ((تصرّف في حضرموت كحاكم فعلي في المنطقة، فصادر ممتلكات السلطان بدر، وورّعها على جنوده الزيديين، وأدخل عبارة (حيّ على خير العمل) في نداء الصلاة، وعيّن القضاة للفصل في الخصومات))^(٢).

ونبين ههنا كيف تحدث المؤرخون الحضارم عن هذه الحملة، يقول المؤرخ ابن حميد الكندي في (تاريخ حضرموت): ((فخرج عليهم إمام الزيدية أحمد بن الحسن الملقب (سيل الليل) بخيله ورجله، واستولى على ممالكهم، وزاد في الأذان (حي على خير العمل)، وكم أهرق بسبب ذلك دماء! وكم قُتلت بالتوهم نفوس لا جرم لها!))^(٣). وتوسع المؤرخ ابن عبيدالله السقاف في وصف الحملة، وأطنب في وصفها، وذكر وصول السلطان بدر بن عمر إلى الإمام شاكياً إليه ابني أخيه، ثم قال عن الإمام: ((وغضب غضبةً مُضريّةً من انتهاك حرمة مُحبه وحليفه... وانفصل الجيش يوم الخميس ١٨ شوال عام ١٠٦٩هـ بقيادة الشهم الهصور والصفي المشهور أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد))، ثم قال يصف الجيش: ((لا يعارضه معارض إلا اجتاحه كما يكتسح السيل هشيم الأشجار))، وأضاف: ((وما هي إلا جولة وانهزم السلطان، وتفرقت عساكره شذر مذر... وخلع الصفي على السلطان بدر بن عبدالله وعلى أولاده، وأنزلهم بحيث يستحقون من التأهيل والاحترام حسبما يليق، بسعة حلمه وطيب عنصره وشرف أرومته))، وقال ممتدحاً الصفي مستشهداً بقول الشاعر الحيص بيص:

ملكنا فكان العفو منا سجيةً ولمّا ملكتم سال بالدم أبطح^(٤)

(١) المصدر السابق، ٢/ ٨٣٠ وما بعدها.

(٢) سلوى الغالبي، الإمام المتوكل على الله إسماعيل ودوره في توحيد اليمن، ٩٣، ٩٦.

(٣) ابن حميد، مصدر سابق، ١/ ٢٤١.

(٤) السقاف، البضائع، ٢/ ٥٢، ٥١.

وكتب الأستاذ محمد بن هاشم: ((وهنا ننقل ما كتبه سيدي الحبيب علي بن حسن العطاس العلوي في كتابه (سفينة البضائع)، ومما جاء فيه: (كان خروج الإمام أحمد بن حسن ووصوله إلى حضرموت آخر شهر رجب سنة ١٠٧٠هـ... وبعد ذلك أهل الهجرين خرجوا إلى عند الإمام، وطلبوا أماناً منهم لأهل الهجرين ونواحيها حتى صيخ... وتقدم أحمد بن الحسن وقومه إلى حضرموت، وسلمت له مصنعة هينن بغير قتال، ثم خضعت له جميع مصانع حضرموت، وقابله أهلها... وكتب له السيد عمر بن عبدالرحمن العطاس العلوي كتاباً أوفده مع ولديه حسين وسالم، فقابلهما الإمام بكل تجلة وتبجيل، وقال لهما: أرى عليكما سيما الخلافة ومخائل النجابة. وقرأ في كتاب الحبيب قوله: انظر إلى أهل حضرموت بعين الرحمة ينظر الله إليك. قال: إني لما نظرت هذا طرح الله الرحمة العامة في قلبي لأهل حضرموت))^(١). يقول الأستاذ ابن هاشم: ((وبدخول جيوش الإمام إلى حضرموت انتهت السلطنة الكثيرة تماماً، وأصبح السلطان عديم القوة والشوكة))^(٢). وللأستاذ سعيد عوض باوزير رأي يقول فيه: ((لم يكن بد من استعمال القوة لحل ما عجزت المفاوضات والمكاتبات عن حله، فأصدر الإمام المتوكل أمره بالتعبئة العامة ودعوة الناس في اليمن إلى الحرب... وخرج السلطان بدر بن عبدالله من هينن على رأس عدد غير قليل من جنوده قاصداً إلى معسكره في سدبة، وكانت قد وصلته الإمدادات من عمد والشحر وغيرها))^(٣). وينقل ابن حميد عن المؤرخ الشلي في كتابه (عقد الدرر): ((استولى إمام الزيدية إسماعيل بن القاسم على حضرموت كلها، وانتهت دولة آل كثير من تلك البلاد))^(٤)، وأشار إليها باقتضاب الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري في معرض حديثه عن استشارة السلاطين لأهل العلم، من أن السلطان بدر بن عبدالله بو طويرق ((استشار الإمام عمر العطاس في قتال الزيدية لما بدأوا في اكتساح حضرموت، فأشار عليه بأن لا يقابلهم قاتلاً: إِنَّهُمْ سَيُلْ لِيل))^(٥). ويقول الأستاذ كرامة سليمان بامؤ من عن الحملة: ((في عام ١٠٦٩هـ جهّز إمام الزيدية في شمال

(١) ابن هاشم، مصدر سابق، ٩٩، ١٠٠.

(٢) المصدر السابق، ١٠٠.

(٣) باوزير، مصدر سابق، ١٥٧، ١٦٠.

(٤) ابن حميد، مصدر سابق، ١/ ٢٤١.

(٥) الشاطري، مصدر سابق، ٤١/ ٢.

اليمن المتوكل على الله إسماعيل جيشاً تحت قيادة أحمد بن الحسن الصفي، وقد سمي هو وجيشه (سيل الليل)؛ لقوة جيشه وبطشه ولكثرة غزواته ليلاً، وفي عام ١٠٧٠هـ تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على حضرموت، وعمت طاعته جميع أنحائها قهراً بالسيف^(١).

وأشار إلى الحملة بعض المؤرخين اليمنيين، ومنهم صاحب كتاب (طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى) عبدالله بن علي الوزير (ت ١١٤٧هـ). ويقول يحيى بن الحسين بن القاسم في كتابه (بهجة الزمن في تاريخ اليمن): ((يرى بعض المؤرخين أن أسباب التوسع في المناطق الجنوبية وجود منكرات وجهل وعدم تطبيق الشريعة))^(٢)، وأضاف سبباً اقتصادياً وهو خراج بندر الشحر. ومنهم أيضاً حسام الدين محسن بن القاسم (ت ١١١٧هـ) في كتابه (تاريخ اليمن)، قال: ((وكان الموجب للجهاد الآتي ذكره زفارات الغيظ على صاحب حضرموت وما صنع بعمه)). ويقول المؤرخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي عن توسع حملات المتوكل: ((ولم يزل يفتح البلاد ويطهرها من أرجاس الفساد، حتى بلغ مبلغاً لم يبلغه أحد ممن تقدمه، وملك اليمن بأسره ومدنه وبواديها، وفتح الشحر وحضرموت والمشارق كلها))^(٣).

وفي رمضان ١٠٧٠هـ طلب السلطان بدر بن عبدالله الذهاب إلى الإمام، ولما وصل أكرمه، ثم عاد إلى بلاده بعد سنوات.

إجراءات أحمد بن الحسن في حضرموت

أكرم أحمد بن الحسن - حسب تعبير الجرزموزي - سلاطين حضرموت وفقهاءها، وأخذ (الفطرة)، وردّها على الفقراء، وغيّر المنكرات، ونكّل بمنّ قد فحش عصيانه كأهل الملاهي والبيوت المعهودة الفساد، ونصب القضاة للخصومات، وترك للسلطان عوائده مع أهل بلاده الموافقة للشريعة النبوية وعلى ما جرت به الرسوم الإمامية، وأرسل الفقيه بدر الدين محمد بن علي بن جميل مع ستمائة مقاتل إلى الشحر؛ لمساعدة والي الإمام على الشحر السلطان بدر بن عمر، وتمردت قبائل الحموم، وقتلوا أفراداً من جيش الإمام^(٤).

(١) بامؤمن، مصدر سابق، ٣٠٢.

(٢) يحيى بن القاسم، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق أمة الغفور الأمير، ١/ ٣٢.

(٣) حسام الدين بن القاسم، تاريخ اليمن، ١/ ٣٧، وانظر: الواسعي، تاريخ اليمن.

(٤) الجرزموزي، مصدر سابق، ٢/ ٨٦٨، ٨٦٩.

عاد أحمد بن الحسن إلى صنعاء بعد أن أرهقه وجنوده الأحوال المعيشية وصعوبة العيش في حضرموت، واستخلف السلاطين على حضرموت والشحر وظفار، على أن يقبل منهم الامتثال وظاهر الطاعة والاعتزاء إلى الدولة المحمدية والعصاة العلوية، وأخذ معه من عُرفَ فساده واعتداؤه في الطرقات، واحتملهم معه مكبلين في الحديد^(١)، وقد امتدح الشعراء هذا القائد الذي أصبح إماماً عام (١٠٨٧ هـ) وتلقب بالمهدي، يقول علي بن أبي الرجال فيه:

فظهر أقطار البلاد بسيفه ومهدا للقائم المتوكل
وسار إلى لحج وأطال خنفر بكل فتى ماضي العزيمة فيصّل
وفي يافع لم يبق للقوم نافعٌ من السيف في يوم أغرَّ محجّل
وفي حضرموت فلَّ حدَّ جيوشهم وحكَّم بيض الهند في كل مقتل

ولبيان جغرافية حضرموت وصف أحد مرافقي الجيش بلاد حضرموت في رسالة بعثها إلى صنعاء، فقال عن شبام إنها مدينة كبيرة، وعليها أثر ضعف بسبب توالي أيدي الجبابرة، وفيها جامع عظيم، وحولها نخيل واسع وأنهار ومزارع أكثرها لآل كثير، وأن الطريق من شبام إلى سيئون نخيل وآبار ومزارع، وأما سيئون فمدينة عظيمة، وفيها جامع ومساجد أخرى وأوقاف ووظائف، وكل أهلها بل أهل حضرموت فقراء ضعفاء، وأن وادي حضرموت واد عجيب وسيع رحيب عريض طويل، كله عمارات ومزارع ونخيل متصل من شبام إلى المسفلة^(٢).

موقف أهل حضرموت من الحملة ورأي المؤرخين

يلحظ القارئ فيما كتبه المؤرخون الحضارمة عن الحملة مواقف مختلفة، يدور أكثرها على التغييرات الفكرية التي أحدثتها الحملة، ومن ذلك ما اتخذه الفقيه أحمد بن محمد مؤذن باجمال من موقف سابق للحملة، وبالتحديد عام ١٠٥٦ هـ حينما مهّد الإمام لحملة بالمكاتبات، ف((انتدب له - هذا الفقيه - بالدلائل الواضحة من الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، فخدمت نيرانهم التي كانوا يوقدونها... وبطل ما زعموه))^(٣). ويشير المؤرخ

(١) المصدر السابق، ٨٧١، ٨٧٢.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٨٦٧.

(٣) ابن حميد، مصدر سابق، ١/ ٢٣٨.

عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف إلى أن ((أحمد بن الحسن غادر حضرموت وقد أخذ على أهل حضرموت العهد للسلطان بدر بن عمر بالنيابة عن أمير المؤمنين المتوكل على الله إسماعيل))^(١)، ويستدرك على ما ذكره المؤرخ أحمد بن حسن العطاس من أن القائد الزيدي ((انتهى إلى سيئون ولم يتعدّها إعظاماً للإمام عبدالله بن علوي الحداد))، ووصف هذا القول بالمُشكّل على اعتبار أن الحداد لا يزيد سنه حينها عن ست وعشرين سنة، وظهوره إنما كان بعد ذلك، وأن أحمد بن الحسن دخل تريم، وذكر أن أحد المشايخ آل باوزير استفتى الفقيه الحداد، هل يجوز ترك الجمعة للتكليف بالدعاء لإمام الزيدية في الخطبة؟ فأجابه: ((أن بعض الشر أهون من بعض، وليس في الدعاء كثير محذور، ولكن المحذور إعطاء الزكاة لهم يحكمون فيها بخلاف حكم الله ورسوله، فينبغي بل يجب ألا تُسلم إليهم إلا بشرط أن يضعوها حيث وضعها الله، فإذا علمت هذا فلا وجه لترك صلاة الجمعة بسبب الدعاء لأهل البدعة... وعلى الجملة فاستشرف هذه الطائفة الباغية في هذه الجهة والتفاتتهم إليها مفسدة عظيمة وبلية عميمة وداهية دهياء ومصيبة عظيمة))^(٢). وهذا موقف فكري من الحملة ومبادئها الفكرية، وهو موقف بعض صوفية حضرموت ((الذين لم يرحبوا بقُدوم الجيش الزيدي إلى حضرموت ودخوله مدينة تريم في عهد القطب الصوفي عبدالله بن علوي الحداد))^(٣).

ومن مواقف الفقيه الحداد ما كتبه للسلطان بدر بن عبدالله ينصحه بأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقال له: ((اعلم أنه لا ينفعك أن تجيئهم إلى كل ما يدعون إليه؛ لأن بيننا وبينهم تبايناً في الأصول والفروع، وكلما ندبوك لأمر فانتدبت له ندبوك إلى ما هو أعظم منه، ولا يرضون منك بدون أن تصير أنت ورعيتك زيوداً))^(٤). وقد وصف المؤرخ ابن عبيدالله السقاف العبارة الأخيرة للفقيه الحداد بأن فيها إسرافاً ناشئاً عن عدم الاطلاع على حقيقة الزيدية - كما يقول - لأن من رعاياهم الشافعية والأشعرية، ولم يُجبروا أحداً على ترك مذهبه لمذهبهم^(٥).

(١) السقاف، البضائع، ١/ ٥٣.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٦٨، ٦٩.

(٣) بامؤمن، مصدر سابق، ٢٢٦.

(٤) السقاف، المصدر السابق، ٢/ ٦٩.

(٥) المصدر السابق، ٢/ ٦٩.

ومن الأمور التي حصلت - كما ورد في كتب المؤرخين الحضارم - زيادة (حي على خير العمل) في الأذان، وهو شعار للزيدية، جاء في (المشروع الروي): ((وَزِيدَ فِي الْأَذَانِ حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ، وَتُرِكَ التَّرْضِي عَنْ الشَّيْخِينَ، وَمَنَعُوا الدُّفَّ وَالْيِرَاعَ))^(١). وعند الأستاذ محمد هاشم: ((ومنعت الزيدية راتب الحداد، وتُؤدى بأن يُزاد في الأذان (حي على خير العمل)، ولم يقدر أحد على المخالفة إلا عبدالله عمر بارضوان بافضل المؤذن في باعلوي، فإنه استمر بالأذان العادي من أول خلافة الزيدية إلى آخرها، وكلما هدّدوه بأنهم سيفعلون ويفعلون به سَكَتَ ولم يُجب على أحد، وسَلَّمَهُ اللهُ من معاقبتهم))^(٢). وقريباً من هذا ما ذكره المؤرخ السقاف من أنّهم ((منعوا الرواتب والقنوت إلا بالقرآن، فلم يسع الناس إلا الامتثال، غير أن أحد المشايخ - وكان ظريفاً - أخذ يقنت بهذه الآية ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكُبرَاءَنَا فَأَصْلَحُونَا السَّبِيلَا﴾^(٣٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨] فعاتبوه في ذلك، فقال لهم: أليست آية؟ قالوا: بلى ولكنك تتعمدنا بذلك. وأرادوه على الترك، فلجّ في الامتناع عن القنوت إلا بها، حتى حصلت المصالحة على الدعاء المشهور))^(٣). وعلق ابن عبيدالله على هذه الحادثة بأن فيها شاهداً على أن الزيدية يعطون للحُجّة نصيباً، وأسهب في الحديث بعدها عن بعض ما يفعله الزيدية في الأذان والإرسال في الصلاة، وعند المؤرخ سعيد باوزير أنه مُنِعَ (راتب السقاف)، والمراد به الحضرة المعروفة، ويتفق هذا مع ما ورد في (المشروع) من منع الدف واليراع الذي يُقام في المساجد، وقد مُنِعَ راتب الحداد في المساجد - حسب قول الأستاذ محمد بن هاشم - حتى أعاده السلطان علي بن بدر بن عمر (ت ١١٠٧هـ)، ولعل الذي مُنِعَ ليس الراتب وإنما حضرة السقاف كما تقدم.

وهكذا يتبين أن الزيدية أحدثوا تغييرات فيما يقام من الرواتب والحضرات، وجرت أيضاً بعض المناظرات والتساؤلات، منها أن الفقيه عبدالله بن علوي الحداد أجاب عن أسئلة بعض المستفتين من الزيدية عام ١٠٧٢هـ، ومنهم أحمد محمد الغشم، وحسب رأي الأستاذ كرامة سليمان بامؤ من أن هذا حوار فكري^(٤)، وتتلخص أسئلة الغشم في جوانب مختلفة من

(١) الشلي، المشروع الروي، ١/ ١٣٩، ١٦٩.

(٢) ابن هاشم، مصدر سابق، ١٠٠.

(٣) السقاف، البضائع، ٢/ ٧٠.

(٤) الشاطري، مصدر سابق، ٢/ ١١٢.

الشرع الحنيف، منها سؤال في الاعتقاد عن أفعال العباد، فأجابه: ((إن مذهبنا مذهبٌ وسطٌ بين الجبرية والمعتزلة)). وسأله عمن حارب أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) ونازعه من المسلمين؟ فأجابه: ((أنَّ من خالفه ثلاث طوائف الأولى أهل الجمل والزبير وطلحة وعائشة (عليهم السلام) أجمعين، والثانية أهل صفين ومعاوية وعمرو بن العاص وأهل الشام، وكلهم بايعوا علياً وخرجوا عليه يطالبون بدم عثمان، الثالثة أهل النهروان وهم الخوارج))، ثم قال: ((وكلهم بغاة عندنا ومنازعون بغير حق صريح وصواب واضح))، وأردف: ((وليس الخروج على الأئمة عندنا كفرًا... وليس يزيد عندنا بمنزلة معاوية؛ فإن معاوية (عليه السلام) صحابي))، وسأله عمَّا يُمارس من حضرات في المساجد: ((ما قولكم في هذه الجموع التي نراها في مساجدكم تشد فيها الأشعار الغزلية بالنغمات الطيبة والألحان الموزونة؟))، فأجاب: ((إنها ليست عندنا من الذكر، ولا هي مثله، ولكنها شيء مباح، وتركها أفضل))، ثم قال: ((ونحن على بصيرة من أمرنا، وهدى من ربنا، وكتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بين أظهرنا، ولسنا جاهلين بأمر الدين ولا مبتدعة ولا متبعين الأهواء المضلة))، واختتم جوابه قائلاً: ((والظاهر أنك متعصب على مذهبك، لا تقبل إلا ما وافقه، ولا ترى الحق إلا فيه))^(١). يقول الأستاذ سعيد عوض باوزير معلقاً على تلك المواقف: ((ومما هو جدير بالملاحظة أن الناس في حضرموت كانوا ينظرون إلى مذهب الزيدية على أنه بدعة وضلالة، حتى العلماء منهم الذين يمزجون عقيدتهم السنية ببعض الأفكار الشيعية الإمامية، بل أفتى بعض العلماء الحضارمة من العلويين بعدم جواز إعطاء الزكاة لأئمة الزيدية الذين حكموا حضرموت، وبعدم جواز الدعاء لهم على المنابر، وقالوا إنَّه لا تجب طاعتهم على الحضارمة الذين لا يدينون بمعتقدهم))^(٢).

ثالثاً: اتصال أئمة الزيدية بحضرموت بعد الحملة

انتهت حملة الإمام المتوكل إسماعيل بحسم الخلاف بين سلاطين آل كثير وتعيين الولاية وأخذ العهود، وكان والي الإمام على الشحر الأمير طالب بن عبدالله بن عمر بن بدر، وتولى محمد بن بدر بن عمر الملقب بـ(المردوف) (ت ١٠٨٠ هـ) بعد وفاة أبيه عام ١٠٧٣ هـ بأمر الإمام، ثم تولى بعده أخوه عيسى بن بدر، أمَّا السلطان بدر بن عبدالله فقد عاش في صنعاء،

(١) عبد الله بن علوي الحداد، النفائس العلوية في المسائل الصوفية، ١١٩ - ١٢٤.

(٢) باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ١٢٩.

ثم عاد وتوفي عام ١٠٧٥ هـ.

وفي المدة من عام ١٠٧٠ هـ إلى عام ١٠٨٧ هـ - وهي سنة وفاة الإمام إسماعيل - هدأت الأمور نسبياً، وانتزع آل كثير ظفار من الأمير خلف الذي عينه السلطان العماني سلطان بن سيف، ودخلها السلطان محمد بن جعفر الكثيري، وحول الخطبة للإمام، وذلك عام ١٠٧٣ هـ، وعين الإمام في عام ١٠٧٥ هـ الفقيه أمير الدين القرشي والياً على الشحر، أمّا ولاية حضرموت فللسلطان محمد بن بدر، وفي ظفار الشيخ زيد بن خليل، وليضمن الأئمة استمرار وجودهم؛ أرسلوا في عام ١٠٨٠ هـ عبده الحاج عثمان إلى حضرموت نائباً عنهم، وهكذا لم تحل هذه السنة إلا وحضرموت خالصة لسلطين آل كثير عدا الشحر، وبوفاة المتوكل بادر سلطان حضرموت بإرسال الهدايا للإمام الجديد المهدي أحمد بن الحسن (ت ١٠٩٢ هـ) وإعلان البيعة له^(١). وفي عام ١٠٨١ هـ عين الإمام السلطان علي بن بدر بن عمر بن بدر (ت ١١٠٧ هـ) عاملاً له على حضرموت بعد وفاة أخيه عيسى بن بدر بن عمر، وفي عهد علي بن بدر تمرّد حسن بن عبدالله بن عمر والي الشحر، فخلع طاعة الإمام عام ١٠٩٣ هـ، وبث روح العصية والمذهبية في الناس، لكن علي بن بدر أخرجه منها، غير أن الانصياع للأئمة بدأ يتضاءل، ولم يبق لهم عزل ولا ولاية عدا الخطبة وإكرام من جاء من قبلهم^(٢).

ويظهر في الساحة السلطان بدر بن محمد المردوف بعد وفاة علي بن بدر عام ١١٠٧ هـ، وفي عصره ((تغلبت السلطة اليافعية على السلطة الكثيرية الإمامية... وانقسم المجتمع الحضرمي سياسياً ومذهبياً بين سلطة الشوافع التي يعضدها بدر بن محمد، وسلطة الزيدية التي يؤيدها آل عبدالله^(٣)، وتبدأ مرحلة بلغ فيها الخلاف مستوى كبيراً من خلال استقواء كل طرف بحلفائه، غير أن التواصل الإمامي شق طريقه في ظل هذه الأجواء المتلبدة بغيوم النزاعات وعدم الاستقرار، فأرسل الإمام المهدي الفقيه أحمد بن ناصر بن محمد الحيمي، الذي التقى ببعض علماء حضرموت، ومنهم العلامة عبدالله بن أبي بكر قدري باشعيب،

(١) الوزير، طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، ١٩٥، ١٨٧.

(٢) للتوسع انظر: ابن حميد، مصدر سابق، ١/ ٢٤٢، والسقاف، إدام القوت، ٤٣٩، وابن هاشم، مصدر سابق، ١١٥.

(٣) ابن هاشم، مصدر سابق، ١١٦، وينظر: البكري، تاريخ حضرموت السياسي، ١٠٨.

الذي أجازته الحيمي في منظومة على عقيدة مذهبه))^(١).

وظهر من آل كثير عمر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن بدر، ليتزعم معارضة بدر بن محمد المردوف وعلاقته بيافع، وخاصةً بعد أن تفاقمت الأمور في عام ١١١٣ هـ بقدوم المدد اليافعي عن طريق الشجاع عمر بن صالح بن هرهرة، الذي وصل حضرموت قادماً من يافع لزيارة آل الشيخ بن أبي بكر في عينات، ومعه نحو خمسين فرداً. وينقل المؤرخ السقاف في (إدام القوت) عن الرحلة التي كتبها ابن هرهرة ما مفاده أن الشيخ علي بن أحمد بن الشيخ أبي بكر أمرهم بالخروج إلى حضرموت ((لأن السلطان عمر بن جعفر طغى وبغى وعظم الشعائر الزيدية))^(٢). ويؤكد ابن هرهرة للسلطان أن خروجه كان لإخراج الزيدية وإزالة خطبها طوعاً أو كرهاً. وينقل المؤرخ ابن هاشم عن أحمد فضل في كتابه (هدية الزمن): ((أن يافع إنما ساروا إلى حضرموت لإنقاذ من بها من أهل السنة (الشوافع) عندما استصرخهم وليّ الله السيد علي بن أحمد بن علي بن سالم بن أحمد بن حسين بن الشيخ أبي بكر مولى عينات عام ١١١٦ هـ لمحاربة السلطان عمر بن جعفر الذي انتحل مذهب الزيدية وعظم شعائره في حضرموت))^(٣).

وخلال السنة المذكورة حصلت أمور تتعلق بالوجود الزيدي في حضرموت، منها أن بعض الزيدية غادروا ومنهم النقيب سيلان الشامي، وتم إشعار خطيب تريم أن يرجع الخطبة الثانية (النباتية)، ويذكر الصحابة كما في الخطبة، ويذكر الإمام أيضاً، وبلغ الخوف بالناس مبلغه بعد أن حصل قتال بين السلطان بدر بن محمد المردوف وعمر بن جعفر الكثيرين ومن معهم من الحلفاء، وهُزم فيه عمر بن جعفر، وتمكن بدر من الاستيلاء على جميع حضرموت، وأمر أمير سيئون خطيب الجمعة أن يخطب للإمام وللسلطان بدر بن محمد المردوف، وذلك في محرم ١١١٧ هـ، وحين اشتد الصراع وتوالت الأحداث خاف من بقي من الزيدية بسيئون، ومن العجائب أن الدائرة بدأت تضيق عليهم في حضرموت، فقد نقص عليهم المصروف، بل أمروا في وقت عيد الفطر بعدم فعل ما اعتادوه من زوامل، بالرغم من

(١) ابن حميد، مصدر سابق، ١/ ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٤٩، وانظر: السقاف، إدام القوت ٥٩٩.

(٣) ابن هاشم، مصدر سابق، ١١٨ والسقاف، البضائع، ٢/ ٨٤-٨٦.

السماح ليافع بترديد الزوامل والبرع، وعدَّ الزيدية هذا إهانةً لهم^(١).

ولحسم الأمور توجَّه السلطان عمر بن جعفر إلى صنعاء، ورجع منها في جمادى الأولى ١١١٨هـ إلى الشحر، وكان معه دراهم عليها لفظ الجلالة والشهادتان واسم المهدي، ووصل بعد ذلك كتاب الإمام المهدي يطالب فيه أهل حضرموت بالطاعة وإلا قدم بجيشه، وأعلن مندوبه أن الناس في أمان المهدي.

واضطربت الأحوال مرَّةً أخرى، وأُعلن في سيئون أن الناس في أمان الله ثم في أمان الإمام المهدي والسلطان عمر بن جعفر، قال المؤرخ عبدالله بن علي الوزير في كتابه (تاريخ اليمن): ((وفيها - أي سنة ١١١٨هـ - أخرج أهل يافع من حضرموت من الزيدية، وكانوا رتبة من الأيام المهدوية الأحمدية، وقد كانوا بها أهل أسباب ونخيل))^(٢)، وقد حصل هذا بعد أن تم ترتيب عسكر يافع في شبام، فارتاب الزيدية وغادروا، ووصل كتاب من الأمير سعيد أن لا يبقى في سيئون زيدي، وقُطِعَ الدعاء للإمام في خطبة الجمعة.

لكن هناك نوع من التواصل لم ينقطع، كتوجَّه السلطان عمر بن جعفر إلى اليمن لتهيئة الإمام وإعلان الطاعة^(٣)، والمكاتبات بين الفقيه عبدالله بن علوي الحداد والإمام القاسم بن الحسين (ت ١١٣٩هـ) والفقيه أحمد بن محمد ناصر الحيمي، وذلك عام ١١٢٨هـ.

وتموج البلاد بأحداث كبيرة، لنصل إلى عام ١١٢٩هـ، فيستجير السلطان عمر بن جعفر مرة أخرى بالأئمة، ويحضر معه مئات من قبيلة دهم، وتجتمع عليهم قبائل حضرموت، وتبيدهم جميعاً، وبهذه الهزيمة تنتهي أحلام السلطان، وانشغل الأئمة حينها بأوضاعهم الداخلية.

وفي القرن اللاحق تراود طاهر بن الحسين العلوي أحلام إقامة دولة، ويشير عليه أخوه عبدالله بالاتصال بأئمة اليمن، وفي القرن الرابع عشر يتصل العلامة عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف بالإمام يحيى حميد الدين، ويزوره ويستنجد به؛ لإزالة الظلم وتطلعات المستعمر البريطاني، فيقول في قصيدة أرسلها للإمام:

(١) ابن حميد، مصدر سابق، ١/ ٢٦٢ وما بعدها، وابن القاسم، مصدر سابق، ٢/ ٣١٦.

(٢) الوزير، مصدر سابق، ٢/ ٣١٧.

(٣) السقاف، البضائع، ١/ ١٤٤، ١٤٥.

نغار من الأمر اليسير يناله فكيف وفي استعمارهِ استشرف الكفرُ
فهل من خلاص هل لنا من وسيلة يُذاد بها عن قطرنا الطاهر الشرُ
ويقول في أخرى:

أبا الفضل قد أضحى عليك استنادنا وما خاب إنسانٌ عليك استناده^(١)
والخلاصة أنَّ المرجعية الفكرية للحملة الزيدية المتوكلية على حضرموت في القرن
الحادي عشر الهجري كانت واضحةً في مكاتبات الأئمة التي حملت سمات المذهب
الزيدي وطلب الطاعة والولاء للإمام، وإقامة بعض الشعائر المتصلة بالمذهب،
والحصول على موارد مالية تبعًا لما ينص عليه الفكر الزيدي. ولتباينه مع المذهب
الشافعي؛ لم يستطع أن يحقق انتشارًا يُذكر، عدا مراسيم ومظاهر ليست جوهرية، بل
ظل الناس حتى الحكام على مذهبهم، ولم تتأثر المحاضن الفكرية كالمدارس وحلقات
التعليم في المساجد وغيرها، ومارس أهل التصوف عوائدهم، باستثناء ما منعوا منها
كحضرة السقاف، ولم يكن للعلماء والفقهاء الذين وصلوا من قبل الأئمة نشاط علمي
أو فكري مؤثر، ويبدو أن البعد الجغرافي لمركز الأئمة عن حضرموت قلل من تأثيرهم،
بخلاف اليمن الأوسط الذي أحدثوا فيه تغيرًا ملموسًا.

(١) السقاف، ديوان عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، ٤٥٤، ٤٦٢..

قائمة المصادر والمراجع

(أ) المخطوطات:

- عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت.

(ب) الموسوعات:

- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(ج) الدوريات:

- التحفة السنية من البلاد الحضرمية، تريم، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠.

المصادر المطبوعة:

١- إسماعيل بن علي الأكوخ، الزيدية في اليمن نشأتها ومعتقداتها، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢- المطهر بن محمد بن أحمد الجرموزي، تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار، تحقيق عبدالحكيم بن عبدالمجيد الهجري، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية عمّان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣- جمال عبدالحبيب الكلدي اليافعي، المذهب الشافعي في اليمن، دار الوفاق، عدن، ١٤٣٣هـ/ ٢-١٢م.

٤- حسام الدين محمد بن القاسم، تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مطابع المفضل للأوفست، صنعاء ١٤١٤هـ/ ١٩٩٠م.

٥- سالم بن حميد الكندي، تاريخ حضرموت، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٦- سالم فرج مفلح، حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر الهجري، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا ٢٠٠٦م.

٧- سعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن ١٩٨٣م.

- ٨- سعيد عوض باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع، غيل باوزير ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.
- ٩- سلوى سعيد الغالبي، الإمام المتوكل على الله إسماعيل القاسم ودوره في توحيد اليمن، (رسالة ماجستير) جامعة الملك عبد العزيز، جدة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م (نسخة إلكترونية).
- ١٠- عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، معجم بلدان حضرموت المسمى (إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت)، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي وعبد الرحمن بن حسن السقاف، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- ١١- عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، الديوان، مطبعة لجنة البيان العربي.
- ١٢- عبد الله بن علوي الحداد، النفائس العلوية في المسائل الصوفية، دار الحاوي للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- ١٣- عبد الله علي الوزير، طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٥م.
- ١٤- عبدالله بن محمد سالم باكثير، رحلة الأشواق القوية لمواطن السادة العلوية، مطبعة العلوم ١٣٥٨هـ.
- ١٥- عبد الواسع بن يحيى الواسعي، تاريخ اليمن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.
- ١٦- عمر بن سمرة الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ١٧- كرامة مبارك سليمان بامؤمن، الفكر والمجتمع في حضرموت، بدون دار طباعة ولا سنة نشر.
- ١٨- محمد بن أبي بكر الشلي، المشرع الروي،
- ١٩- محمد بن أحمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، مكتبة الشعب، المكلا، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.



- ٢٠- د. محمد عبدالله الميسري، الزيدية في اليمن، دار الوفاق، عدن، ١٤٣٥هـ / ١٤١٤م.
- ٢١- محمد بن علي باحنان، جواهر تاريخ الأحقاف، مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.
- ٢٢- يحيى بن الحسين القاسم، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق أمة الغفور الرحيم، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م. (نسخة إلكترونية).



كتاب (المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي)

قراءة تحليلية

د. عبدالقادر علي باعيسى

جامعة حضرموت

تعريف بالكتاب انطلاقاً منه :

يعرض كتاب (المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي) تأليف السيد محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي لفضائل العلويين الحضارمة من خلال ما يقرب من ثلاثمائة ترجمة لهم يبنى عليها مشروع كتابه الذي يستند في أوله إلى نصوص من القرآن الكريم، وأقوال الرسول ﷺ، قارناً إياها بالممارسات العملية والقولية التي كان يؤديها العلويون مقررًا بصورة ضمنية وحدة القول والفعل، أو وحدة المعطى التوجيهي الكريم الصادر عن الرسول ﷺ، والسلوك الذي صدر عن أحفاده - أوليائه، وقد أضفى على الكرامات ما وسع به فضاء تصوره عن بني علوي بوصفه فضاء متعدد القيم والشواهد على فضلهم ومنزلتهم، ناقلاً عددًا من المكارم والمآثر عن كتب سابقة مثل كتاب (الجوهر الشفاف في كرامات السادة الأشراف) للشيخ عبدالرحمن بن محمد الخطيب الأنصاري، وكتاب (البرقة المشيقة في لبس الخرقة الأنيقة) للشيخ علي بن أبي بكر بن عبدالرحمن السقاف، وكتاب (غرر البهاء الضوي في مناقب السادة بني علوي) للسيد محمد بن علي خرد باعلوي، وكتاب (الترياق الواف بأخبار السادة الأشراف) للسيد عمر بن محمد بن أحمد باشيان باعلوي، وكتاب (المنهل الصافي) للسيد عبدالله بن عبدالرحمن باهارون وغيرهم^(١).

وهو كتاب يقوم على الغيبيات التي تحضر في أذهان المؤمنين بها بصورة تبدو أنقى من اليقين، بوصف الناقلين للكرامات مرجعيات دينية وأخلاقية رفيعة يعتمد عليها المؤلف في تقديم الموروث دليلاً حياً قادمًا من الزمن الماضي لتأكيد صحة اعتقاده في هذا المنحى، فتعتلي بذلك المعرفة التي يقدمها الكتاب إلى درجة التقديس بوصف الكرامات نتاج معرفة

بالله وإخلاص له، بل إن الشلي نفسه واحد من المعترف بقيمتهم، فقد جاء في التعريف به على غلاف الكتاب (العلامة الجليل الحبيب العارف بالله تعالى)، وعليه فالكتاب لا يشكل بنية مستقلة بذاتها، وإنما هو جزء من بنية مندمجة في منظومة نسقية زمنية وتراثية سابقة عليه^(٢).

وربما تكون بعض حكايات الكتاب عرض لها شيء من التفخيم من قبل المؤلف لينحو بكتابه هذا المنحى الوجداني الذي يطري فيه كرامات الأولياء، وهي كرامات غير منكورة في مستواها المعقول لا سيما أن نموذج الولي الصالح ظهر في التاريخ الإسلامي بأنه الجهة التي يمكن اللجوء إليها للتوسل إلى الله لإنقاذ المجتمع مما هو فيه من ضنك، أو مرض، أو مجاعات، أو أوبئة نظراً لما يتمتع به من طهر وصفاء روحي، وعليه فإنه يتم الانتقال من البنية الحسية للرجل الصالح المائل بجسده أمام مريديه إلى البنية الأعمق له المتمثلة باتصاله بعالم أسمى مما يجعلهم ينظرون إليه بصورة مختلفة بوصفه قادراً على التدخل في شؤونهم، وإجراء تغييرات جوهرية في مسارات حياتهم حتى يتعزز حضوره الروحي - الاجتماعي، ومن ثم حضور العائلة بأكملها، فتضخيم الصفات في الكتاب الذي بدأ من مضاعفة دلالة العنوان التعبيرية بزيادة لفظة (الكرام) إلى (السادة)، (في مناقب السادة الكرام) يحيل إلى تفخيم مقصود يتغياه المؤلف ترسخ من خلاله نظرة تقديرية لهؤلاء ذات طبيعة زمنية متواصلة، وتحقق مثل هذه التعبيرات في متن الكتاب بصورة واضحة مليئة بصفات الشرف من مثل «وإن السادة الأشراف بني علوي منحوا مراتب جلييلة من صاحب الرسالة، وخصوا بعدم الشهوات والشبهات، واعتقاد أهل الضلال، فحفظهم الله تعالى من الميل مع من مال إلى التشيع والاعتزال»^(٣)، وكانوا «الوارثين علم السلف الأوائل بحسب ما انتهى علمي إليه، ووقفت بحسب الحال الحاضر عليه، كالمقتبس من تلك المصاييح ذبالة، والمغترف من ذلك البحر بلالة، على أي لو ذهبت أذكر من فيهم من الأعيان وأبين تراجمهم بعض البيان لاستدعى ذلك تأليفاً طويلاً، وكتاباً حافلاً جليلاً»^(٤).

ومع أن كتاب (المشرع الروي) يقوم في بعض كراماته على تواصل ميتافيزيقي مع شخصيات روحية غادرت الحياة، فقد حدد فيه مؤلفه منهجه وطريقة كتابته فقال: «فليس لي في هذا الجمع إلا حسن الاختيار من كلامهم، والتبرك بالدخول في نظامهم، وما نحن معهم إلا كما قيل:



ومالي فيه سوى أنني أراه هوى وافق المقصدا
وأرجو الثواب بكتب الصلاة على السيد المصطفى أحمدا

ثم ضمنت إلى ذلك ما استفدته من تردادي في البلاد، ومخالطتي للعباد، من أخيار أهل عصرنا السادة الحضارمة الذين امتطوا غابر المجد وسنامه، ولا أذكر إلا من كثر في طريق القوم زاده، وكبر في العلوم مزاده» (٥). وقوله: «ولا أورد من الكرامات إلا ما رواها عدل متيقظ ضابط عن مشاهدة، أو عما يقبل خبره كسائر الأخبار، ولا أثبتها بمجرد اشتها» (٦)، وقد وضع كل شخصية في مكانها حسب منهجه فقال: «وأرتب أسماءهم على حروف المعجم، ليسهل طرازها المعلن، من غير تقديم مؤخر عن مقدم، ولا تأخير عظيم عن أعظم، وأورد المتسمين بالاسم الواحد على حروف الهاء في أسماء آبائهم في الأعداد، وأسعى في إيراد المتفقين في الاسم واسم الآباء على ترتيب الحروف في الأجداد، كل ذلك بعد أن أقدم المتسمين بأشهر أسماء رسول الله ﷺ وهو محمد توقيراً له عليه الصلاة والسلام بتقديم أشهر أسمائه الغرر، واقتداء بمن سلك هذه الطريقة من علماء الأخبار والأثر، فأقضي لمن اسمه محمد بالتقديم، وإن كان الترتيب يقتضي لمن اسمه إبراهيم، وأوصل نسب كل واحد إلى أقرب جد مشهور، وبالعلم والولاية مذكور، وأذكر لقبه الشهير، وفخذه أو بطنه الكبير» (٧)، مسبغاً على كل شخصية عدداً من الألقاب والمزايا تشكل في مجموعها حالة كبيرة من المحامد، وتبلور ظاهرة روحية وفكرية واجتماعية توحى بأن الكتاب لم يأت من فراغ، ولم يفض إلى فراغ، لا سيما أنه امتلأ بعدد من الموجهات القرائية الظاهرة والباطنة التي تسيطر على ذهن القارئ، وترغب في صناعة وعيه، أو في الأقل تهيئته لتقبل جو ذهني ونفسي واجتماعي وإيماني معين.

ولكي يعزز المؤلف هذا المنحى لا بدَّ له من أن يحيل إلى المرجعي في مكان وزمان معين، فأما المكان فهو تريم وضواحيها في الأغلب الأعم، وأما الزمان فيمتد لعدة قرون خلت، وربما كان أولئك الذين ترجم لهم لا يرغبون في الترجمة لأنفسهم لما عرفوا به من الزهد، والتواضع، والمسكنة، لكنه اهتم بهم بوصفهم رموزاً دالة على قيم يسعى إلى تثبيتها، فهي تراجم ذات هدفية خاصة، وتخوض في عالم روحي لا نعرف عنه الكثير، فمن حيث الموضوع يعد بالنسبة إلينا موضوعاً مغلقاً أو مكتفياً بذاته ما دمنا لا نعرف خصوصياته إذ إن

ما يجري فيه مرتبط بتحول غامض تعيشه بعض الذوات البشرية، فنحن لسنا أمام شخصيات مباشرة بل أمام تكوينات بشرية - رؤيوية تخضع للكشف الباطني الخالص.

إنه كتاب ينقل سلوك الأرواح وعلاقتها في ما بينها التي تبدو أشبه بالرموز، وإن استخدمت لغة مباشرة لعدم معرفتنا بمجريات التداولات الحقيقية فيها والتي نقرؤها داخل النصوص فقط، وتعرفها جماعات خاصة معرفة يقينية كما يبدو من خلال الكتاب، بينما يعرفها القراء من الخارج معرفة خيالية يمكن أن تسيطر على وعي بعضهم بحوادثها الغيبية في ما يمكن أن يرى بعين خيالهم الذي ينشط في إطار هذا الأفق، ويترتب عليه تصور لعالم البرزخ يؤثر في مجرى حياتهم.

وظيفة الكتاب:

إن الوظيفة التي يسعى إليها الكتاب كما يبدو هي تطهير الأخلاق، وتركيز النفوس، والابتعاد عن مغريات الحياة، وإدخال الناس في أجواء خاصة من المحبة الروحية الرابطة بين الأحياء والأموات على حد سواء عن طريق فتح علاقة مع العالم الغيبي «وقد كان كثيرون من أهل الكشف يشاهدون البركات الظاهرة والأنوار الباهرة في هذه الجنان، وشاهد غير واحد منهم أنهم على غاية من النعيم والنور الجسيم»^(٨)، وقد «حكى أن الشيخ أبا سعيد قرأ سورة هود، ولما بلغ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ جعل يردد الآية، ويتفكر، ثم قال يا أهل القبور ليت شعري من الشقي منكم ومن السعيد، فأجابه الإمام العارف بالله تعالى أحمد بن محمد بأفضل من قبره بقوله امض يا سعيد في قراءة تك فليس فينا شقي، وقيل الذي أجابه هو الشيخ مسعود بن يحيى باحرمي، ولعل الواقعة تعددت»^(٩)، وهو ما يمكن تفسيره أيضًا بالإضافة إلى تركيز الأخلاق بأنه فرار من الواقع أو بالمعنى الزهدي ابتعاد عن مغريات الحياة الدنيا، ونحن لا نعرف طبيعة هذه الانتقالات بين الأحياء والأموات وماهيتها، وإن كانت -كما هو واضح- تسعى لإنقاذ الإنسان بما هو تكوين إنساني فقط، بالمعنى الروحي للكلمة لا بوصفه كيانًا في مجتمع منظم يبني حياته على نظم اجتماعية واقتصادية ومعيشية وحقوقية معينة، أي إنها تبحث عن إنسان خاص مفرد في صفاء نيته، وطهر طويته مما يتطلب التصديق الإيماني بها بوصفها ركيزة روحية لا بدَّ منها لفهم أجواء الكتاب وأجواء تريم في ذلك الوقت، فهذه الظاهرة لا يمكن تحديد ضوابط موضوعية لها، فالولي الصالح هنا كائن

حسي وكائن ميتافيزيقي في الوقت نفسه، ومعروف أن الميتافيزيقا تفصل الفكر عن الحواس ولا تعتمد على معطيات هذه الأخيرة^(١٠).

والكتاب يقوم -من جانب آخر- على شكل من أشكال إبراز (الأنا) الاجتماعية (أنا العائلة أو القبيلة)، التي تبرز نفسها بوصفها عنصرًا نموذجيًا من خلال هذا التراكم في تراجم الأعلام الذي ينيف على مائتين وثمانين ترجمة؛ دالة على شكل خاص من أشكال الوعي المرتبط بتصور المثالية في القبيلة، بحيث ترى صورتها باستمرار في مرآة صافية تزداد عذوبة وروعة في عينيها كلما ازدادت مآثرها، إنها حالة من حالات إبراز الذات، وشكل من أشكال التواصل النوعي مع الواقع بنمطية فوقية، وآلية من آليات دفاع الجماعة (القبيلة) عن نفسها عن طريق هذا الشكل من أشكال القوة الروحية الناعمة المرتبطة بمثل اجتماعي وروحي أعلى^(١١).

إن شيوع مثل هذه الكرامات يكون له أثر في النواحي السياسية والاجتماعية والنفسية للمجتمع، ناتج عن الترابط بين حكايات الغيب وهذه النواحي على أساس روحي أو مثالي فحقيقة التجربة هنا تنتمي إلى عالمين مختلفين أو متناقضين هما عالم الأحياء وعالم الأموات حيث يختلف الزمان والمكان حتمًا، زمن الحياة وزمن ما بعد الحياة، فالميت يتحدث من زمن آخر ومكان آخر لا نعرف ماهيته، فهل الذي يتكلم معه من الأحياء في تلك اللحظة يتصل بالمكان والزمان الغيبي أو يتصل بالمكان والزمان الدنيوي؟ الأرجح -ومن خلال الكتاب- أنه يتصل بالعالم الغيبي، وعليه فهذان العالمان متناغمان ما دام أحدهما يهتدي بالآخر، ويتكامل معه مع ملاحظة أننا ننظر إلى هذه التجربة من الخارج لأننا لا نعرف كنهها من الداخل، فالتجربة الإيمانية تجربة خاصة يتسم جمالها بصفات مثلى ينتج عنها السعادة بالأعمال الصالحة، وفي عالم الأموات والأحياء معًا، أو الأحياء والأموات لا توجد انقسامات فالجميع محكوم بسعادته بذلك العالم كما تقول لغة الكتاب (لغة الأولياء - الصالحين)، التي لا يمكن عدّها لغة الواقع، وإنما لغة ما بعد الواقع، فهذه اللغة مكشوفة في جانب، مبهمة في جانب آخر، مكشوفة من حيث بساطتها ووضوحها التعبيري، مبهمة من حيث المضمون الذي تتحدث عنه، فالحي والميت ينطقون على حد سواء على أساس أنهم يعيشون علاقات متفاعلة، ومن خلال ذلك كله تظهر نموذجية الإنسان المتحدث عنه، حيًّا كان أو ميتًا.

واللافت في هذا الكتاب قوة المنزع الوثوقي والإطلاقي الذي ينطلق منه المؤلف والذي يدل على لحظة من لحظات تشكل الوعي في حضرموت في مرحلة تاريخية معينة بحيث يبدو هذا الوعي الغيبي هو الموجه لكل القيم، بل ربما المشرع لها فإذا وعى أولئك (العارفون) أنفسهم ذواتاً متصلة بعالم الدنيا وعالم الآخرة أصبحوا مصدرًا أسمى لكل حقيقة ولكل معرفة، وصاروا قبلة المجتمع.

لكن ماذا يكسب المجتمع من هذه التجارب الدائرة على الذات في واقعه ومستقبله؟ وإلى أين يقود هذه التكرار للبركات على مدى عشرات السنين؟ في الأرجح يرتب تصورًا عامًا لقبلية معينة عن نفسها وعن موقعها في الحياة الدينية وفي المجتمع بشكل عام، هم العلويون تحديدًا، لكن ماذا يحقق ذلك للمجتمع بوصفه كلاً ينبغي النهوض به في جوانبه المختلفة؟ الإجابة سلبية هنا مما سيفضي عند الجماعة العلوية بالضرورة «إلى نوع من التمرکز حول الذات بوصفها المرجعية الأساسية لتحقيق أهمية كل شيء وقيمتها»^(١٢).

لقد هيمن هذا الوعي على حضرموت، فحينما فرغ المؤلف من تبييض أول نسخة من كتابه كما يقول الدكتور محمد يسلم عبدالنور: «تناقلها بعض النساخ، وكان لها صدى عظيم في الأوساط العلوية والحضرية والمهجر، وأقبل على نسخه وقراءته طلاب العلم، حتى لقد أشار عبدالله بن علوي بن محمد الحداد (ت ١١٣٢هـ / ١٧١٩م) على مريده أحمد بن زين الحبشي (ت ١١٤٤هـ) بأن ينقل عن هذا الكتاب، ويجمع فوائده منه، فامتثل لأمره، فكان حصيلة ذلك كتابه (المسلك السوي في جمع فوائده مهمة من المشرع الروي)، كما ذيل على (المشرع الروي) السيد عبدالرحمن بن مصطفى (ت ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م)، ولا توجد منه نسخة سوى نسخة خطية في سورت بالهند»^(١٣).

وكتاب (المشرع الروي) عندما يقدم تلك القيم لا يقدمها بشكلها المجرد، وإنما يقدمها من خلال الرجال في ما عملوه، إنه يقدم الأخلاق من خلال تقديم الأفعال التي تعطيها المحصلة الأخيرة الرجل النموذج، فتعامل البشر مع البشر يعين على التعلم بسرعة، ولهؤلاء الأولياء الصالحين عدد من المواقف النادرة المتفوقة على طبيعة الحياة الاعتيادية، والتي تتجاوز إمكانية الحواس وإمكانية العقل لتصل إلى إمكانية أخرى تختلف عن كليهما، ولذلك تنمو حكايات الكرامات بغير عوائق وتنتشر بطريق سريعة في المجتمع، ولعلهم كانوا

يرونها طريقة مثلى لإصلاح العالم، وهي طريقة خطيرة إذا ما أوغلت في الغيبيات بصورة كبيرة، وكما حدث في بعض مناحي الكتاب أيضًا، غير أنه وكما يبدو لي فهذه الكرامات ليس غايتها وصول المجتمع إلى الحقيقة بالضرورة؛ لأنه لا يمكن فحص طبيعتها، وإنما غايتها الإصلاح والهداية، وهذا ما يتفق مع ما أشرنا إليه آنفًا من أنها كرامات كائنة في ذاتها، فموضوع البرهنة عليها لا يمكن أن يتم بصورة علمية، لكن أثرها عميق، وهذا هو المهم، ولم يكشف لنا أولئك الصالحون عن الطرائق السرية التي تجعلهم يتصلون بذلك العالم، وهل يكون الاتصال على مستوى التخيل أو على مستوى الخطف الوجداني؟ وهل يمكن أن تختلط الحقائق التي يشاهدونها في درجاتها ومستوياتها أو تظل كل حقيقة محتفظة بخصوصيتها؟ والمقصود بالخطف الوجداني الخروج عن الواقع المادي بحيث تصبح الحقيقة الغيبية هي الحقيقة الأعلى في لحظة معينة.

الكتاب انطلاقًا من الشلي:

لقد أثر في الشلي نشأته الدينية وإحساسه الخاص بمجد قومه، لا سيما أن الخطاب الديني العلوي في عصره كان مزدهرًا، وقد دلّ كتابه على أنه قرأ كثيرًا من تلك الكرامات واستمع إليها بحواسه وروحه، ونقلها بحيوية وجدية كبيرة عاديًا إيّاها دليلًا على الفوز في الدنيا والآخرة، مستوعبًا أهداف خطابه الذي يسير بالعلويين نحو مجد أكمل بحيث يدور العالم الأسمى بصفاته وخصائصه فيهم، واعيًا بمكانتهم وخصوصيتهم بشكل فريد ما دامت هذه الصفات متمثلة فيهم، منشرجًا بمجدهم الذي يحاول فيه جهده ما استطاع بأسلوب الحقيقة أو بأسلوب الكرامة لا سيما أن الخطاب الذي يقدمه يؤدي دورًا مؤثرًا في بيئة متقبلة له في تريم خصوصًا وحضرموت عمومًا حينئذ انطلاقًا من الانتقائية الشديدة في الكتاب، انتقاء الشخصيات، انتقاء المكارم، انتقاء الأحداث، انتقاء اللغة المادحة، انتقاء الأشعار.. إلخ.

إن المؤلف الشلي أكثر سعادة واحتفاء بهذا التواصل السري بينه وبين أجداده، وبينه وبين الصالحين عمومًا، بوصفه غاية قصوى من غايات الإنسان في الوصول إلى السعادة التي تعد جوهر الحقيقة الغيبية التي تعكس نفسها على الواقع، وهو من أكثر الناس حماسًا لها، ولذا ألف في هذا الاتجاه ونقله بوصف مروياته حقائق لا تقبل الدحض، فثمة عالم مستقل بذاته تمثله طبقة من الصالحين في المجتمع حتى صارت الحياة الواقعية تحاكي الحياة الغيبية

وتسعى للوصول إلى مراتبها أكثر مما تطمح إلى تطوير الحياة الواقعية نفسها، ومن ثم تطوير ذاتها، فالولع بالحياة الدنيا يعني الابتعاد عن طريق الله، ولذلك تدخل صور العالم الغيبي عن طريق الكرامات في الواقع الموجود وحينئذ لا يكف الناس عن ترديدتها والتطهر بها، وهذا ما شكل خصوصية تريم في مرحلة معينة، وانبث بعد ذلك إلى سائر حضرموت بصور مختلفة، وفي هذه الحال يتحول الشعب في تريم إلى مستوى عال من الروحانية، ويتم الإقبال على هذه الحكايات برغبة كبيرة، ويغدو أهل الكرامات نماذج تتمثل، ويغدو أهل تريم بدورهم نماذج للمجتمع الحضرمي يجدر تمثيلهم، وقد سيطرت علاقات هذا الشكل من التفكير على حضرموت وما زالت إلى يومنا هذا بشكل أو بآخر، مما ترتب عليه أن يتم تحويل تريم إلى مركز للإشعاع الروحي حيث يوجد إحساس خاص بالسعادة والاطمئنان النفسي الذي يدعو إلى استدامة هذه الحال والرغبة في انتشارها، وبعبارة أخرى استدعاء الفرح الباطني عبر نوع من الانسجام الهادي في الحياة يعين على تجاوز حياة المشقات بالابتعاد عنها، ويوفر نوعاً من الضمادات الروحية، فهؤلاء الذين غادروا الحياة لم يذهبوا بعيداً ما داموا أقدر على تطيننا، وما داموا جربوا الحياة والموت معاً.

إن العلاقة بالأموال الصالحين تعين -من وجهة نظر الكتاب- على أن نحيا بشكل أفضل، ولعله نوع من أنواع علاجات الروح عن طريق جذب الأرواح إلى بعضها، وشكل من أشكال الكشف عن عالم آخر لم نعرف عنه شيئاً، ومن هذا المنطلق يكون لمثل تلك الحكايات دور مؤثر في المجتمع، وتمثل حجر زاوية فيه في ذلك الوقت، من خلال عدد من المقومات مثل: (مقبرة زنبل)، و(مقبرة الفريط)، و(مقبرة بشار)، والأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، وشيخ الشيوخ، والإمام، وأهل الحقيقة، وإمام العارفين، والعارفين بالله، والطائفة الصوفية، والطريقة.. إلخ.

والمشكلة هنا تكمن في التنميط الذي لا يمكن التزحزح عنه، والذي يتحول بمرور الزمن إلى سلطة ضاغطة دون روحية حقيقية، تؤدي إلى تصدع هذا المشروع من داخله، قبل أن تأتي اتجاهات أخرى تعمل على تصديعه، بحيث يتحول الإنسان إلى دمية يمكن تحريكها ببعض الحكايات التي صارت بفضل تكرارها أشبه بآلة كبيرة تفعل سلبياً في المجتمع إذ صارت تكرس الاستعلاء دون جوهر روحي صادق، فبعد أن كانت الحكايات مرتبطة

بالصالحين صارت مرتبطة بأولئك الذين يحاولون السيطرة على المجتمع باسم الصالحين مما أوضح نوعاً من علاقات السيادة المحاول فرضها بالدعاية وإبراز الأبهة، والمبنية على الاتباع، وتقديم فروض الولاء.

إن الشلي وإن كان كتب كتابه في مكة فهو يكتب من واقع الوعي الاجتماعي والثقافي في حضرموت في ذلك الوقت ويعمل على تكريس، فمثل هذه الصور هي التي خلقت وعي تريم الذي ما زال مستمراً بصورة من الصور إلى يومنا هذا، وقد تحول مجموع تلك الحكايات إلى مشاعر قوية عند الجمهور، فصارت تفيض على أرواحهم، وتسيطر على مشاعرهم، بحيث تزداد طاقة شعورهم بالإيمان بالبرزخ والكرامات إيماناً جازماً يسيطر على وجدانهم، وهو فيض اعتقادي لا يأتي من الحكايات حسب، وإنما من مجموع مآثر تريم، المقابر، القباب، والمساجد، والتراب الطاهر الذي لا يجدر بأن يمشي عليه الإنسان متنعلاً، يعزز ذلك الأشعار التي أوردها المؤلف، فهذه تقدم في مجموعها حالة من الاستثارة لدى أولئك تجاه الواقع المتدين، ربما إلى درجة أن يكون إحساسهم بمن حوالهم من الأموات نفس إحساسهم بالأحياء، وربما أعلى منه بحيث كانوا يفسرون أشياء كثيرة في حياتهم بهذا الواقع الخارجي الميتافيزيقي، وهكذا تتدفق كثير من تفاسير حياتهم من المقابر، ومن انفعالاتهم ذات الطابع الكرامي، وفي ذلك تكمن سعادتهم واطمئنانهم، بل إن أحدهم قد يرى الروح المتدينة متمثلة في صاحب القبة أو الضريح أكثر مما هي متمثلة في نفسه، أو في المقبرة بكاملها، أو في قبر معين، فيرق إحساسه لما هو خارج عنه، ثم يمتد هذا النبض من الخارج إلى داخله، تصير هذه الكيانات عوامل أساسية في إرهاف إحساسه المتدين، فيدرك جوهر حياته عبر العالم الآخر الذي يسمعون يتحدثون عنه كل حين، بكراماته واتصاله بعالم الأحياء، وربما أحس المواطن أن هؤلاء الأموات الصالحين نعمة من نعم الله التي عليه أن يتمسك بها، وألا يضيعها، ومن ثم فأهل تريم أقرب إلى الأولياء، ولعلمهم من هذا المنطلق يكونون في نظر غيرهم من سكان بلدان حضرموت أقرب إلى الولاية والصلاح؛ لأنهم أدركوا من جوهر الأرواح وصفاتها ما لا يدركه الآخرون، بوصف النتيجة الطيبة التي تلقوها الأرواح في عالم البرزخ تؤكد صحة الدرب الذي يسرون عليه، والذي يجب على الآخرين أن يسيروا عليه ليسلموا. إنهم ضمناً يتجاوزون حدود المكان والزمان ليعيشوا في حالاتهم الخاصة، وبمقدار إيمان أحدهم بهذه الكرامات تقوى علاقته بالعالم الآخر، وفي هذه الحالة

تأتي كرامات أرفع من كرامات، ومقامات أرفع من مقامات، ويتحول كل شيء واقعي إلى مثالي: القبة، والضريح، والمقبرة، والرجل العابر بالطريق، والأعرابي القادم من الصحراء، والهمهمات... إلخ.

واللافت أن هذه الحالة تشكل قاعدة متينة من التماسك نتيجة للفكر الوثوقي النمطي الشديد القداسة، الذي لا يمس، ولعل المواطنين أنفسهم خلعوا من ذواتهم على هذه الشخصيات أبعادًا إضافية انطلاقًا من إيمانهم بكراماتهم التي ترتفع بهم إلى أن يكونوا في مصافي بشر غير عاديين ينبشون في كل تفاصيل حياة الناس من الرغبة في الإنجاب، والسلامة في السفر، ونزول الغيث، والقضاء على اللصوص، وقصم الظالمين، وهي صور من الوحدة والتلاحم الذهني والنفسي والاجتماعي، الذي سيطر على مدينة تريم وحضر موت قرونها عديدة حيث يعيش الناس في عالم من الصور المتمثلة في أرواحهم بصورة جيدة، فالسيد أبوبكر بن سالم بن أحمد بن شيخان صاحب عينات «تربته بها مشهورة، وكالشمس في وسط النهار، تقصده الزوار، من جميع الأقطار، بأنواع الأنداز، ومن استجار بقبره المأنوس، أمسى وهو محروس، لا يقدر أحد أن يناله ببوس، وبني عليه قبة عالية البناء، عظيمة القدر حسا ومعنى»^(١٤)، (ص ٢٩، ج ٢).

وعليه لا يعد كتاب (المشرع الروي) ثانويًا أبدا سواء في تاريخ الوعي الاجتماعي أو تاريخ الوعي الفكري فالأشياء تلتحم في تريم من خلال الكتاب التحامًا خاصًا البشر والحيوان والجماد، والأغنياء والفقراء، والعلماء وأهل الجذب، وتحول تريم إلى مدينة واقعة بين عالمين عالم الدنيا وعالم البرزخ أو عالم الحياة وعالم المقابر، فهي إذن صورة خاصة مما يتولد عنه في المجتمع انفعالات وتصورات ذات طابع دنيوي - برزخي، يتعاملون معها على أنها تجارب حقيقة لا ينفصل بعضها عن بعضها الآخر، فيصير القبر والضريح أماكن مفتوحة حسب منطق تريم وليست أماكن مغلقة، أو مغيبة، ويصير المكان الواقعي مغلقًا.

وعليه تعني تلك الكرامات الممتدة على مدى قرون محاولة إيجاد شخصية دينية مميزة لترميم تجعلها تقف بموازاة الكيانات القبلية المنتشرة حولها، ابتداء من قيام الفقيه المقدم بكسر سيفه لتصبح رمزًا لسيادة العلويين، أو لسلطتهم الروحية التي قامت بوصفها رفضًا

صريحاً للوضع القبلي العام بمعناه المسلح، ومحاولة تخطيه، قبل أن تتحول هي نفسها إلى سلطة تقليدية ضاغطة، ومن هذا المنطلق جاء تغليب الناحية الصوفية (قيام الفقيه المقدم بكسر سيفه) على الناحية الفقهية (رفض الفقيه بامروان هذا التصرف من تلميذه)؛ لأن الفقه سينتشر في حلقات الدارسين فقط، وفي زوايا محدودة من المساجد وفي الأربطة، أما البركات الصوفية فيتداولها المجتمع كله، وبتأثير أشد، وسيرورة أكثر انتشاراً إلى درجة أن الروح الصوفية تتعلق بها كل الناس جهلتهم ومتعلميهم، فيبرز الصوت الصوفي بوصفه صوتاً مجتمعياً عاماً مما يتضمن تقديس الجهة التي تصدر عنها هذه الكرامات ورفعها لمنزلة أعلى. لكن بالمقابل سيعيش الفرد الذي يتعلق بالكرامات حالة استلاب لذيذ تجاه المنتج للكرامات أو المانح لها (مدد.. مدد)، (شيء لله.. شيء لله)، و(أغثنا)، و(جينا طالبين)، وهنا يتحول معنى السيادة الروحية إلى معنى اجتماعي، ويتأصل المعنى الروحي اجتماعياً عبر الزمن، فيقوم المجتمع على حالة من الاجتماعية - الروحية، ويكون لكلمة (حبيب) معنى روحي - اجتماعي، وتأتي الحضرات والزيارات الحولية كتجسيد طقوسي لهذه العلاقة، وتسهم في تعزيزها.

وقد يكون الدخول إلى عالم التصوف والكرامات منذ بدء إنشائه (المؤسسي) في حضرموت على يد الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي ناتجاً عن إحساس العلويين بالغربة في المجتمع، في ظل اعتزاز مفرط بالذات، فصب الفقيه المقدم جهوده على هذا المنحى، واعتز به، من خلال عدد من الممارسات والأقوال ذات الطابع الصوفي التي تمسك بها أبنائه وأحفاده بوصفها تحقق وجودهم مما يجعل من كتاب (المشعر الروي)، والكتب المماثلة له علامة من علامات تميزهم الخاص الذي أسسوه بأنفسهم، ونموه بعناية ومحبة في بيئة قبلية وزراعية بسيطة يمكن أن يتسيد فيها هذا الجانب الوجداني - الروحي على الجانب العقلي، فالسيد «أبو بكر بن أحمد ابن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم عليه السلام» ظهرت منه كرامات منها أنه أتى إلى بئر المسجد ليتوضأ منها فلم يجد دلواً، فأشار إلى الماء، فارتفع إلى عنده، واستمر حتى توضأ هو، وجاء بعض أصحابه فوجد الماء مرتفعاً فتوضأ والماء ينزل حتى فرغ من وضوئه ورجع الماء إلى محله»^(١٥).



وفي الختام فإن كتاب (المشروع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي)، كان يعرف مساره وموقعه على مستوى الوعي الاجتماعي والنفساني في مجتمع تريم، وترك أثرًا في ذلك الواقع ما زال أثره واضحًا إلى يومنا هذا.

الهوامش:

(١) ينظر: المشروع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي، تأليف العلامة الجليل الحبيب العارف بالله تعالى محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي، ج ١، ص ٢-٣، دار التراث للدراسات والنشر.

(٢) ينظر: التناص التراثي في روايات غازي القصيبي، دراسة نقدية تحليلية، د. هند سعيد سلطان، سلسلة الرسائل الجامعية (٦) جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٣م، ص ٥٤.

(٣) المشروع الروي، ج ١، ص ٢.

(٤) نفسه، ج ١، ص ١٦٩.

(٥) نفسه، ج ١، ص ٣.

(٦) نفسه، ج ١، ص ١٦٩.

(٧) نفسه، ج ١، ص ١٦٩.

(٨) نفسه، ج ١، ص ١٤٧.

(٩) نفسه، ج ١، ص ١٤٧.

(١٠) ينظر: الأدب في خطر، تصفيطان تودورف، ترجمة: عبدالكبير الشرفاوي، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، ٢٠٠٧م، ص ٣٠.

(١١) ينظر: مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، الطبعة الثانية، دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، تموز ١٩٨٠م، ص ٢٤.

(١٢) المدخل الفلسفي للحدثة، ابن داود عبدالنور، الدار العربية للعلوم - ناشرون، منشورات الاختلاف، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، قراءة في نصوص ميشال فوكو، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٢٦.

(١٣) تراجم الشلي (ت ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م) في كتابه «المشروع الروي» في القرنين ١١، ١٢ الهجري، قواعد وبيانات تحليلية، د. محمد يسلم عبدالنور (بحث مخطوط).

(١٤) المشروع الروي، ج ٢، ص ٢٩.

(١٥) نفسه، ج ٢، ص ٢٤.



تراجم الشلي (ت ١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م) في كتابه «المشعر الروي» في القرنين ١١، ١٢ الهجري قواعد وبيانات تحليلية

د. محمد يسلم عبدالنور
جامعة حضرموت

المدخل:

تعد كتب التراجم والطبقات بمختلف أنواعها: الفردية، أو الجماعية، أو الأسرية، أو التخصصية، سواء أكانت لمدة محددة بعينها، أو من بداية التدوين التاريخي الحضرمي حتى عصر مؤلفها، العمود الفقري والمصدر الأساس لتاريخ حضرموت، وهي بالكثر من أي مصدر آخر، وقد حظيت أسرة آل أبي علوي بنصيب الأسد من ذلك -كما يقال-، وفي هذه البحث سوف نحلل أحد هذه الكتب، وهو كتاب (المشعر الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي) لمحمد بن أبي بكر الشلي (ت ١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م)، وربما القارئ قد قرأه أو اطلع عليه أو سمع عنه باختلاف مشاربه، لشهرة الكتاب والمؤلف وطباعته وانتشاره وتداوله بين الناس، في الداخل والخارج.

وقبل الولوج في ذلك لعله لزاماً علينا أن نعرّف بالمؤلف، ولو إيجازاً قبل الحديث عن المؤلف.

التعريف بالمؤلف^(١):

لقد أرحنا المؤلف مؤنة البحث عن ترجمته، وذلك بتدوينها وإفرادها كترجمة مستقلة من تراجم كتابه (المشعر الروي)، ولعله في هذا قد حاكى غيره ممن نهج ذلك في مؤلفاتهم^(٢).

(١) الشلي: المشعر الروي ١٧ / ٢ - المحيي: خلاصة الأثر ٣ / ٣٣٦ - الزركلي: الأعلام ٦ / ٥٩.
(٢) من مثل: ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، السيوطي (ت ٩١١هـ)، ابن المقري (ت ٨٣٦هـ)، ابن الديبع (ت ٩٤٤هـ)، الفاسي (ت ٨٣٢هـ)، ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ)، العيدروس (ت ١٠٣٤هـ).

هو: جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن عبدالله الشلي، ولد بتريم في حضرموت، منتصف شهر شعبان سنة ١٠٣٠هـ / ١٦٢١م، نشأ في أسرته، وأول ما بدأ بحفظه كتاب الله العلي العظيم، حيث أرسله والده -كعادة الأولاد آنذاك- إلى إحدى معلمات البلد الشهيرة، وهي معلامة (باغريب) للتلقي والتهجي وقراءة القرآن وحفظه، فأتى حفظه وهو ابن عشر سنين على يد معلم المعلامة الشيخ عبدالله بن عمر باغريب، ثم اتجه بعد حفظه للقرآن إلى طلب العلم الشرعي -ولا شك أن دراسته بالمعلامة كان بداية تلقينه أبجديات العلوم الشرعية التي ترافق حفظ القرآن الكريم- حيث رافق ذلك قراءة وحفظ عدد من المتون الحديثية والفقهية والنحوية وغيرها سواء على يد شيوخه أو بالاجتهاد الذاتي بما نسميه بالتعليم بالوجدادة؛ حيث حفظ في العقيدة: العقيدة الغزالية، وفي القراءات: الجزرية، في الحديث: الأربعون النووية، وفي الفقه: الإرشاد لابن المقرئ، وفي النحو: الآجرومية، وملحة الإعراب، وقطر الندى.

وتتحفنا مصادر ترجمته بعدد كبير من شيوخه سواء أكانوا في تريم وحضرموت مسقط رأسه، أم في البلدان والمراكز العلمية التي ارتحل إليها كظفار، والهند، والحجاز (الحرمين الشريفين)، وسواء أكان هؤلاء الشيوخ شيوخ تبارك أم شيوخ أخذ وتلق.

خلف لنا الشلي تراثاً علمياً تمثل في مجموعة من الكتب الفقهية والعربية، ومنها كتب التاريخ والسير والتراجم والطبقات، وكتب الفلك، وعلوم الآلة، وأصبحت هذه الكتب فيما بعد مصدرًا من المصادر التي يعتمد عليها الفقهاء والمؤرخون والعلماء، منها ما طبع ومنها لم يزل مفقودًا وضائعًا، وثالثًا لم يزل مخطوطًا، وهي على النحو الآتي:

١. المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي، (موضوع الدراسة).
٢. السناء الباهر بتكميل النور السافر.
٣. نفائس الدرر في أخبار القرن الحادي عشر، أو عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر.
٤. المنهل المورد في أخبار ملوك مكة القتادين أهل النجدة والجود (تاريخ مكة).
٥. ترجمة الشيخ أبي بكر بن سالم.
٦. مشيخة والده.

٧. ثبت، معجم مشايخه.
 ٨. المنحة المكية شرح التحفة القدسية.
 ٩. شرح مختصر الإيضاح للشيخ ابن حجر (ت ٩٧٤هـ)، والإيضاح هو إيضاح المناسك للإمام النووي (ت ٦٧٦هـ).
 ١٠. رسالة في نجاة أبوي النبي ﷺ.
 ١١. شرح على أوائل جمع الجوامع للسيوطي، لم يتمّه.
 ١٢. رسالة مطولة في معرفة ظل الزوال لعرض مكة.
 ١٣. رسالة في المقنطر.
 ١٤. رسالة في معرفة اتفاق المطالع واختلافها.
 ١٥. رسالة مطولة في علم الميقات بلا آلة.
 ١٦. رسالة في الاسطرلاب.
 ١٧. رسالة في ربيع المجيب وشرحها.
 ١٨. شرح رسالة الإمام السنوسي، وهو مسودة.
 ١٩. شرح رسالة السيوطي المسماة: صون المنطق والكلام عن فنون المنطق والكلام.
 ٢٠. شرح التسهيل.
- عاش الشلي مدة من الزمن تقدر بثلاثة وستين عامًا، قضى معظمها بمكة المكرمة، التي فضل الإقامة بها ومجاورة البيت الحرام، وتوفي بها في آخر يوم من ذي الحجة ١٠٩٣هـ، أي سنة ١٠٩٤هـ^(١)، وصلى عليه ضحى يومها بالمسجد الحرام إمامًا بالناس الشيخ أحمد

(١) استحسنت أن أضع تاريخ وفاة الشلي سنة ١٠٩٤هـ، رغم أن جميع المصادر تشير إلى سنة ١٠٩٣هـ لأمر منها: أنه توفي آخر يوم في السنة، ويحتمل أن يكون اليوم الأول من السنة اللاحقة، وعدم اعتقاد البعض أن الوفاة أول السنة أو في أوسطها، كما أن معظم المؤرخين يضعون السنة القادمة بعد شهر رمضان أو ذي الحجة، كما أنني وقفت على مخطوطة من كتابه (تاريخ مكة) نسخها تلميذه، وأرخ فيها وفاته بسنة ١٠٩٤هـ، كما أنني لا ألزم غيري بما ذهب إليه.

البشبيشي (ت ١٠٩٦هـ / ١٦٨٤م)^(١)، ودفن بالمعلاة^(٢) بحوطة آل باعلوي. ولا يعرف شيء عن أبناء الشلي؛ خلا قول المحبي: وله عقب بمكة الآن^(٣)، مما يؤكد أن له أولادًا عاشوا بمكة المكرمة من بعده. ويكنى بابنه علوي.

التعريف بالكتاب:

سمى المؤلف كتابه كما في مقدمته بـ(المشرع الروي في مناقب بني علوي)، في حين أن العنوان على غلاف الكتاب (المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي)، وبنو علوي هم مَنْ يعرفون في المجتمع الحضرمي بالسادة آل أبي علوي؛ المنتمين إلى علوي بن عبيدالله بن المهاجر أحمد بن عيسى (ت بعد ٣٠٠هـ)، ويقع في جزئين، حوى مقدمة في فضل القرابة والآل، وبايين: الأول في نسبهم وتنقلهم في الأقاليم واستقرارهم بتريم، والثاني في تراجمهم ووصف أحوالهم، وخاتمة في خرقتهم الصوفية، وقد طبع أولاً بمصر بالمطبعة الشرفية سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م، وطبع ثانية في جزئين كذلك بدون تاريخ وناشر، ووضع مقدمتها محمد أحمد الشاطري سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م، وبها فهرس للأعلام والأماكن والقبائل خلاف الأولى، وفي الثانية حذف الكرامات التي حواها، وقد أشار في الهامش إلى أماكن الحذف، وحجته في ذلك أن هذه الكرامات ربما لا يرضى أصحابها بنشرها عنهم ولا بنسبتها إليهم، إلا أن وجود تلك الكرامات لا تنقص من قيمة الكتاب ولا من قدر مصنفه، بقدر ما تعطينا صورة عن الوضع العلمي والعقدي آنذاك^(٤).

والكتاب أحد كتب الشلي التاريخية الأربعة المشهورة، وقد رتب تراجمه ترتيباً ألفبائياً من غير تقديم مؤخر عن مقدم، ولا تأخير عظيم عن أعظم، فكان عليه أن يبدأ بمن اسمه

(١) أحمد بن عبد اللطيف البشبيشي الشافعي: الإمام العالم المحقق الحجة، متضلع في علوم عدة، تصدر للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر، حج سنة ١٠٩٢هـ وأقام بمكة يدرس، ثم عاد إلى بلده بمصر، وتوفي بها سنة ١٠٩٦هـ (المحبي)، خلاصة الأثر ١/ ٢٣٨، ٢٣٩؛ الزركلي، الأعلام ١/ (١٥٥).

(٢) المعلاة: هي مقبرة أهل مكة، وتسمى (الثنية العليا)، وهو القسم العلوي من مكة، ويطلق اليوم على حي وسوق بين الحجون، والمسجد الحرام (المعالم الأثرية ٧٨، ٢٧٧).

(٣) خلاصة الأثر ٣/ ٣٣٨.

(٤) ومع هذا لم تحظ هذه الطبعة بالشهرة والانتشار كما حظيت به الطبعة الأولى.

إبراهيم غير أنه بدأ بمن اسمه محمد تيمناً باسمه ﷺ، وأسماهم بالمحمديين وهم كذلك، ثم ختم بمن اسمه محمد بترجمة نفسه كما يفعل بعضهم، وقد ذكرنا ذلك سلفاً، وهي الترجمة رقم (٥٤)، وكان لها أن تأتي أول التراجم بحسب مقتضى ذلك الترتيب.

وهذه الطريقة ليست من ابتكار الشلي؛ فقد سبقه إلى ذلك الكثير، ولعل من بدأها الحميدي (ت ٤٨٨هـ) في كتابه (جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس).

ورغم أن الشلي حصر من ترجم له بقوله: «من كثر في طريق القوم زاده، وكبر في العلوم مزاده»، إلا إن هذا المقياس قد خالفه بعدم ذكر بعض من اتسم بذلك رغم شهرتهم، ولا ندري هل أجهلاً منه أو نسياناً أو تعمدًا على ما سنوضحه لاحقاً.

حوى الكتاب عدد من التراجم بلغت (٢٨٤) ترجمة على النحو الآتي:

الجزء	عدد التراجم
الأول	٤٤
الثاني	٢٤٠
الإجمالي	٢٨٤

هذه التراجم توزعت من نهاية القرن الخامس^(١) إلى القرن الثاني عشر الهجريين، وما يعيننا في ذلك تراجم القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الهجريين.

وقبل أن نحلل تراجم مدة البحث، نشير إلى أن الكتاب قد حاز أهمية، فحين فرغ المؤلف من تبويض أول نسخة منه تناقلها بعض النساخ، وكان لها صدى عظيم في الأوساط العلوية والحضرمية وفي المهجر، وأقبل على نسخه وقراءته طلاب العلم، حتى لقد أشار عبدالله بن علوي بن محمد الحداد (ت ١١٣٢هـ / ١٧١٩م)، على مريده أحمد بن زين الحبشي (ت ١١٤٤هـ) بأن ينقل عن هذا الكتاب، ويجمع فوائد منه، فامتثل لأمره، فكان حصيلة ذلك كتابه (المسلك السوي في جمع فوائد مهمة من المشعر الروي).

(١) بترجمته لمحمد بن علوي بن عبيدالله بن أحمد المهاجر، وترجمته لابنه علوي (ت ٥١٣هـ)، وبسنة وفاة ابنه علوي استدلينا على وفاة الأب (محمد) بأنها في نهاية القرن الخامس، رغم أن المؤلف لم يحدد سنة الوفاة. الشلي: المشعر الروي ٢ / ٤٨، ترجمة رقم (٨٠).

كما ذُيِّل على (المشروع الروي) السيد عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس (ت ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م)، ولا توجد منه نسخة سوى نسخة خطية في سورت بالهند.

واعتمد على الكتاب كمصدر من مصادر معلوماتهم كُلٌّ من: المحبِّي (ت ١١١١هـ) في كتابه (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، والحبشي (ت ١١٤٤هـ) في كتابه (شرح العينية)، والزركلي (ت ١٣٩٦هـ) في كتابه الموسوعي (الأعلام).

أولاً: عدد التراجم: بعد عملية الإحصاء والتتبع لتراجم مدة الدراسة، وجدنا أن عدد التراجم بلغت (١١٩) ترجمة، أي بنسبة ٤٢٪، منها (١١) في الجزء الأول، والبقية (١٠٨) في الجزء الثاني، أرخ لوفاة بعضها، وترك وفاة البعض، وعاصر آخرين من هم على قيد الحياة حين تدوين كتابه، وذلك على النحو الآتي:

العدد	تراجم مدة الدراسة
٨٥	مؤرخة وفياتهم
٢٤	مجهولو الوفاة
١٠	تراجم لشخصيات عاصرها
١١٩	الإجمالي

وتبين أن آخر ترجمة أرخ لوفاتها كانت سنة ١٠٩١هـ^(١)، أي قبل وفاته بأقل من ثلاث سنوات، وهذا يعطي دلالة على سنة كتابة الكتاب في هذه المدة، في حين أن هناك ترجمة وفاتها سنة ١١١٣هـ، وهي بعد وفاة المؤلف، إلا أن ناشر الكتاب قد تنبه لذلك، وأشار إلى أن المؤلف قد ترك فراغاً فوافته المنية فأكمل ذلك الناشر^(٢)، وليته فعل في بقية التراجم.

ثانياً: الأسر: تنوعت تراجم الشلي على أسر آل أبي علوي وكاد أن يذكرها كلها، ومن أكثر الأسر ذكراً أسرة العيدروس، ولعل فيهم من كثر من رجالها على شرط المؤلف، أو لعل هناك قرابة نجهلها قد لعبت دوراً في ذلك، ومن هذه الأسر: السقف، وآل الشيخ أبي بكر بن سالم، وباحسن، وابن سميط، وابن شهاب، وخرد، والجفري، والحبشي، وبافقيه،

(١) الشلي: المشروع الروي ٢/ ٤٨، ترجمة رقم (٨٠).

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٧٦، ترجمة رقم (١٠٩).

والبيض، في حين أن هناك أسماء أسر قد انقرضت أو دخلت مسمياتها في مسمى أسر قائمة الآن من مثل: الشلي، وبافرج، وعوهج، والحديلي، وحمدون، وكريشه، وباشيبان. كما أننا نأخذ عليه تجاهله ذكر بعض الأسر الشهيرة، وشهرة رجالها من مثل أسرة العطاس.

ثالثاً: أهمية التراجم: تكتسب تراجم مدة الدراسة أهمية خاصة عن غيرها من تراجم الكتاب، فضلاً عن أهمية المعاصرة والمعاينة والمشاهدة، وذلك على النحو الآتي:

١- منها تراجم لأفراد أسرته، فقد ترجم لجدّه أحمد بن أبي بكر الشلي (ت ١٠٠٤هـ)^(١)، وعمه محمد بن أحمد الشلي (ت ١٠٤٠هـ)^(٢)، ووالده أبي بكر بن أحمد الشلي (ت ١٠٥٣هـ)^(٣)، وأخيه أحمد بن أبي بكر الشلي (ت ١٠٥٧هـ)^(٤)، فضلاً عن ترجمته الذاتية^(٥). واتصاله الأسري بهذه الشخصيات وارتباطه بها ومعاشرته إياها، أنتج عنه تراجم أكثر مصداقية من أية تراجم أخرى.

٢- منها تراجم لشيخه خلال مساره العلمي وارتحاله، سواء في تريم أو في الحجاز (الحرمين) أو غيرها، من أمثال: عبدالرحمن بن علوي بافقيه (ت ١٠٤٧هـ)^(٦)، وأحمد بن حسين بلفقيه (ت ١٠٤٨هـ)^(٧)، وأبوبكر بن عبدالرحمن بن شهاب (ت ١٠٦١هـ)^(٨)، ومحمد بن علوي السقاف (ت ١٠٧١هـ)^(٩).

وترجمة الطالب لشيخه تحوي معلومات صادقة في أغلب الأحيان، وتحوي جزئيات يجهلها الكثير لارتباط الطالب بالشيخ وطريقة تدريسه، وغير ذلك.

(١) المصدر نفسه ٢ / ٥٣.

(٢) المصدر نفسه ١ / ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٢٠.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ٤٦.

(٥) المصدر نفسه ٢ / ١٧.

(٦) المصدر نفسه ٢ / ١٣٢.

(٧) المصدر نفسه ٢ / ٥٥.

(٨) المصدر نفسه ٢ / ٣١.

(٩) المصدر نفسه ١ / ١٩٢.

٣- زملاؤه ورفقاؤه في مرحلة الطلب العلمي، أو ممن التقى بهم، بقوله: «رفيقي في الطلب»^(١)، أو «اجتمعت به»^(٢)، من مثل: محمد الباقر بن عمر باحسن (ت ١٠٧٩ هـ)^(٣)، وأحمد بن عبدالرحمن بلفقيه^(٤)، وعمر بن عبدالله فقيه^(٥)، وجميل جداً أن يترجم الشخص لزميل دربه، وكأنه يترجم لنفسه.

رابعاً: مكان الميلاد وتاريخه: رغم أن تراجم الشلي في كتابه لأعلام من آل أبي علوي، الذين كانت مدينة تريم موطنهم ومستقرهم، فإن مكان ميلاد كل هؤلاء لم يكن بتريم، بل كان في تريم وضواحيها، وفي خارجها من مناطق حضرموت، ومناطق اليمن، وخارج اليمن كما تشير إليه الإحصائية اللاحقة، وهذا يدل دلالة على هجرة الحضرمي عامة، وهؤلاء خاصة، وانتشارهم في مناطق العالم:

عدد التراجم	مكان الميلاد
٩٦ منهم ١٥ في الضواحي	تريم وضواحيها (قسم، عينات، روعة، بيت مسلمة)
٤	سيئون وضواحيها (مريمة، وتريس)
٣	مناطق الساحل
١	مناطق اليمن (لحج)
٨	الحجاز (مكة وجدة)
٢	ظفار
٢	الهند
٣	مجهولو الميلاد
١١٩	الإجمالي

(١) المصدر نفسه ٢ / ٦١.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٣.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ٦١.

(٥) المصدر نفسه ٢ / ٢٤٧.

ولم يول الشلي اهتمامًا كبيرًا بتاريخ الميلاد كما أولاه في تاريخ الوفاة، وهو مع هذا لم يهمله البتة، فأحيانًا يذكر سنة الميلاد^(١)، بل وفي حين آخر يذكر معها اليوم والشهر^(٢)، ولعل هذا راجع للمادة العلمية للمترجم له.

خامسًا: مكان الوفاة وتاريخها: بما إننا في هذه الورقة العلمية قد اخترنا تراجم الشلي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، وأحصيناهم بعدد (١١٩) ترجمة من إجمالي تراجمه، فإن العدد الأكثر منهم توفوا في القرن الحادي عشر، والقليل منهم في القرن الثاني عشر، وهم من أرخ وفياتهم أو من المعاصرين له، كما أن ممن لم يؤرخ وفياته قد توفى في القرن الحادي عشر، كما في الإحصائية الآتية:

تاريخ الوفاة	عدد التراجم
القرن الحادي عشر	٨٤
القرن الثاني عشر	١
مجهولو الوفاة	٢٤
معاصرون	١٠
الإجمالي	١١٩

ولم يكن مكان الوفاة في تراجمه واحدًا دون شك، وليس بالضرورة أن يكون مكان الميلاد واحدًا، نتيجة الهجرة والانتشار في بلاد الإسلام، وبطريقة إحصائية وبالتعقب والتتبع يمكن أن نحدد حركة الهجرة والانتشار بمقارنتها بمكان الميلاد على النحو الآتي:

مكان الوفاة	عدد التراجم
تريم وضواحيها	٤٧
شباب وسيئون وضواحيها	٣
مناطق الساحل (الشحر، والمكلا)	٧

(١) المصدر نفسه ١ / ١٧٢، ٢ / ٤٨.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٢٠٠.

عدد التراجم	مكان الوفاة
٢	دوعن
٧	مناطق اليمن (عدن، الوهط، زيلع، المخا)
١٨	الحجاز (مكة، والمدينة)
٢	ظفار
١٢	الهند (حيدرآباد، الدكن، بروج، بيجافور)
١١	مجهولو المكان
١٠	أحياء ومعاصرون
١١٩	الإجمالي

وفي ذكره لتاريخ الوفاة كان حريصاً على تحديد اليوم والشهر^(١)، خاصة في التراجم التي حضر وفاتها في مكة، ومن حضرها من الأعيان والسلاطين^(٢)، كما يحدد مكان القبر أكان في تريم في (مقبرة زنبيل)^(٣) مقبرتهم التي يقبرون فيها موتاهم وإلى اليوم، أو في مكة في (المعلاة)^(٤)، أو (الشبيكة)^(٥)، أو (البقيع) بالمدينة المنورة^(٦)، بل إنه يذكر ما أقيم على القبر من بناء كقبة^(٧) أو نحوه، وحين لم يعرف تاريخ الوفاة لم يأنف ذكر ذلك، بقوله: «لم أقف على تاريخ وفاته»^(٨)، أو «لم يحضرني تاريخ وفاته»^(٩)، وقد حاولنا البحث عن تاريخ وفاة المجهولين فأمكننا من العثور على القليل منهم.

(١) المصدر نفسه ٢ / ٥٩، ١٠٣، ١٠٤، ١٧٥، ١٧٧، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه ١ / ١٩٢، ٢ / ٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه ١ / ١٨٩، ٢ / ٢٩، ٤٦.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ٨١، ١٣٠.

(٥) المصدر نفسه ٢ / ٦٠.

(٦) المصدر نفسه ٢ / ١٠٠.

(٧) المصدر نفسه ٢ / ٨٣.

(٨) المصدر نفسه ٢ / ٩٤.

(٩) المصدر نفسه ٢ / ٨٧.



سادساً: مصادر التراجم: اعتمد الشلي في كتابه على عدد من المصادر، كان قد ذكرها في مقدمة كتابه، لكن نجد أن هذه المصادر هي لتراجمه في القرن العاشر وما قبله، وهي معروفة في التاريخ الحضرمي، لكن في مصادر القرن الحادي عشر كانت بعد كتابه، سواء أكانت الحضرمية أو الإسلامية كـ (شرح العينية)، أو (خلاصة الأثر)، لذا فإن مصادر معلوماته هنا هي على النحو الآتي:

ما اكتسبه من معلومات لمترجميه لمعايشته لهم، واحتكاكه بهم، وهم من أسرته، وشيوخه، وزملائه، ورفقائه.

المشاهدة والعيان من غيرهم والإخبار بذلك.

ما وصل إليه من أخبار ومعلومات عن سأل عنهم من مترجميه الذين بعدوا عنه؛ إذ ألف كتابه في مكة مكان استقراره، مما جعله في هذا تصل إليه بعض المعلومات الخاطئة، وربما التناقل والأخبار كانت سبباً في الزيادة والنقصان.

التراجم الفردية والذاتية^(١) لبعض تراجمه أشار إليها في صلب الترجمة، وهي من الصحة والقوة بمكان.

سابعاً: الحياة العلمية: أعطت تراجم الشلي صورة عن الحياة العلمية في حضرموت في مدة الدراسة وما قبلها، فمن مظاهر هذه الحياة وملاحظاتها تلك المقررات الدراسية، فكان أول مقرر على الطالب بعد إجادته قراءة القرآن الكريم حفظه، فنجد الكثير من هؤلاء قد حفظه، فضلاً عن قراءته وترتيله، وبالأخص منهم من ولد بتريم، فقد استخدم لهم صياغة واحدة مسجوعة بقوله: «ولد بتريم وحفظ القرآن العظيم»^(٢)، مما حدا بالكاتب أمير البيان شكيب أرسلان (ت ١٣٦٦هـ) بعد قراءته للكتاب أن يقول كلمته الشهيرة: «إذا كان في العمر بقية أريد أن ألف كتاباً اسميه (الحجر الكريم في من ولد بتريم وحفظ القرآن العظيم)».

(١) المصدر نفسه ٢ / ١٠٤، ٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه ١ / ١٧١، ١٨٨، ٢ / ٢٠، ٧٦، ١٣٨.

بعد ذلك تأتي مرحلة التحصيل العلمي والاستزادة من العلوم بأنواعها وأصنافها، وبمختلف تخصصاتها، إذ يذكر أسماء تلك الكتب، فمثلاً في العقيدة، وعلوم القرآن، تذكر كتب العقيدة الغزالية^(١)، والتبيان في آداب حملة القرآن للنووي (ت ٦٧٦هـ)^(٢)، والجزرية للجزري (ت ٨٣٣هـ)^(٣)، والشاطبية للشاطبي (ت ٩٥٠هـ)^(٤)، وفي الحديث تأتي الأربعون النووية^(٥)، وألفية الحافظ العراقي (ت ٨٠٦هـ)^(٦).

وفي الفقه يأخذ الطالب من كتب الفقه الشافعي؛ إذ تبرز كتب النووي كالمنهاج^(٧)، والإرشاد لابن المقري (ت ٨٣٦هـ)^(٨)، وجامع المختصرات للنشائي (ت ٧٥٧هـ)^(٩)، والإمداد لابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ)^(١٠)، وفتح الجواد للرملي (ت ٩٥٧هـ)^(١١)، والمنهج^(١٢)، وورقات الأصول^(١٣).

أما علم النحو فمن مقرراته: ملحة الإعراب للحريري (ت ٥١٦هـ)^(١٤)، وألفية ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)^(١٥)، والآجرومية (ت ٧٢٣هـ)^(١٦)، وقطر الندى لابن هشام (ت ٧٦١هـ)^(١٧).

(١) المصدر نفسه ١ / ١٨٤، ٢ / ٦١.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٣٨.

(٣) المصدر نفسه ١ / ١٧٢، ١٨٤.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٠٠.

(٥) المصدر نفسه ٢ / ٩٧.

(٦) المصدر نفسه ٢ / ٤٨.

(٧) المصدر نفسه ١ / ١٧٢.

(٨) المصدر نفسه ١ / ١٧٢، ٢ / ٤٤.

(٩) المصدر نفسه ١ / ١٧٢.

(١٠) المصدر نفسه ١ / ١٧٢.

(١١) المصدر نفسه ١ / ١٧٢.

(١٢) المصدر نفسه ٢ / ٤٨.

(١٣) المصدر نفسه ٢ / ٤٦.

(١٤) المصدر نفسه ١ / ١٧٢، ٢ / ١٠٢.

(١٥) المصدر نفسه ٢ / ٤٨، ١٠٠.

(١٦) المصدر نفسه ٢ / ١٧، ٣١.

(١٧) المصدر نفسه ٢ / ١٠٢، ١٢٧.

وفي التصوف تبرز كتب الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) كالإحياء^(١)، وبداية الهداية^(٢)، ومنهاج العابدين^(٣)، وعوارف المعارف للسهروردي (ت ٦٣٢هـ)^(٤)، وأذكار النووي^(٥).
في حين أن هناك علومًا قد تزودوا منها ونهلوا من حياضها لم يمن علينا الشلي بذكر شيء من مقرراتها.

وفي أثناء التحصيل العلمي كان الطالب يرتحل إلى المراكز العلمية للأخذ عن شيوخها، فكانت هناك الرحلة العلمية كملح آخر من ملامح هذه الحياة، وبرزت لهذا شكلان من أشكال هذه الرحلة:

الرحلة الداخلية بين المراكز العلمية الحضرية، أو بينها وبين مراكز العلم اليمينية، فارتحل طلاب ضواحي تريم إلى تريم^(٦)، كما ارتحل بعضهم إلى مناطق الساحل^(٧)، ووادي دوعن^(٨)؛ إذ كان يسمى وادي الفقهاء، بل وإلى عدن^(٩)، والوهرط^(١٠)، وزيلع^(١١)، والمخا^(١٢).
الرحلة الخارجية: إلى مراكز العالم الإسلامي، كالحرمين الشريفين^(١٣)، ومصر^(١٤)، كما وصلوا إلى مناطق أخرى ربما لطلب العلم أو التجارة ونشر الإسلام كالهند^(١٥)، والسواحل^(١٦)، وظفار^(١٧).

(١) المصدر نفسه ٢ / ٨٨، ١٣١.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٣٨.

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٥٦.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٣١.

(٥) المصدر نفسه ١ / ١٧٤.

(٦) المصدر نفسه ٢ / ٤٩، ١٢٥.

(٧) المصدر نفسه ٢ / ٢٩، ٤٩، ١٢٣.

(٨) المصدر نفسه ٢ / ٤٤، ١٨١.

(٩) المصدر نفسه ١ / ١٧٤، ٢ / ٤٩.

(١٠) المصدر نفسه ١ / ١٩٢، ٢ / ٢٩.

(١١) المصدر نفسه ١ / ١٧٦.

(١٢) المصدر نفسه ٢ / ١٠٢، ١٢٨.

(١٣) المصدر نفسه ١ / ١٧١، ٢ / ٥٣.

(١٤) المصدر نفسه ٢ / ٧٧.

(١٥) المصدر نفسه ١ / ١٨٥، ٢ / ٣١.

(١٦) المصدر نفسه ٢ / ٤٥، ١٢٣.

(١٧) المصدر نفسه ٢ / ١٧.

ولعل الرحلة إلى الحرمين الشريفين التي من أهدافها أداء النسكين من أهم هذه الرحلات؛ إذ تبرز معها ومن غيرها ظاهرة الجوار، فيجاور الطالب بهما السنوات العديدة قد تصل إلى عشر سنوات، ثم يعود إلى مسقط رأسه^(١)، أو أن البعض يحبذ الإقامة بهما حتى وفاته^(٢).

ومع أن الميزة المشتركة لتلك التراجم هي اصطباغها بالصبغة الصوفية، تلك الصبغة التي اصطبغتتها حضرموت في حياتها عامة، والعلمية على وجه الخصوص، وتفوقهم كذلك في العلوم الشرعية، وبالأخص علم الفقه، فإنه قد ظهرت هناك تخصصات أخرى إلى جانب هذه العلوم، فكان منهم من أجاد علم الأنساب والتاريخ^(٣)، وعلوم الرمل، والهيئة، والأسماء، والوفاق، والكيمياء^(٤)، وغيرها من العلوم ليدل ذلك التفوق دلالة قاطعة على أن هذه العلوم كانت لها الحلقات العلمية والمقررات التدريسية، وإن سكت عنها الشلي وغيره.

ولهذا فقد جلس هؤلاء الشيوخ للإقراء والتدريس^(٥) في المؤسسات العلمية الموجودة آنذاك كالمساجد، والمدارس، والبيوت وغيرها، حتى قصدوا من جهات بعيدة، وارتحل إليهم، وأصبحوا أصحاب الرحلة^(٦)، كما أنهم لم يكتفوا بذلك في بلدانهم فعدوا تلك الدروس في بلد الارتحال كالحرمين الشريفين، والهند^(٧)، حتى أنهم تولوا التدريس في الحرم المكي الشريف^(٨).

اشتهر هؤلاء الشيوخ وبرزوا ومن أدلة ذلك العدد الكبير من الطلاب، فضلاً عن نتائجهم العلمي في شتى العلوم، ورغم قلته في علماء حضرموت مقارنة بعلماء بلاد الإسلام، فإن المؤلف قد أشار إلى شيء من ذلك على وجه الإجمال^(٩)، أو على وجه التفصيل والذكر^(١٠)، وكان أكثره في التصوف، ثم يأتي الفقه، والعلوم الأخرى.

(١) المصدر نفسه ٢ / ١٣، ٣١.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٦، ٦٠.

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٤٨، ١٦٨.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٧٠.

(٥) المصدر نفسه ١ / ١٧٩، ٢ / ٣١.

(٦) المصدر نفسه ٢ / ٤٤.

(٧) المصدر نفسه ١ / ١٨٥، ٢ / ٨٦.

(٨) المصدر نفسه ٢ / ٤٨، ٨١، ٨٥.

(٩) المصدر نفسه ١ / ١٧٩، ٢ / ٤٨.

(١٠) المصدر نفسه ٢ / ٢٠، ١٤٧.

ثامناً: القضاء: وظيفة دينية سياسية اجتماعية يقام بها العدل، وينصف بها المظلوم، وتستقيم بها المجتمعات، لذا فإن الأخرى بإقامتها السلطان بتكليفه العلماء، لذا فقد انبرى جماعة منهم بتولييه في مناطقهم، رغم أن البعض كان يعرض عليه فلا يقبله^(١)، وكانوا يعتزلون القضاء لمشاكل أشار المؤلف إلى بعضها - وسنذكر جزء منها فيما بعد - ولأن مدينة تريم قد أخذت الحيز الأكبر من تريم، فكان لها أن تأخذ الحيز الأكبر في عدد القضاة المذكورين^(٢)، فلم ينس المؤلف أن يتحفنا بذكر قضاة في مناطق أخرى كعينات^(٣)، وتريس^(٤)، وسيئون، كما أن هناك أسراً بعينها قد توارث القضاء كأسرة آل طه بن عمر السقاف بسيئون^(٥).

تاسعاً: الأحداث والوقائع التاريخية: رغم كثرة الأحداث والوقائع التاريخية في مناحي الحياة في حضرموت في مدة الدراسة، فإن الشلي بخل علينا بذكر عدد منها، ربما النظرة الصوفية للتاريخ والابتعاد عن تدوين تلك الأحداث وما ارتبط منها بالسياسة هي ميزة مؤرخي حضرموت، ومع هذا فهناك ثلاث وقائع أشار إليها لارتباطها الوثيق بالمرجع له، وشاهد عيان عليها:

الأولى: مسألة رؤية الهلال في دخول رمضان وشوال سنة ١٠٤٧هـ: وهي أن ثلاثة شهدوا برؤية الهلال يوم التاسع والعشرين قبل طلوع شمس، ثم قامت بينة برؤية الهلال بعد غروب الشمس ليلة الثلاثين، فقبل الرؤية الثانية القاضي أحمد بن حسين بلفقيه (ت ١٠٤٨هـ)، وحكم بثبوت دخول شوال، وأفتى القاضي أحمد بن عمر البيتي (ت ١٠٥٠هـ)، برد شهادتهم وقبول شهادة الأولين، وألف كل واحد منهما رسالة في بيان ما ظهر له، فسمى البيتي رسالته (تحرير المقال لما وقع لحاكم تريم إذ ذاك في دخول شوال)^(٦).

اختلفت فتاوى علماء حضرموت في هذه الواقعة، فأرسلوا يستفتون علماء الحرمين، فاختلفت فتاواهم أيضاً، وكان الشلي يؤيد رأي بلفقيه.

(١) المصدر نفسه ٢ / ١٣٢.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٥٦، ٧٧.

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٨٨.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٢٣.

(٥) المصدر نفسه ٢ / ١٢٥.

(٦) المصدر نفسه ٢ / ٥٦، ٧٧.

الثانية: مسألة النذر: وهي أن عبدالله بن شيخ العيدروس (ت ٩٤٤هـ)، نذر لابنه علي (ت ١٠٤١هـ) ببعض العقار دون أخويه شيخ (ت ١٠٤١هـ)، ومحمد (ت ١٠٣٤هـ)، مما أدى إلى وقوع خصومه بين الإخوة، وكان ذلك في عهد القاضي أحمد بن حسين بلفقيه، فقد سعى شيخ في إبطال النذر عند القاضي، مما حدا بأخيه علي أن يشي بالقاضي عند السلطان، فيعزل السلطان القاضي بلفقيه، ويولي القضاء تلميذه حسين بن عمر بلفقيه، الذي حكم بصحة النذر، ومع أن المسألة خلافية بين الفقهاء، لم يسكت عنها الشلي، فأخذ يورد لنا من أيد ومن عارض تلك المسألة من فقهاء حضرموت والعالم الإسلامي^(١).

الثالثة: استيلاء إمام الزيدية الحسن بن القاسم على إقليم اليمن، كتب لسلطان حضرموت وأعيانها يدعوهم إلى طاعته، فأجابه السلطان برسالة طويلة من إنشاء علي بن عبدالله بن شيخ العيدروس (ت ١٠٤١هـ)^(٢).

نستنتج من هذه الوقائع التاريخية أن الاختلاف والتباين في المسائل الدينية واقع بين العلماء لا محالة، دون تجريح محافظين على الود فيما بينهم، فتجري بينهم المناظرات، ويناصرها العلماء من كل فريق، وتسبب اليراع في ذلك.

كما نستنتج تأثير العلماء على السلاطين وأصحاب القرار، وتبرز أسر في هذا التأثير، حتى عبر عنها الشلي بقوله: «إن السلطان طوع كلمته يتصرف بما شاء في مملكته، وكان يأتيه إلى بيته»^(٣)، فهل لمركزهم الاجتماعي والمالي سبب في ذلك؟!

عاشراً: الجوانب الشخصية للمترجمين: يذكر الشلي فيما يذكره من معلومات عن مترجميه بعضاً من أمورهم الشخصية، ربما يكون للبعض منها تأثيره الاجتماعي من تقلد البعض أمور المنصب، وإكرام الضيوف والفقراء والمحتاجين والمعوزين.

(١) ممن أفتى بعدم الصحة شيخ الإسلام أبو زكريا الأنصاري، وعبدالرحمن بن زياد، والكمال الرداد، وأبو قضام، ومن أفتى بالصحة المزجد، وعبدالله بافضل، وعبدالله بامخرمة، وابن حجر الهيتمي.

(٢) الشلي: المشرع الروي ٢ / ٢٢٤.

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٢٢٣.

وتبرز في المجتمع بعض الظواهر السيئة فيعنف عليها، وينكرها العلماء، كشرَب الدخان مثلاً^(١)، كما تعتري البعض منهم الحدة الشديدة التي تجاوز الحد^(٢).

وتأتي مسألة الزواج والإقبال عليه والإكثار منه والعزوف عنه من المعلومات التي تورد بكثرة في كتب التراجم والطبقات، والشلي مثل غيره في ذلك يذكر لنا من هذه الصورة ممن لم يتزوج^(٣)، في حين أنه سكت عن من كان مثنيًا أو مثلاً أو مربّعًا، أو من كان مزواجًا كحال كثير من العلماء، وكأنه معترض على ذلك. وهناك أمور أخرى يستشفها الدارس من تراجم هذه الأعلام.

حادي عشر: الملاحظات: من الطبيعي لهذا الكتاب كعمل ضخَم عن حضرموت ألفه صاحبه في مكة، أن تكون هناك بعض الملاحظات والهتات، وكونه عملاً بشرياً شأنه شأن كل الأعمال البشرية يعتريها النقص والخطأ، وهي لا تقلل من قيمته وأهميته العلمية، بل يعد من أوائل الكتب التي اهتمت بتاريخ حضرموت وأعلامها إذا ما قورن بغيره من المصادر المتقدمة عليه؛ إذ امتاز بحسن التبويب والترتيب والمنهجية العلمية الواضحة والسليمة، ومع هذا تظل هناك بعض الملاحظات، مثل:

١- استخدام المؤلف في كتابه المحسنات البديعية من السجع والجناس، بكثرة غالبية، حتى ليخيّل لقارئه أنه أمام مقامة أدبية، فضلاً عن إطلاق الألقاب بصورة مبالغ فيها، وهي ظاهرة نفشت في نتاج ذلك العصر.

٢- لم يكن المؤلف أكثرًا من إيراد كرامات المترجم لهم، كما يفعل من سبقوه، فقد ذكر القليل منها، وأشار بالإجمال لغيرها دون ذكرها، ويمكن للباحث استنتاج بعض الدلالات التاريخية منها.

٣- نسيان أو تجاهل ذكر وفيات بعض الأعلام المترجم لهم، كما أوضحت ذلك سلفاً.

٤- نسيان أو تجاهل ذكر أعلام من الشهرة بمكان ذكرتهم كتب تراجم القرن الحادي عشر، مثل: (شرح العينية)، و(خلاصة الأثر)، وهم على شرط المؤلف، ومن أهم هؤلاء

(١) المصدر نفسه ٢ / ٩٣.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٢٠، ٢٤٩.

عمر بن عبدالرحمن العطاس (ت ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م)؛ إذ يقول فيه الحبشي:

وأبي حسين عمر العطاس من صار من أهل اليقين بموضع

فقد كان عالمًا عاملاً داعياً إلى الله بقوله وفعله وحاله، وقد أثنى عليه غالب صالحى قطره وعصره، فلم يذكره الشلي مع أنه ترجم لبعض تلاميذه، منهم عبدالله بن علوي الحداد.

وعندما أتم المؤلف كتابه نسخ منه نسخة فأرسلها من مكة إلى تريم، فقرئ في مسجد المحضار، فحضر كل علويٍّ وسمع منقبة أهله، فجاء الفقيه علي بن أحمد بامصباح من حريضة يريد أن يسمع مناقب شيخه وحببيه العطاس، فمر عليه القارئ على كل قبيلة إلا العطاس، فرجع إلى حريضة فقصد المشهد وفيها علي بن حسن العطاس (ت ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م) فقال له: يا سيدي علي: آل العطاس ليسوا من آل أبي علوي؛ لأن الشلي صنف (المشرع) ولم يذكرهم، فتبسم السيد علي، وقال: نحن نؤلف للشيخ عمر العطاس مشرعاً يعدل مشرع الشلي كله، فألف (القرطاس في مناقب العطاس)، في ثلاث مجلدات في ترجمة شخص واحد^(١).

وممن لم يذكرهم كذلك: أحمد بن أبي بكر بن سالم بن شيخان (ت ١٠٩١هـ)، والحامد بن أبي بكر بن سالم (ت ١٠٣٠هـ)، مع أنه ترجم لأخيه الحسين، وكذا عمر بن الحامد (ت ١١١٦هـ)، وعمر بن الحسين (ت ١١٢٦هـ)، والفقيه عبدالله بن أحمد بلفقيه (ت ١١١٢هـ)، -أبو العلامة عبدالرحمن (ت ١١٦٢هـ) الملقب (علامة الدنيا) - مع أنه كان بمكة.

٥- غياب تراجم العنصر النسائي في تراجمه، رغم وجودهن، شأنه في هذا شأن معظم كتب التراجم والطبقات الحضرية.

وهناك ملحوظات أخرى على الكتاب اكتفينا بما ذكرناه، تاركين غيرها لتناولها في مناسبات قادمة، تسعف بها الأيام.

وختاماً فإن كتب الطبقات والتراجم تتضمن معلومات مهمة تبلور ما ورد في المصادر الأخرى، واشتملت عليه من مادة تتعلق بالجوانب الاجتماعية والعلمية التي تهتم الباحث موزعة على التراجم.

(١) باجندان، اللوامع البيئات ٢ / ٥٦٩.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن جندان، سالم بن أحمد باعلوي (ت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م):
 - ١ - اللوامع في ذكر من وفد إلى مولى عينات، (مخطوط).
 - الحبشي، أحمد بن زين (ت ١١٤٤هـ):
 - ٢ - شرح العينية، دار التراث، دون تاريخ.
 - الزركلي، خير الدين بن محمود (ت ١٣٩٦هـ):
 - ٣ - الأعلام، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م، دار العلم للملايين، لبنان.
 - الشلي، محمد بن أبي بكر (ت ١٠٩٣هـ):
 - ٤ - المشعر الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي، الطبعة الأولى ١٣١٩هـ / ١٩٠١م، المطبعة العامرة الشرفية، مصر.
 - المحبي، لحمد أمين بن فضل الله (ت ١١١١هـ):
 - ٥ - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

رحلة يافع إلى حضرموت

أو

رحلة الشيخ عمر بن صالح بن هرهرة

١ من ذي القعدة ١١١٧ - ١ رجب ١١١٨ هـ /

١٥ فبراير عام ١٧٠٦ - ٩ أكتوبر ١٧٠٦ م

أحمد صالح الرباكي

مركز الرناد للتراث والآثار والعمارة - تريم

مقدمة

ما إن دخل القرن الثاني عشر الهجري على حضرموت، حتى غمرها (سيل الليل)، وهو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على جيش الزيدية القادم من مرتفعات صنعاء، وعاش الحضارمة في سنواتهم في ضيق في الحال والمال والعقيدة، رغم أن مجيء الزيدية كان بطلب ورضا من سلطانهم الكثيري.

وفي منتصف الربع الأول من القرن نفسه استصرخ المنصب علي بن أحمد بن سالم بن الشيخ أبي بكر بن سالم مولى عينات أتباعه بجبل يافع؛ لإخراج الزيدية من حضرموت، ومحاربة السلطان عمر بن جعفر الكثيري الذي انتحل مذهب الزيدية، فاستجابت يافع له؛ لما لجده من سلطة روحية في يافع، ولإعادة نشر السنة والتصوف بعد أن سُمع من مآذن تريم (حيّ على خير العمل) أكثر من عشر مرات في اليوم واليلة.

وبالفعل حشد اليافعيون رجالهم، وحملوا زادهم وزانهم، وعلى خط الطريق نفسه الذي أتى به أحمد بن الحسن قائد الجيوش الزيدية، قاد الشيخ عمر بن صالح بن هرهرة رجالات يافع، وهو حفيد الشيخ علي بن أحمد بن هرهرة تلميذ الشيخ أبي بكر بن سالم مولى عينات، وهو من السلاطين الذين قاوموا الدولة الإمامية، وله معها صولات وجولات في كثير من جهات اليمن، قاد الحملة التي توجهت إلى حضرموت، فاجتمعت معظم قبائل يافع في

عاصمته المحجبة، واختاروا جماعة منهم على رأسهم السلطانان عمر بن صالح هرهرة وقحطان بن معوضة العفيفي، وفي يوم الاثنين غُرَّة ذي القعدة سنة ١١١٧ سار هؤلاء إلى عدة مناطق بجبل يافع، وكانوا يدعون يافع في كل بلدة يمرون بها لإنقاذ قومهم بحضرموت من بطش السلطان عمر بن جعفر، ولقد اجتمع منهم ستمائة مقاتل، وذهبوا إلى البيضاء، ومنها إلى نصاب، وهناك أنزلهم السلطان صالح بن منصر العولقي، ونصحهم بالعدول عن حضرموت والعودة إلى يافع؛ لقلة عددهم وكثرة أنصار السلطان عمر بن جعفر، فلم يتنصحو له، ومضوا من نصاب إلى وادي المشاجر والضليعة، فجاء معهم أكثر من ألف مقاتل من آل العمودي وأنصارهم، ثم التقوا بقوات الكثيري ومن معه من الزيود في موقع يُقال له (بحران)، حدثت فيه معركة فاصلة في ١٠ من المحرم ١١١٨، كانت الغلبة فيها ليافع ومن معهم، وقد قضت هذه المعركة على نشاط الزيدية في حضرموت. ولما استقرت الأمور عاد السلطان عمر إلى يافع سنة ١١١٨. وقد دَوَّن رحلته هذه إلى حضرموت في كتاب اسمه (مسيرات يافع)، لم نعر عليه إلى هذه اللحظة، لكننا عثرنا على نص من رحلته في مخطوطة (بضائع التابوت) للسقاف، تعتريه أخطاء في النقل وخلط في الأسماء والتواريخ، فارتأينا أن نخرجها، ونقتطفها من المخطوطة المذكورة؛ لتسليط الضوء عليها، وتحليل الوقائع التي صاحبته، والتي كان لها تأثير في خارطة حضرموت المذهبية والديموغرافية، ولعل أهميتها تكمن في أنها تكلمت بلسان قائد الحملة السلطان عمر، وضمَّنها تفاصيل خروجهِ والمراسلات التي تمت، والمعارك التي جرت، ووجهة نظره في الأحداث التي مر بها، واحتوت معلومات مهمة تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

قسم الباحث ورقته العلمية على تمهيد وأربعة مباحث:

◆ **المبحث الأول:** يتضمن التعريف بالسلطين والمناصب والشخصيات الرئيسة في محور الأحداث.

◆ **المبحث الثاني:** يتطرق فيه إلى دراسة الأوضاع التي سبقت معركة بحران.

◆ **المبحث الثالث:** يحتوي على نص الرحلة المخطوط وتحقيقه.

◆ **المبحث الرابع:** يتطرق فيه إلى دراسة الأوضاع التي نتجت عن معركة بحران.

وتلي المباحث الأربعة الفهارس والملاحق.

تمهيد

من حضرموت مبتدأ الحكاية ومنتهى البداية، ملتقى الثقافات على ضفاف المحيط، وصراع الحضارات على ضفاف الأودية، فهناك في شرق وادي حضرموت وعلى ضفته الجنوبية برزت (عينات) في أواخر القرن العاشر الهجري، حوطة علمية، وواجهة دينية، وقبله لطلاب العلم من جميع الجهات، بوجود العلامة ولي الله السيد الشيخ أبي بكر بن سالم الذي لُقِّبَ بـ(مولى عينات) أي صاحبها، وقبل أن تدركه الوفاة سنة ٩٩٢ هـ نَصَّبَ أحد تلاميذه، وهو العلامة الشيخ علي بن أحمد هرهرة، مصلحاً ومرشداً دينياً في بلاد يافع المعروفة بـ(سرو حَمِير)، وينتمي ابن هرهرة سكناً إلى يافع، ونسباً إلى همدان، ورفع بعضهم نسبه إلى آل البيت، وعدّه من أشراف همدان الجوف، خرج منها مهاجراً يعلم الناس أمور دينهم، ويحكم بينهم، وانتقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى يافع، فسكن قرية المحجبة، وكانت إقامته فيها سنة ١٠٠٤ هـ، ولكثرة علومه الشرعية غلب عليه لقب (الشيخ)، واجتمعت عليه القبائل بالسمع والطاعة، وسلطوه دينياً؛ لما كانوا يعتقدونه في الشيخ أبي بكر بن سالم وابنه الحسين -الذي زار بلاد يافع- من القطبية والولاية، ولأنَّ الشيخ علياً من أبرز مريديه، وهو ممثل لموالي عينات، وأُسِنِدَتْ إليه مهامُّ منها الصلح بين القبائل، ونشر المذهب الشافعي، وجمع العشور (الزكاة) من القبائل، وتوزيعها على مصارفها، وإرسال جزء منها يسمى (عاشرة العشر) إلى عينات؛ لإنفاقه على زوار رباطها وأضرحتها^(١). وذكر الأستاذ صالح بن صالح هرهرة اعتماداً على وثائق لديه أنَّ الشيخ علي بن أحمد كان حياً في سنة ١٠٤١ هـ. ثم لما مات الشيخ علي خلفه ابنه الشيخ أحمد بن علي الذي توفي قبل سقوط يافع بيد الدولة القاسمية سنة ١٠٦٥ هـ، وخلفه ابنه عبدالله بن علي، وكانت له الكلمة والمكانة في القيادة العسكرية اليافعية في مواجهة الجيش الزيدي القاسمي بقيادة محمد بن الحسين بن الإمام القاسم سنة ١٠٦٥ هـ، وكان يحمل في المعارك رايات الحبيب سالم بن أحمد بن

(١) العمري: نادر سعد، الموسوعة اليافعية، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، ط١، ٢٠١٥،

ج١، ص ١٦٣-١٦٤

(٢) السلفي: سالم عبدالرب، معجم أعلام يافع، بدون مكان، ط٢، ٢٠١٣م، ص ٢٩٠-٢٩١،

بن هرهرة: صالح بن صالح، رحلة الأمن والسلام والاتصال من يافع المحجبة الى وادي

حضرموت، مطابع الوليد، تعز، ط١، ٢٠٠٩م، ص ١٢٥.

الشيخ أبي بكر بن سالم، وبعد سنة ١٠٩٢ هـ مع ثورة يافع على الوجود القاسمي بدأ عهد السلطنة السياسية جنباً إلى جنب مع المكانة الدينية متمثلة في أول سلاطينها باتفاق المؤرخين السلطان صالح بن أحمد (ت ١١١٦ هـ) والد السلطان عمر صاحب الرحلة، الذي كان أحد القادة الذين التف حولهم أبناء يافع وقاوموا الإمامية حتى طردوهم، وساقوهم إلى جبلة، وذلك في سنة ١٠٩٢ هـ، إذ كثر في أيام الشيخ صالح بن أحمد اختلال أمر الدولة الإمامية، وعم الفساد والظلم على عهد الإمام المؤيد محمد بن المتوكل ثم الإمام المهدي صاحب المواهب، حتى ثار على هذا الإمام جميع من باليمن من سلاطين وأمراء ومشايخ ممن ضمهم إلى الدولة الإمامية الإمام المتوكل على الله إسماعيل، فاجتمعت كلمة يافع العليا على طاعة الشيخ صالح بن أحمد، وأقاموه سلطاناً عليهم، وأناطوا به مهمة إنقاذهم من جور حكم الإمام، فحالف السلطان معوضة بن محمد بن عفيف سلطان القارة ببلاد يافع أيضاً، ولما كتب الله النصر ليافع انضم إليهم السلطان أحمد بن علي الرصاص صاحب البيضاء، والسلطان صالح بن منصور العولقي، وأمير خرفة الأمير قاسم بن شعفل، ثم ولده الأمير أحمد بن قاسم. وقاد السلاطين المذكورون جميع قبائل يافع العليا والسفلى والعوالق العليا والسفلى وحالين وآل فضل، وابتدأت حروب استمرت من سنة ١٠٩٢ إلى ما بعد ١١٤٥ هـ. ومن خبره في أحداث سنة ١٠٩٢ أن السيد الحسين بن الحسن بن القاسم والي المشرق للإمام - وكان حينئذ في (الخلقة) بالحد من يافع - استضاف كبراء يافع، فاستأذن الشيخ معوضة بن محمد بن عفيف في العودة إلى بلاده، وبقي الشيخ صالح هرهرة حليماً صابراً كاظماً؛ فأحدث الشيخ معوضة ثورة على عامل الإمام على يافع صلاح بن أحمد مسمار، فأرسله الحسين بن الحسن لإنقاذ ولده إسماعيل بن الحسين الذي أرسله لإعانة مسمار، ولإصلاح أمر يافع وردّهم إلى الطاعة مع ضمان الجاه والمشيخة لمعوضة بن عفيف؛ فأخرج ابن الحسين في سلام. لكن الشيخ صالح بن أحمد لما وصل إلى قومه، ورأى منهم ما يُسعد القلب جمع القوم لإخراج الزيود من (الخلقة)؛ فاجتمع لذلك ألوف المقاتلين، فوقعت بينهم الحرب، وتمكنت يافع من محاصرتهم في الخلقة، ولم يخرج الحسين بن الحسن إلا بوساطة سادة حضر موت وشيخ كلد ناصر الجلاذي، منهم الشجاع بن صالح بن أحمد هرهرة. وتوفي السلطان صالح في شوال ١١٠٦، وخلفه ابنه السلطان ناصر، ثم أخوه السلطان عمر صاحب الرحلة^(١).

(١) السلفي: معجم...، ص ١٦٩ - ١٧٠

وفي القرن العاشر أيضًا، وتحديدًا في أواخر الربع الأول منه، كانت يافع في مقدمة جيش السلطان بدر بن عبدالله أبي طويرق في حضرموت، وبهم فتح ما انغلق من بلدان حضرموت، وصفت له، وأبقاهم في صفوف جيشه، ووزعهم حاميات على البلدات ونقباء على الحصون. وفي وسط كل حدث كان الزيود القادمون من مرتفعات شمال اليمن حضورًا في المشهد السياسي في كل من يافع وحضرموت، فعندما أعلن أبو طويرق تبعية بلاده للعثمانيين في القرن العاشر أعلن العمودي خصم أبي طويرق انحيازه إلى إمام الزيدية في اليمن، وكوّن بذلك جبهةً سياسيةً معارضة، وظل خلفاؤه من آل العمودي موالين للأئمة الزيدية، ومنهم الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن المكنى بـ(أبو ست) الذي طلب من الإمام سنة ١٠٧٠هـ أن يعقد له ولاية رسمية على دوعن، فأجابه لذلك، وكان مرحبًا بجيوش (سيل الليل) الزيدية التي غزت حضرموت^(١)، وكذلك فعل سلاطين الدولة الكثيرة، فهذا بدر بن عمر بن بدر أبي طويرق الذي تولى سنة ١٠٢٤هـ، وتصدى له ابن أخيه بدر بن عبدالله بن عمر بالأذى ونصب أحابيل المكائد حوله، فلجأ إلى موالاة أئمة اليمن، وأخذ يكاتبهم، ويستنجد بهم، وأُشيع عنه اعتناقه لمذهبهم، حتى قبض عليه ابن أخيه وسجنه بحصن مريمة سنة ١٠٥٨هـ، فتدخل الإمام عندما بلغه أن ما أصاب بدرًا سببه موالاته للأئمة، وكاتب بدر بن عبدالله أن يطلق عمه ويوليه ظفار، وبقيت المماحكات بينهم زمناً حتى قال لهم الصفي أحمد بن الحسن إن هذا كتابي وبعده سيفي وركابي. وسالت سيول الليل على حضرموت في رجب ١٠٧٠هـ، ومنعت الزيدية راتب الحداد^(٢)، ونودي بأن يُزاد في الأذان (حي على خير العمل)، وبدخولهم انتهت السلطنة الكثيرة، وأصبح السلطان عديم القوة والشوكة، واستبدت يافع بالإدارة الفعلية، وبقي للأئمة عقد الولاء، فالسلطان محمد المردوف تولى سنة ١٠٧٣هـ بأمر الإمام إسماعيل، وكذلك من بعده من السلاطين حتى مجيء صاحب الرحلة^(٣).

(١) باوزير: سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، ط ٣، ٢٠١١م، ص ١٩٧، ٢٠٢.

(٢) ولد الإمام الحداد ليلة الخميس ٥ صفر سنة ١٠٤٤هـ بتريم

(٣) بن هاشم: محمد: تاريخ الدولة الكثيرة، دار تريم للدراسات للنشر، تريم، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٩٥-١١٦

المبحث الأول: التعريف بالسلاطين والمناصب والشخصيات الرئيسية

في محور الأحداث

السلطان عمر بن صالح بن أحمد بن هريرة:

سلطان يافع العليا، خلف أخاه ناصر بن صالح هريرة بعد أن تنازل له الأخير، وهو من السلطين الذين قاوموا الدولة الإمامية، فقد قاد الحملة - موضوع البحث - التي توجهت إلى حضرموت بعدما استصرخه السيد علي بن أحمد بن سالم من آل الشيخ أبي بكر بن سالم لإخراج الزيدية من حضرموت، ومحاربة السلطان عمر بن جعفر الكثيري الذي انتحل مذهب الزيدية، فاستجابت يافع له لما لجده من سلطة روحية في يافع، فاجتمع معظم قبائل يافع في المحجبة، واختاروا جماعة منهم على رأسهم السلطانان عمر بن صالح هريرة وقحطان بن معوضة العفيفي، وسيأتي تفصيل رحلته التي كتبها بنفسه والتي بدأت يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة ١١١٧ هـ، وكانوا في كل بلدة يمرون بها يدعون يافع لإنقاذ قومهم بحضرموت من بطش السلطان عمر بن جعفر، ولقد اجتمع منهم ستمائة مقاتل، حتى التقوا بقوات الكثيري وما معه من الزيدود في موقع يقال له (بحران) حدثت فيه معركة فاصلة في ١٠ محرم ١١١٨ كانت فيها الغلبة ليافع ومن معهم، وقد قضت هذه المعركة على نشاط الزيدية في حضرموت. ولما استقرت الأمور عاد السلطان عمر إلى يافع، وفي سنة ١١٢٠ خرج السلطان عمر يقود حملة كبيرة ضد الإمام، في نحو عشرين ألف مقاتل من أهل يافع والحدّ وبلاد الرصاص والحواشب ودثينة أصحاب الهيشمي وآل حُمَيْقَان وقبائل مُرَاد وَيِّنْحَان والمَصْعَبَيْن، واتجهوا نحو قَعْطَبَة وإب، فأخذوهما، وهزموا جيش الإمام فيها، وقتلوا قاداته، ورجعوا إلى بلادهم ظافرين. وتفصيل هذه الحملة أنه خرج بتلك القوة من يافع يوم الاثنين ٥ من ربيع الآخر ١١٢٠، ومروا ببلاد الحريقي، وجعلوا جماعة على قعطبة، وعزم أكثر القوم على إب، فدخلوها نهار السبت، بعد أن باتوا ليلتهم في (السويد) و(العراقي) من أعمال (ميتم) و(جبل بَعْدَان)، وأصبحوا في إب، فحملوا على مدينة إب، واستولوا عليها، واستمرت الحرب فيها ثلاثة أيام، ولما بلغ الخبر الإمام الناصر محمد بن أحمد بن الحسن أرسل السيد يحيى بن علي بن المتوكل بجند وخيل، فانقلب السلطان عمر راجعاً بمن معه، وحمل معه ما أخذه من إب فوق ألف جمل، من غير ما حملوه على الحمير أو على ظهورهم، فالتقى الجمعان، فقتلت يافع السادة ناصر بن الحسين بن الحسن ويحيى بن علي بن المتوكل والحسين بن

أحمد النوعة ويحيى بن هادي بن مطهر بن محمد الجرُموزي، فانكسر من بقي من أصحاب الإمام، وأخذت يافع ومن معها ما كان معهم من خيل وسلاح، وعادوا إلى بلادهم ظافرين. وفي العام التالي رام الإمام غزوهم والإيقاع بهم، فجمع قوة من حاشد وبكيل نحو عشرة آلاف، فلما دخلوا إلى المشرق تلقاهم السلطان عمر هرهرة وأهل يافع جميعاً، وحصلت بينهم حرب عظيمة، فانهزمت بعض فلول الإمامية، وانحسرت الحرب. وتوفي السلطان عمر بُعَيْد هذه الحادثة، وخَلَفَهُ ابْنُهُ السلطان قحطان^(١).

السلطان عمر بن جعفر الكثيري:

هو عمر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن عمر بن بدر أبي طويرق، وصفه ابن هاشم بأنّه «كله شمم وإباء وحماس، نشأ منذ نعومة أظفاره هائجاً ساخطاً على المتغلبين على دولة آبائه وأجداده»، ولم يلبث أن كثر عن أنبيائه، وأخذ يركب الصعب والذلول، ويذل كل مجهود في استرجاع تراث سلفه، فتقرب من أئمة صنعاء واستنجد بهم، وجلب منهم جيشاً زدياً يكافح اليوافع، فسلك مسلك سلفه بدر بن عمر، وأوغل في الموالاة حتى أُشيع عنه اعتناقه للمذهب الزيدي، ممّا أغضب عليه كثيراً من العامة^(٢).

وكان السلطان عمر من المقربين للإمام الزيدي حتى إنّه في سنة ١١١٣ هـ استعمل الإمام السلطان عمر بن جعفر على رداع بأرض اليمن، وفي السنة نفسها وصل الشيخ الشجاع عمر بن صالح هرهرة صاحب الرحلة في رحلة سابقة إلى حضرموت لزيارة الحبيب علي بن أحمد بعينات، ومعه نحو خمسين رجلاً من يافع القعطة، ومكثوا يوماً واحداً في شبام، ومروا في الغرفة على نائب المنصب الشيخ أحمد بن عمر عبّاد، وباتوا في الغرفة وأكرمهم، ونفذوا إلى سيئون ومكثوا بها عند السلطان عيسى أياماً ثم عزموا إلى عينات، فلما وصلوا تريم والسلطان بدر بن محمد المردوف إذ ذاك متزوج فيها على أخت النقيب عبدالله بن همام، فتلقوهم بالطوس والمرافع والطبول ويافع الذين فيها إلى التربة وأكرمهم، ثم ساروا إلى عينات وزاروا وأقاموا بها مدة، ثم رجعوا إلى سيئون وأقام بهم السلطان عيسى مقاماً لم يعهده هم وخيلهم وركابهم وخيلهم مدة إقامتهم بسيئون^(٣).

(١) السلفي: معجم...، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) بن هاشم: تاريخ...، ص ١٢٤.

(٣) الكندي: سالم بن محمد، العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١، ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٢٥٠-٢٥١.

وخلال سنوات حكمه كان السلطان عمر ألد أعداء يافع بحضرموت، ولم ير اليوافع بطلاً عنيداً مثله، وكانوا يرتضون به سلطاناً لو أقبل إليهم مسالماً، وتركهم في إماراتهم وحامياتهم، ويرغبون في أن يكونوا في جانبه كما جرى لهم معه في الأحوال السابقة، ومثلما نصحه المصلحون بذلك تكراراً ومراراً لتدبير السلطنة وإصلاح شأنها، وإبعاد المخاطر الخارجية عنها، ولم تطب الإقامة له بحضرموت، فذهب ضارباً أطنا به في الآفاق حتى توفي رحمه الله بمسقط^(١).

السلطان بدر بن محمد المردوف:

هو السلطان بدر بن محمد المردوف بن بدر بن عمر بن بدر أبي طويرق، كانت ولايته بعد السلطان علي بن بدر التاسع والعشرين، غير أن أيامه كانت أيام محنة عصيبة، ودسائس طائفية، وقسمة سياسية بين يافع وبين سلاطين الدولة الكثيرة الإمامية^(٢).

وكما أشرنا سابقاً إلى أن سنة ١١١٣ هـ شهدت استعمال الإمام للسلطان عمر بن جعفر على رداً بأرض اليمن، وفي السنة نفسها وصل الشيخ عمر بن صالح هرهرة إلى حضرموت لزيارة الحبيب علي بن أحمد بعينات ومعه نحو خمسين رجلاً من يافع، ومكثوا يوماً واحداً في شبام، ومروا في الغرفة على نائب المنصب الشيخ أحمد بن عمر عبّاد، ونفذوا إلى سيئون ومكثوا فيها عند السلطان عيسى أياماً ثم عزموا إلى عينات، فلما وصلوا تريم والسلطان بدر بن محمد المردوف -هذا- إذ ذاك متزوج فيها على أخت النقيب عبدالله بن همام الناجي اليافعي، فتلقوهم بالطوس والمرافع والطبول ويافع الذين فيها إلى تربتها وأكرمهم، ثم ساروا إلى عينات وزاروا وأقاموا بها مدة، ثم رجعوا إلى سيئون^(٣).

وعظم الأمر على السلطان بدر بن محمد المردوف إذ رأى النوائب محيطة به من كل جانب، فصمم على الشخوص إلى جبل يافع؛ لجلب قوة كبيرة من هناك يخضع بها الإقليم بأسره، ومعه كتاب المنصب علي بن أحمد، فتوجه إلى يافع بعقائره، واستجابوا له مثلما سيأتي، ولم تدخل سنة ١١١٨ هـ إلا وقد استولى بدر المردوف بيافع على جميع حضرموت غرباً وشرقاً، غير أنهم استبدوا بالحكم دونه، حتى توفي سنة ١١٢٠ هـ^(٤).

(١) بن هاشم: تاريخ...، ص ١٣٠-١٣٣

(٢) نفسه، ص ١١٦

(٣) الكندي: العدة...، ص ٢٥٠-٢٥١

(٤) بن هاشم: تاريخ...، ص ١١٨-١٢١

المنصب علي بن أحمد بن علي:

هو علي بن الشيخ أحمد بن الحبيب الشيخ علي بن سالم بن أحمد بن الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم، ولد بحوطة عينات بحضرموت، وفيها نشأ تحت عناية والده المنصب أحمد بن علي، وخبر أمور المنصب والسياسة من كثرة الواردين على بيتهم من سلاطين وأمراء، تولى المنصب عقب وفاة والده سنة ١١١١ هـ وهو ما زال صغيراً، كان له جاه امتد صيته إلى حدود اليمن والقبلة والظاهر ويحان وردمان إلى قرب رداع^(١).

وفي عهده حدثت أحداث جسام لعل من أهمها اضطراب الأوضاع الأمنية والسياسية بحضرموت، وتدخل الأئمة الزيدية في تولية سلاطين حضرموت وعزلهم، وما يفعله عسكريهم الموجودون بحضرموت من فوضى عارمة، حتى لقد كتب إلى أنصاره من قبيلة يافع يطلب منهم المجيء إلى حضرموت وإزالة خطر الزيدية، توفي الحبيب علي ببلد عينات ليلة الاثنين لتسع وعشرين خلت من شهر شوال سنة ١١٤٣ هـ، وبُنيت عليه قبة عالية شرقي قبة جده الحسين^(٢).

الشاجع بن أبي بكر هرهرة:

الشاجع بن أبي بكر بن عبد الله بن الشيخ علي هرهرة اليافعي، من قادة يافع ورؤسائهم البارزين الذين دخلوا حضرموت مع السلطان عمر بن صالح هرهرة في هذه الرحلة، وهو أحد الفرسان المعدودين، له أخبار في (العدة المفيدة)، قتل في ربيع الأول ١١١٩ هـ بالقرب من مَرِيَمَة شرق سيئون في كمين نصبه له جنود من آل عمر بن بدر الكثيري، بعد أن تبعهم بفرسه هو وأصحابه - وكانوا خرجوا مع الأمير منصور الكثيري - فخرج عليهم أهل المكامن، ورموهم بالبنادق، وقتل الشاجع وجماعة من أصحابه، فانكسر الأمير منصور ويافع، وحمل القوم من قتل من أصحابهم، وأخذت الدولة الكثيرية الشاجع، جعلوه على فرسه عرْضاً، رأسه إلى جانب ورجلاه إلى الجانب الآخر، ودفن في سيئون، وهو ابن أخي الشيخ حسين بن عبد الله هرهرة^(٣).

(١) بن الشيخ أبي بكر بن سالم: محمد بن سقاف، بستان العجائب ومطلب الراغب في مناقب المتأخرين من المناصب والحبائب، مخطوط بمركز النور بترميم برقم ٤١، ص ٢٠

(٢) نفسه ص ٣٧

(٣) السلفي: معجم...، ط ٢، ص ١٦٠، الكندي: العدة...: ج ١، ص ٢٧٦-٢٨٠.

يحيى بن عمر هرهرة:

أحد قادة الفرقة الثانية المكونة من قبيلتي الناخبي واليزيدي في موقعة بحران، وله أخبار في العدة المفيدة^(١). وقد خلف يحيى بن عمر هذا أسرة في حضرموت كان لها شأن في أحداث القرون اللاحقة عُرفوا بـ(آل يحيى بن عمر)، فمن أولاده حسين وغالب، وأنجب حسين سالمًا وعليًا، وأنجب سالمٌ صالحًا وعمر وعبد الرب، وكان لهم شأن في القرن الثالث عشر، وأنجب عليٌ سالمًا الذي كان له شأن أكبر، فأما غالب فأنجب محسنًا وكان له شأن، ومحسن أنجب عبد الله. ولا علاقة بين هذا العلم ويحيى عمر الشاعر إلا تشابه الأسماء^(٢).

يحيى عمر الياضي (أبو مُعْجَب):

من أشهر شعراء الغزل في اليمن والجزيرة العربية. ولد في يافع في قرية (كبانة) في حيد المُنيقي في مَسْأَلَة، وهو من بيت الجَمَالِي من بيوت مَسْأَلَة، وقد كان يشير إلى ذلك في شعره، من ذلك قوله: قَالَ الْجَمَالِي مِفَارِقُ لِي سَنِينَ اَرْبَعُ / لَا بُدَّ مِنْ ذَا وَذَا يَجْرِي عَلَى الْوَاحِدِ. عاش شطرًا من صباه في قرية (عَثَارَة) بيافع، وهناك تأثر بممثلي الولي (أحمد بن علوان) الذين قدموا إلى (عثارة) من منطقة (يَفْرُس) من نواحي تعز لجمع النذور من منطقة يافع لهذا الولي. انتقل في شبابه إلى حضرموت في ضمن القوة العسكرية التي تحركت من يافع إلى حضرموت بقيادة عمر بن صالح هَرَهَرَة في ١١١٧. تنقّل يحيى عمر قبل أن يستقر في الهند بين أماكن كثيرة منها حضرموت، وتعز، وعدن، وصنعاء، والحديدة، وجدة، وعمان، والبحرين، والبصرة، وبلاد فارس، ثم وصل إلى الهند، وزار حيدرآباد الدكن ومدّراس وكلكتا، ثم عاد إلى ولاية (بُرُودَة) الهندية، وكانت بها جالية كبيرة من حضرموت ويافع، فاستقر بها وتزوج، وأتقن اللغة الأردية، ثم توفي فيها، وانقطع عقبه، ومنهم من يقول إنه توفي في يافع. وتذكر الروايات المحلية أنه عاش فيما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين. وقصائده تغنى إلى اليوم مسجلة على أسطوانات وأشرطة، وشهرته على كل لسان في اليمن. ذكر البكري أن له ديوانًا توجد نسخة منه عند (لاندرج) صاحب كتاب (لغة دثينة)، في حين ذكر بامطرف أن له (ديوان شعر) مخطوطًا اطلع عليه مع المطرب العدني إبراهيم محمد

(١) الكندي: العدة...، ج١، ص ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٨٩.

(٢) السلفي: معجم...، ط ٢، ص ٤٧١

الماس، قال بامطرف: شعره سلس وجذاب ورقيق. هذا، وقد صدرت مجموعة كتب عنه وعن شعره^(١).

المبحث الثاني: دراسة للأوضاع التي سبقت معركة بخران

لقد أتت هذه الحملة العسكرية نتيجةً من نتائج الاتفاق المبرم بين السلاطين في (جبل العر) في الثاني من شوال سنة ١١٠٤ هـ^(٢)، فقد اجتمعت كلمة يافع العليا على طاعة الشيخ صالح بن أحمد - والد السلطان عمر - وأقاموه سلطاناً عليهم، وأناطوا به مهمة إنقاذهم من جور حكم الإمام، فحالف السلطان معوضة بن محمد بن عفيف اليافعي سلطان القارة ببلاد يافع أيضاً، وابتدأت الحركة من يافع. ولمّا كتب الله النصر ليافع انضم إليهم السلطان أحمد بن علي الرصاص صاحب البيضاء، والسلطان صالح بن منصور العولقي وأمير خرفة الأمير قاسم بن شعفل، ثم ولده الأمير أحمد بن قاسم. وقاد السلاطين المذكورون جميع قبائل يافع العليا والسفلى والعوالق العليا والسفلى وحالمين وآل فضل، واشتعلت حروب استمرت من سنة ١٠٩٢ إلى ما بعد ١١٤٥، وقاوموا حملات جنود الأئمة التي كانوا يسوقونها عبثاً لإخضاع السلاطين المتحالفين. ويمكن أن نطلق عليه (مؤتمر السلاطين)، الذي اجتمعت فيه السلطنات الجنوبية، وتعاهدت على وجوب الدفاع عن البلاد، وحماية العباد من أي عدو صائل، وضرورة وحدة الكلمة مهما كلف ذلك من ثمن، ومهما كانت التضحيات، وعلى خلفية ذلك الاتفاق كانت مهياةً لنجدة كل من يستنجد بها، وجاءت الوساطة الحضرمية من المنصب علي بن أحمد، وجاء السلطان بدر بن محمد المردوف الكثيري بعقائره يطلب النصرة والمؤازرة والمدد من يافع ضد منافسيه من الأسرة الكثيرية والمد الزيدي الذي بدأ ينتشر في حضرموت، فلم يجد اليافعيون بداً من نجدة من استنجد بهم ولاذ بهم دون غيرهم، واختارهم من بين قبائل اليمن قاطبة، وقدم بهم السلطان بدر بن محمد (المردوف) الكثيري بوساطة دينية من قبل آل الشيخ أبي بكر بن سالم، واستطاع المردوف أن يقنع سلاطين يافع بإرسال مقاتلة من عشيرتهم إلى حضرموت، للمكانة التي يكنّها اليافعيون لآل الشيخ أبي بكر،

(١) السلفي: معجم...، ص ٤٧١ - ٤٧٢.

(٢) الناحبي: عبدالله بن أحمد، رحلة إلى يافع أو يافع في أدوار التاريخ، شركة دار العلم للطباعة والنشر، جدة، السعودية، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٧٦.

وبين الشروع القبلية السائدة عندهم؛ فكتب إلى شيوخ يافع يدعوهم فيها لنجدة حضرموت والقضاء على الزيدية فيها، ولإنقاذ يافع من بطش السلطان عمر بن جعفر الكثيري الذي انتحل مذهب الزيدية، فافتنعت يافع بذلك، ولم تجد بُدًّا من قبول طلب الأمير الكثيري، ولم تستطع ردَّ الوساطة الروحية^(١)، أضف إلى ذلك صراع يافع المرير مع الزيود، وإجلاءهم من يافع وعدن وأبين والضالع.

ففي سنة ١١١٦هـ وصل السلطان بدر إلى أحور قادماً من ظفار، ومنها اتجه بعقائر إلى يافع العليا مقدمها للسلطان ناصر بن صالح بن هريرة^(٢)، فلبَّت يافع دعوة المردوف بدر بن محمد الكثيري حينما استنجد بها على خصومه في حضرموت الموالين للإمام، فخرجوا زرافات ووحداناً^(٣).

التاريخ الحقيقي للموقعة :

مثلما تضاربت المصادر التاريخية في تحديد العدد الحقيقي للجيش الآتي من مرتفعات سرو حمير كذلك تضاربت في التاريخ الحقيقي للرحلة والمعركة، فأول تضارب كان في مخطوطة البضائع ففي نسخة البضائع (أ) و(ب) يذكر أنها سنة ١١١٢هـ، وهو خطأ واضح، وكان المقصود سنة ١١١٧هـ وليس ١١١٢هـ كما يُفهم من الحوادث الآتي ذكرها في الرحلة، مع العلم أن للسلطان عمر بن صالح رحلة سابقة صحيحة إلى حضرموت سنة ١١١٣هـ ذكرها ابن حميد^(٤)، وكان معه خمسون نفراً من يافع والقعطة، وكذلك نستدل من زمن وعهد السلطان عمر بن جعفر الطرف الآخر في المعركة الذي تولى سنة ١١١٦هـ، ثم إن ابن عبيدالله قد ذكر في الإدام أنها سنة ١١١٧هـ^(٥)، فتأكد أن المذكور قبل خطأ من النساخ، وفي الإدام

(١) نفسه، ص ٧٠.

(٢) شهاب: حسن صالح، يافع في عهد سلطان آل عفيف وآل هريرة، مركز الشرعي، صنعاء، ط ١، ٢٠٠١م، ص ٥٠.

(٣) الناجي: رحلة...، ص ٧٠.

(٤) الكندي: العدة...، ج ١، ص ٢٥٠.

(٥) السقاف: عبدالرحمن بن عبيدالله، إدام القوات في ذكر بلدان حضرموت، دار المنهاج، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ٩٨١.

أيضاً^(١): وقال السيد أحمد بن حسن الحداد في الهدية السنية: (كان خروج الإمام أحمد بن حسن سنة ١٠٧٢ هـ، وأقام بجيشه في حضرموت نصف شهر، ثم عاد بطريق البحر من بندر الشحر، واستمر أمرهم نحو خمسين سنة إلى خروج يافع من الجبل سنة ١١١٧ هـ).
وعند ابن حميد كذلك خلط وتضارب، إذ جعلها في حوادث سنة ١١١٦ هـ، يقول: ((وفيها (أي سنة ١١١٦) وصل الخبر من ابن عبدالواحد بأن السلطان بدر بن محمد خرج على أحوار وسار إلى عند يافع الجبل))^(٢). ويورد أيضاً: ((وفي ثالث ذي الحجة (أي سنة ١١١٦) وصل مكتب من صالح منصر العولقي بأن بدر بن السلطان محمد ويافع وصلوا إلى عتق، وفي هذه الليلة سار أحمد بن محمد وولده وأخوه بدر وغيرهم إلى عينات، ولما كان يوم الجمعة من ذلك اليوم بعد تعشير البنادق تحت دار آل عمر بن علي^(٣) قال للعسكر: إن عمر بن صالح ويافع والصنو بدر بن السلطان محمد واصلين ونحن معارضينهم إن جاؤوا لخير أو لشر، وقالوا له: إنا في الطاعة، ويعدل لهم النص فالشهر كذا قرش، وذكر لهم أن السلطان عمر بن جعفر واصل من بندر الشحر، ثم وصل سالم العولقي بن عبد الودود يوم الاثنين، وفرقوا الركاب على أهل الخيل والعسكر، وحضرت المرافع بعد الفجر، وسار عمر بن علي وأهل الخيل والعسكر بعد الشرق، وناس من آل تميم الذين في نواحي تريم، فالله يصلح أمور المسلمين))^(٤).

وبالتحقيق في صحة الأيام وتحويلها إلى التاريخ الميلادي ومقابلة الأيام والتاريخ وجد الباحث أن ما أورده ابن عبيدالله من تواريخ في ضمن رحلة السلطان عمر هي الأصح، وأن التواريخ الواردة في المصادر الأخرى ومنها العدة المفيدة قد جانبها الصواب، وكذلك ما أورده صاحب العدة أن السلطان عمر قد جلس بحضرموت إلى سنة ١١٢٠ هـ^(٥) ينافي ما جاء في الرحلة، وينافي الأحداث التي حصلت له في بلاد يافع بعد عودته من حضرموت، فعلى

(١) نفسه ص ١٦٩، ص ٢٩٥، ص ٤٨٠.

(٢) الكندي: العدة...، ص ٢٦٣

(٣) عم السلطان عمر بن جعفر، وهو الذي أنابه السلطان عمر بن جعفر في سيئون لحين ذهابه إلى البندر في هذه الأيام. (ينظر الكندي: العدة...، ص ٢٦٣)

(٤) الكندي: العدة...، ص ٢٦٣ - ٢٦٤

(٥) الكندي: العدة...، ج ١، ص ٢٩٢

سبيل المثال:

التاريخ في المصادر	التاريخ ببرنامج محول التاريخ	الملاحظات
العدة المفيدة = الجمعة أول محرم ١١١٧	السبت ٢٥ / ٤ / ١٧٠٥	(مختلف)
العدة = ليلة الأربعاء أي الثلاثاء ٦ محرم ١١١٧	الخميس ٣٠ / ٤ / ١٧٠٥	(مختلف)
الرحلة = الخميس ١ محرم ١١١٨	الخميس ١٥ / ٤ / ١٧٠٦	(مطابق)
الرحلة = الاثنين أول ذي القعدة سنة ١١١٧ هـ	الاثنين ١٥ / ٢ / ١٧٠٦ م.	(مطابق)

العدد الحقيقي (٦٠٠٠ أم ٦٠٠٠٠):

تناولت كتب التاريخ معركة بحران لما لها من أهمية في تغيير موازين القوى في الربع الأول من القرن الثاني عشر الهجري، إلا أن هذه المصنفات قد تفاوتت في تحديد عدد الجيش اليفاعي الذي أتى مشاركاً في المعركة، ولعل أغلب هذه المصادر قد وقفت على تحديد أن العدد يبلغ ستة آلاف جندي، وبالتالي تناقل هذا العدد بقية المراجع التي أتت بعد، لكن الناظر لرحلة السلطان عمر يجد أنها حددت الأعداد المشاركة في كلتا الجهتين، ولا ذكر لستة آلاف، وإنما هو ستمائة، إذ صرح بذلك مرتين في نص الرحلة، وعليه فإن هذا النص من الأهمية بمكان، إذ إنه يصحح معلومات تاريخية تناقلتها المصادر دون تمحيص، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

- ابن هاشم في تاريخ الدولة الكثرية ص ١١٨

- العبدلي في هدية الزمن وتبعه البكري

- ذكر الناجبي أن يافع أمدتهم بستة آلاف مقاتل^(١).

وكذلك بين النص تكوينات الأطراف المشاركة في المعركة حسبما سيأتي في الشكل الآتي:

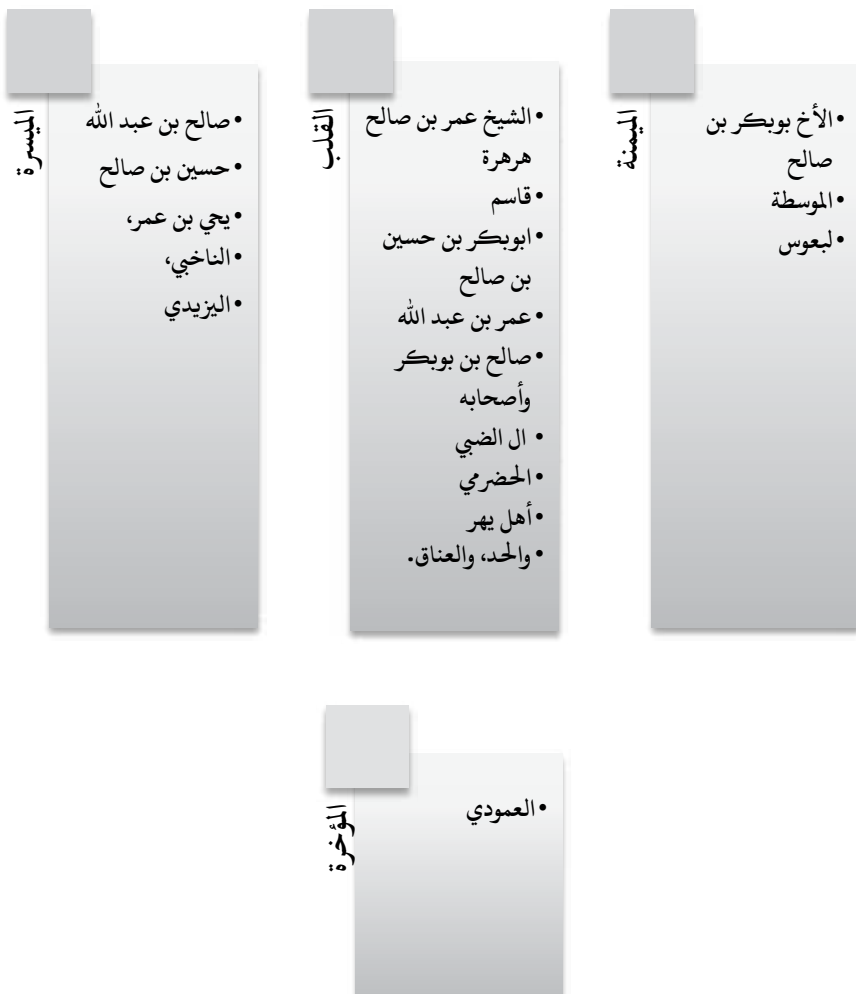
(١) الناجبي: رحلة إلى يافع...، ص ٧٠.

تقسيمات الجيش:



الخطة العسكرية:

عندما وصل السلطان عمر بن صالح بن هرهرة ومن معه من قبائل حضرموت المتحالفة تحت إمرة العمودي إلى ميدان المعركة في قاع بحران، وضعوا خطة عسكرية محكمة، ونتائجها لا تقبل إلا النصر، حيث إن أعدادهم قليلة لا تتجاوز نصف أعداد الطرف الآخر، ويشير بن هرهرة في نص رحلته إلى الخطة التي اتبعها في تقسيم جيشه فيقول: ((وبعد أن خطبتُ القوم وشجعتُهم انقسمنا ثلاثة مراكز: الأخ بوبكر بن صالح والموسطة ولبعوس مركز، والأولاد صالح بن عبد الله، وحسين بن صالح، ويحيى بن عمر، والناخبي، واليزيدي مركز، وأنا والأولاد قاسم، وبوبكر بن حسين بن صالح، وعمر بن عبد الله، وصالح بن بوبكر وأصحابه، وآل الضبي، والحضرمي، وأهل يهر، والحد، والعناق مركز، والعمودي وأصحابه المركز الرابع، وكانوا من ورائنا بنحو ميل وقدرهم اثني عشر مائة ونحن معشر يافع ستمائة نفر)). ورغم أن الخطة المتبعة تقليدية بوضع (ميمنة وميسرة وقلب ومؤخرة) إلا أنها قد فاجأت الطرف الآخر، وخاصة وضع العمودي ومن معه أصحاب الأرض في المؤخرة، ليكون لهم الكلمة الأخيرة إذا ما حصل انهزام في الخطوط الأمامية، وكذلك لمعرفتهم بالأرض إذا ما حصل هناك التفاف.



الخارطة الزمانية للرحلة :

استغرقت الرحلة ثمانية أشهر كاملة من حين خروجه من بلاد يافع، إلى حين عودته مرة أخرى من (١ من ذي القعدة ١١١٧هـ - ١ رجب ١١١٨هـ / ١٥ فبراير عام ١٧٠٦م - ٩ أكتوبر ١٧٠٦م) واستغرق شهرين كاملين في مسيره من بلاد يافع في أول القعدة سنة ١١١٧هـ إلى يوم المعركة الخميس أول يوم من شهر محرم سنة ١١١٨هـ، ثم بقية الأيام قضاها بحضرموت منها ثلاثة أشهر في بندر الشحر.



المبحث الثالث: نص الرحلة المخطوط وتحقيقه

يُعتقد أن السلطان عمر بن صالح بن هريرة قد دَوَّنَ غزواته ورحلاته العسكرية والسياسية في كتاب اسمه (مسيرات يافع) لم يعثر عليه إلى هذه اللحظة. ومن ضمنها رحلته الى حضرموت هذه، إلا أنها فقدت، ونقل عنه بعض المؤرخين وأشاروا إليه، ويشير صاحب مخطوطة (بستان العجائب) إلى أنه قرأ رحلة السلطان عمر في حاضرة السلطنة الهريرية في المحجة بجبل يافع في أوائل القرن الرابع عشر الهجري في أثناء زيارته إلى هناك، يقول: ((عثرت على كتاب وجدته مع السلطان قحطان بن عمر بن الشيخ علي سنة طلعت جبل يافع سنة ١٣١٥ هـ فيه ذكر خروج القوم التي خرج بها السلطان عمر بن صالح بن الشيخ علي، ذكر فيه رحلتهم من حين خرجوا من جبل يافع إلى أن وصلوا حضرموت))^(١). إلا أن الرحلة لا توجد حالياً بالمحجة بدليل أن الشيخ صالح بن صالح بن هريرة قد زار حضرموت في

(١) بن الشيخ أبي بكر: بستان...، ص ١٨٠

سنة ٢٠٠٨م ونسخ الرحلة من حضرموت من كتاب البضائع ونشرها في كتابه (رحلة الأمن والسلام والاتصال).

حتى إن ابن عبيد الله في بداية الأمر ظل يبحث عنها كما يقول حتى وجدها وأثبتها في كتابه الموسوعي (بضائع التابوت)، ووقف الباحث على نسختين من هذا الكتاب:

♦ **النسخة الأولى:** ورمزنا لها بالرمز (أ)، مخطوطة في ثلاثة أجزاء ضخمة، كتبت بخط دقيق (واحد)، انتهى من نسخها في رجب ١٣٦٠هـ، جاءت الرحلة في الصفحات (٨٤ - ٨٧).

♦ **النسخة الثانية:** ورمزنا لها بالرمز (ب)، وهي نسخة مخطوطة في ثلاثة أجزاء ضخمة، كتبت بثلاثة خطوط، خط المؤلف نفسه، وخط حنبل بارجاء، وخط محسن العطاس، وكتبت صفحات الرحلة المشار إليها بخط كبير وواضح، لكن كانت رحلة بن هريرة فيها ناقصة للأسف، وفيها سقط، وأخطاء كثيرة وإبدال، انتهى من نسخها في خاتمة شعبان سنة ١٣٦٠هـ، وجاءت الرحلة فيها في الصفحات (١٣١ - ١٣٤). ولهذا اعتمدنا على النسخة الأولى وقابلناها بالنسخة الثانية.

رحلة الشيخ عمر بن صالح:

(بسم الله الرحمن الرحيم كان نهوضنا إلى حضرموت أول يوم في القعدة سنة ١١١٧هـ^(١)، كتب إلينا مولانا وسيدنا وصاحب أمرنا قطب الحقيقة والطريقة^(٢)، الشيخ الحبيب علي بن أحمد بن علي بن سالم بن أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم^(٣)، بأن نخرج إلى

(١) الموافق ليوم الاثنين ١٥ فبراير عام ١٧٠٦م. وفي نسخة البضائع (أ) و(ب) سنة ١١١٢هـ. ولعل هنا خطأ في النسخ فربما كان المقصود سنة ١١١٧هـ وليس ١١١٢هـ كما يستدل من الحوادث الآتي ذكرها في الرحلة، مع العلم بأن للسلطان عمر بن صالح رحلة أخرى صحيحة إلى حضرموت سنة ١١١٣هـ ذكرها ابن حميد في تاريخ حضرموت ص ٢٥٠ ج ١ ومعه خمسون نفراً من يافع والقعطة، وكذلك عهد السلطان عمر بن جعفر الطرف الآخر في سبب الرحلة الذي تولى سنة ١١١٦هـ ثم إن ابن عبيدالله قد ذكر أنها سنة ١١١٧هـ. انظر السقاف: عبد الرحمن بن عبيدالله، إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، دار المنهاج، جدة، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٩٨١. فتأكد أنها خطأ من النساخ.

(٢) قطب الحقيقة والطريقة: من المقامات الصوفية.

(٣) المنصب: علي بن الشيخ أحمد بن الحبيب الشيخ علي بن سالم بن أحمد بن الحسين بن

حضرموت؛ لأن السلطان عمر بن جعفر^(١) صار من البغاة، أظهر شعائر الزيدية^(٢) بالشحر^(٣)، وكان استولى عليها من غير حرب، ولاقاه العمودي^(٤) وكان الحال بينهما واحدًا، وقدم حضرموت فلم يكن من السلطان عيسى بن بدر^(٥) إلا الهرب إلى عينات^(٦)، والاحتماء

الشيخ أبي بكر بن سالم، تولى المنصب عقب وفاة والده سنة ١١١١ هـ، كان له جاه اتسع بسبب اتساع نفوذ يافع في أيامه حتى لقد كان الشعب المشهور بحسن ماء ورده إقطاعاً له، فقد امتد صيته إلى حدود اليمن والقبلة والظاهر ويحان وردمان إلى قرب رداغ، وهو الذي كتب إلى يافع في أمر خروجهم هذا لما كثرت بها المظالم والفوضىّة، توفي الحبيب علي ببلد عينات ليلة الاثنين لتسع وعشرين خلت من شهر شوال سنة ١١٤٢ هـ وبنت عليه قبة عالية شرقي قبة جده الحسين. انظر أخباره مفصلة في (مخطوطة بستان العجائب من صفحة ٢٠ الى ص ٣٧).
(١) السلطان عمر بن جعفر الكثيري، تولى السلطنة حدود سنة ١١١٦ هـ إلى وفاته سنة ١١٣٠ هـ بمسقط عمان (الإدام ص ١٧١). وسبقت ترجمته في المبحث الأول.

(٢) الزيدية: مذهب إسلامي ينسب إلى زيد بن علي، يعد أقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة، ساد في مناطق شمال اليمن منذ القرن الثالث الهجري.

(٣) وفي الإدام: ((لأن السلطان عمر بن جعفر طغى وبغى وعظم شعائر الزيدية واستولى على الشحر)). والشحر: اسم يطلق قديماً على المنطقة الساحلية الواقعة ما بين عمان وساحل حضرموت جميعها، وهي من قدامى بلدان حضرموت، وفرضة حضرموت وميناؤها المعروف والمشهور، دخلها آل كثير سنة ٨٦٧ هـ ثم استردها منهم آل فارس سنة ٨٩٤ هـ، ثم استرجعها آل كثير في سنة ٩٠١ هـ على يد السلطان بدر بن محمد، وما زالت في أيديهم على مناوشات بينهم وبين أمراء العشائر اليافعية، وما زالت يافع على الشحر حتى استولى الامام المتوكل على حضرموت وعليها في سنة ١٠٧٠ هـ (الإدام ص ١٦٧ - ١٧١).

(٤) العمودي: هم ذرية الشيخ سعيد بن عيسى المتوفى سنة ٦٧١ هـ الصوفي المشهور، وخلفه على منصبه ولده محمد بن سعيد، ثم لم يزل منصبه يتوارث بين أولاده حتى تحول بسعة الجاه وكثرة الأتباع ونفوذ الدعوة إلى سلطنة، ثم اختلفوا وانقسموا فكان لآل محمد بن سعيد بن عبدالله قيدون وما نزل منها إلى الهجرين، ولآل مطهر بضّة وما حاذها وما ارتفع عنها، وهي مقر مناصب آل مطهر العموديين. الإدام ص ٣٣٧.

(٥) عيسى بن بدر: هو السلطان عيسى بن بدر بن علي بن عبدالله بن عمر بن بدر أبي طويرق، سلطان عاثر المجد سيء الجدد، جاء في وقت عصيب تتصادم فيه القوى، وكان سلطاناً في سيئون يحكم حكماً غير قائم على أساس متين من القوة، وقد كان لقيامه بإكرام الشيخ عمر بن صالح هرهرة في زيارته الأولى لحضرموت أثر سيئ لدى سفهاء الشنافر زادهم مقتلاً له وبُعداً عنه وجرأة عليه، غادر حضرموت غاضباً سنة ١١١٦ هـ إلى اليمن، ومات بالمخا (بن هاشم ص ١٢٢ - ١٢٤).

(٦) عينات: من أشهر قرى حضرموت على نحو ثلث مرحلة من تريم (٨ كم شرقاً)، وأول من

بمنصب الشيخ أبي بكر بن سالم، وقد استولى عمر بن جعفر على جميع حضرموت، وأخرج^(١) عيسى بن بدر بالقهر من عينات بمن معه من الزيدية، وأرسل به إلى عند الإمام^(٢)، وانكفاً^(٣) على آل همام^(٤) ويافع الذين بحضرموت^(٥) والشحر، وأخرجهم من القلاع، وأدخل فيها الزيدية، ولجأ من بقي من آل همام ويافع إلى عينات، وقلب القواعد عمر بن جعفر على الناس، وجهل مقادير السادة^(٦)، وتضايق الحبيب علي بن أحمد، وهرب إلى قرب هود^(٧)، وكتب لنا، وعند وصول كتابه عزمنا ونهضنا وتوكلنا على الله، وكان خروجنا من المحجبة^(٨)

-
- اختطها آل كثير سنة ٦٢٩هـ، وهذه عينات القديمة أما الجديدة فأول من بنى بها الشيخ أبو بكر بن سالم المتوفي سنة ٩٩٢هـ (الإدام ص ٩٧٤-٩٧٥).
- (١) في (أ) و(ب): (وأخرجه) والصحيح (أخرج) بدون هاء، ففي الإدام (ص ٩٨١-٩٨٢): ((هرب السلطان عيسى بن بدر إلى عينات، فهجم عليه بها هو ومن معه من الزيدية، وأخذه منها قهراً، واستولى على حضرموت كلها، وأرسل بعيسى بن بدر إلى عند الإمام)).
- (٢) الإمام: المقصود به المهدي محمد بن أحمد بن حسن القاسمي (البضائع ١/ ١٢١). ويشير ابن هاشم إلى أن السلطان عيسى غادر البلاد الحضرمية غاضباً سنة ١١١٦هـ إلى اليمن، بعد توتر العلاقة بينه وبين ابن أخيه عمر بن جعفر، وعقب فشل الصلح الذي تم بينهما في عينات على أن لا يبدو من كل منهما أذى للآخر. (بن هاشم ص ١٢٣).
- (٣) انكفاً: أي تعرض لهم بالأذى.
- (٤) آل همام: قبيلة من يافع من مكتب الناجي، كانوا نقباء تريم، ومسكنهم بحصن الرناد حتى نهاية القرن ١٣هـ (الموسوعة ج ١٢ ص ٧٣).
- (٥) أي بوادي حضرموت.
- (٦) السادة: لفظ يطلق على السادة آل باعلوي المنتسبين إلى الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ.
- (٧) هود: شعب نبي الله هود ﷺ بأسفل حضرموت على نحو ٨٠ كم شرق تريم.
- (٨) المحجبة: - بفتحيتين بينهما سكون - سميت بذلك؛ لأنها حجبت بالجبال المحيطة بها من جميع الجوانب، وهي قرية تاريخية عامرة بجبل يافع، فيها حصون السلاطين من أولاد الشيخ علي هرهرة بدءاً من أواخر القرن العاشر الهجري، وعاصمة ليافع العليا، تركز القرية القديمة في جبل وعر مدبب القمة يسمى حيد النوبة، وسميت المحجبة بالحوطة؛ لمكانتها الدينية بعد أن اتخذها الشيخ علي بن أحمد هرهرة سكناً، وبها مسجده وضريحه (الموسوعة الياضية م ١، ج ١، ص ٢٠٠-٢٠٣).

يوم الاثنين أول القعدة سنة ١١١٧ هـ^(١) وأمسينا في عنتر^(٢)، ودخلنا سوق الثلاثاء بالموسطة^(٣)، وعدنا وأمسينا بذى ضراً^(٤)، واجتمع لنا من يافع العليا^(٥) نحو خمسمائة نفر، ووصل ابن زيد الكثيري^(٦) من عمان، وكان خروجه إلى أبين^(٧)، وطلع القارة^(٨)، واتفقنا بالصنو

(١) الموافق لتاريخ يوم الاثنين ١٥ فبراير عام ١٧٠٦ م. وفي البضائع سنة ١١١٢ هـ والصحيح ما أثبتناه.

(٢) وفي (ب) (عنقر) والصحيح ما أثبتناه. وهي قرية عامرة من القرى التاريخية في يافع تقع فوق تل كبير تحيط به الأودية الخصبة، كانت رباطاً دينياً ومركزاً لدعوة الشيخ أبي بكر بن سالم وأبنائه وتلاميذهم الذين اعتبروها في يافع بمنزلة بلدة عينات في حضرموت، حتى إنه نقل عن الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم الذي زارها في مطلع القرن الحادي عشر الهجري أنه قال: «عنتر عين يافع، وعينات عين حضرموت». ومن أسمائها «حوة أهل السلف». ويروى أن الشيخ علي بن أحمد بن هريرة نزل في عنتر عند قدومه إلى يافع عندما عينه السيد الحسين بن أبي بكر منصباً دينياً على يافع في أواخر القرن العاشر الهجري، ثم نزل منها بعد ذلك إلى قرية المحجة. ومن معالم عنتر مسجد عبد الجبار ومسجد الشيخ أبي بكر بن سالم وضريحان أحدهما لأبي علامة عمر بن علي، والآخر لأحمد بن سقاف، ويروى أنهما من السادة الوافدين من حضرموت (الموسوعة اليافعية م ٧، ج ٩، ص ٧٢-٧٤).

(٣) سوق الثلاثاء بالموسطة: الموسطة من مكاتب يافع العليا، سمي بذلك؛ لتوسطه بين مكاتب يافع. وموقع السوق غير معروف الآن.

(٤) وفي (ب) (ذي طرا) والصحيح ما أثبتناه «ذي ضراً» - بضم الصاد وتخفيف الراء - قرية كبيرة عامرة من القرى العريقة بيافع، وهي قاعدة مكتب الضبي، ومقر لشيخ المكتب من أهل عاطف جابر بن علي سواد (الموسوعة اليافعية م ٧، ج ٩، ص ٦٥-٦٦).

(٥) يافع العليا: تنقسم يافع قُبَلًا إلى عشرة مكاتب تنقسم على قسمين: بني قاصد وبني مالك، فبنو قاصد يافع السفلى خمسة مكاتب هي كلد، يهر، السعدي، اليزيدي، الناخي، وسلطانهم العفيفي، وبنو مالك يافع العليا خمسة مكاتب هي البعسي، المفلحي، الموسطة، الضبي، يهر، وسلطانهم ابن هريرة (الموسوعة م ١، ج ١، ص ٥٠-٥٤).

(٦) ابن زيد الكثيري: المقصود به السلطان بدر بن محمد المردوف. وقد سبقت ترجمته في المبحث الأول.

(٧) أبين: أي إلى أحور بساحل بلاد عبدالواحد قادمًا من ظفار، ومن أحور توجه بعقائر إلى يافع (شهاب: يافع في...، ص ٥٠).

(٨) القارة: بلدة بجبل يافع شمال شرق عدن، وتبعد عنها ١٠٩ كم، تقع على جبل صخري شاهق يرتفع ٢٠٠٠ م عن مستوى سطح البحر، وقمته هضبة مستوية بيضوية صعبة المسالك اتخذها

قحطان^(١) بالقارة، وسار معنا إلى المحجبة وأقام بها على ضيافتنا ثلاثة أيام، وقد كنا عزمنا إلى البيضاء^(٢) نحن وبدر بن عبدالله^(٣)، ووصلنا البيضاء في^(٤) ١٥ القعدة، ومنها توجهنا مع جمال العوالق^(٥) وأهل البره^(٦) وقدرها^(٧) أربعمائة، وفي دبان^(٨) اتفقنا بالصنو أحمد بن علي^(٩)،

سلاطين السلطنة العفيفية (يافع السفلى) عاصمة لهم حتى الاستقلال، وقد سكن السلطان معوضة بن محمد بن معوضة بن عفيف القارة سنة ١٠٩٢هـ، وتضم عددًا من الحصون والقصور ومسجدين وميدانًا ومأجلاً ومقابر، وتضم يافع السفلى - بنو قاصد - مكاتب (كلد - يهر - السعدي - اليزيدي - الناجبي) (الموسوعة اليافعية ص ١٤٤ - ١٥٥)

(١) أي السلطان قحطان بن معوضة بن محمد العفيفي سلطان يافع بني قاصد، تولى السلطنة في رمضان سنة ١١٠٤هـ وتوفي قبل سنة ١١٣١هـ، افتتح عهده بمحاربة القاسميين في معركة الدرب في شوال ١١٠٤هـ، وقاد معارك أخرى معهم. (الموسوعة اليافعية ص ١١٥ - ١١٧)

(٢) البيضاء: يوجد باليمن عدة من المناطق التي تسمى البيضاء، منها بيضاء الجوف، وبيضاء صباح، وبيضاء بمخلاف ذي جرة جنوب صنعاء، وبيضاء حصي في سرو مذحج، وهي المقصودة هنا، وتسمى اليوم بمحافظة البيضاء، وهي تجاور بلاد يافع من الشرق والجنوب. (سرو مذحج ص ١٠٣ - ١٠٤).

(٣) السلطان بدر بن عبدالله: لعل هذا خطأ من النساخ، والأرجح أن المقصود بدر بن محمد، كما جاء عند ابن حميد ص ٢٥٦ و٢٦٣.

(٤) ساقط من (أ).

(٥) العوالق: من قبائل شبوة.

(٦) أهل البره: لم أقف عليها.

(٧) في (ب): (وهي)

(٨) دبان: من بلدات بلاد البيضاء.

(٩) السلطان أحمد بن علي الرصاص: سلطان بني أرض (البيضاء)، حالف سلاطين يافع آل هرهرة وآل عفيف، وشاركهم في معاركهم ضد القاسميين، له ذكر كثير في وقائع عهده (الموسوعة ص ١١٥). ويذكر السلطان عمر بن صالح في بعض أخباره مع الإمام ما نصه: ((وأما السلطان أحمد بن علي الرصاص فقد كان أرسل ولده ناصر بن أحمد ومعه بني أرض بقدر ست مائة مسلحين بالبنادق الإدام ص ٤٨٠. وقد قامت سلطنة آل الرصاص في منطقة مسورة بعد أن دب الضعف في سلطنة آل منيف وسيطرت على كل المناطق التي كانت تخضع لها، وبعد أن قويت شوكتها سيطرت على سلطنة آل الدرع، ومن ثم شمل حكمهم جميع مناطق البيضاء (سرو مذحج ص ٩٥).

وعزمننا والأرض التي جزناها^(١) من موره^(٢) إلى حضرموت ما فيها ماء ولا شجر، ولكن أدركنا الباري بالأمطار تصب أماننا وخلفنا، فما وردنا إلا على الكرع، ووصلنا إلى نصاب^(٣)، ولقينا السلطان صالح بن منصر العولقي^(٤) وأولاده، ولاقونا بالعقير^(٥) في زف كبير، وأضافنا تلك الليلة، وقال: أين تذهبون وأمامكم دول ومحطات كبيرة؟! فلا تهلكوا أنفسكم وأنتم قليل^(٦). فقلنا له: نحن حزب الله وأنصار الحبيب علي بن أحمد، وحزب الله هم الغالبون. وجلسنا في الظاهر^(٧) ثمانية أيام في طلب الجمال، ونهضنا ثاني يوم عيد الحج الأكبر^(٨)، وكان مروونا بوادي المشاجر^(٩) وهو كثير الأنهار والأشجار، وله حصون باليمن واليسار، وكانوا

(١) أي قطعناها.

(٢) موره: لعل المقصود (خورة)، وهي من بلاد العوالق (في محافظة شبوة حاليًا) يصل إليها المسافر من البيضاء ثم يصعد منها إلى بقية بلاد العوالق فحضرموت (من تعليقات الدكتور نادر سعد حلوب العمري).

(٣) نصاب: من مدن بلاد شبوة، كانت عاصمة للسلطنة الواحدية بالقرب من عتق.

(٤) السلطان صالح بن منصر العولقي: سلطان السلطنة الواحدية في نصاب.

(٥) العقير: العقيرة هي الذبيحة التي يقدمها الشخص الذي حل به ظلم طلبًا للإنصاف (طلب النظر بالدعوى)، وتُقدَّم إما لقبيلة أو لحاكم عُرفي أو للدولة (المخلافي: عارف، دليل المصطلحات العرفية، ص ٣٦).

(٦) هذه العبارة ترجح أن عدد جيش السلطان عمر لم يكن ستة آلاف، وأنها مبالغة تاريخية، وأنهم ربما لا يصلون إلى ستمائة مقاتل (من تعليقات الدكتور نادر سعد حلوب العمري).

(٧) الظاهر: من بلاد آل الرصاص بالبيضاء (وتطلق على جهة المشرق، ويبدو أنه يقصد بلاد العوالق - من تعليقات الدكتور نادر سعد حلوب العمري).

(٨) الموافق لتاريخ يوم الجمعة ٢٦ مارس ١٧٠٦ م. ويؤكد قولنا إن تاريخ الرحلة هو سنة ١١١٧ هـ وليس ١١١٢ هـ ما جاء عند ابن حميد - وإن أخطأ أيضًا - عن السلطان صالح بن منصر العولقي، إذ يقول ص ٢٦٣: ((وفي ثالث ذي الحجة سنة ١١١٦ هـ وصل مكتب من صالح بن منصر العولقي بأن بدر بن السلطان محمد ويافع وصلوا عتق)).

(٩) وادي المشاجر: المشاجر من أكبر قبائل حضرموت، واحدهم مشجري، ويقصد بواديهم هذا منطقة (يبعث) بحضرموت، وهي مديرية من مديريات الساحل أعلى مديرية حجر، وهو واد بين جبلين تنتشر فيه مجموعة من القرى، وبين هذه البلدان غيل يخرج منه ماء كثير يسقي نخلاً ومزارع كثيرة، وعند منحدر هذا الوادي تنمو الزروع وأشجار النخيل والسدر، وفي غربي وادي يبعث بالنجد الذي يعلوه مكان يقال له (حول) فيه قبيلة من المشاجرة يقال لهم آل باشقير وهم أهل حماس ونجدة وبلادهم خصبة وفيها عيون ماء نضاجة (الإدام ص ٢٩٢ - ٢٩٥).

اعترضونا وقالوا ما ندع دولة^(١) تمر بوادينا. فطلبنا عقّالهم وأرضيناهم وكسبناهم، فسمحوا لنا بالمرور، وتوجهنا إلى الضليعة^(٢)، وقد كتبنا للشيخ الفاضل حسين بن مطهر^(٣) وصنوه محمد بن مطهر^(٤) آل العمودي، فلاقونا إلى الضليعة، ومعهم قدر ثلاثمائة رجل، وحملوا إلينا مائة حمل طعام، وعقدنا معهم حلفاً، وجلسنا وإياهم ثلاثة أيام، والتزمنا لهم بإجراء كل عادة من المقررات الشهرية والسنوية، من بندر الشحر، والهجرين^(٥)، وحضرموت، بالوفاء والكمال والزيادة، وقررنا لهم مقررات فوق ما هو لهم، والتزمنا لهم بالرعاية والإجلال، وصار بيننا وبينهم عهد الله على ذلك، ثم رحلنا حتى نزلنا عقبة قصره^(٦)، وهي التي نزل منها

(١) دولة: أي حاكم باللهجة المحلية. انظر (هامش الإدام ص ٢٩٥).
(٢) الضليعة: بلاد هي قاعدة ريدة الدين، بينها وبين بيعث السابق ذكرها والواقعة غربها مسيرة يوم، وهي منطقة في مرتفعات هضبة حضرموت الجنوبية ما بين وادي دوعن ووادي عمد، تتخللها شروج ومسيلات ماء صغيرة، وهي اليوم تسمى بمديرية الضليعة إحدى مديريات محافظة حضرموت، أو ريدة الدين نسبة إلى سكانها. الإدام ص ٢٩٥. وفي الشامل: ((ومن وادي بيعث الذي مضى وصفه تصعد طريق من عقبة المدلاة وهي كأداء متعبة إلى ريدة الدين - بفتح الدال وتشديد الياء-)). الإدام ص ٢٩٦.

(٣) الشيخ حسين بن مطهر: هو الشيخ حسين بن مطهر بن عبدالله (أبوست) بن عبدالرحمن الوجيه بن عبدالله بن عثمان بن أحمد (الأخير - بطل الوادي) بن محمد بن عثمان بن أحمد (القديم) بن محمد بن عثمان بن عمر (مولى خضم) بن محمد بن الشيخ سعيد بن عيسى العمودي أمير بضه بوادي دوعن، كان متولياً وأخوه الآتي ذكره منصبه وسلطنة العمودي، وفي آخر عهد عمه الشيخ المنصب محمد بن عبدالله أبو ست ١١٠١ هـ حصل الانقسام في البيت العمودي بين آل مطهر وآل محمد بن سعيد (باسنبل: يوسف، بضه، مجلة حضرموت الثقافية، العدد ٧، ص ١٠٣).

(٤) الشيخ محمد بن مطهر: هو الشيخ محمد بن مطهر بن عبدالله العمودي، أخو حسين السابق ذكره، وهو صاحب وقعة (مسه) سنة ١١١٥ هـ، وهي قرية على يسار الذهاب إلى دوعن، بين السلطان عيسى بن بدر المذكور والشيخ محمد بن مطهر. (الإدام ص ٤٠٩، والعدة ١/ ٢٥٤-٢٥٥).

(٥) الهجرين: مدينة قديمة عظيمة مشهورة واقعة في حضن جبل فارد جاثم على الأرض كالجمل المبارك من غير عنق تحف بسفوحه النخيل من كل جانب، وهي مبتدأ وادي دوعن من الشرق (الإدام ص ٤١٠).

(٦) عقبة قصره: عقبة قرب الهجرين السابق ذكرها (العدة ١/ ٢٦٥) وفي الإدام: «ومن الضليعة إلى دوعن يوم واحد، تنزل لطرق من أعلى جبل السوط الشاهق إلى أكثر بلاد دوعن كالخريبة

أحمد ابن الحسن^(١) في مخرجه إلى حضرموت، ولاقانا بأسفل العقبة الشيخ الكبير عبدالله بن حسين العمودي^(٢) في جيش يقدر باثني عشر مائة من سيبان^(٣) والحالكة^(٤) وآل باهيري^(٥)، وعقدنا معهم حلفاً، وبلغنا أن السلطان عمر بن جعفر خرج من بندر الشحر، وجعل مركز الحرب في بهران^(٦)، وجمع آل كثير والعساكر الزيدية، وقبائل حضرموت، ووصل

والقويرة وبضة وقيدون، فمنه إلى كل واحدة منها طريق كلها عقاب كأداء إلا أن أقلها وعورة بالنسبة فيما يقال طريق بضة^(٧) (الإدام ص ٣٠٤-٣٠٥).

(١) أحمد بن الحسن: صفي الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم المهدي لدين الله (١٠٢٩-١٠٩٢ هـ) كان من شجعان الزيدية، بويغ له بالخلافة بعد عمه إسماعيل المتوكل سنة ١٠٨٧ هـ، وكان غزير العلم له مؤلفات، وكان أشجع أهل زمانه حتى سموه (سيل الليل)، غزا حضرموت ومر ب الطريق نفسه، ولما وصلت جيوش المتوكل على الله إسماعيل بقيادة الإمام أحمد بن الحسن إلى هذه الريدة سنة ١٠٦٩ هـ لاقاه الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن العمودي، وساعده بكل من أطاعه، وكان الشيخ إذ ذاك والياً على أكثر بلاد دوعن، وبهم انهزم بدر بن عبدالله الكثيري أشنع انهزام. (الإدام ص ٢٩٧ و ص هامش ص ١٧٠).

(٢) الشيخ عبدالله بن حسين العمودي: من مشايخ دولة آل العمودي بدوعن، لم أقف على ترجمة له. (٣) سيبان: قبيلة حضرمية ورد ذكرها في نقش كرب إيل وتر (نقش النصر) في القرن السابع قبل الميلاد، وكانت حينها تقطن مدن أنخ وميفع ورثخم، وتقع أراضيها حالياً على بعد ٨٠ كم شمال ميفع في المرتفعات الواقعة بين المكلا ودوعن (عربش: منير؛ والسقاف: عبدالرحمن، نقش جديد من عهد يدع أب ذبيان يهنعم ملك قتبان ويدع أب غيلان ملك حضرموت، حولية ريدان، العدد (٧) عام ٢٠٠١ م، ص ١١٣).

(٤) الحالكة: قبيلة كبيرة من سيبان تسكن غيل الحالكة في وادي دوعن الأيسر، والنسبة اليهم حلكي، بفتح الحاء وسكون اللام، وهم: آل بادقيل، آل بانخر، آل باسعد، الأبايضة. وآل بادقيل منهم: آل بلحمر، آل بلغيث، آل باجعيفر، آل بلشرف، آل باحميد. وبانخر منهم: آل بقشان، آل باكرموم، آل باصراح، آل باطويل، وزاد في الأدوار: آل الخنبشي (أدوار التاريخ الحضرمي ٣٥٩/٢) (إدام القوت ٩٧).

(٥) باهيري: حالكة من سيبان كانت لهم أحداث وحركات في التاريخ الحضرمي، وفي شنبل ذكر لبعض تلك الحركات منها إغارتهم على الشحر سنة ٩٣٧ هـ، ويقال لهم سلاطين وادي حمم قريب من ساحل حضرموت (الإدام هامش ٣٧٢).

(٦) بهران: يطلق هذا الاسم على الأراضي الواقعة بين مجرى وادي دوعن من الغرب ومجرى وادي العين من الشرق، ويبدأ من الجنوب من دار بن مشرق وما حولها من الأراضي الزراعية

إليه النقيب ياقوت^(١) وأشرف الجوف^(٢)، في خيل ورجل وأموال من عند الإمام، وتتابع أعدادهم في بحران نحوًا من أربعة آلاف، وعندهم من الخيل نحو مائة وخمسين، ونهضنا من أسفل العقبة إلى حذاء^(٣) الهجرين، وفيها نحو مائة من عسكر الإمام، أشار علينا العمودي بحربهم، فلم نر ذلك، واجتزنا عن يمين الهجرين، فلاقنا كوكبة من خيالة عمر بن جعفر نحو ثلاثين فارسًا، فكسرناهم، ثم لاقنا^(٤) كوكبة أخرى فأرجعناها بالرصاص، ثم الثالثة وفيها نحو خمسين فارسًا، وصديناها بالبنادق، وكان ذلك آخر النهار، وحينما حططنا الرحال كتبنا لعمر بن جعفر بكلام مليح، وقلنا له: وصلنا من يافع وقصدنا إخراج الزيدية وإزالة خطبها طوعًا أو كرهًا، فإن أجبنا^(٥) فأنت السلطان والجهة لك، وسنشهد على أنفسنا لك الحبيب المالك سيدي علي بن أحمد (ابن الشيخ يوبكر بن سالم)^(٦). فأبى وقال في جوابه: هذه بلادي وبلاد أبي وجدي، ولا سبيل^(٧) لكم فيها، وقد برزت لكم في قاع بحران، وعندي رجال حاشد وبكيل^(٨)،

لمزرعة المشهد وبئر محمد وهي لآل ربّاع. ويقول السقاف: ((وبحران لآل ثابت، وهو فلاة واسعة لا حجر فيها ولا شجر، فيها كان انهزام السلطان بدر بن عبدالله الكثيري من جيش الصفي أحمد بن الحسن سنة ١٠٧٠هـ، وفيها كان انهزام السلطان عمر بن جعفر الكثيري من يافع سنة ١١١٧هـ، ولهذا كانت مضرب المثل، فقليل: أين بك يا شارد بحران)). (الإدام ص ٤٦٢، وبارباع: مرعي مبارك، منطقة الكسر في وادي حضرموت، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٤م).

(١) النقيب ياقوت: عبد الإمام (العدة ١ / ٢٦٤).
(٢) أشرف الجوف: من المنتمين إلى السادة الأشراف في بلاد الجوف باليمن، لهم أثر كبير في أحداث الصراع القبلي بحضرموت، إذ تتم الاستعانة بهم جنودًا من قبل كثير من سلاطين وأمراء القبائل في حضرموت في مدد مختلفة.

(٣) في (ب) قرب.

(٤) في (ب) لحقتنا.

(٥) في (ب) أحببت.

(٦) زيادة في (ب).

(٧) في (ب): (واستبسل) وهي خطأ فلا يستقيم الكلام بها.

(٨) حاشد وبكيل: قبيلتان من كبريات قبائل همدان، وهما أخوان، قال الهمداني: «حاشد وبكيل قبيلة همدان بن جشم بن حبران بن نوف بن همدان». وتنقسم حاشد على: صريمي، خارفي، عصيمي، عذري، وأراضيهم من صنعاء شمالًا إلى بلاد صعدة، وتنقسم بكيل على: أرحب، برة، مرهبة، شاكرا، وتمتد ديارهم من شمال صنعاء الشرقي إلى بلاد صعدة (الإدام هامش ص ١٧٢).

والعوامر^(١) وآل كثير^(٢)، جمعتهم من ظفار^(٣) إلى الشحر، والقبلة^(٤)، وعندي الصافنات الجياد والشجعان (المتكبرون)^(٥)، وأنا خلفهم كالدرج لهم، وملاقيكم والشمس في كبد السماء. ثم إن الأمير طالب بن مقبل^(٦)، والأشراف، كتبوا لنا كتابًا قبيحًا قالوا فيه: وقفنا على كتابكم للسلطان عمر، فإن كنت عمر بن صالح الذي تركب الحصان الأبيض، وترفع المظلة أمام نسوان يافع، فابرز لنا. فجأوبناهم^(٧) وقلنا لهم: واصلين إليكم غدًا صبح الخميس والشمس في كبد السماء، وأنا عمر بن صالح، وسترون المظلة على رأسي في قاع بحران. وبعد أن خطبتُ القوم وشجعتهم انقسمنا ثلاثة مراكز^(٨): الأخ بوبكر بن صالح^(٩) والموسطة^(١٠) ولبعوس^(١١) مركز،

(١) العوامر: من قبائل حضرموت الشهيرة، ينتمون إلى حلف الشنافر الذي يضم آل كثير وآل جابر.
(٢) آل كثير: من قبائل حضرموت الشهيرة، ينتمون إلى حلف الشنافر الذي يضم العوامر وآل جابر وآل باجري، كانت لهم دولة بحضرموت منذ القرن السادس الهجري.
(٣) ظفار: أي ظفار عمان، كانت من البلدان التي وصل إليها حكم السلطنة الكثيرة، لها ذكر في أحداث التاريخ الحضرمي.
(٤) القبلة: أي جهة الغرب، من القبائل الواقعة إلى غرب حضرموت من مأرب وصحراء الربع الخالي.
(٥) ساقط من (ب).

(٦) طالب بن مقبل: قائد كتيبة أشراف الجوف.
(٧) في (ب): (فجأذبناهم) وهي خطأ.
(٨) في (ب): (أقسام). و المُرْكُز: بضم تين بينهما سكون: المجموعة من الناس يسرون معًا في لهجة يافع (من تعليقات الدكتور نادر سعد حلوب العمري).

(٩) أبوبكر بن صالح: أخو السلطان عمر قائد معركة بحران. ولعل الكتاب المرسل من عينات إلى يافع كان بمعية الشيخ أبي بكر بن هرهرة، فقد جاء في تاريخ حضرموت لابن حميد في ذكر حوادث سنة ١١١٢ هـ أن وصول الشيخ أبي بكر بن هرهرة اليافعي لزيارة الحبيب علي بن أحمد بعينات، ودخل أولاً سيئون، وطلع عند السلطان عيسى بن بدر، ومع رجوعه من عينات طلع ثانيًا عند السلطان عيسى، وأكرمه أولاً وثانيًا. (العدة ج ١ ص ٢٥٠).

(١٠) الموسطة: أحد مكاتب يافع بني مالك الخمسة، وسمي بالموسطة لتوسطه هذه المكاتب، وعاصمته قرية القدمة، ومشايخه النقيب السعيد. م ١، ج ١ ص ٥٣.

(١١) لبعوس: أحد مكاتب يافع بني مالك الخمسة، وعاصمته قرية الهجر، ومشايخه الضباعي، والاسم لبعوس جمع بصيغة (أفعول) الحميرية، والنسبة إليه: بعسي. (الموسوعة: م ١، ج ١ ص ٥٤).

والأولاد^(١) صالح بن عبد الله^(٢)، وحسين بن صالح^(٣)، ويحيى بن عمر^(٤)، والناخبي^(٥)، واليزيدي^(٦) مركز، وأنا والأولاد قاسم^(٧)، وبوبكر بن حسين بن صالح^(٨)، وعمر بن عبد الله^(٩)، وصالح بن بوبكر^(١٠) وأصحابه، وآل الضبي^(١١)، والحضرمي^(١٢)، وأهل يهر^(١٣)،

(١) في (ب): (وأولاد).

(٢) صالح بن عبد الله: لم أقف على ترجمته.

(٣) حسين بن صالح: لم أقف على ترجمته.

(٤) يحيى بن عمر: أحد قادة الفرقة الثانية المكونة من قبيلتي الناخبي واليزيدي في موقعة بحران الفاصلة التي وقعت بحضرموت بين يافع بقيادة السلطان عمر بن صالح بن هرّرة وآل كثير بقيادة السلطان عمر بن جعفر الكثيري، وذلك في المحرم من سنة ١١١٨، وهي المعركة التي قضت على النشاط الزيدي بحضرموت. وله أخبار في العدة المفيدة. وقد خلف يحيى بن عمر هذا أسرة في حضرموت كان لها شأن في أحداث القرون اللاحقة عُرفوا بـ(آل يحيى بن عمر)، فمن أولاده حسين وغالب، وأنجب حسين سالمًا وعليًا، وأنجب سالمًا صالحًا وعمر وعبد الرب كان لهم شأن في القرن الثالث عشر؛ وأنجب عليّ سالمًا كان له شأن أكبر؛ فأما غالب فأنجب محسنًا وكان له شأن، ومحسن أنجب عبد الله. ولا علاقة بين هذا العلم ويحيى عمر الشاعر إلا تشابه الأسماء. (السلفي: معجم...، ص...).

(٥) الناخبي: أحد مكاتب يافع بني قاصد الخمسة، نُسب إلى وادي ذي ناخب الشهير، ومشايخة المكتب في آل الكهالي (الموسوعة...، ص ١٠-١١ م، ج ٦).

(٦) في (ب): (اليزي) والصحيح ما أثبتناه. وهو أحد مكاتب يافع بني قاصد الخمسة ومشايخه آل البطاطي (الموسوعة: ص ٥٢).

(٧) قاسم: لم أقف على ترجمته.

(٨) أبوبكر بن حسين بن صالح: لم أقف على ترجمته.

(٩) عمر بن عبد الله: لم أقف على ترجمته.

(١٠) صالح بن أبي بكر: لم أقف على ترجمته.

(١١) الضبي: أحد مكاتب يافع بني مالك الخمسة، وعاصمته قرية ذي صُرا السابق ذكرها في أول الرحلة، ومشايخه آل عاطف جابر (الموسوعة، ج ١، ص ٥٣).

(١٢) الحضرمي: أحد مكاتب يافع بني مالك الخمسة، وعاصمته قرية الشبر، ومشايخه آل بن غالب. ويرى العلامة الناخبي أن سبب تسميته بهذا الاسم يعود إلى عودة بعض أهل يافع من حضرموت قديمًا إلى موطنهم الأول جبل يافع، فسموا حضارمة نسبة لمكان مولدهم. (الموسوعة ٧، ج ١١ ص ١١).

(١٣) أهل يهر: مكتب يهر أحد مكاتب يافع بني قاصد الخمسة، نُسب إلى وادي يهر، وهو ثاني أكبر

والحد^(١)، والعناق^(٢) مركز، والعمودي وأصحابه المركز الرابع، وكانوا من ورائنا بنحو ميل وقدرهم^(٣) اثنا عشر مائة^(٤)، ونحن (معشر يافع)^(٥) ستمائة نفر، فلاقيناهم صباح الخميس أول يوم من شهر محرم سنة ١١١٨ هـ^(٦)، ولما التقى الجمعان، اشتد الخصام، وانقطع الكلام، وارتجّت الأرض بمن عليها، وحملوا^(٧) علينا بخيلهم فدفعنهم^(٨) بالرصاص، ثم حملنا عليهم حملة فولّوا الأدبار، (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل [خاوية])^(٩)، ووضعنا السيوف فيهم^(١٠) من الصباح إلى وقت العصر، واستولينا على محطتهم بحذية^(١١)، واستولينا على خيامهم^(١٢) وجميع ما معهم فيها من بنادق وسيوف ودروع وغيرها من أشياء عظيمة، وأمسينا تلك الليلة في ذلك المكان، أعني حذية، وناديننا بالأمان، وفي اليوم

مكاتب يافع العشرة من حيث المساحة، ومشايخه آل بن سبعة (الموسوعة، ج ١، ص ٥٢).
(١) الحد: وهي هضبة جبل يافع الشمالية، أرض منبسطة خصبة تقع في الطرف الشمالي والشمالي الشرقي لبلاد يافع، وتحاذي محافظة البيضاء وأكبر مدنها بنو بكر وخلافة (الموسوعة، م ١، ج ١ ص ٤٤).

(٢) العناق: صيغة جمع النسبة اليها عناقيون، تعرف منطقته اليوم باسم الحد، وكانت تسمى قديماً العناق. وفي الصفة للهمداني: وحرر بلدة وواد دعوته اليوم في يافع ثم في العناق مجاور للبيضاء، وقد ورد الاسم ذاته في التوراة. (الجثام: فضل، الحضور اليماني في الشرق الأدنى، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط ١، ١٩٩٩ م، ص ١٨٥). والعناق اسم يطلق على المنطقة التي فيها بلدات بني بكر وخلافة والفردة وريو، وهي الجهة الغربية من الحد. (من تعليقات الدكتور نادر سعد حلوب العمري).

(٣) في (ب): (ومنهم).

(٤) في (ب): (ألف ومائتين) وهو العدد نفسه لكن باختلاف اللفظ.

(٥) ساقط من (ب).

(٦) الموافق لتاريخ ١٥ أبريل ١٧٠٦ م.

(٧) في (ب): (وأقبلوا).

(٨) في (ب): (وصدناهم).

(٩) في (أ) و(ب) وردت (منقعر) بدلاً من (خاوية). والصحيح ما أثبتناه. تُنظر الآية ٧ من سورة الحاقة.

(١٠) في (ب): (فيهم السيف).

(١١) حذية: قرية من أقدم بلدات حضرموت، تقع بالغرب من شبام، وهي مشوى الحدادين القعطة.

(١٢) ساقط من (ب).

الثاني شدّينا، وفي اليوم الثالث دخلنا شبام^(١)، ولأقانا السادة ومعهم بيرق الشيخ أبي بكر، وأخبرونا بأنّ السلطان عمر بن جعفر لجأ إلى عينات مسلماً مستجيراً، ولم يُقتل مئاً غير واحد (قعيطي)^(٢)، وأمّا عسكر عمر بن جعفر فُتِل منهم مئتي نفر، وخمسة عشر حصاناً، ومن القتلى جعفر بن بدر، وجعفر اليميني^(٣)، وهذا نصر مبين من الله تعالى، وقد أبقينا الصنو بوبكر بن صالح، ومن معه من يافع بحضرموت، وتوجهنا نحن إلى الشحر، وأقمنا به ثلاثة أشهر، والحال منتظم، وسلّمنا^(٤) للأولاد أولاً من مائة ريال^(٥)، وللأعيان الذين معنا من خمسين ريالاً، وللعسكر أعلاهم من أربعة عشر، وأدناهم من ريالين، وثانياً وثالثاً كذلك. والشحر مدينة عظيمة بلغ ثلاثة بنادق شرق بقبلة^(٦)، وبقي الحال منتظماً، (والأشياء فيها للشيخ محمد بن مطهر)^(٧)، وحصلنا على تسعين سنوق، وأربعة مراكب، وخمسة مدافع صالحة، وبنادق (في)^(٨) الخزنة نحو ثلاثمائة قصبه، أخذنا منها الزين والبواقي^(٩) أعطيناها^(١٠) الناس^(١١)، وجملة ما حصل من بندر الشحر في الثلاثة الأشهر خمسة وثلاثون ألف^(١٢) ريال من الجباية

(١) شبام: أشهر مدن حضرموت وقاعدة ملكها.

(٢) ساقط من (ب).

(٣) اليميني: لم أقف على ترجمته.

(٤) في (ب): (ودفعنا).

(٥) ريال: فرانصة وهي عملة ماريا تريزا الم عروفة والمنتشرة في حضرموت آنذاك.

(٦) ثلاثة بنادق شرق بقبلة: وهو اصطلاح عن مساحة المدينة من الشرق إلى الغرب، أي مقدار رمية ثلاثة بنادق.

(٧) ساقط من (ب).

(٨) زيادة في (ب).

(٩) في (ب): (الباقي).

(١٠) في (ب): (أعطيناها بعض الناس).

(١١) في (ب) بعد لفظة (الناس) تأتي جملة ((ورجعنا المحجبة أول رجب، وصلاح الحال بين عمر بن جعفر والحبيب علي ويافع في حضرموت، وهذه خلاصة الرحلة وعليها العمد فيما سبق (والله أعلم)). وتنتهي الرحلة من نسخة (ب) البضائع الكراس ١ من ج ٢ / ص ١٣١ - ١٣٤. وهي ناقصة ونكملها من نسخة (أ).

(١٢) أخطأ صاحب كتاب رحلة الأمن والسلام والاتصال إذ نقل أنها مائة وخمسة وثلاثون (ص ٢٥٠). وهو ناقل من هذه النسخة، فليتنبه.

والرسوم، ثم كتب إلينا الحبيب علي بن أحمد يطلب وصولنا إلى حضرموت^(١) لوقوع قتال بين يافع وآل كثير، فأبقيت الأولاد حسين بن ناصر هرهرة، ويحيى بن عمر هرهرة، بالشحر في جماعة من أصحابنا أهل بنادق، وأبقيت أحمد النوبي في تبالة^(٢)، وخرجت أنا حتى وصلت إلى بيت مسلمة^(٣)، مكان قريب من تريم، وكنت ناوي زيارة الحبيب علي بن أحمد، ولكن وردني كتاب من الصنو بوبكر بن صالح، ومن بدر بن محمد الكثيري، ومن يافع يذكرون أن الحرب قائم على يافع الذي بشبام، فتقدمنا وهرب آل كثير، ودخلنا شبام في مدخل عظيم، ثم واجهونا القبائل، واعترفوا لنا، وحلفوا، وصلح الحال، وقسمنا بلدان حضرموت، فكان لكل مكتب ممن معنا من مكاتب يافع مدينة من مدن حضرموت^(٤)، وأرخصنا للولد بوبكر بن صالح في الرجوع إلى يافع، وأكرمناه بألف ريال، وبخمسماية ثوب أسود قيمة كل ثوب ريال، وأعطيناه كساء فاخر أيضًا بخمسماية ريال، وأعطينا لكل واحد ممن معه من يافع، ومن أهل البنادق عشرين ثوبًا وعشرين ريالًا، وأعطينا الأعيان أكثر من ذلك، ثم توجهتُ إلى عينات، وقلتُ للحبيب علي: مرادي الرجوع إلى الشحر؛ لأن حضرموت ملاءة بالسادة، وأخشى من إساءة الأدب عليهم. فقال لي: الأولى عودك إلى الجبل المحروس. فوادعناه

(١) أي وادي حضرموت.

(٢) تبالة: من قرى الشحر على بعد ٧ كم إلى الشمال منها، فيها جامع وأموال لأهل الشحر وسبعة معابين يخرج منها ماء شديد الحرارة. يقول الطيب بامخرمة في النسبة: «وتبالة قرية قرب الشحر على طريق الخارج من الشحر إلى حضرموت، وفيها عدة عيون حارة في أكمة واحدة يُسقى بها زرع ونخل ونارجيل، وعيونها مختلفة منها حارة كثيرة الماء ومنها قليلة الحرارة قليلة الماء، وهي أعجوبة». (الإدام ص ٢١٦-٢١٧).

(٣) بيت مسلمة: منطقة بالقرب من تريم عرف عنها المصنف.

(٤) قسمت بلدان حضرموت على الحاميات اليافعية، واقتسموا البلدان ثلاثة أقسام: شبام وهينن بثلت، وسيئون ومريمة بثلت، وتريس لابن النقيب شيخ يافع وعاقلمهم، وتريم وفوقها بنادق علوق غوالي بثلت؛ لكونها ركيكة في ذلك الزمن، فخرجت شبام وتريس وهينن للموسطة، وسيئون ومريمة للضبي، وتريم للبعوس وفوقها بنادق غرامة المشهورات الآن، والدولة جلس منهم ناس بسيئون وناس في باجلحبان في حصن بنوه يُقال لهم آل مطهر، وفيه بير عذب في رأس جبل عاده باقي إلى الآن ثم إن يافع استوطنوا وانتشروا في بلدان حضرموت أ.هـ (مخطوط بستان العجائب ص ١٨٢-١٨٣).

وسرنا إلى تريم، وكان الوالد حسين بن ناصر ومن معه في حرب مستمر مع الحموم^(١) وسيبان من حين سرت من الشحر، فطلبت وصول أحمد بن محمد أخو بدر بن محمد من الشحر، فصالح بين القبائل وصلاح الحال، ووصل الأولاد حسين بن ناصر ويحيى بن عمر من الشحر إلى تريم، وأنا بقيت في سيئون^(٢)، ثم إن ناسًا من يافع كدروا الصفو بيننا وبين السلطان بدر بن محمد، فهرب إلى عينات، ولما علم القبائل باختلافنا وإياه تحالفوا معه القبائل جميعهم العوامر وآل جابر^(٣) وآل كثير وآل تميم^(٤)، وأخذنا في الحرب عشرين يومًا، وأهل شبام لا يزالون في حرب إلى الغرفة^(٥)، ونحن بسيوون قد عزمنا وصبحنا الذين لزموا على قطع الطريق بين شبام وسيوون، وقبضنا على أربعة منهم وأدخلناهم سيوون، فهابت القبائل وأقبلوا إلينا، وحالفوا وصلاح الحال، ثم خرج عمر بن علي الكثيري^(٦) من عينات إلى جعيمة مراده جمع القبائل، فلم يتبعوه؛ لأنهم قد حالفونا، فهرب إلى هينن^(٧)، فسار خلفه آل كثير ويافع وحصلوه، وبقي الحرب في هينن، فشدنا إلى مسجد السلطان بالقطن^(٨)، وأرسلنا جابر بن محمد بن عمر التولي المفلحي بكتاب لأهل الدولة بالقلعة^(٩)، وأخرج عقائر على بدر بن محمد ويافع، وبدوا بوجههم وبدينا لهم^(١٠)، وعادة من قال بديت بوجهي يموت على كلمته، وإذا قصره^(١١) كلمته فعلوا له السواد في الأبواب، وقالوا: هذا وجه فلان الذي

- (١) الحموم: قبيلة كبيرة من قبائل بادية حضرموت (الإدام هامش ص ١٧٢).
- (٢) سيئون: من مدن حضرموت القديمة، تتوسط وادي حضرموت، وتبعد عن شبام شرقًا بنحو ١٨ كم، وعن تريم غربًا بنحو ٣٤ كم (هامش الإدام ص ٦٧٤).
- (٣) آل جابر: من قبائل حضرموت المشهورة، ينتمون إلى حلف الشنافر الذي يضم آل كثير والعوامر وآل باجري.
- (٤) آل تميم: من قبائل حضرموت المشهورة، ترأس حلف بني ظنة.
- (٥) الغرفة: بلدة شهيرة تقع بين شبام وسيئون.
- (٦) عمر بن علي الكثيري: عم السلطان عمر بن جعفر، وهو الذي أنابه السلطان عمر بن جعفر في سيئون لحين ذهابه إلى البندر (ينظر العدة ص ٢٦٣).
- (٧) هينن: من بلدات حضرموت المشهورة، تقع في غرب حضرموت.
- (٨) مسجد السلطان بالقطن: لعله مسجد الجامع، فلا يُعرف حاليًا مسجدٌ بها بهذا الاسم.
- (٩) القلعة: يعتقد أنها الحصن الدويل بسيئون.
- (١٠) وبدوا بوجههم وبدينا لهم: بدا التزم وتعهد.
- (١١) يريد (قَصَرَتْ)، وأهل يافع ينطقون التاء المفتوحة هاء. (من تعليقات الدكتور نادر سعد حلوب العمري).

عاب حتى ينتهي بقتل أخيه أو ابنه. وأما عمر بن جعفر فقد حصل على الرخصة والجائزة من عينات ونحن بالشحر، فذهب إلى قشن^(١) عند سلطان المهرة طوعري بن علي^(٢)، ثم اجتمعنا بهم بعد المباداة بالوجه، وقلنا لبدر بن محمد: قد توادعنا من مولانا الحبيب علي، وأنا باقي لكم يايافع نصف شهر بهذا المحل، من أراد أن يسير معي فليصل ولا يبقى بحضرموت إلا ما أمر به الحبيب علي خمسين نفر. فوصلت يافع إلينا بمسجد السلطان بالقطن، وعزمننا بعد صلاة الجمعة، وأمرنا بدر بن محمد يعطي كل واحد عشرة ريال وثلاثة ثياب، ففعل، والولد يحيى بن عمر عاد إلى أسفل حضرموت، والعمودي وسيبان والحموم كلاً رجع إلى بلاده، وكان العولقي قد كتب إلينا ونحن بحضرموت أن لا نمر في بلاده، وجؤبنا عليه أن لا بد من العبور بالطريق التي وردنا بها، ولا وصلنا رأس كريف المعزة^(٣) إلا وصل إلينا كتاب العولقي بالمنع، فقلنا له: ياصالح العولقي نحن ضيفان وقد نحن في بلادكم، فامتنع من قبولنا خوفاً من الإمام، ومنعنا من المرور، فنشب الحرب بيننا وبينه، وأخذ علينا أصحابه عشرة جمال سرقة، وليس معنا إلا الجمال التي أخذناها وجمال آل جابر وآل تميم ونهد^(٤)، وقدرها مائة وعشرين جمل، ولما علم السلطان صالح العولقي بأننا مغادرين بأنفسنا أرسل إلينا الشيخ

(١) قشن: مدينة ساحلية في بلاد المهرة تقع على الشريط الساحلي للبحر العربي، يحدها من الشرق حصون، ومن الغرب سيحوت، ومن الشمال حات، ومن الجنوب بحر العرب، وتحيط بها سلسلة جبلية من اتجاهاتها الثلاث مما يعطي المدينة حصانة طبيعية. وتتميز المدينة ببناء هوائها وتعدد نشاط سكانها ووفرة أسماكها، وبها عدد من المعالم الطبيعية والمعالم الأثرية مثل حصن (القديمة)، وكذلك حصن (السلطنة العفرارية القديمة) وهو قصر السلطان ومستقره الذي يدير منه شئون سلطنته. (الموسوعة اليافعية، م٨، ج١٢، ص ١٢٥).

(٢) السلطان طوعري بن علي بن عفرار: أحد سلاطين السلطنة العفرارية ببلاد المهرة (سلطنة قشن وسقطرى)، وكان مقر حكمهم في مدينة قشن وفي جزيرة سقطرى، ويحدها شرقاً أرض عمان وغرباً بلاد حضرموت، وهي سلطنة قديمة، ويذكر شنبل أنه في سنة ٩١٢ هـ أخذ الإفرنج الكفار سقطرى، وقتلوا هناك طوعري الزويري مع خمسين من المسلمين. (شنبل: أحمد بن عبدالله، تاريخ حضرموت، مكتبة صنعاء الأثرية، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٢٢٦).

(٣) كريف المعزة: الكريف: الحوض الذي يحبس الماء لمدة طويلة.

(٤) نهد: من قبائل حضرموت المشهورة، لهم أثر كبير في تاريخ حضرموت، تقع أراضيهم في غرب حضرموت.

حسين الخلفي وقال: مروا مران حيث لا يراكم رسول الإمام، ثم اكرتنا^(١) خمسين جملاً إلى البيضاء، ولما وصلنا بير الرمح^(٢) اكرتنا جملاً أخرى، وأرسلنا الأولى مع الشيخ صالح بن نمي فخان فيها، ولما وصلنا البيضاء تلقانا السلطان أحمد بن علي الرصاص وأولاده إليها، وضيّفونا، وأعطيناهم عشرين مطية^(٣) من الملاح مع جملة من الأكسية، وكان جملة الحمول الذي وردنا بها إلى البيضاء مع المطايا مقدار ثلاثمائة، ودخلنا المحجبة أول يوم من رجب^(٤)، وعمر بن جعفر دخل الشحر^(٥) في اليوم الذي دخلنا فيه المحجبة، ولم يلبث بالشحر إلا قليلاً وقدم عليه بدر بن محمد ويافع من حضرموت، فهرب إلى عينات، وعقر في عينات، ولما علم بدر بأنه عقر خاف لا يهرب لا أرض المهري، وصلح الحال بين عمر بن جعفر والحبیب علي ويافع بحضرموت، ورتب تريماً وسيوون وشباماً، وأرسل عساكر من يافع إلى الشحر ورتّبها، والسلام^(٦).

المبحث الرابع: دراسة للأوضاع التي نتجت عن معركة بخران

أولاً: أسباب الهزيمة والنصر:

ما إن انتصف نهار يوم صباح الخميس أول يوم من شهر محرم سنة ١١١٨ هـ الموافق لتاريخ ١٥ أبريل ١٧٠٦ م حتى اتضحت نتائج المعركة، وما إن دخل وقت العصر حتى بدأت جموع السلطان عمر بن جعفر بالفرار والعودة من حيث أتت، ولعل هناك أسباباً ساعدت في نصر جيش السلطان بن هرهرة رغم قلة عددهم:

♦ الدافع القبلي: إذ إن مجيء شخص بمقام سلطان، ومن منطقة كحضرموت، وهو السلطان بدر بن محمد المردوف، ولجوءه إلى يافع وتقديمه العقائر، وهو في العُرف القبلي طلب يجب أن يُلبّى، ولو كلّف أرواحاً تذهب في سبيله؛ يُعدُّ أمراً لا يُستهانُ

(١) اكرتنا: استأجرنا.

(٢) بير الرمح: موقع في الطريق إلى بلاد البيضاء.

(٣) مطية: جمل.

(٤) الموافق لتاريخ يوم السبت ٩ أكتوبر ١٧٠٦ م.

(٥) العدة ص ٢٩٢.

(٦) نسخة (أ) بضائع التابوت ج ٢ ص ٨٤ - ٨٧.

به، فكان داعي القبيلة والعُرف القبلي الذي ينظم حياة اليافعيين دافعاً لهم إلى خوض معركة قد تكلفهم الكثير، خارج حدود أرضهم ومع عدو لم ينتهوا منه في الأصل في نواحي بلادهم وبلاد جيرانهم.

♦ الدافع السلاطيني: المتمثل في دعوة السلطان عمر بن صالح في قبائله، وحتى تلك القبائل التابعة لسلطنة يافع الأخرى السلطنة العفيفية كقبائل مكتبي الناجبي واليزيدي، فقد التفت القبائل حول دعوة السلاطين الذين كانوا في مقدمة الصفوف لتحرير بلادهم من الغزو الإمامي سابقاً.

♦ الدافع الديني والمذهبي: المتمثل أولاً في دعوة المنصب علي بن أحمد، وهو ذو المكانة الدينية العالية في يافع منذ القرن العاشر الهجري. ودافع مذهبي لإزالة المذهب الزيدي من حضرموت. وكما تذكر مخطوطة بستان العجائب أن السلطان عمر بن صالح ((طلب الحبيب في خروجه هو وعساكر يافع لنصرة الدين وإقامة العدل وإزالة الظلم من الجهة الحضرمية))^(١)، فكان بمثابة إعلان جهاد كما يذكر أن السلطان ((أمر الشاucht - الخادم - أن يطرب: من هو مطوّل في الدنيا وعاده بغا الحياة يرجع، فرجع ناس، وكان عند البراد يطرب، وفي المساء يطرب، ويرجعون))^(٢)، حتى ثبت الذين عزموا لهذا.

♦ الخبرة المكتسبة لمقاتلي يافع في حروبهم المتواصلة مع جيوش الأئمة في بلاد يافع وخارجها في كثير من مناطق اليمن، حتى أصبحت يافع صاحبة السبق ومقدمة المناوئين للأئمة وأطماعهم، حتى قال الأئمة كلمتهم التي ذهبت مثلاً: ((لولا يافع ما همينا الشوافع)).

♦ التعبئة الروحية التي سبقت المعركة: وتصف لنا مخطوطة بستان العجائب كيف بث المنصب والسلطان في جنوده التعبئة المعنوية: ((وقال لهم إذا ثار الحرب والتحم الضرب فالحذر أحد من القوم يضرب بندق لحتّى يَقْرَحَ لَصْفَرُ بندق السلطان عمر، وأنت يا صاحب لصفّر لا تضرب لحتّى يبرح الطير لَحْضَر على معنقة البندق

(١) ابن الشيخ أبي بكر: بستان...، ص ٣١.

(٢) نفسه ص ٣١.

المذكور، وإذا جاء الطائر اضرب لصفر، وتضرب القوم بعدك، والنصر معكم إن شاء الله، وإن أحد من القوم ضرب بندق قبل يقرح لصفر عليكم النصر - أي الهزيمة - . فثار الحرب، وفعلوا كما أمرهم حبيبهم، فحصلت الهزيمة في قبائل حضرموت، وشردوا الجميع^(١).

وفي الجانب الآخر لم تكن هناك دوافع تشكل تعزيزاً معنوياً للمقاتلين، ما عدا حشد سلاطينهم وزعماء قبائلهم أو امتهانهم للجنودية، فانكسروا رغم كثرة أعدادهم وانتمائهم للأرض.

ثانياً: نتائج المعركة:

تغير مذهبي:

قضت معركة بحران على المذهب الزيدي في حضرموت، وانتهت التدخلات الإمامية في صيغة الأذان وزيارات العلماء منهم، ومنعهم لبعض الأعمال التي كانت سائدة، وعادت حضرموت سنية شافعية خالصة.

تغير سياسي:

بعد انتصار السلطان عمر في معركة بحران أعاد السلطان بدر بن محمد المردوف إلى سدة الحكم، وصفت له كل المدن والبلدات، ووفى بطلبه والغرض الأساسي من الحملة، ولتأمين تلك الانتصارات فقد أعاد بن هريرة توزيع القوى الياضية في حضرموت التي كانت موجودة سابقاً في حضرموت، ومن دخل معهم من الأقوام التي جاءت معه، ولهذا قام بتوزيعهم على مدن حضرموت وقراها توزيعاً عسكرياً في أساسه، وتوزيعاً أمنياً في مهمته، إذ وزعهم في حاميات لنشر الأمن، واقتسموا البلدان الثلاثة أقسام: شبام وهينن بثلث، وسيئون ومريمة بثلث، وتريس لابن النقيب شيخ يافع وعافلهم، وتريم وفوقها بنادق علوق^(٢) غوالي بثلث؛ لكونها ركيكة في ذلك الزمن^(٣).

وأما التوزيع العسكري فكان حسب المكاتب، وهو تقسيم عسكري معقد ساد في بلاد

(١) نفسه ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) الأعلام: جمع علق، وهو النفيس من كل شيء. (الإدام ص ١٠٤).

(٣) ابن الشيخ أبي بكر: بستان...، ص ١٨٢ / ١٨٣.

يافع على أساس المغنم والمخصم، وما زال معمولاً به إلى هذا اليوم، فخرجت مناطق حضرموت هكذا:

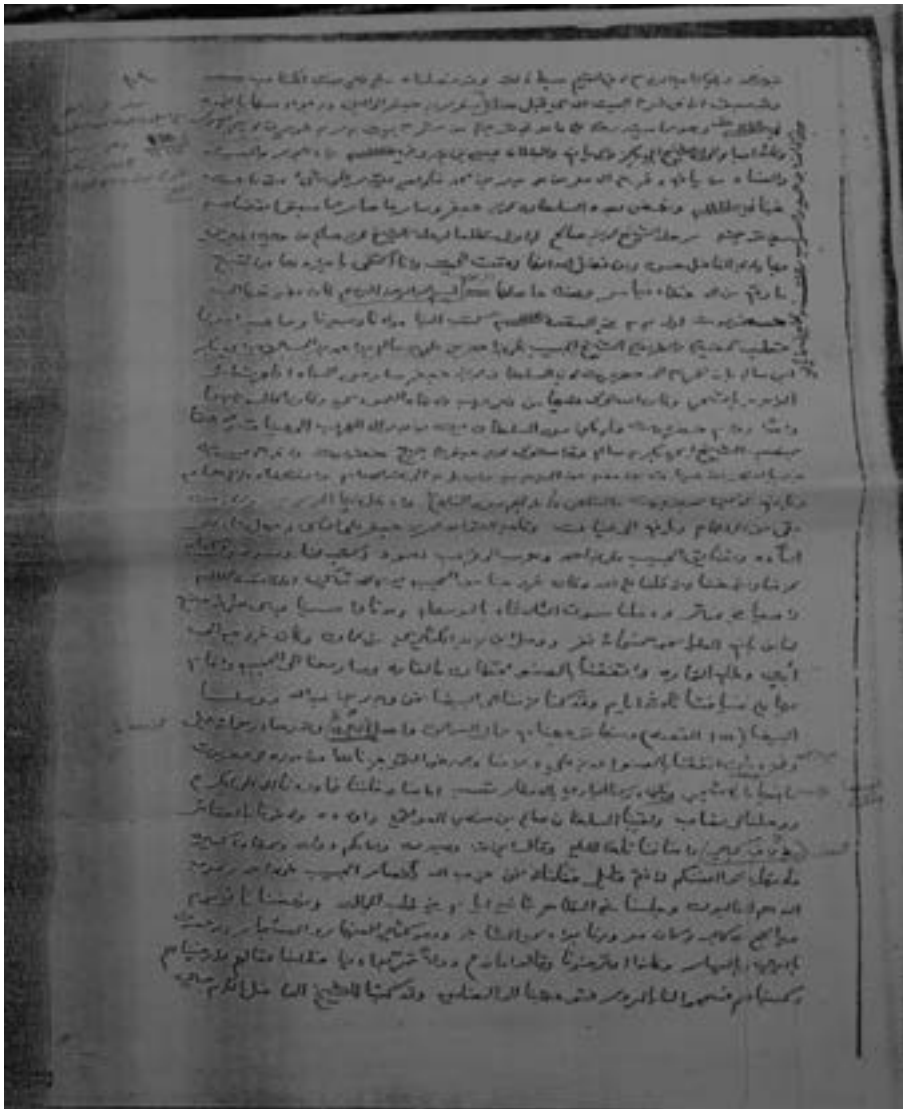
- ١- شبام وتريس وهينن لمكتب الموسطة.
 - ٢- وسيئون ومريمة لمكتب الضبي.
 - ٣- تريم لمكتب لبعوس وفوقها بنادق غرامة المشهورات إلى جانب آل همام الناجبي الذين بها من سابق.
- وهؤلاء جميعاً من مكاتب يافع بني مالك - العليا-، وأمّا يافع بني قاصد الذي سلطانهم بن عفيف فقد خرج في هذا التجهيز منهم خلق قليل، ومنهم:
- ◆ الهجرين وبلدة القزة فكانت لمكتب اليزيدي وعاكلهم البطاطي.
 - ◆ غيل بن يمين لمكتب كلد ومكتب يهر بغيل بن يمين.
 - ◆ المكلا صارت للكسادي من مكتب الناجبي^(١).

لقد وجدت يافع أنّ أمر حضرموت أصبح بيدها، وكانوا موزعين على كل نواحي حضرموت، فقام كل فريق منهم بأمر ما تحت يديه، فآل أمر المكلا إلى بني ناخب، وأصبح أمر غيل باوزير لابن همام، وريدة المعارة لكدل، وغيل بن يمين للشناظير، وتريم للبعوس، وسيئون للضبي، وجفل للرباكي، وتريس وحورة وشبام للموسطة، ومريمة لبني بكر، ولحروم للقعيطي، وسدبة للجهوري، والهجرين لليزيدي، والقزة للبطاطي، وغيرها^(٢).

(١) نفسه ص ١٨٢/١٨٣.

(٢) البكري: حضرموت وعدن...، ص ٩٩.

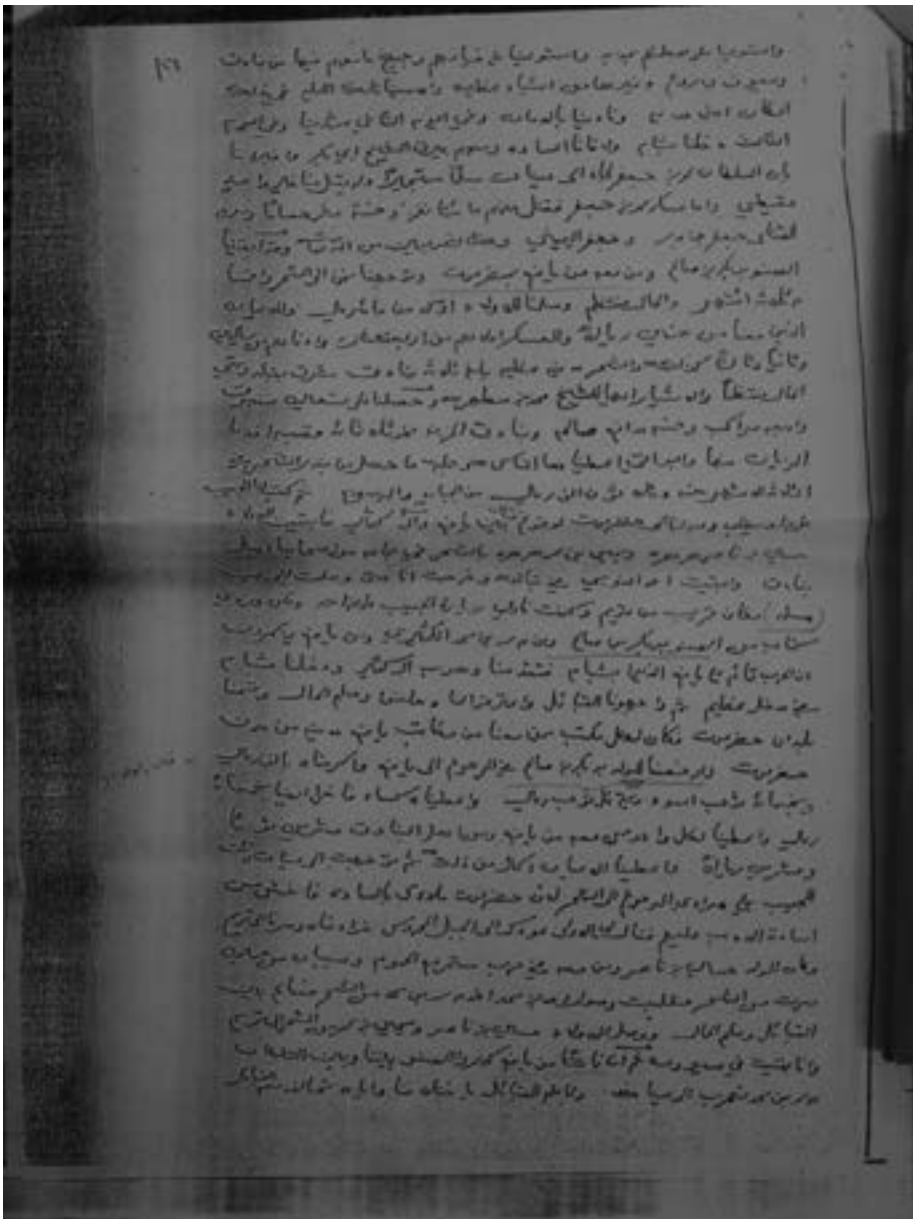
الملاحق:



الصفحة الأولى من الرحلة نسخة أ



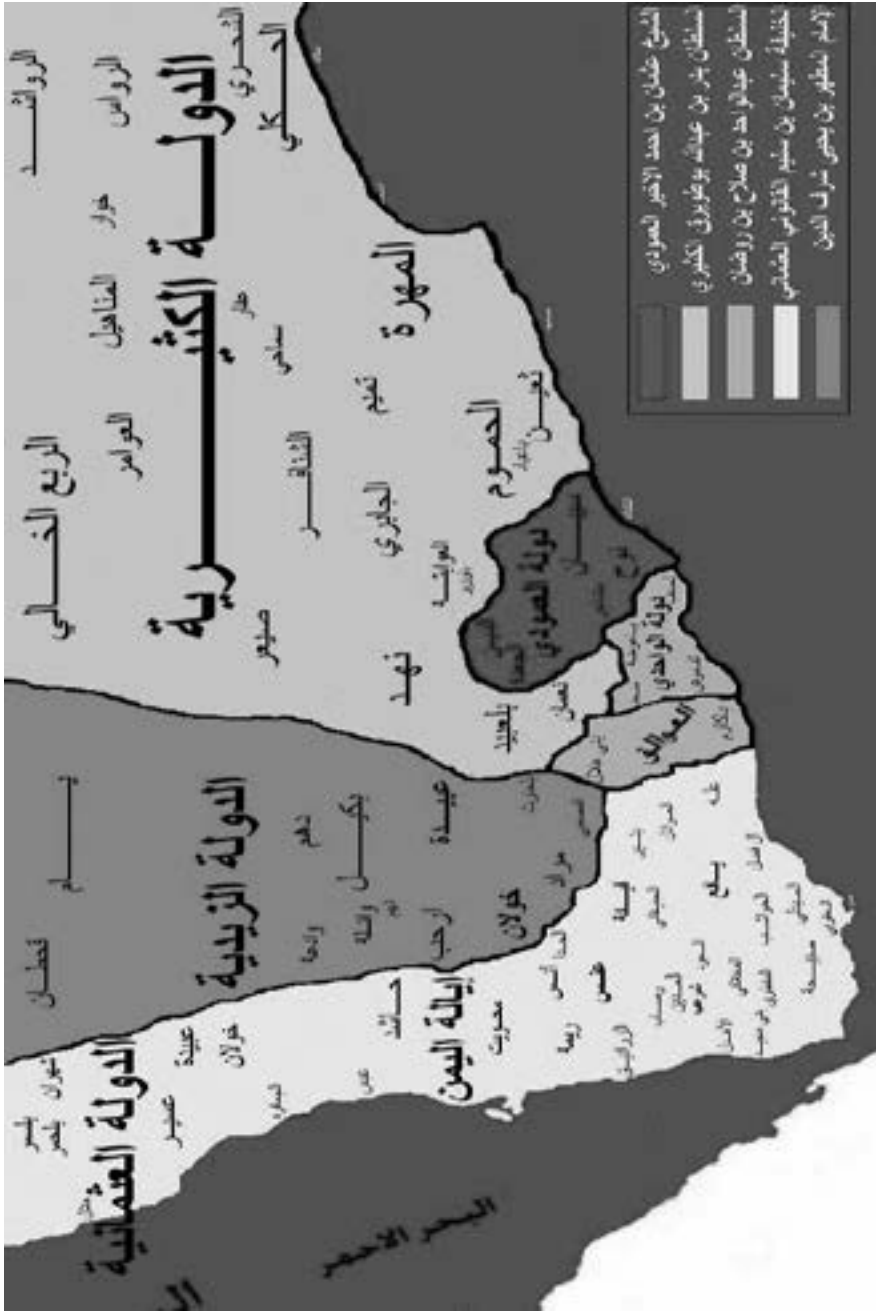
الصفحة الثانية من الرحلة نسخة أ



الصفحة الثالثة من الرحلة نسخة أ

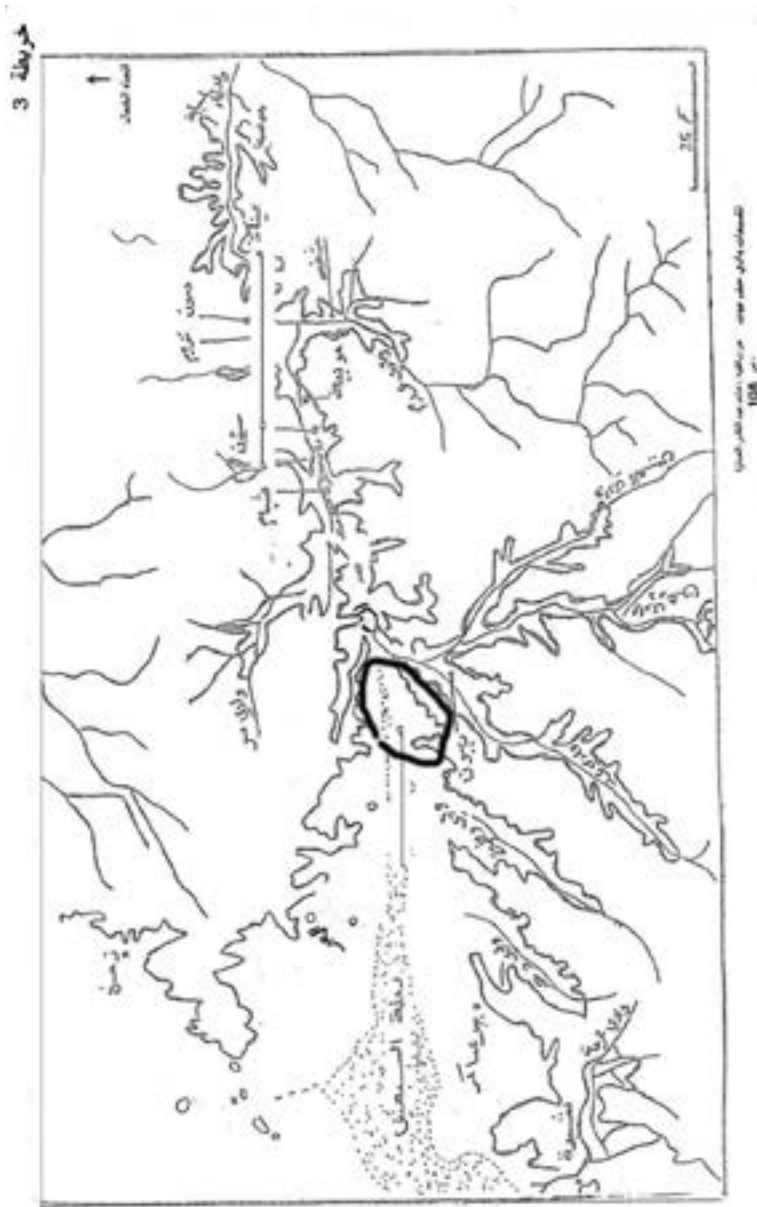


الصفحة الرابعة من الرحلة نسخة أ





خارطة وادي دوعن ووادي عمد والضليعة - رسم أحمد قنيوي

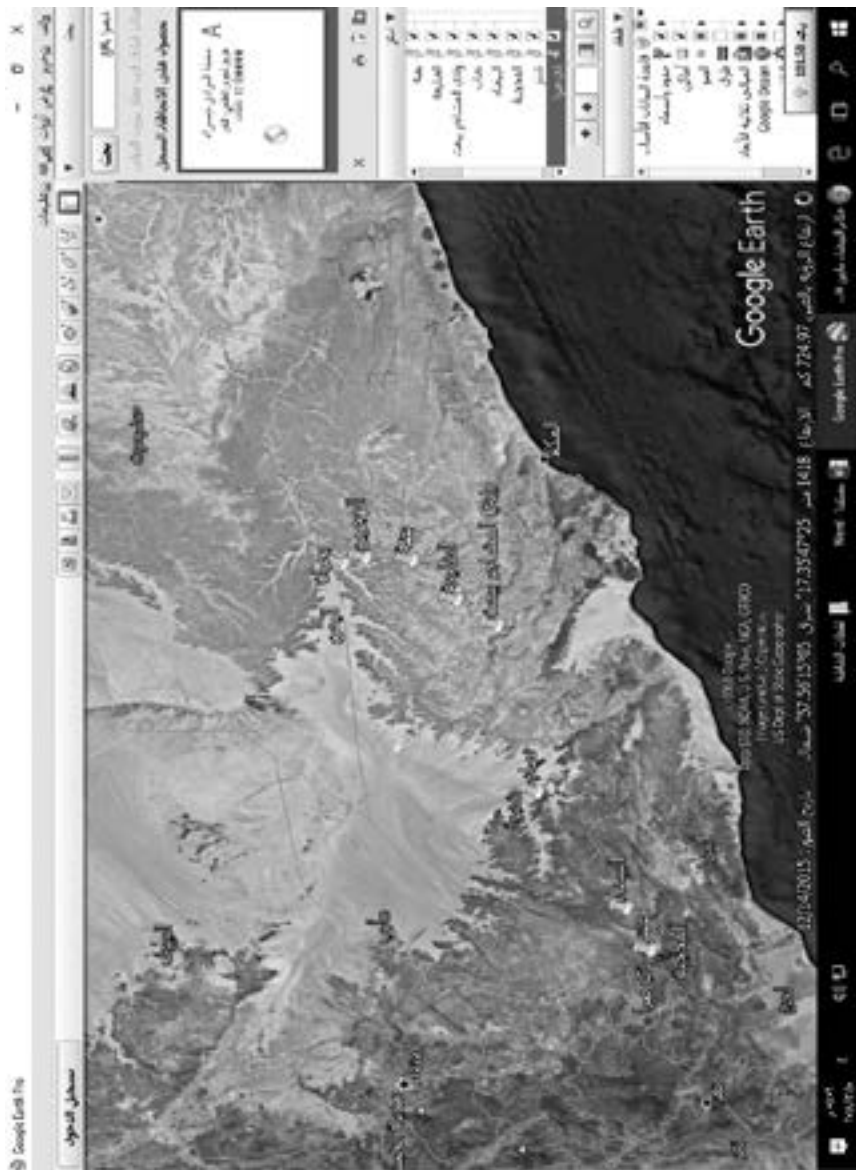


خارطة تقسيمات وادي حزموت موضّحاً بها موقع بجران (عن بافقيه ص ١٠٨)

خريطة 6



خارطة أودية الكسر موضَّحًا بها موقع بحران (عن بارباع: منطقة الكسر ص ١٣٥)



خارطة توضح الأماكن التي ذُكِرت في الرحلة - قوقل إيرث

قائمة المصادر المراجع

١. القرآن الكريم.

المخطوطات:

٢. السقاف: عبدالرحمن بن عبيدالله، بضائع التابوت نتف من تاريخ حضرموت، مخطوط، ٣ أجزاء، بحوزة الباحث.

٣. ابن الشيخ أبي بكر بن سالم: محمد بن سقاف، بستان العجائب ومطلب الراغب في مناقب المتأخرين من المناصب والجبائب، مخطوط بمركز النور بترميم برقم ٤١، نسخة بحوزة الباحث.

المطبوعات:

٤. بارباع: مرعي مبارك، منطقة الكسر في وادي حضرموت، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٤م.

٥. باسنبل: يوسف، بضعة سلام للشعباء مائة مليون، مجلة حضرموت الثقافية، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والنشر والتوثيق، المكلا، العدد ٧، ٢٠١٨م.

٦. بافقيه: حامد عبد القادر، العمارة المدنية في موقع ريون (مملكة حضرموت) «من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي»، رسالة ماجستير (غير منشورة) معهد الأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك، ١٩٩٦م.

٧. باوزير: سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، ط٣، ٢٠١٢م.

٨. البكري: صلاح عبدالقادر، حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي، مكتبة الإرشاد بجدة، ١٩٦٠م.

٩. بن هاشم: محمد: تاريخ الدولة الكثيرية، دار تريم للدراسات والنشر، تريم، ط١، ٢٠٠٢م.

١٠. بن هريرة صالح بن صالح، رحلة الأمن والسلام والاتصال من يافع المحجبة إلى وادي وصحراء حضرموت، الوليد للطباعة، تعز، ط ١، ٢٠٠٨ م.
١١. الجثام: فضل، الحضور اليماني في الشرق الأدنى، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط ١، ١٩٩٩ م.
١٢. شنبيل: أحمد بن عبدالله، تاريخ حضرموت المعروف بـ(تاريخ شنبيل)، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، مكتبة صنعاء الأثرية، ط ١، ٢٠٠٣ م.
١٣. شهاب: حسن صالح، يافع في عهد سلطان آل عفيف وآل هريرة، مركز الشرعي، صنعاء، ط ١، ٢٠٠١ م.
١٤. عربش: منير؛ والسقاف: عبدالرحمن، نقش جديد من عهد يدع أب ذبيان يهنعم ملك قتيان ويدع أب غيلان ملك حضرموت، حولية ريدان، العدد (٧) عام ٢٠٠١ م.
١٥. العمري: نادر سعد، الموسوعة اليافعية، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، ط ١، ٢٠١٥.
١٦. السقاف: عبدالرحمن بن عبيدالله، إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، دار المنهاج، جدة، ط ١، ٢٠٠٥ م.
١٧. السلفي: سالم عبدالرب، معجم أعلام يافع، بدون، ط ٢، ٢٠١٣ م.
١٨. الكندي: سالم محمد، العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١، ٢٠٠٣ م.
١٩. المخلافي: عارف أحمد، دليل المصطلحات العرفية المستخدمة في التعامل مع النزاعات المحلية، منظمة أدرا اليمن، ٢٠٠٨.
٢٠. الناجبي: عبدالله بن أحمد، رحلة إلى يافع، أو يافع في أدوار التاريخ، شركة دار العلم للطباعة والنشر، جدة، السعودية، ط ١، ١٩٩٠ م.

حضر موت في كتاب السيرة المتوكلية - بين المؤلف والمحقق إشكالية التناول

د. حسن صالح الغلام العمودي
كلية الآداب - جامعة حضر موت

المقدمة:

(السيرة المتوكلية) كما يسميها الحضارم أو (تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار)^(١) كما وسمها مؤلفها العلامة المؤرخ المطهر بن محمد بن أحمد الجرموزي (١٠٠٣ - ١٠٧٧ هـ / ١٥٩٥ - ١٦٦٧ م)، هي كتاب تاريخي اتخذ مؤلفه من السيرة موضوعاً له، ليؤرخ لحياة الإمام المتوكل على الله إسماعيل (١٠١٩ - ١٠٨٧ هـ / ١٦١٠ - ١٦٧٦ م)، الذي آلت إليه الإمامة وعمره ست وثلاثون سنة، وظل حاكماً حتى وفاته (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ / ١٦٤٤ - ١٦٧٦ م)، وشهد عهده امتداد سلطة الإمامة الزيدية إلى كثير من بلدان جهة اليمن التي غزاها بآلة حربه العسكرية، على مدى ثلاث وثلاثين سنة، سار فيها على خطى أخيه الإمام المؤيد بالله محمد (ت ١٠٥٤ هـ / ١٦٤٤ م). وإذا كان الأخير قد تطلع إلى مد نفوذه وسيطرته إلى حضر موت ولم تُواته الفرصة لتحقيق حلمه، فإنَّ الإمام المتوكل قد تهيأت له الأسباب لتحقيق هدفه وحلم أخيه.

لقد حظيت حياة الإمام المتوكل على الله إسماعيل ومدة حكمه باهتمام المؤرخ الجرموزي، فتناولها من عدة جوانب الشخصية منها والعسكرية، فضلاً عن العلمية والسياسية، وضمَّن ذلك كتابه المشار إليه آنفاً، غير أن ما يهمنا من كل ذلك ما أورده الجرموزي من نصوص متعلقة بحضر موت: الأرض والإنسان عامة، وتدوين زحف آلة الحرب المتوكلية

(١) دراسة وتحقيق الأستاذ عبد الكريم عبد المجيد الهجري، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، دار الإمام زيد بن علي (ع) الثقافية للنشر والتوزيع، صنعاء، ط ١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م. وسُيشار إليه لاحقاً مختصراً باسم السيرة المتوكلية. كما إننا سنكتفي بذكر أسماء المؤلفين وعنوانات كتبهم دون ذكر بقية المعلومات التوثيقية على أن نذكرها كاملة في قائمة المصادر والمراجع.

نحو حضرموت، وما سبق ذلك وما لحقه من مكاتبات ومراسلات وسفارات دبلوماسية بين الإمام المتوكل وسلاطين آل كثير وغيرهم من مشايخ حضرموت. الجرُموزي يسجل ويقدم شهادات عن تلك الحقبة من وجهة نظر مؤرخ سلطة يحمل فكرًا ومشروعًا أيديولوجيًا (المذهب الزيدي)، لنشره في الآفاق والترويج له أين أمكن ذلك، ترغيبًا أو ترهيبًا بوساطة آلة الحرب.

في هذا البحث سنتناول إشكالية التناول لما جاء عن حضرموت من مادة تاريخية في كتاب السيرة المتوكلية من طرف المؤرخ السيد المطهر بن محمد الجرُموزي، وما يتعلق بها من عمل دارس الكتاب ومحققه الأستاذ عبدالحكيم بن عبدالمجيد الهجري. فهل كان الأول أمينًا في تقديم شهادته عن حضرموت؟ وبماذا امتازت أخباره عنها؟ هل كانت مقتضبة؟ هل شابه الخلط وعدم الوضوح؟ وما مصادره التي اعتمد عليها في تقديم مادته التاريخية؟ وإلى أي مدى كان الجرُموزي منحازًا إلى صانع الحدث (الإمام المتوكل على الله إسماعيل) وقادة ألوية حربه؟ ولا سيما أنهم من أبناء البيت القاسمي الحاكم، وهل استغل الإمام في حربه على الحضارم الوازع الديني لدى قبائله واستنفرها بداعي (الجهاد)؟ وهل سجل الجرُموزي أي موقف للحضارمة من المذهب الزيدي رسمي أو فردي قبل اجتياحه لحضرموت؟ وما موقف الحضارم من الغزو الزيدي لبلادهم؟ أكان الرفض أم الخنوع؟ أم جميع ذلك؟ وهل كانت مواقف الحضارم من الزيود على امتداد البلاد الحضرمية منسجمة أو مختلفة؟ وهل كان اتخاذ هذه المواقف ذا صلة بالتدرج الزمني للأحداث وتمدد الزيود في حضرموت؟ وهل حفظ الجرُموزي بعض الوثائق المتعلقة بتلك المدة التي عالج أحداثها؟ وما أهميتها ودلالاتها وأثرها في إمطة اللثام عن مواقف طرفي الصراع؟ وهل سجل العلويون الحضارمة موقفًا رسميًا من الغزو الزيدي؟

وإن كان الجرُموزي قد تناول بعضًا من الإشكاليات التي أوردناها، فما موقف دارس الكتاب ومحققه من ذلك؟ هل عمل كما يفترض أن يعمل أي محقق؟ أن يقدم لنا نص الكتاب كما أراد له صاحبه؟ هل عرّف بالأعلام أشخاصًا ومناطق، وضبط الأخيرة منها بالشكل؟ وإن كان فعل فإلى أي مدى كان محققًا فيما ذهب إليه؟ وما الحيز الذي احتلته حضرموت في مقدمة دارس الكتاب ومحققه؟ هل ما جاء في مقدمته من استشهادات مرجعية

متوافقة ونص المتن للمؤرخ الجرموزي؟ أم أنه حملها ما لم تحتمل، وأفرغها من محتواها الذي أراده لها الجرموزي؟ وهل مارس المحقق أي دور باتجاه المادة التاريخية التي أوردتها المؤلف بهدف توجيه القارئ وتهيئته نفسياً لتقبل أحكامه؟

لا ندعي هنا أننا حللنا كل الإشكاليات التي تم طرحها، وإنما وقع الالتجاء في أحيان إلى الافتراض، ووقع الاكتفاء في أحيان أخرى بإثارة الإشكالية دون الجواب عنها، وذلك من خلال الجمع بين مجموعة من مناهج البحث العلمي ووسائلها كالوصف والتحليل والمقارنة؛ لاستكشاف الأسباب والعوامل الكامنة في حدوثها، والكشف عن أسباب الصراع المفترض تاريخياً، فالبحث لا يرسخ تلك الصورة النمطية التي بنيت عليها الأحداث التاريخية وتكرارها دون إبداء موقف منها بالنقد والدراسة.

إن هيكल البحث ودراسته سوف يتم من خلال الآتي:
أولاً: المؤلف ومحتوى كتابه.

ثانياً: في الدراسة التمهيدية لدارس الكتاب ومحققه.

ثالثاً: مصادر الجرموزي عن حضر موت ونقدها:

١- كتب الأنساب.

٢- الرواة:

أ- رواية الجرموزي عن عقيدة أهل حضر موت.

ب- رواية الجرموزي عن حملات غزو حضر موت.

ج- رواية الجرموزي عن موقف الحضارم من التواجد الزيدي في حضر موت.

٣- المخاطبات الرسمية أنواعها وموضوعاتها.

الخاتمة

أولاً - المؤلف ومحتوى كتابه:

هو المطهر بن محمد بن أحمد بن عبدالله الهادوي الجرموزي، أصيل قرية جرموز، إحدى مقاطعات بلاد بني الحارث الكائنة شمال صنعاء، من مواليد (١٠٠٣هـ / ١٥٩٥م)، ويتصل نسبه بالإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (ت ٢٨٩هـ / ٩٠١م) مؤسس أول

إمامة زيدية بجهة اليمن، ويرتفع نسبه إلى آل البيت، وكان والده ممن عملوا في خدمة الإمامة الزيدية في مرحلتها «القاسمية»، ممّا جعل ابنه يعيش بالقرب منها، واستفاد من مدارسها العلمية والإدارية فضلاً عن السياسية، وأهله ذلك لشغل الوظائف الحكومية فيها حين اشتد عوده وقوي. ويذكر جُلّ من ترجم له شغله وظيفته القضاء في عدد من النواحي مثل: أنس وعتمة ووصاب.

كما أنّ قربه من البلاط القاسمي قرّبه من صنّاع القرار وقيادات الحملات العسكرية ورجال الدولة، مما ساعده على نسج علاقات ود وصداقة مع بعضٍ منهم، وسهّل له معرفة كثيرٍ من الأخبار بكل يسر، فضلاً عن حصوله على عدد من الوثائق ذات الصلة بما يؤرخ له. جرت أعراف المنهج العلمي المتبع في تحقيق المخطوطات على أن يفرد المحقق مقدمة تمهيدية يتناول فيها سيرة حياة المؤلف وعصره والحياة الاجتماعية والسياسية والمذهبية التي أسهمت في تكوينه ومدى تفاعله بتلك الحياة، فضلاً عن ذكر شيوخه، ومشاركاته في الحياة العلمية، وما خلّف من آثار علمية، وكذا وصف المخطوط ومنهج المؤلف، ثم يعطف على دراسة المخطوط نفسه من حيث مصادره وبيان أهميته العلمية من النواحي العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحضارية كافة، وهي خطوات سار عليها محقق الكتاب، واستغرقت منه ستة وتسعين صفحة، بذل فيها جهداً يُشكر عليه، وعمل بما يعتقده صواباً، وقد حالفه الصواب في جُلّ ذلك، وإن كنّا نرى في المادة التاريخية التي قدّمها عن حضرموت بعض القصور فإنّنا نلتمس له العذر؛ نظراً لكبر حجم الكتاب وتنوع موضوعاته، فضلاً عن اتساع المساحة الجغرافية التي يُغطيها. وهذا بيانٌ لبعض جوانب القصور التي نرى أنّها شابت عمل المحقق.

ثانياً: في الدراسة التمهيدية لدارس الكتاب ومحقّقه:

١- إشراف المحقق في مقدمة تحقيقه في استخدام مفاهيم حديثة ضبابية مثل: (الوحدة) و(توحيد اليمن) و(اليمن الواحد) وغيرها^(١)، وهي مفاهيم لا تمت بصلة إلى موضوع الكتاب، ولا سيما أن المفاهيم لا توجد في الفراغ بل لكل مفهوم شهادة ميلاد - زمان ومكان - ودلالة وسياق، وهذه «الوحدة لليمن» التي يزعمها المحقق لا نجد لها أثراً في المصادر التاريخية

(١) تنظر مثلاً الصفحات: ج ١، ص ٧، ٨، ٩، ١٩، ٢٧، ٢٨، وغيرهن من صفحات المقدمة.

أو الجغرافية التي نعرفها، ناهيك أنه لم يحدد مراده من مدلول لفظة (اليمن) الموصوف بالوحدة، ولا سيما أن هناك روايات مختلفة عن تسمية اليمن وحدودها^(١)، وهي توحى لنا بأن لفظة (اليمن) ذات معنى ضبابي ومدلول جغرافي وخرائطي غير ثابت المعالم، فرغم التباعد الزمني لمختلف الروايات عنه إلا أنها لم ترق أبداً إلى إعطاء قسمات ترايبية وحدودية للبوقة التي يقصد بها المؤلفون اليمن. فهل يعني محقق الكتاب مثلاً اليمن الذي حدده الهمداني المتوفى في (٣٦٠هـ / ٩٦٠م)^(٢) فوحده الإمام المتوكل؟ وإذا كان الأمر كذلك فأين هذه الوحدة من الحكام اليعاربة في عُمان وبقية المناطق والبلدان التي عدّها الهمداني من اليمن^(٣)؟ هل يعني محقق الكتاب بـ(اليمن) الجهة التي تواتر ذكرها في المصادر الإسلامية الجغرافية منها والتاريخية مقابلة لجهة الشام؟ مع أن الجرُموزي قد ذكر ما يفهم منه أنه يعني بكلمة اليمن جهة من الجهات بقوله: ((وقد أمر مولانا العزي بالقدوم إلى محروس رداً العرس ليتوسط ما بين اليمن والمشرق))^(٤). فهنا يتم استخدام المفهوم الجهوي، وحتى عند العودة إلى مسميات كل الدول والكيانات التي قامت في هذه الجهة من بلاد العرب الجنوبية لا نجد من بينها من تسمت باليمن، لا في تاريخها القديم ولا في العهد الإسلامي إلى عهد المتوكل ولا من جاء من بعده من حكام، فكلها كيانات حملت أسماء مؤسسيها من القبائل والأسر، ففي التاريخ القديم كل من أراد الإشارة إلى تاريخ هذه الجهة من بلاد العرب نراهم يطلقون عليها اسم (بلاد العرب الجنوبية)، ثم يذكرون الدول والممالك باسم قبائلها، ويبدو أن محقق الكتاب أراد فرض مفهوم توحيد اليمن قسراً على مضمون الكتاب (السيرة المتوكلية)، ومن ثم إظهار الإمام المتوكل على الله إسماعيل داعياً قومياً قبل ظهور القوميين العرب أنفسهم! ليؤصل بذلك لأحداث تاريخية معاصرة من القرن العشرين في أحداث القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، أسوةً بمن أشاع مقولة (صنعاء

(١) علي (جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٧١؛ زبارة (محمد بن محمد بن

يحيى): تاريخ الزيدية، ص ٢٤ وما بعدها.

(٢) الهمداني: (الحسن بن أحمد بن يعقوب): صفة جزيرة العرب، ص ٩٠ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه ص ٨٦؛ علي (جواد): المفصل ج ٢، ص ٦٠٣ و ٦٧١.

(٤) السيرة المتوكلية، ج ٢، ص ٨٣٦، ٦٧١، ٦٠٣.

عاصمة تاريخية^(١)، أو غيرها من المفاهيم التي هي بحاجة إلى ضبط مدلولاتها في سياقاتها التاريخية المختلفة، كما هو الحال مع اسم (العربية السعيدة) الذي يجعله البعض حكراً على مسمى جهة اليمن، مع أن من أطلق هذه التسمية قصد بها قسمًا من أقسام جزيرة العرب^(٢)، وما جهة اليمن سوى جزء من هذا المسمى، ويشاركها فيه بقية الأجزاء التي تتكون منها الجزيرة العربية وهي: العروض والحجاز وتهامة ونجد. ورحم الله شوقي أبو خليل حين قال: ((إن غاية التاريخ إدراك ما كان في الماضي كما هو، لا إدراكه كما نهوى أو كما نتوهم)).

٢- لئن اجمعت مصادر ترجمة الجرموزي على تحديد^(٣) سنة ميلاده^(٤)، فإنها قد اختلفت في ضبط سنة وفاته، فذهب بعض منها إلى أنها كانت سنة (١٠٧٦هـ/١٦٦٦م)^(٥)، في حين

(١) الخلاقي: (د. علي صالح): أكذوبة «صنعاء عاصمة تاريخية

<https://shabwaah-press.info/news/53475>

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦٣.

(٣) سالم (د. السيد مصطفى): المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول ١٥٣٨-١٦٣٥م، ص ٧٣-٧٧؛ سيد (أيمن فؤاد): مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص ٢٣٦-٢٣٨؛ العمري (د. حسين بن عبدالله): مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، ص ٨٧-٩٠؛ والمؤرخون اليمنيون في العصر الحديث، ص ٣٣-٣٤. وقد جعل الدكتور العمري هذا الكتاب ملحقاً لكتابه الموسوم بـ(تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ٩٢٢-١٣٣٦هـ/١٥١٦-١٩١٨م من المتوكل إسماعيل إلى المتوكل يحيى حميد الدين)، ص ٢٤٨. وينقل في كتابه عن زبارة من كتاب (نشر العرف) أن وفاة الجرموزي كانت سنة ١٠٧٧هـ-١٦٦٧م، في حين أن زبارة يجعلها في سنة ١٠٧٦هـ. ينظر زبارة (محمد بن محمد): نشر العرف لنبلأ اليمن بعد الألف إلى سنة ١٣٥٧، ص ١١٨، (سيرة حياة حفيد المطهر السيد أحمد بن الحسن الجرموزي) ص ١١٨؛ السيرة المتوكلية: مقدمة المحقق، ص ٧-٢٨.

(٤) ذكر محقق الكتاب أن الجرموزي ولد سنة (١٠٥٠هـ-١٥٩٥م) مقدمة المحقق، ج ١، ص ٩، ويبدو أن ذلك خطأ مطبعي في كتابة أرقام السنة الهجرية؛ لأن ما يوافقها من السنوات الميلادية توافق سنة ١٠٠٣هـ، وهي سنة ميلاد الجرموزي.

(٥) يشير المحقق إلى أن المؤرخين: يحيى بن حسين صاحب كتاب (بهجة الزمن في تاريخ حوادث الزمن) (ت بعد ١١٠٠هـ/١٦٨٨م) وكذا المؤرخ إسماعيل بن أحمد المتوكل صاحب كتاب (مختصر طيب أهل الكساء) وأيضاً أحمد بن عبدالله الجنداري مؤلف الجامع الوجيز - متفقون جميعاً على أن سنة ١٠٦٧هـ هي سنة وفاة الجرموزي، في حين يدون لكل منهما سنة تختلف عن الأخرى، وبعد العودة إلى الكتب الأصول اتضح أن ما نسب ليحيى بن الحسين وهي سنة

جعلها بعض آخر في سنة (١٠٧٧هـ/ ١٦٦٧م)، وقد ناقش محقق الكتاب ذلك الاختلاف ورجح أن سنة (١٠٧٧هـ/ ١٦٦٧م) هي سنة وفاة المؤرخ المطهر الجرموزي، واعتمدها سنة وفاة في متن الكتاب^(١)، وساق سبب ترجيحه لذلك، إلا أنه يخالف ذلك الترجيح في المزبور على غلاف الكتاب، فيجعلها سنة (١٠٧٦هـ/ ١٦٦٦م)!

٣- يذكر المحقق أن الإمام المتوكل على الله إسماعيل قد وجّه رسالة إلى السلطان بدر بن عمر الكثيري حاكم حضر موت يأمره فيها بحل وثاق عمه، وإطلاقه من السجن وتوليته على ظفار^(٢)، وهذا وهم منه، فرسالة الإمام التي ذكرها الجرموزي ذكرت أن الحاكم في حضر موت هو السلطان بدر بن عبدالله الكثيري، وهو من سجن عمه بدر بن عمر الكثيري، وأحكم وثاقه^(٣)، ووقع عليه العدوان من أبناء أخيه بعزله من السلطنة، ومع ذلك يصبر المحقق على أن مَنْ راسله الإمام هو بدر بن عمر^(٤)، ويحيلنا على نصوص في متن الكتاب تؤكد أن المعني بالمراسلة هو السلطان بدر بن عبدالله!

٤- أشار المحقق في دراسته التمهيدية أن القوات الإمامية قد وُوجهت في بدايات مد نفوذها من قبل قبائل المناطق التي مرت بها الحملة، وذكر من بينها قبائل يافع، والرصاص، والمصعبين، والعوالق، وآل كثير، وبلاد الفضلي، والعمودي، وما والاها إلى حضر موت، ويوثق ذلك بالنص (١٩٢هـ)^(٥)، وهو نص ذكر فيه الجرموزي أخبار تلك الجهات دون الإشارة إلى ذكر أية مواجهات مع تلك القبائل^(٦)، ولئن كانت تلك القبائل قد دخلت بعد ذلك في مواجهات مع عسكر الحملة الإمامية أين حلّت في مناطقها، فهذا أمر بدهي وطبعي؛ كونها ترى فيها قوات غزو واحتلال لمناطقها، فضلاً عن كونها قوات تختلف معها في عقيدتها

(١٠٧٩هـ) ما هو إلا خطأ مطبعي. مقدمة المحقق، ١/ ١٧. وقد تكررت أخطاء المحقق في تدوين كثير من السنين، تُنظر على سبيل المثال الصفحات: ج ١، ص ٩، ٢٠، ٢٦، ٥٢، ٥٩، ٦٢.

(١) السيرة المتوكلية: مقدمة المحقق، ج ١، ص ١٧.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ١، ص ٤٤ (الدراسة التمهيدية).

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٧٨.

(٤) السيرة المتوكلية: ج ١، ص ٥٥.

(٥) السيرة المتوكلية: ج ١، ص ٧٢.

(٦) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٧١ وما بعدها.

المذهبية، لكن قول محقق الكتاب إنَّ المواجهة كانت من كل تلك القبائل يُعدُّ تعميماً جانب فيه الصواب، فهناك مثلاً ((الشيخ محمد بن عبد الرحمن العمودي^(١))) الذي كانت تربطه علاقة ود وصداقة بالإمامة الزيدية، ولا سيما أن العمودي كان في حرب مع عدوه التقليدي السلطان بدر بن عبد الله الكثيري، وتلك العلاقة الوطيدة صَوَّرَها الجرُموزي في وصفه للشيخ العمودي حين عرَّفه به (السلطان الأفخم والشيخ المكرم)^(٢)، كما أثنى على ضيافته لعسكر الإمام إذ قدم بقرّاً وغنماً وطعاماً وثمانمائة جمل تحمل الأثقال، ولم يكتفِ العمودي بذلك بل استنهض قبائله المتحالفة معه لتقديم كل ما تستطيع من مؤن ودعم للعسكر الإمامي الذي كان يعاني من قلة التموين وانتشار المجاعة بين صفوفه حتى أكل العسكر من شدة الجوع جمال بعضهم، وظلت مناطق حكم العمودي تمد العسكر بمختلف المبيعات مدة إقامتهم بمنطقة (ريدة الدين)^(٣). لذلك أشاد الجرُموزي بخدمات العمودي للحملة الإمامية بقوله: ((أحسن الله إليه خيراً))^(٤).

فخدمات العمودي في مساندة الحملة الإمامية لم تكن مجرد كرم وضيافة فحسب، ولكنها رد الجميل من العمودي لموقف الإمام معه في صراعه^(٥) مع السلطان بدر بن عبد الله

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٤٥. غير أن الجرُموزي يسميه في موقع آخر به (عبد الله العمودي). ج ٢، ص ٨٦٦. في حين تسميه المصادر الحضرية عبد الله بن عبد الرحمن العمودي وتصفه بالعلامة الشهير المعمر، المتوفى سنة (١٠٧٥ هـ / الحداد (علوي بن طاهر): الشامل في تاريخ حضرموت ومخالفاتها، ج ٢، ص ٦٨٧. وهو المكنى به (أبي ست)؛ لكونه له ست أصابع السادسة تلي الابهام، اتصف بالذكاء والنجابة وحكم أغلب مناطق وادي دوعن ويذكر السقاف نقلاً عن المؤرخ أحمد بن حسن العطاس أنه قد طلب لنفسه الولاية من الإمام على دوعن. السقاف (عبد الرحمن بن عبيد الله): مخطوط بضاعة التابوت إدام القوات تنف من تاريخ حضرموت، القسم الأول ج ٢، ورقة ١٢-١٣؛ وينظر: للسقاف أيضاً معجم بلدان حضرموت، ص ١٣٨ وما بعدها (مادة الضليعة).

(٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٤٥.

(٣) السقاف: معجم بلدان حضرموت، ص ١٣٧ وما بعدها (مادة الضليعة).

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٥) تعود جذور الصراع السياسي القبلي العمودي الكثيري إلى الوقت الذي برز فيه عثمان بن أحمد العمودي رجلاً قوياً ومعارضاً للسلطان بدر أبي طويرق، وأصبح رأس حربته ضد مشروع

الكثيري، بل وانحيازاه إلى جانبه في صلح عام (١١٦٦هـ/ ١٦٥٥م) الذي تم برعاية الإمام المتوكل، فأتاح للعمودي فرض ما بدا له من شروط على السلطان الكثيري الذي قبلها على مضض؛ ابتغاء جبر خاطر الإمام، وإخماد نيران الفتنة^(١).

٥- أشار محقق الكتاب عند ذكره لظاهرة الشعوذة والاعتقاد بالمشعوذين إلى ذكر واحدة من تلك الصور، وينقلها لنا من يافع بقوله: ((يُذكر أن رجلاً كان بها يُدعى الحبيب بن سالم، وكان من أمره أنه كان يدعي المعرفة بأعمال الغيب))، ويحيلنا على النص (ق ١٩٣ ب)^(٢)، وهذا النص لم يشر إلى وجود الحبيب بن سالم، وإنما جاء فيه: ((وأما بلاد يافع وما يتصل بها فيحتكمون لرجل من آل أبي بكر بن سالم من الأشراف آل باعلوي))^(٣).

إن أبا بكر بن سالم (٩١٩-٩٩٢هـ/ ١٥١٣-١٥٨٤م) هو مؤسس هذه الأسرة التي حملت اسمه، ويعود نسبه للأشراف العلويين في حضر موت الذين يرتفع نسبهم إلى ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، كما ذكر ذلك الجرُموزي وآخرون^(٤)، وكان له اهتمام وقيام بالإرشاد والدعوة وإصلاح ذات البين لا على صعيد الأفراد فحسب بل على مستوى القبائل عامّة، وتميز بقوة الكلمة والتأثير بالحسنى، ويُعدُّ من بين الذين تصدّروا مشهد الحياة الاجتماعية

دولته وسياسته، وقد دخل الطرفان في أتون معارك كثيرة أرهقتهم، وأزهقت فيها أرواح كثيرة، وكانت سبباً في ولوج قوى خارجية حلبة الصراع السياسي الحضرمي. وإذا كان السلطان بدر أبو طويرق قد اعترف بتبعيته للأتراك، واستقوى بهم في صراعه مع أعدائه بمن فيهم العمودي، فإن هذا الأخير لم يقف موقف المتفرج، بل سعى لإيجاد توازن في ميزان الصراع، وأعلن رفضه لسياسات السلطان بدر، وانحاز إلى الإمامة الزيدية التي كانت هي الأخرى في حالة حرب مع العثمانيين حلفاء السلطان أبي طويرق. ويتوقف الدعم المادي والمعنوي العثماني للسلطنة الكثيرية؛ فقد خلفاء السلطان الكثيري حليفاً قوياً، في حين كسب خلفاء العمودي قوة صاعدة في ميدان المعترك السياسي، وهي الإمامة الزيدية القاسمية التي لبت طلب عبدالله بن عبدالرحمن العمودي لمؤازرته في صراعه مع السلطان بدر بن عبدالله الكثيري. ولمعرفة المزيد عن ذلك ينظر الجعدي: السلطنة الكثيرية، ١٦٣ وما بعدها.

(١) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٨٦ وما بعدها.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ١، ص ٧٤.

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٧١-٦٧٢.

(٤) العلوي الحسيني (عبد الرحمن بن محمد المشهور): شمس الظهيرة، ج ١، ص ٢٧٦.

والروحانية في حضرموت في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وأصبح يُشار إليه بالبنان، ويفد إليه طلاب العلم من مختلف المناطق والبلدان، وحدث أن التحق به علي بن أحمد هرهرة، فتوسم فيه أبو بكر بن سالم بشائر النجابة والذكاء، فنصبه قبل وفاته مصلحاً ومرشدًا دينيًا في يافع العليا^(١)، فأطاعته القبائل وامثلت له، ولا سيما أنه من أبرز مريديه، فضلًا عمّا يعتقدونه في الشيخ أبي بكر وفي ابنه الحسين من الولاية والقطبية^(٢). فليس صحيحًا أن أحدًا من آل أبي بكر بن سالم كان مقيمًا بيافع كما يزعم المحقق.

ثالثًا: مصادر الجرُموزي عن حضرموت ونقدها:

اعتمد الجرُموزي في حديثه عن حضرموت والأحداث التي شهدتها على مجموعة من المصادر، منها:

١- **كتب الأنساب** مثل كتاب الأهدل (عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب)، وقد أحال عليه مرة واحدة عند الإشارة إلى نسب آل أبي بكر بن سالم^(٣). واللافت للانتباه أنه برغم معرفة الجرُموزي بآل البيت في حضرموت لم يحظوا لديه بتلك الأهمية التي أولاها لآل البيت الإماميين، وينعكس ذلك في حجه عنهم صفات التكريم والترحم، بل يستخدم ألفاظًا لا تليق بهم مثل: الخبيث أو المغرور.

٢- **الرواة**، وهم كثر، ويعدون من أنصار المذهب الزيدي، وكان منهم من قد أُرسل في مهام رسمية من قبل أئمة البيت القاسمي إلى حضرموت، ومنهم من كان من قيادات العسكر الإمامي التي اشتركت في حملات الغزو، فضلًا عن المخاطبات المتبادلة بين الإمام وبعض قياداته العسكرية والمدنية بشأن حضرموت، أو تلك الخطابات التي وجهها الإمام نفسه إلى سلاطين حضرموت من آل الكثيري، وردودهم عليها. وقد تنوعت مادة مصادره بحسب اهتمامات أصحابها الفكرية والمهنية.

أ- رواية الجرُموزي عن عقيدة أهل حضرموت:

عن عقيدة أهل حضرموت وثق الجرُموزي شهادة رواته بطرق مختلفة، منها ما أخذها

(١) العبدلي (أحمد فضل بن علي بن محسن): هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ص ١٠٨؛ (بن سلم) أبو بكر بن سالم، ص ١١١.

(٢) العمري (نادر سعد): الموسوعة اليافعية، مج ١، ج ١، ص ١٦٣.

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٧١.

مشافهة ويذكرها بقوله: (أخبرني)، مثل: ((أخبرني الصنو الفاضل غوث الدين بن محمد رحمه الله بأنه وجد رجلاً من مغارب ذمار في عام ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م أو ١٠٣٩هـ/ ١٦٣٩م))^(١)، وهي الرواية التي استشهد بها الجرموزي لتبيان عقيدة أهل حضر موت. كما يذكر الجرموزي راوياً آخر اسمه (الشيخ البهال الأسدي) الذي وصفه بأنه كان ((رجلاً بادياً صدوقاً من حذاق العوام وله ديانة))، كان قد أرسله الإمام المؤيد (ت ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م) بكتاب إلى سلطان حضر موت عبدالله بن عمر بن بدر الكثيري في سنة (١٠٤٠هـ/ ١٣٦٠م) أو (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، وقد ظل هذا الأخير منتظراً الرد سلطان حضر موت على كتاب الإمام، غير أن السلطان عبدالله بن عمر الكثيري أثر قبل الرد على كتاب الإمام أن يستشير الحبيب حسين بن أبي بكر بن سالم (ت ١٠٤٤هـ/ ١٣٦٠م) صاحب عينات كما هي عادته، ولما علم البهال الأسدي بذلك كشف للسلطان الكثيري عن رغبته في زيارة الحبيب، فوافق السلطان على ذلك، فذهب إلى عينات، وشاهد الحال الذي كان عليه الحبيب حسين، ورواه للجرموزي فيما بعد^(٢). وإمعاناً من الجرموزي في تأكيد صحة روايات مصادره يفيدنا بقوله: ((وأخبرني غير واحد)) مما أفاد خبره الاستفاضة لمطابقة الأخبار الكثيرة، أو ((أخبرني بعض المترددين إلى تلك الناحية))^(٣).

وإذا تأملنا تلك الروايات التي اعتمد عليها الجرموزي ليقرر عقيدة أهل حضر موت سنجد الرواية الأولى تعود إلى سنة (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م) أو (١٠٣٩هـ/ ١٦٣٩م)، في حين تعود الرواية الثانية إلى سنة (١٠٤٠هـ/ ١٣٦٠م) أو (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، علماً بأن الجرموزي يذكر أحداثاً حصلت قبل وفاته في عام (١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م)^(٤)، وهذا يعني أنه مر على تلك الروايات أكثر من أربع وثلاثين سنة، فضلاً عن أن رواته يتحدثون عن حالة فردية وفي منطقة بعينها، فلا يجوز تعميم حكم خاص بشخص على جميع أهل حضر موت، بمجرد زيارات أو لقاءات فردية لبعض رواته، فعينات ليست المدينة الوحيدة في حضر موت، فهناك أيضاً مدينة تريم التي ظلت متبوئة الصدارة خلال العصور الوسطى والحديثة، بوصفها عاصمة

(١) السيرة المتوكلية: ج ٢/ ص ٦٧١. وهو ما ذهب إليه المحقق في دراسته التمهيدية، ج ١، ص ٧٥.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٧٢-٦٧٣.

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨١.

حضر موت الدينية، مما جعل الإمام عبدالله بن علوي الحداد (١٠٤٤-١١٣٢هـ/١٦٣٤-١٧٢٠م) يعدها بعد مكة والمدينة من حيث الأهمية الدينية^(١). هذا بالإضافة إلى مدن سيئون والغرفة وقسم والشحر وهينن وحريضة وقيدون وغيرهن من بلدان حضرموت اللواتي حفلن بالعلماء والفقهاء، وهو ما تعكسه كتب التراجم الحضرمية وخاصة في هذه المدة التي يشير إليها الجرموزي، فقد كان بحضرموت علماء وفقهاء فضلاً عن الفلكيين والمؤرخين والأدباء، ولهم مؤلفات يعتد بها في إطار اختصاص كل منهم، ففي مجال العلوم الشرعية المتصلة بالكتاب والسنة نجد ما ألفه أبوبكر بن عبد القادر العيدروس (ت ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م)، وهو كتاب (الدر الثمين في بيان المهم من الدين)، وأيضاً كتاب (منحة الباري بختم صحيح البخاري)، وللعيدروس كثير من المؤلفات^(٢)، وهذا علي بن عمر بن علي بن محمد فقيه الذي حمل لقب (فقيه)؛ لتبحره في علوم الفقه (ت ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م)^(٣)، كما أن الشيخ أحمد بن عبدالله بافضل الشهير بـ«السودي» (ت ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م) كان من أفضل أهل زمانه في العلوم، المنطوق منها والمفهوم، ويعد من أعرف أهل زمانه باللغة العربية، كما برع في أصول الدين والحديث فضلاً عن التصوف^(٤). ولم يكن السيد أحمد بن محمد الهادي بن عبد الرحمن بن شهاب الدين (ت ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م) أقل شأنًا من سابقه؛ إذ وُصِفَ بأنه إمام المنقول والمعقول، وكان في معظم أوقاته مشغلاً بأنواع المعارف والعلوم ونشرها من فقه وأصول وحديث وتفسير ونحو وصرف^(٥).

على أن دور هؤلاء العلماء لم ينحصر في داخل حضرموت فحسب، بل تخطاها إلى الآفاق البعيدة، إذ انتشر الحضارم في أصقاع الأرض، وقاموا هم وأنجالهم من بعدهم بنشر دعوة الإسلام برسالتها الوسطية المعتدلة البعيدة عن الغلو والتطرف، دون أن تصحبهم آلة حرب أو إعلان نفير حرب، على أن زعم الجرموزي وتهمته المذكورة أنفًا لأهل حضرموت

(١) الجعدي (عبدالله سعيد): في رحاب تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر، ص ١٤٨.
(٢) الشلي (محمد بن أبي بكر): عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، ص ٢٠٢-٢٠٧.

(٣) الشلي: عقد الجواهر، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٤) -الشلي: عقد الجواهر، ص ٢٣٣.

(٥) الشلي: عقد الجواهر، ص ٢٤١.

يبدو أنها كانت تراود الإمام المتوكل نفسه، ولعله قد كلف القاضي الحسن بن أحمد الحيمي (ت ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م)^(١) بتقصي حقيقة ذلك حين بعث الأخير بكتاب من مدينة هينن إلى الإمام المتوكل في العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٠٦٧هـ الموافق للعشرين من أكتوبر سنة ١٦٥٦م، ومما جاء فيه قوله: ((وقد اتصل بنا بعض فقهاءها { يعني حضر موت } ممن له بصيرة وفقه نافع، ولهم عناية في إحياء المساجد بذكر الله عز وجل ودرس القرآن، وتعليم الصبيان من غير أن يقارن ذلك بشي من البدع التي يتوهم بها))^(٢).

ب- رواية الجرُموزي عن حملات غزو حضر موت:

استقى الجرُموزي مادته الإخبارية فيما يتعلق بسير حملات الغزو لحضر موت من رواية آخرين اشتركوا في خوض المعارك، وكانوا شهود عيان على تلك الأحداث، فيقدمها لنا مسبوقه بقوله: ((أخبرني السيد المجاهد الصمصام الناصر بن عبدالرحمن الزيدي نسباً ومذهباً، وهو حاضرٌ جميع ما مر، وكان على خيل مولانا عز الإسلام))^(٣)، ويكرر الجرُموزي شهادات رواته على صحة ما يرويهِ بصيغ مختلفة مثل قوله: ((أخبرني من شهد ذلك)) أو: ((أخبرني بعض من سمع حديثه))، أو: ((لقد بلغني))، كما يستقي مادته أحياناً من الإمام نفسه، كقوله: ((ومما أخبرني به مولانا أمير المؤمنين أيده الله تعالى))^(٤).

ولسنا بصدد تقصي سند كل روايات الجرُموزي إنما نريد القول إن الجرُموزي كان من الذين يسعون إلى الوصول إلى المادة الأخبارية من مصادرها الأصلية، وهم رواية معروفون لديه، وكان أميناً في نسبتها إليهم بصرف النظر عن صحتها من عدمه، أو ما يشوبها من مبالغة، أو ما بدا عليها من انحياز^(٥)، على أنه قد سار في عرضه لمادته التاريخية على منهج السرد

(١) يعد من أهم رجال دولة البيت القاسمي، فقد اعتمد عليه الإمامان المؤيد وأخوه المتوكل، فخدمهم بإخلاص، وكان رجلاً عالمًا أديبًا فاضلاً، ومع اشتغاله بالسياسة إلا أنها لم تبعده عن العلم درساً وتدریساً، ولفصاحته ورجاحة عقله وقوة تدبيره أوكل إليه الإمام المتوكل القيام بمهام سياسية دبلوماسية وحرية في كل من حضر موت والحبشة.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٩٧.

(٣) المصدر نفسه والجزء نفسه، ص ٧٣٦.

(٤) نفسه، ص: ٧٦٤، ٧٦٣، ٧٦٢،

(٥) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٣٧، ٨٣١، ٨٢٩، ٨٢٨، ٨٢٦ وغيرهن من الصفحات.

القصصي التاريخي، غير أنه يقطعه أحياناً بذكر بعض التفاصيل الجانبية، أو يوضح جانباً ربما ظن غموضه، أو لارتباط الحدث بغيره من الأحداث اللاحقة، فيشير إلى ذلك بقوله: ((حتى كان من أمره ما سيجيء قريباً إن شاء الله))^(١)، أو: ((رجعنا إلى ذكر الملاهي))^(٢)، ثم يعود إليها، أو: ((وقد ذكرنا تقدم الأمير الصالح))، ثم يستكمل ما بقي له من خبر^(٣)، أو قد تكون لديه زيادة على خبر متقدم فيشير إلى ذلك، مثل ذكره لإعادة خبر خروج عسكر الإمام إلى حضر موت فيقول: ((ذكر المخرج المنصور إلى بلاد حضر موت وجهاتها وأسباب ذلك، وقد تقدم بعضه وهذه زيادة مختصرة))^(٤). هذا بالإضافة إلى إيراده بعض قصائد الشعر. على أن ما يمكن استنتاجه من تلك الروايات أنها تمثل وجهة نظر الغازي، وأنها لم تكن محايدة بالضرورة، بل جاءت متماشية مع أهداف وأيديولوجيا السلطة الغازية (دولة الحق)^(٥) التي لم تتورع عن استغلال كل ما هو ديني لاستنهاض همم جحافل قبائلها وحشدها وإعلان حالة الحرب في يوم الخميس ١٨ من شوال سنة (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م)، في صنعاء وما جاورها من مناطق، إذ أعلن ((الخطباء والدعاة إلى الجهاد))^(٦) انطلاق جيوشهم تحت ((رايات الحق))^(٧)، واصفين هؤلاء الجنود بأنهم ((جنود الحق))^(٨) ((المجاهدون))^(٩). فجهات المشرق وأهلها بما في ذلك حضر موت تستحق الغزو ((لبعدهم عن الله سبحانه وتعالى وطول ضلالتهم))^(١٠)، فضلاً عن كرههم ((للزيدية)) وأهل بيت الإمام ومذهبهم^(١١)، ناهيك عن كونهم ((أعداء الله))^(١٢). وكل من يقف مع هذا التوجه فهو محب لدولة الحق

- (١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٦٠.
- (٢) المصدر والجزء نفسه، ص ٧٦٣.
- (٣) المصدر والجزء نفسه، ص ٧٦٧.
- (٤) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٢٤.
- (٥) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٦٦.
- (٦) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٣٠.
- (٧) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٥٩.
- (٨) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٣٩.
- (٩) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٣٨.
- (١٠) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٢١.
- (١١) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٧٢، ٨٢٥.
- (١٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٥٨.

ومناصر لها، لذلك كان السلطان بدر بن عمر الكثيري أقرب سلاطين آل كثير ((إلى محبة دولة الحق))^(١)، وهذا الشيخ العمودي ((أحسن الله إليه خيرًا)) لإنقاذه عسكر الإمام من المجاعة التي لحقت بهم^(٢).

وبالمقابل فإن من يعارضون أو يقاومون التوجه الزيدي ما هم - من وجهة نظر الجرموزي ورواته - إلا أصحاب بدعة وضلالة، وقد غاب عنهم شرع الله وإقامة الحق وحكم العدل، وسادهم البغي والفجور، فسالم بن أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم الذي كان له حضور روحي ومعنوي في بلاد يافع وجهاتها، وكان يحث القبائل هناك على ضرورة مقاومة عسكر الإمام المتوكل والتصدي لهم - ما هو إلا (خبيث) و(مغرور) و(ضال)^(٣). كما أن مواقف السلطان بدر بن عبدالله الكثيري من الإمام المتوكل ودفاعه عن بلاده للحيلولة دون وصول المذهب الزيدي إليها جعلت الجرموزي ورواته يصفونه بـ(المجاراة والتلون والتخنس) والغدر والمكر^(٤).

ج- الجرموزي وموقف الحضارم من التواجد الزيدي في حضر موت:

إن شهادات الجرموزي بحسب مصادره تصور لنا أن الموقف الحضرمي من المذهب الزيدي يتجلى في موقفين: موقف معارض يمثلها السلطان بدر بن عبدالله الكثيري والحبيب سالم بن أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم ومن ناصرهما، وموقف مؤيد يمثلها السلطان الكثيري المعتقل والمنقلب عليه وهو السلطان بدر بن عمر الكثيري وأنجاله، فضلاً عن الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن العمودي حاكم أكثر مناطق بلدان وادي دوعن وأحلافه من القبائل، وهو الذي يُكنُّ العداء للسلطان بدر بن عبدالله، بل ويعد نفسه في حرب معه.

وعليه إذا كانت مصادر الجرموزي قد حطت من قدر حاملي لواء المعارضة للوجود الزيدي في حضر موت فإنها في الوقت نفسه تكشف لنا أيضاً عن أثر أولئك الرموز في التصدي لمواجهة الغزو الزيدي وآلة حربه.

(١) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٦٦.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٩٠، ٧٣٧، ٧٣٩، ٧٦٠.

(٤) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٤٣، ٨٢٦.

لقد قام السلطان بدر بن عبدالله الكثيري زعيم حضرموت السياسي الأبرز بدور دبلوماسي مهم ليتفادى وقوع مناطق حكمه تحت طائلة النفوذ الزيدي، وهو أمر تكشف عنه رسائله للإمام المتوكل على الله إسماعيل، والتي سنشير إليها لاحقاً، فضلاً عن دوره العسكري في التصدي لآلة حرب الإمام، ليس بعسكره الذي قُدِّرَ عددهم بما يزيد على خمسة عشر ألفاً من قبائل المشرق، وخيله الذين تجاوز عددهم الألف فحسب، بل استغل حالة تملل ولاء بعض القبائل من الإمام نفسه، كما هو حال سلطان العوالق منصر وأخيه الشيخ عز الدين، وأيضاً قبائل المعظة في نجران^(١).

كما أن الحبيب سالم بن أحمد المذكور آنفاً الذي هو أحد أنجال أسرة آل الشيخ أبي بكر بن سالم صاحب الزعامة الروحية على مستوى (المشرق)، الذين ((يلهجون بذكره ويدعون له الخوارق))، على حد وصف الجرموزي^(٢) - قد أدّى دوراً ضد تطلعات الإمام المتوكل للسيطرة على المشرق، ويبدو أن السلطان والحبيب قد تنبها إلى أهمية المناطق القريبة من أطراف النفوذ الزيدي (بلاد يافع) وما جاورها من مناطق كونها تمثل خط الدفاع الأول عن المشرق كله، فلم يتردد الحبيب سالم بن أحمد في تقديم دعمه المعنوي والروحي لقبائل لتلك المناطق، فها هو يخاطب الرصاص صاحب مدينة البيضاء عند مواجهته للعساكر الإمامية ((بأن الزيدية طعمة لك))، وإمعاناً منه في تحفيزه وشحذ همم جموع قبائله وأنصاره يرسل إليه بمسبحته التي وصفها بأنها ((تقوم مقام الجيوش الكثيرة)). ولا ريب أن الحبيب سالم بن أحمد يهدف من وراء ذلك إلى تعزيز الأثر المعنوي ورفع الروح القتالية للرصاص وحلفائه، بل لم يتأخر في إرسال رايته ليحارب المقاتلون تحت ظلها^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن مصادر الجرموزي لم تُولِّ موقف أهل حضرموت من الإمامة الزيدية أية أهمية، ولكن يمكن استنتاج ذلك من بعض العبارات التي تومئ باستحياء واقتضاب، كالقول إن غالبية أهل حضرموت كانوا ينصبون المذهب الزيدي العداء، أو إن

(١) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٤٠، ٨٥٠.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٧٢.

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٩٠.

محبة أهل حضرموت للسلطان بدر بن عبدالله كانت لعدم موالاته للإمام^(١).

إن عساكر الغزو الإمامي قد حشدت بفتوى الجهاد وخاضت معاركها تحت رايته، ولم تأل جهداً في استخدام القوة والعنف بحق كل من يقاومها، وهو الأمر الذي تكشف عنه توجيهات القيادة الميدانية للمختصين من العسكر الإمامي سواء أكانت لمن يقطع الرؤوس أم لمن يطعن أم لمن يضرب بالبندق^(٢)، وهو نهج سارت عليه عساكر الإمام المتوكل أينما واجهت قبائل المشرق، ممّا أثار حفيظة العلامة الكبير المجتهد الحسن بن أحمد الجلال (ت ١٠٨٤هـ / ١٦٧٣م)، فوجّه رسالة انتقادية للإمام المتوكل لقسوته وعنفه في حربه لقبائل المشرق، وسماها بـ (براءة الذمة في نصيحة الأئمة)^(٣).

٣- المخاطبات الرسمية أنواعها وموضوعاتها:

وقد شكلت المخاطبات الرسمية (الكتب) بين الإمام وسلاطين آل كثير، وبعض الزعامات القبلية من جهة وقادة غزواته على حضرموت من جهة أخرى، مورداً مهماً في توضيح كثير من إرهابات أحداث الغزو الزيدي على حضرموت قبل وقوعه وبعده، وهي كتب على قدر كبير من الأهمية التاريخية؛ لكونها قد صدرت من حواضر صناع القرار، وتبين طبيعة تفكير كل جانب في تحقيق أهدافه، فضلاً عن كونها تسهم في إبراز بعض النواحي التي غاب ذكرها عن الجرموزي في أثناء ذكره لسير الأحداث والمواجهات العسكرية، ناهيك عن تبيان وجهة نظر كل طرف في حل الخلاف الدائر بينهما، كما تكشف تلك الكتب عن أسماء بعض الوفود (الدبلوماسية) الحاملة لها، ووظيفتها في توضيح بعض القضايا التي أوجزت الكتب الحديث عنها، وقد ذكر الجرموزي نوعين من الكتب:

♦ النوع الأول: ما أشار إليه دون توثيق نصوصه.

♦ النوع الآخر: ما وثّق نصوصه وحفظه لنا.

فالنوع الأول ذكره في أثناء سرده لسير الأحداث، وأشار إليه عرضاً من غير ذكر موضوعاته أو نصوصه، أو ما جاء بصدده من ردود، مثل كتاب الإمام المتوكل إلى سلطان حضرموت،

(١) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٢٦.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٥٠.

(٣) العمري: مصادر دراسة، ص ٢٧٤؛ العمري: المؤرخون اليمنيون ٥٠.

برفقة بدر الدين محمد بن عبدالله^(١)، وأيضاً كتاب السلطان بدر إلى الإمام من مدينة الشحر. كما يفيدنا الجرُموزي بوصول جوابات من الواحدي والعمودي للحضرة الإمامية^(٢). ويدخل في إطار هذا النوع من المكاتبات ما يمكن أن نطلق عليه (التقارير الاستخباراتية السرية) التي تتم بوساطة الجواسيس والمخبرين التابعين للإمام في حضرموت، والقرييين من البلاط الكثيري، الذين كانوا يرصدون تحركات السلطان وتصرفاته وما ينوي القيام به، بل يكشفون عدم مصداقيته فيما يكتب به إلى الإمام المتوكل^(٣)، هذا بالإضافة إلى نصوص الصلح المبرمة بين الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن العمودي والسلطان بدر بن عبدالله، التي تم عقدها بوساطة الإمام وتحت إشراف مبعوثيه، كصلح العام الواحد في سنة (١٠٦٦هـ/١٦٥٥م)، وكذا صلح السنوات الخمس المنعقد في سنة (١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)^(٤)، الذي يفيدنا بأنه كتب منه ثلاث مساطير (نسخ)، كانت نسخة منها للإمام ونسختان لطرفي الصلح العمودي والسلطان الكثيري، غير أن الجرُموزي لم يوثق نصوص ذلك الصلح، وأيضاً كتاب طلب السلطان بدر الأمان لنفسه عقب احتلال العساكر الزيدية لحضرموت^(٥).

أمّا النوع الثاني من الكتب فهو تلك التي حفظ نصوصها، وقد جاء بعض منها مشفوعاً بملاحق وتعليقات توضح إرسال هدايا أو تسلمها، أو أموراً أخرى، كما أن بعضاً منها مؤرخة باليوم والشهر والسنة، في حين أهمل تاريخ بعضها الآخر، وغالبية هذه الكتب قد تم تبادلها بين الإمام المتوكل على الله إسماعيل والسلطان بدر بن عبدالله الكثيري، وهي كتب بعضها طويل مرصع بألفاظ التبجيل والتكريم، وتتسم لهجته بالمرونة وتظهر الود، وبعضها مرصع بالآيات القرآنية، حتى تضمّن أحد الكتب خمساً وعشرين آية تشير إلى إقامة الشرع والفرائض ومعالم الدين الحنيف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاعتصام بحبل

(١) السيرة المتوكلية: ج ١، ٢٨٥.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٧١، ٧٠١.

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٤٣.

(٤) السيرة المتوكلية: ج ٢، ٧٨٥، ٨٠٢، عقد الصلح الأول بحضور مبعوث الإمام النقيب حسن بن هادي بطة، وعقد الصلح الثاني بحضور القاضي الحسن بن أحمد الحيمي.

(٥) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٥٧.

الله، ومغبة الفرقة، وتجنب الفتنة، وطاعة ولي الأمر، وإصلاح ذات البين، علاوة على ذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة، وكذا بعض الأشعار.

وقد نقل الجرموزي بعض الكتب بصيغتها الأصلية، مؤكداً ذلك ببعض العبارات مثل قوله: ((كما رأيت ذلك في مكاتبته - أيده الله - إلى صنوه مولانا العزي - أيده الله - بما هذا لفظه^(١)))، أو قوله: ((بما هذا لفظه وحروفه، بعد حذف طرة الكتاب))^(٢). ولئن وثق الجرموزي بعض تلك المكاتبات بنصوصها فإنه بالمقابل قد أهمل بعضاً منها، ولخصها بأسلوبه الخاص، ومنها على سبيل المثال كتاب السلطان بدر بن عبدالله إلى الإمام الذي يوضح له فيه سبب خلعه لعمه وسجنه، أن ذلك كان إجراءً متعارفاً عليه وكان أهله سائرين عليه^(٣).

على أن بعض تلك الكتب قد لا تصدر عن الإمام المتوكل نفسه، وإنما يكلف بعض خواصه بكتابتها نيابة عنه، يذكر الجرموزي أن الصفي أحمد بن الحسن قد كتب عن أمر الإمام إلى السلطان بدر بن عبدالله، وأرسل الكتاب إليه برفقة الأمير الصالح صالح بن حسين بن مطهر الشويح إلى حضرموت^(٤).

وعموماً فإن عدد الكتب وملحقاتها التي وصلت إلينا نصوصها قد بلغت عشرين نصاً، كان جُلُّها قد تبادلته الطرفان قبل تجريد الإمام المتوكل حملته العسكرية على حضرموت، إذ يوثق الجرموزي تاريخ أول كتاب بسنة (١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م)، مع أنه ذكر بعض الكتب بدون تواريخ^(٥)، لكن يُستشف من موضوعاتها أنها قد كُتبت قبل السنة المذكورة آنفاً، وربما تكون في العام الذي خلع فيه السلطان بدر بن عمر (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م) الذي ارتبط بعلاقات ودية مع الإمامة الزيدية، وأصبح تابعاً لها، يرى فيها سنداً له وناصرًا على مناوئيه من آل كثير، حتى إنه لم يقاوم المنقلبين عليه، ولم يسمح لحراسته بذلك^(٦). ويمكن القول إن هذه المدة

(١) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٤٣.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٥٢.

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٨٤.

(٤) - السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧٦٧.

(٥) ينظر ملحق الكتب.

(٦) الجعيدي: السلطنة الكثيرة، ص ١٦٩.

قد مثلت المرحلة الدبلوماسية من الصراع، استمرت لحين إعلان نفي الحرب والجهاد في يوم الخميس ١٨ شوال سنة (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م)^(١)، وهي مرحلة أسهمت الظروف التي يمر بها كلا الطرفين في صناعتهما، فالإمام المتوكل كان حينها مشغولاً بتثبيت سلطته في المناطق التي قاومت نفوذه^(٢)، علاوة على أن وصوله إلى التراب الحضرمي يتطلب منه اجتياز مساحات شاسعة، والمرور بأراضي عددٍ من القبائل التي تأبى أن تسمح لعسكره بالمرور في أراضيها، فضلاً عن ما تحتاجه قواته من عتاد ومؤن، ولا سيما أنها لم تنل الراحة الكافية بسبب الحروب التي خاضتها بموطنها الأصلي، ومن ثم لم يكن لديه الوقت الكافي والإمكانية للمواجهة العسكرية؛ لتحقيق حلمه الذي ظل يراوده منذ توليه مقاليد الإمامة، ويحثه الشعراء على إنجازه، وهو الاستيلاء على حضرموت^(٣)، غير أنه اكتفى في هذا الوقت بحضوره غير المباشر في الجغرافيا الحضرمية، من خلال بعض الإجراءات الشكلية كال دعوة له على منابر المساجد، وإرسال ممثليه للنظر في بعض قضايا النزاع، كالتي حصلت بين الكثيري والعمودي، فضلاً عن جمعه الزكاة وجبايته الضرائب، وحصوله على بعض الهدايا التي تحمل في مضامينها اعترافاً اسمياً من السلطان بدر بن عبدالله بتبعية للإمام، ولا سيما بعد تمكن الإمامة الزيدية من حسم صراعها مع العثمانيين حلفاء السلطنة الكثيرية^(٤).

أمّا السلطان بدر بن عبدالله الكثيري فلم يكن وضعه مثاليّاً؛ فما زال بعض من آل كثير يناصبونه العداء؛ لخلعه عمّه السلطان بدر بن عمر، وإيداعه سجن مريمة بسيئون مع نجله محمد، فضلاً عن الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن العمودي حاكم جل مناطق وادي دوعن، الذي يرتبط بعلاقة جيدة بالإمامة الزيدية، ناهيك عن فتور هذه العلاقة بالنسبة للسلطان بدر بن عبدالله.

إن هذه الكتب تكشف لنا عن حقيقة أسباب الغزو الزيدي لحضرموت، وفي الوقت نفسه تفند ذرائع الإمام المتوكل في تدخله في الشأن الحضرمي بحجة نصرته السلطان المظلوم (بدر بن عمر)،

(١) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٣٠.

(٢) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٨، ٦٩٥، ٧٠٠.

(٣) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٧١٣، ٧١٩، ٧٢١.

(٤) الجعدي: السلطنة الكثيرية، ص ١٧٢.

فضلاً عن موقف السلطان بدر بن عبدالله المبكر المعادي للتوجه الزيدي نحو حضر موت، يعضده في ذلك جل النسيج المجتمعي الحضرمي من قبل استيلائه على مقاليد السلطنة، وذلك بشهادة الجرُموزي نفسه الذي يرى أنَّ محبة أهل حضر موت للسلطان بدر بن عبدالله كانت لعدم موالاته للإمام^(١).

وترسم تفاصيل هذه المكاتبات تطور التدخل الزيدي من صورته غير المباشرة إلى صورته المباشرة التي تجسدت باحتلال حضر موت بوساطة آلة الحرب المتوكلية، ومن ثم تعميم نظم حكم الإمامة الزيدية على صعيد الإدارة بتعيين العمال على المدن، ونصب القضاة، وجمع الزكاة، ومنع كل ما يتنافى والمذهب الزيدي، وحتى الأذان قد زاد فيه (حيَّ على خير العمل).

ولئن كان ثمَّ مؤرخ حضرمي يرى هذه المكاتبات كتب مجاملات ومواربات^(٢)؛ فإنَّ ثمَّ غيره من قدَّر أهميتها التاريخية، وقرأها قراءةً موضوعيةً، تمكن من خلالها من ردِّم كثير من الثغرات التي رافقت سرد الجرُموزي لسير الأحداث، سواء أكانت في مرحلتها الدبلوماسية أم الحربية، فضلاً عن تتبع تطور العلاقة الكثيرة الزيدية من شكلها الاسمي وصولاً إلى التدخل المباشر باحتلال حضر موت^(٣).

الخاتمة :

حظيت حضر موت وعلاقتها بالإمامة الزيدية في عهد الإمام المتوكل على الله إسماعيل باهتمام المؤرخ الجرُموزي، حيث شكلت الأحداث التي رصدها عن حضر موت جزءاً أساسياً مهماً من كتابه، جاءت بحسب سياق الأحداث التي يؤرخ لها، فقد رصد الجرُموزي إرهاصات تلك العلاقة وتطورها تبعاً لسير الأحداث وتطورها، المرتبطة بظروف كل طرف - الإمامة الزيدية والسلطنة الكثيرية - ولئن تحاشا السلطان بدر بن عبدالله الكثيري التدخل الزيدي المباشر في سلطته لمدة من الزمن، فإنَّ مرد ذلك لانشغال الإمام المتوكل بتثبيت قبضته ومد نفوذه في بيئته ومحيطه الزيدي، وما أن تم له ذلك حتى بدأ بتوجيه أنظاره نحو

(١) السيرة المتوكلية: ج ٢، ص ٨٢٦.

(٢) بن هاشم: تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٧٨، ٧٠.

(٣) الجعيدية: السلطنة الكثيرية، ص ١٦٨ وما بعدها.

المشرق فغزا مناطق البيضاء ويافع وغيرها من المناطق، ذلك بهدف ضمان طريق آمن لوصول عسكره لاحتلال حضرموت وهو الأمر الذي تم له في آخر الأمر.

ولئن كان الجرموزي قد جمع مادته التاريخية عن حضرموت من عدة مصادر، كرواة الأخبار، والمشاركين في الأحداث، علاوة على المخاطبات الرسمية بين طرفي الصراع، فإنه لا يخفي تحيزه إلى جانب الإمامة الزيدية، باحثاً لها عن مبررات ذات الصبغة الدينية بهدف تبرير غزوها لحضرموت، مومناً في إشارات قليلة إلى موقف الحضارم الراض للحضور الزيدي في بلادهم، ومقاومتهم له بما استطاعوا إليه سبيلاً.

إن المادة التاريخية التي تخص حضرموت في كتاب (السيرة المتوكلية) للجرموزي بحاجة إلى دراسة وتحقيق للكشف عن كثير من القضايا التي لا يستوعبها هذا البحث وهو الأمر الذي ينوي الباحث القيام به مستقبلاً.

رقم الكتاب	تاريخ الكتاب	موضوع الكتاب	المرسل	المرسل إليه	صفحات الكتاب في كتاب السيرة المتوكلية	ملحوظات
١	بدون تاريخ	تهنئة بفتح يافع	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٧٦٧-٧٦٩	برفقة صالح بن حسين بن الشويع
٢	بدون تاريخ	جواب عن مهمة صالح الشويع	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٧٦٩-٧٧٣	
٣	رمضان ١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م	امثال السلطان لأوامر الإمام	الإمام المتوكل	السلطان بدر	ج ٢، ص ٧٧٣-٧٧٨	
٤	التاريخ السابق نفسه	بشأن فك قيد السلطان بدر بن عمر	الإمام المتوكل	السلطان بدر	ج ٢، ص ٧٧٨-٧٧٩	ملحق أول بالكتاب
٥	التاريخ السابق نفسه	بشأن تسليم الهدايا من الخيل	الإمام المتوكل	السلطان بدر	ج ٢، ص ٧٧٩.	ملحق ثانٍ بالكتاب

رقم الكتاب	تاريخ الكتاب	موضوع الكتاب	المرسل	المرسل إليه	صفحات الكتاب في كتاب السيرة المتوكلية	ملحوظات
٦	١٥ رمضان ١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م	تبرير السلطان تأخير إطلاق قيد عمه	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٧٧٩-٧٨٤	
٧	محرم ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥م	الصلح مع العمودي وتظلم السلطان منه	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٧٨٥-٧٨٧	برفقة حسن بن هادي البطة
٨	صفر ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥م	قبول السلطان الصلح مع العمودي	الإمام المتوكل	السلطان بدر	ج ٢، ص ٧٨٧-٧٨٩	
٩	صفر ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م	بشأن إقامة الشرع	الإمام المتوكل	السلطان بدر	ج ٢، ص ٧٨٩-٧٩١	برفقة القاضي أحمد بن حسن الحيمي
١٠	صفر ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م	عهد الإمام للسلطان بدر	الإمام المتوكل	السلطان بدر	ج ٢، ص ٧٩١-٧٩٦	برفقة القاضي أحمد بن حسن الحيمي
١١	١٠ جمادى الآخرة ١٠٦٧هـ	الصلح بين العمودي والسلطان بدر	القاضي الحيمي	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٧٩٦-٧٩٧	
١٢	جمادى الآخرة ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م	بشأن قبول السلطان بالصلح	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٧٩٨-٨٠٠	
١٣	التاريخ السابق نفسه	ما أمر به الإمام بشأن الصلح	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٨٠١-٨٠٤	ملحق أول

رقم الكتاب	تاريخ الكتاب	موضوع الكتاب	المرسل	المرسل إليه	صفحات الكتاب في كتاب السيرة المتوكلية	ملحوظات
١٤	التاريخ السابق نفسه	بشأن تسلم هدية الإمام	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٨٠٤	ملحق ثان
١٥	آخر شعبان ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م	تجهيز سفر القاضي الحيمي	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٨٠٥ - ٨٠٨	ملحق ثالث
١٦	آخر رمضان ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م	هدية السلطان وخراج بندر الشحر	السلطان بدر	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٨٠٨ - ٨٠٩	
١٧	غرة ربيع الآخر ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م	الخروج من عند السلطان بدر	الصفوي أحمد	محمد بن الحسن	ج ٢، ص ٨٤٣ - ٨٤٤	
١٨	٧ شعبان ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م	خبر الاستيلاء على بعض حضر موت	الصفوي أحمد	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٨٥٢ - ٨٥٥	
١٩	٢٠ شعبان ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م	خبر استسلام السلطان ومدينة سيئون	الصفوي أحمد	الإمام المتوكل	ج ٢، ص ٨٥٦	ملحق
٢٠	غرة رمضان ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م	خبر سير الحملة لوادي حضر موت	-----	أحمد سعد الدين	ج ٢، ص ٨٦٤ - ٨٦٨	

ملحق يبين عدد الكتب وتاريخها ومحتوياتها ومرسلها والمرسلة إليه

قائمة المصادر والمراجع

- ♦ الجرموزي (المطهر بن محمد بن أحمد):
 ١- تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار، دراسة وتحقيق عبد الكريم عبد المجيد الهجري، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، دار الإمام زيد بن علي (ع) الثقافية للنشر والتوزيع، صنعاء، ط١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- ♦ الجعيد (د. عبدالله سعيد):
 ٢- في رحاب تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر (أبحاث ودراسات)، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والنشر، ط١ / ٢٠١٦م.
- ♦ الخلاقي: (د. علي صالح):
 ٣- أكذوبة «صنعاء عاصمة تاريخية»
<https://shabwaah-press.info/news/53475>
- ♦ الحداد (علوي بن طاهر):
 ٤- الشامل في تاريخ حضرموت ومخالفاتها، دراسة وتحقيق وفهرست د. محمد يسلم عبد النور، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والنشر، المكلا، ط١ / ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
- ♦ زبارة (محمد بن محمد):
 ٥- نشر العرف لنبلأ اليمن بعد الألف إلى سنة ١٣٥٧هـ، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، (د. ت).
- ٦- تاريخ الزيدية، تحقيق وتعليق: محمد زينهم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ♦ سالم (د. السيد مصطفى):
 ٧- المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول ١٥٣٨-١٦٣٥م، الجمعية النصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ط١ / ١٩٧١م.

◆ السقاف (عبدالرحمن بن عبيد الله):

٨- مخطوط بضاعة التابوت إدام القوت نتف من تاريخ حضرموت، القسم الأول من الجزء الثاني، نسخة بحوزة الباحث.

٩- معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تح: إبراهيم أحمد المقحفي وعبدالرحمن حسن السقاف، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١/ ١٤٢٣-٢٠٠٢م.

◆ سيد (د. أيمن فؤاد):

١٠- مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ط/ ١٩٧٤م.

◆ الشلي (محمد بن أبي بكر):

١١- عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة تريم الحديثة، صنعاء، ط ١/ ٢٠٠٣م.

◆ العمري (د. حسين بن عبد الله):

١٢- مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع، ط (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).

١٣- المؤرخون اليمنيون في العصر الحديث، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١/ ١٤٠٩هـ / ١٩٩٩م.

١٤- تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ٩٢٢-١٣٣٦هـ / ١٥١٦-١٩١٨م من المتوكل إسماعيل إلى المتوكل يحيى حميد الدين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ٢ مزيدة ومنقحة / ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

◆ العلوي الحسيني (عبد الرحمن بن محمد المشهور):

١٥- شمس الظهيرة في نسب أهل البيت من بني علوي فروع فاطمة الزهراء وأمير المؤمنين علي ؑ، حققه وعلق عليه: محمد ضياء شهاب العلوي، دار التراث للدراسات والنشر.

♦ علي (جواد):

١٦- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢/ ١٩٧٦ م.

♦ بن هاشم (محمد):

١٧- الدولة الكثيرة، قام بالإشراف على طبعه: محمد بن علي الجفري، ط ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م.

♦ الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب):

١٨- صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١/ ١٩٩٠ م.

مجموع طه

وثيقة علمية وتاريخية من وثائق القرن الحادي عشر الهجري

عوض سالم بن حمدين

التعريف بالكتاب والكاتب:

اسم الكتاب: كُتِبَ على غلاف المجموع هذا العنوان: (كتاب المجموع لمهمات المسائل من الفروع، جمع الإمام الحجة المحقق القاضي العلامة المدقق: طه بن عمر بن طه بن عمر الصافي السقاف العلوي الحضرمي الشافعي، المولود: ١٠١٠ والمتوفى عام ١٠٦٣ هـ^(١)).
طبعة الكتاب: طبعته دار القبلة للثقافة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، جدة، ص ب: ١٠٩٣٢، الرياض، ١٤٣٨ هـ^(٢).

قدّم للكتاب: عبدالله بن محمد بن علي الحبشي ١٤٠٢ هـ.

عدد صفحات الكتاب: ٧٦٦ صفحة غير شاملة لصفحة الغلاف.

يُعَدُّ الكتاب من وجهة نظري من نواذر الكتب الفقهية في القرن الحادي عشر؛ لكونه يجمع مجموعة كبيرة من وقائع الأحوال والفتاوى لكثير من علماء حضرموت وغيرهم، مع نقل اختلاف العلماء في كثير من مسائل الأحوال والفتاوى في القرن الحادي عشر.
وفي الحقيقة يُعَدُّ هذا الكتاب وثيقةً علميةً وتاريخيةً مهمّةً من وثائق القرن الحادي عشر، غير أن غالب ما فيه مجموع كلام العلامة الفقيه أحمد محمد مؤذن باجمال شيخ القاضي طه بن عمر، وله معه مشاركات في بعض الفتاوى.

نعم، قد يكون لطه بن عمر جهدٌ مشكورٌ في الاهتمام بجمع كلام شيخه العلامة أحمد بن محمد مؤذن باجمال الأصبحي^(٣)، وهو من أخصّ تلاميذه، إذ لا تكاد تخلو صفحة من

(١) انظر: التلخيص الشافي ٢٣.

(٢) وطبع طبعة ثانية عام ١٤٠٤ هـ بعناية السيد عبدالقادر بن أحمد السقاف. ولم تقع يدي على هذه الطبعة. ينظر: التلخيص الشافي ٢٣.

(٣) هو الفقيه العلامة النسابة شهاب الدين الأصبحي، نسبةً إلى ذي أصبح في خلع راشد شمال حوطة أحمد بن زين.

صفحات الكتاب من فتوى وفائدة لأحمد مؤذن، وهذا الجمع عادة حميدة لطلاب العلم مع شيوخهم منذ القدم، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل، ولو فسح الله له في العمر، وعاش إلى طباعة هذا المجموع، لأطلق عليه: (فتاوى مؤذن باجمال)، فليس له في هذا الجمع إلا الحفظ فقط، والحفظ كما هو معلوم عند أهل الحديث حفظ صدر وحفظ كتابة، فكان رحمه الله مهتمًا بكتابة فتاوى شيوخه وبعض فتاواه، وبقي ما كتبه وجمعه محفوظًا في رفوف مكتبته، فقام أحفاده من بعده بإكمال المشوار، فزادوا الجمع جمعًا، وكانوا خير خلف لخير سلف، وقد كانوا بحق نعم الأحفاد أمناء في النقل. ففي ص ٤٠ يقول الجامع: ((من هنا منقول من خط الحبيب طه بن عمر إلى آخر ست ورق)). وفي ص ٤٤ ورد في أول الصفحة وآخرها: ((من خط سيدنا طه)). وكذلك في ص ٤٥ أورد الجامع نقلًا من خط شقيق طه بن عمر، علي بن عمر بن طه. وفي المجموع مسائل منقولة عن أحمد مؤذن، اشترك في الإجابة عنها هو والحبيب طه، ففي ص ٣٥٠ في الكلام على مسائل الوقف، قال الجامع: ((وقد وقعت هذه المسألة في وقت سيدنا طه بن عمر، وللسيد ولنا فيها نقل يسائر اعتبار ذلك العرف)). وفي ص ٣٥٢ ورد نقل من كلام الفقيه أحمد مؤذن في باب الوقف، قال الجامع ناقلًا عن أحمد مؤذن أنه قال: ((وقد وقعت هذه المسألة، وحررناها أنا والسيد طه أتم إيضاح)). وأحيانًا تجد في أثناء المجموع ردًا لأحمد مؤذن على السيد طه، كما في ص ٥٩٢: ((وكنتم أتعجب مما سمعتم من السيد طه من الاقتصار على قوله: المختارون لا يقلدون، حيث لم يفرق بين المختار المذهبي والمختار غير المذهبي، ومن قواعد الترجيح أن المسألة المذهبية إذا كانت مرجوحة تتأيد بمن قال بها من الأئمة الأربعة، فهذه غوامض يا سيدي من الفتاح، قل أن تجدها في أبناء عصري، بعد أن كانت عند مشايخنا من الواضحات)). وفي المجموع أيضًا مسائل منقولة من خط ابن أخيه عمر بن محمد بن طه صاحب كتاب (مختصر تشييد البنيان) كما في صفحات: ٨١ و ١٧٨ و ٢٩١، وهناك نقول أخرى في أثناء المجموع، وأحيانًا يكون الناقل أحد الأحفاد، فيقول: ((كما ذكره جدِّي)). وقد وردت هذه اللفظة في الجامع في صفحات: ٧١، ٤٩٣، ٥٣٠. ومن هذه النقول يتضح أن الجامع من أخلاف طه بن عمر البعداء، فقد قال علوي بن عبدالله بن حسين السقاف المتوفى

في: ٦/ ٥/ ١٩٧٢م في كتابه التلخيص الشافي^(١): ((قلت: وللجد طه بن عمر مجموعة فتاوى فقهية عظيمة جداً وواسعة، وأكثرها وقائع أحوال جُمِعَت من بعده مع فتاوى لبعض إخوانه وبنى إخوانه من فقهاء زمانه، وقد بقي منها القليل، وقد استنسخها سيدي الوالد عبدالله بن حسين بن محسن السقاف^(٢) على يد وبقلم الفقيه شيخنا عمر بن عبيد حسان^(٣) في ثمانمائة صفحة)).

قلت: كان جميلاً لو ترجم للناسخ الشيخ الفاضل العلامة عمر بن عبيد حسان المتوفى ١٣٧٤هـ، وقد ترجم الشلي في المشرع^(٤) لطفه بن عمر، وهو معاصر له، ولم يشر إلى مؤلفاته، وإنما وصفه بالقاضي، وذكر شيوخه وعدّ منهم أحمد بن عبدالله بن سراج، والفقيه أحمد بن محمد مؤذن باجمال الشهير بالأصبحي، وقال: ((تردد على تريم وأخذ عن جماعة من علمائها، منهم شيخنا القاضي أحمد بن حسين، وشيخنا أحمد بن عمر البيتي، وشيخنا عبدالرحمن السقاف العيدروس))، وذكر أنه توفي بـ ١٠٦٢هـ، وأطنب في وصفه بعبارات مسجوعة، كما هي عادته في المشرع، وعلى الطريق نفسه مشى الحبشي، بل نقل نصّ كلام الشلي في الترجمة، وقال: ((وكفى بشهادة الشيخ الشلي دلالة على علو قدره ومكانته^(٥))). ولا غرابة هنا، بل الغرابة في أنه لا يذكر شيخ الجامع، وهو الشيخ العلامة أحمد بن محمد مؤذن باجمال، إلا في ثلاثة أسطر! وهو الذي تملأ فتاواه المجموع! بل لا تكاد صفحة من صفحات المجموع تخلو من ذكره أو ذكر نصوص فتاواه! فهو بطل المجموع إن صح التعبير.

واللافت للنظر في موضوع التراجم السجّع والإطناب في ذكر المشايخ والعلماء والمناصب، كما كان معمولاً به في القديم، ونحسبه من باب حسن الظن بهؤلاء، لكننا نتوقف هنا لتأمل كلمة للعلامة الفذ ابن عبيدالله، قالها في سياق حديثه عن مثل هذا الأمر، في كتابه (إدام القوت معجم بلدان حضر موت) في معرض حديثه عن الإمام أحمد بن عيسى عندما

(١) التلخيص الشافي ٢٣.

(٢) المتوفى بـ ١٣٤٩هـ.

(٣) أحد شيوخ العلامة المؤرخ عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف.

(٤) المشرع الروي، الطبعة الأولى: ١٣٥٠/٢.

(٥) المجموع، من مقدمة الحبشي، ص ٨.

وصفوه وأطنبوا في الوصف والسجع في مناقبه: ((واقصروا في الإمام أحمد بن عيسى على «ذي العقل الكبير والقلب المستنير والعلم الغزير»؛ لأجل السجع، ولو كان واسع العلم لبسطوا القول فيه^(١)). واستطرد رحمه الله إلى أن قال: ((ومن مجموع ما سُقناه مع ما سبق من مبالغة... تعرف أن تلك المبالغات - من غير شهادة الآثار - مبني على ممدوح العناوين التي لا يُراد - من أكثرها - إلا مجرد الثناء، وهو شيء معروف بين الناس)).

العلماء الحضارمة الذين ورد ذكرهم ونقل عنهم في المجموع:

- ◆ أبوبكر بن محمد بافقيه باعلوي
- ◆ أبوبكر بن أحمد السبتي
- ◆ أحمد محمد مؤذن باجمال الأصبحي
- ◆ أحمد بن حسين بن عبدالرحمن علوي التريمي قاضي تريم
- ◆ أحمد محمد بافضل العدني
- ◆ أحمد بن محمد سراج
- ◆ أحمد بن الحسين بلفقيه
- ◆ أحمد بن عبدالرحمن سراج باجمال
- ◆ أحمد بن عبدالرحيم العمودي
- ◆ أحمد بن سعد الشحري
- ◆ أحمد بن أبي بكر باحفص
- ◆ أحمد بن عمر عديد حاكم تريم
- ◆ أحمد بن عبدالله بن عمر باشراحيل الغريب
- ◆ أحمد بن علي بابحير
- ◆ إسماعيل بن محمد بن عمر الحباني
- ◆ زين بن عبدالرحمن الكندي
- ◆ عبدالله بن أحمد بازرة الدوعني

(١) معجم بلدان حضرموت، تحقيق المقحفي، طبعة الإرشاد ٤٣٥ ٤٣٦.

- ◆ عبد الوهاب بن عمر بن عبد الله بن سمير
- ◆ عبدالرحمن باحاتم
- ◆ عبدالله بن عبدالقادر باحاج
- ◆ عبدالله بن عبدالرحمن سراج باجمال
- ◆ عبدالله بن عمر باجمال
- ◆ عبدالقادر بن أحمد الحباني
- ◆ علي بن عمر باعقبة
- ◆ عثمان بن محمد العمودي
- ◆ عبدالرحمن بن شعيب
- ◆ سالم بن عبدالله باحميد
- ◆ سالم بن عبدالرحمن باصهي
- ◆ عمر بن عبدالله الشبامي
- ◆ محمد بن أحمد باحميش
- ◆ محمد بن أبي بكر عبّاد
- ◆ محمد بن عمر بحرق
- ◆ عبدالله بن أحمد بامزروع
- ◆ عبدالرحمن بن أحمد حنبل بارجاء
- ◆ عبدالله بن أحمد بامخرمة
- ◆ عبدالله بن عمر بامخرمة
- ◆ عبدالرحمن بن علي بن حسان
- ◆ عبدالله بن أبي بكر الخطيب
- ◆ علي بن علي بايزيد
- ◆ عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل
- ◆ محمد بن سليمان باحويرث

- ◆ عبدالرحمن بن محمد العيدروس
- ◆ محمد بن سعد باشكيل
- ◆ محمد بن عمر قضا
- ◆ محمد بن علي القلعي
- ◆ محمد بن عمر معلم
- ◆ عمر بن محمد جبيزان
- ◆ عبدالله بن عثمان العمودي
- ◆ وآخرون ليسوا بشهرة هؤلاء.

الكتب والمصادر الحضرمية التي ورد ذكرها في المجموع ونقل عنها :

- ◆ السمط الحاوي، لعبدالله أحمد بامزروع
- ◆ حسن النجوى، للعلامة عبدالرحمن بن عمر العمودي
- ◆ مختصر شرح الوسيط، للعلامة أبي بكر بن أحمد السبتي
- ◆ قوارع القلوب، للعلامة عمر بن عبدالله الشبامي
- ◆ فتاوى باشكيل الصغرى والكبرى، للإمام محمد بن سعد باشكيل
- ◆ مختصر فتاوى المزجد، للعلامة أحمد بن عبدالرحمن سراج، نقل منها الجامع مسائل ملخصة.
- ◆ فتاوى باصهي، للعلامة سالم بن عبدالرحمن باصهي
- ◆ فتاوى بن عيسى.
- ◆ فتاوى بن حسان، للإمام عبدالرحمن بن علي بن حسان
- ◆ فتاوى علي بايزيد الدوعنية والشحرية.
- ◆ شرح تراجم البخاري، للإمام محمد بن أحمد بافضل
- ◆ الروضة الأنيقة والتحفة الحقيقية، للإمام عبدالوهاب بن عمر بن عبدالله بن سمير
- ◆ نشر الرضاء في أحاديث المصطفى، عبدالله عمر باجمال
- ◆ نظام الدرر حاشية على الإرشاد، للعلامة علي بن علي بايزيد في ثلاثة مجلدات، أو مجلدين كبيرين، قال الجامع: ((وعندي الجزء الأول منه)).

- ◆ تحفة الحقائق والأحداق، للعلامة عبدالله بن عمر بامخرمة
- ◆ تاريخ باسراحيل.

- ◆ نبذة في الدرج والحقائق، للشيخ محمد بن محمد بن عبدالرحمن الخطاب
 - ◆ شرح الوسيط، للإمام محمد بن سعد باشكيل
 - ◆ ذيل طبقات الأسنوي، للعلامة عبدالله بن عمر بامخرمة
 - ◆ مطالع الأنوار في بروج الجمال ببيان الشجرة والمناقب لآل باجمال، لأحمد مؤذن باجمال
 - ◆ نهاية التحقيق في الخبر المقترن بالتصديق، للعلامة أحمد محمد مؤذن باجمال
 - ◆ مختصر الأنوار، للإمام محمد بن أحمد بافضل.
- إنَّها لخسارةٌ بحق أن نرى كل هذه الأسماء لمؤلفاتٍ لا نعرف عنها إلا مجرد ذكرها في الكتب، وليس لها أثر في الواقع الملموس.

ضياح المصادر:

نقل الجامع في المجموع عن أكابر العلماء من أمثال الإمام القلعي، وابن حسان، وباشكيل، وابن عيسين، والسبتي، وبافضل، وباسراحيل، وبامخرمة، ومؤذن باجمال، وابن سمير، وبامزروع، وباحميش، وبازرعة، وبحرق، وحنبل بارجاء، وآخرون غيرهم ليسوا في شهرتهم، وذُكرت لأكثرهم كتبٌ في أثناء المجموع، بل أحال على بعضها، وهناك أعداد كبيرة غير هؤلاء من العلماء على مر العصور، يقول البشاري^(١): ((إنَّ أهل حضرموت لهم في العلم رغبة)). ويقول باحنان^(٢): ((إنَّ حضرموت كانت زاخرة بفضاحل العلماء من الفقهاء والمحدثين والأدباء)). فأهل حضرموت أهل ثقافة وحضارة منذ كان التاريخ، وهذه الصفة جعلت الوافدين إليها يرغبون في المكوث بها، رغم ضنك معيشتها، يقول الشلي متحدثاً عن العلويين: ((إنَّهم وجدوا بتريم من أرباب العلوم والآداب وأصحاب الفهوم والألباب ما شغلهم عن الأهل والوطن^(٣))).

(١) أحسن التقاسيم ٨٧.

(٢) جواهر تاريخ الأحقاف ٢/ ٣٣.

(٣) المشرع الروي ١/ ١٢٨

ثم يأتي المقدّم للمجموع عبدالله الحبشي ليقول: إنَّ المجموع انفراد بذكر فقهاء لا نعرفهم إلا منه، وبكتب نادرة لبعضهم لعل أكثرها فُقِدَ منذ عصر المؤلف، أي في القرن الحادي عشر. وكلامه هذا غير مقبول عند المهتمين بالبحث والتنقيب؛ لأنَّ المصادر كانت معروفة في عصر المؤلف ومتداولة، وإلا فما فائدة ذكرها والإحالة عليها إذا لم تكن كذلك؟ بدليل أنَّ المحبي، وهو شامي من خارج حضرموت تُوِّفِيَ في ١١١١هـ، ينقل في (خلاصة الأثر) عن كتاب (مطالع الأنوار) لمؤذن باجمال. وقد يعذر الحبشي بأنَّه أتى في وقت متأخر جدًّا عن عصر الجامع، وكانت هذه الكتب قد أُخْفِيَتْ.

والناظر في هذا الأمر أمامه خياران لا ثالث لهما، فأما أن تكون تلك المصادر والمؤلفات التي ذكرت في المجموع غير حقيقية زعمها مَنْ كَتَبَ المجموع، فتساءل لماذا أتى بها؟ وما الغرض والدافع من ذكرها؟ وأما أن تكون حقيقية ولكن تُعَمِّدَ إخفاؤها، وهذا هو الرأي الذي نميل إليه، وهو الراجح من وجهة نظرنا، وتؤكدُه النقول الكثيرة، منها ما قاله المؤرخ علوي بن طاهر الحداد في كتابه (جني الشماريخ): ((وكان شيخنا رحمه الله يقول إنَّ سبب ذهاب تواريخ حضرموت القديمة وانطماسها أنَّ الأخلاف لَمَّا رأوا في سيرة الأسلاف ما يُنكرونه منهم اليوم فعمدوا إلى إخفائها وإفنائها)).

إنَّه يصرِّح بأنَّ الأخلاف رأوا ما ينكرونه وأخفوا وطمسوا وأفنوا، وهنا يردُّ تساؤل، فمَنْ هم الأخلاف الذين أضاعوا تواريخ حضرموت وآثار علمائها في التاريخ والأنساب والفقهاء وعلوم العربية وغيرها من المجالات الحضارية والعلمية؟

وهنا نتساءل كما تساءل الدكتور محمد يسلم عبدالنور في كتابه الفرق والمذاهب في حضرموت في القرنين السابع والثامن: ((أين التراث الخاص بأهل السنة باعتبارهم هم مَنْ طمسوا تراث مَنْ سبق؟ فإنَّ الأعداد الهائلة التي تُذكر كما بينت لم تخلف شيئاً لا فقهياً ولا فكرياً، أليس من باب النصر والهزيمة أن يحتفظ علماء السنة والشيعة الذي ناظروا الإباضية بتلك المناظرات والاعتناء بها لأنَّها أخرجت الناس من الخطأ إلى الصواب؟^(١))).

ويُلقي السيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه (عقود الألباس) باللائمة على الحضارم بأنَّهم أهل إضاعة وإهمال لآثار ومناقب مَنْ سبق^(٢)، كما يعزو ضياع المصادر إلى حملات

(١) المذاهب والفرق الإسلامية في حضرموت ٣٩.

(٢) عقود الألباس ٤٩/٢.

الغز والخوارج. وفي موضع آخر يذكر أنَّ سبب ضياع الآثار هو انتشار الجهل والبداءة بين سكان حضرموت.

وردَّ على هذا الزعم الأستاذ أحمد عوض باوزير رحمة الله عليه بقوله: ((وربما كان هناك مَنْ يريد أن يسأل كيف أمكن نبوغ تلك الفئة من المؤرخين وسط تلك الجهالة المتفشية؟! ولا إخال أنَّ الحداد كان ينتظر بداهة مثل هذا السؤال)).

والغريب أنَّ كتب المناقب من أكثر المصادر وجودًا وبقاءً في حضرموت، ولم يبق لنا من مصادر تاريخ حضرموت إلا هذه الكتب المناقبية، ومنها: المشرع الروي، والجوهر الشفاف، والغُرر، والعقد النبوي، والنور السافر، وتذكير الناس، وصلة الأهل، والبركة والخير في مناقب آل باقشير، وكنوز السعادة، وتنوير الأغلاس، وعقود الألماس، والبنان المشير، ومن أمثالها كثير، فلدينا قائمة طويلة وعريضة لسنا بصدد سردها في هذا المقام، وسؤالي عن الكتب الفقهية والتاريخية المُحال عليها في المجموع، أين هي؟ وكيف ضاعت؟ وسنبقى قليلاً مع السيد علوي بن طاهر الحداد، إذ يُظهر لنا عبثاً آخر، في الأنساب هذه المرأة، يقول في الشامل: ((وقد سألتُ شيخنا عن نسب بعض القبائل فأخبرني به، فقلت له: إنَّكم ذكرتم في الرسالة أنَّهم آل فلان، فقال لي: ذلك لقب وضعه لهم سلفنا تفاؤلاً، ونسبهم يعود إلى ما ذكرته لك))^(١). وشيخه الذي عناه هو السيد أحمد بن حسن العطاس صاحب (السفينة المجموعة)، وهي رسالة في الأنساب الحضرمية، فتأمل!

ونحن إذ نشكر للسيد علوي بن طاهر الحداد شجاعته الأدبية وأمانته في النقل وسؤاله الواضح لشيخه؛ نعتب عليه أنْ لم يُعلّق على هذا العبث في الأنساب. أليس في هذا ظلمٌ للعباد؟ وفي موضع آخر يقول: ((وقد ذكر شيخنا بعض التعليقات مع تناقضها، وتركها كما هي؛ لأنَّ قصدهُ الجمعُ لا التصحيحُ والترجيحُ))^(٢)!! ونظن أنَّ هذا سكوت على باطل.

ويقول عن أحد علماء دوعن، وهو العلامة عبدالرحمن بن أحمد بن عمر باشيخ: ((عنده مجموعة من الكتب القديمة عديمة النظير، فيها عدد من فتاوى فقهاء حضرموت واليمن،

(١) الشامل، تحقيق د / محمد يسلم عبدالنور، طبعة مركز حضرموت للدراسات والتوثيق والنشر، ٣٩٦/٢.

(٢) الشامل ٣٨٩/٢.

كفتاوى بامخرمة، وباشراحيل، وبايزيد، والحباني، وغيرهم، وقد استعارها بعضهم من ابنه الفاضل الشيخ أحمد، ثم أنكره فيها، وكتبَ إليَّ وأنا بجاوة يشكو لي عمله، وبلغني بعد ذلك أنه وقعت بينهما دعوى عند والي دوعن، ولم أدر هل ردّها إليه أم لا؟! وكان من الصدف الغريبة أن ذلك المُستعير أو المُغير أخبرني وقد اجتمعت به في جاوة أن لديه ثمانية وعشرين مجلداً من فتاوى العلماء، فعجبتُ كيف وصلت إليه! ثم لم يطل الزمن حتى وصل إليّ كتابُ الشيخ أحمد يشكوه ويطلب مني مراجعته، والزمانُ أبو العجائب^(١).

ورغم أن علوي بن طاهر لم يفصح عن هذا الشخص المعاصر له، فإنَّ هذه الحادثة تشير إلى سبب من أسباب ضياع المصادر، بدليل وصفه لذلك الشخص بـ(بالمُغير)، ولتلك الكتب بـ(عديمة النظير).

ومن باب الموضوعية رأينا أن نخرج عن المؤرخين الحضارم إلى غيرهم من الباحثين والمهتمين بالتاريخ الحضرمي، لنطلع على آراء موضوعية غير حضرية ليس لأصحابها مصالح خاصة، فوجدنا الباحث الروسي ألكسندر كنيش في بحثه (السادة في التاريخ - دراسة نقدية عن التاريخ الحضرمي)^(٢)، عندما تحدث عما رواه باطحن مؤرخ ظفار عن الإمام القلعي قائلاً إنها ((تدحض ادعاءات كثير من مؤرخي السادة بأنَّ سلفهم محمد بن علي صاحب مرباط هو الذي نشر التعاليم الشافعية في المناطق الساحلية بحضرموت، ولأنَّ الدور العلمي والتعليمي الذي قام به القلعي موثق بعناية وأوضح من أن يتم تجاهله... نرى مؤرخي السادة يزعمون بأنَّ القلعي هو أحد مريدي صاحب مرباط، وهم بهذا الزعم يواجهون رواية باطحن التي كررها الجندي، هذه الرواية التي تضيف بأنَّه قبل وصول القلعي إلى ظفار فإنَّه لا يوجد أي دليل مشهور عن تواجد المذهب الشافعي بهذه المنطقة، فهل هؤلاء المؤرخون: باطحن، وابن سمرة، والجندي، وبامخرمة، يجهلون وجود أي عالم هام في ظفار غير القلعي؟ بل إنهم يقررون حقيقة في المرحلة ما قبل وصول القلعي كانت ظفار يسكنها البدو الجهلاء قطاع الطرق يجهلون حتى أسس الإسلام)).

ويستطرد ألكسندر كنيش مهاجماً مؤرخي السادة قائلاً: ((بالنسبة لمؤرخي السادة فإنَّ هذه الشخصية شبه الأسطورية - صاحب مرباط - يكتسب أهمية مطلقة لشغل الحلقة

(١) الشامل ٢/ ٦٥٦ - ٦٥٧.

(٢) ترجمة محمد سالم قطن.

الحرجة في سلسلة أنساب السادة، ووضعهم ضمن الخارطة التاريخية في فترة غامضة جداً، وهي الفترة ما بين وفاة الشخصية شبه الأسطورية الأولى أحمد بن عيسى المهاجر وبين إعادة توطنهم من بيت جبير إلى تريم في العقود الأخيرة من القرن السادس / الثاني عشر، فاستمرارهم بتأكيد شهرة صاحب مرباط كمفسر وشارح رئيسي للشافعية السنية في عصره ما هو إلا دليل على محاولاتهم اليائسة للخروج من التضارب الخطير في الكرونولوجيا التاريخية (التسلسل الزمني لأحداث التاريخ)، والتي تطعن كالكارثة في سيرته)).

والملاحظ من طرح الباحث الروسي كنيش تشكيكه الواضح والصريح في مؤرخي السادة، وتحديداً المُحدثين منهم كعلوي بن طاهر وصالح بن علي الحامد.

واستثناسا بما مرّ من نصوص لعلوي بن طاهر ربما نجد بعض الحق مع الباحث الروسي كنيش فيما ذهب إليه، فقد تساهل علوي بن طاهر في موضوع نسب قبيلة بعينها، وإغارة شخص على كتب ثمينة، كما ورد في رواياته.

خروج بعض المصادر إلى خارج حضرموت؛

وُجِدَتْ نقول عن بعض العلماء من خارج حضرموت، مما يدل على أن كتب علماء حضرموت وآثارهم قد سارت بها الركبان، وبلغ صيتها كل مكان، فهذا ابن الصلاح المتوفى ٦٤٣هـ ينقل عن القلعي في كتابه (شرح مشكل الآثار)، ونقل عنه أيضاً النووي المتوفى ٦٧٦هـ في كتابه (المجموع)، وابنُ الرفعة المتوفى ٧١٠هـ في كتابه (كفاية النبيه شرح التنبيه)، والسبكي المتوفى ٧٥٦هـ في فتاواه، وزكريا الأنصاري المتوفى ٩٢٦هـ في كتابه (أسنى المطالب)، والجندي، والمحيبي، وبعضهم يشير إلى أن هذه المصادر في حضرموت، كما نجده عند الجندي المتوفى ٧٣٢هـ الذي يقول في السلوك في ترجمة القلعي: ((وله مصنفات عدّة انتفع الناس بها، مِنْهَا قَوَاعِدُ الْمُهَذَّبِ، وَمِنْهَا مُسْتَعَرَبُ أَلْفَاظِهِ، وَمِنْهَا إِبْصَاحُ الْغَوَامِضِ مِنْ عِلْمِ الْفَرَائِضِ، مَجْلَدَانِ جَيِّدَانِ، جَمَعَ بِهِ بَيْنَ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ، وَأُورِدَ فِيهِ طَرَفًا مِنَ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالْوَصَايَا، وَلَهُ اخْتِرَازُ الْمُهَذَّبِ الَّذِي شَهِدَ لَهُ أَعْيَانُ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ لَمْ يُصَنَّفْ فِي اعْتِرَازٍ لَهُ نَظِيرٍ، وَلَهُ لَطَائِفُ الْأَنْوَارِ فِي فَصْلِ الصَّحَابَةِ الْأَخْيَارِ، وَلَهُ كَنْزُ الْحِفَافِ فِي غَرِيبِ الْأَلْفَاظِ، أَعْنِي أَلْفَاظَ الْمُهَذَّبِ، وَلَهُ تَهْذِيبُ الرِّيَاسَةِ فِي تَرْتِيبِ السِّيَاسَةِ، وَلَهُ كِتَابُ أَحْكَامِ الْعَصَاةِ

مُختَصَر، وَيُقَالُ إِنَّ مصنفاته أَكْثَرُ مِمَّا ذَكَرْتُ، وَهِيَ تُوجَدُ بِظَفَارِ وَحُضْرَمُوتِ وَنَوَاحِيهِمَا، وَعَنْهُ اُنْتُشِرَ الْفَقْهُ بِتِلْكَ الْجَهَةِ)).

والحمد لله فقد أظهر البحث لنا كثيرًا من كنوز الإمام القلعي وغيره في غير حضر موت، وعسى أن تكشف لنا الأيام عن بقية الكنوز.

نماذج من فتاوى وقائع الأحوال في القرن الحادي عشر:

ورد في المجموع في ص ١٩٤ مسألة في العهدة منقولة من خط الفقيه عبدالرحمن بن حنبل بارجاء، جاء فيها: ((قال وأفتى سالم باصهي تبعًا لابن حسان وعلي بايزيد أن المعهد إذا أسقط الوعد على المشتري من المتعهد أنه يسقط وإن لم يجر بينهما معاقدة. قال سالم: وفيه إشكال، لكن الفقهاء يعملون به للضرورة تقليدًا لابن حسان أه)).

إذن كان قول الإمام والمؤرخ الكبير^(١) عبدالرحمن بن حسان قاضي ريدة المشقا ص وعالمها الأوحـد المتوفى بكر وشم ٨١٨هـ محل اهتمام لدى الفقهاء، حتى وصل بهم الأمر إلى تقليده والرجوع إلى أقواله، وفي هذا دلالة على سعة علم هذا الإمام وتضلعه في الفقه. ومن الذين نقلوا أقوال ابن حسان رحمه الله العلامة عبدالله بن محمد باقشير في كتابة (قلائد الخرائد)، والعلامة علي بن قاضي باقشير في كتابه (إيضاح العمدة)، والعلامة عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف في كتابه (صوب الركام)، والعلامة علي بن أبي بكر بافضل في كتابه (مواهب الفضل)، وغيرهم، ثم لا نجد كتابًا من كتب هذا الإمام في حضر موت! مع الإحالة على فتاواه كما في المجموع وغيره! بل إلى عصر متأخر ظلت كتب ابن حسان وأشعاره متداولة يُحال عليها، يقول المؤرخ علوي بن طاهر: ((لابن حسان ثلاثة تواريخ... وقد وقفت على الصغير منها في خزانة سيدي أحمد بن حسن العطاس. (قلت) وقد ناولني شيخنا هذا التاريخ فتصفحته، ولما قدِمْتُ بلد حَبَّان زُرْتُ بها السيد العالم الفاضل سالم بن أحمد بن عمر المحضار... وقال لي: إِنَّ عِنْدِي تاريخ بن حسان، وهو ذاك. وأشار إليه في ضمن كتب في رفِّ أمامه، فإذا هو مجلد وسط، فلا أدري أي تواريخه كان^(٢))).

(١) جواهر تاريخ الأحقاف ٢ / ٨٠.

(٢) عقود الألباس ٢٠٢.

لاشك أن الباحث والمتابع لما نحن بصددده يتحرق شوقاً إلى رؤية تراث ابن حسان سواء كان في الفقه أم التاريخ أم علوم الفلك، ولعلّه يتساءل معنا: أين ما خلفه ابن حسان؟ وهل ابن حسان شخصية خيالية اخترعها الرواة؟ وهل نقل هؤلاء العلماء عن عالم ليس له وجود؟! ومؤلفات ليس لها أوراق؟!!

ومن ص ١٠٧ من المجموع إلى ص ١١٢ تكلم أحمد مؤذن باجمال في مسألة من وقائع الأحوال، ابتدأها بقوله بعد البسملة والديباجة: ((وصل إلينا كتاب من سيدنا وبركتنا السيد الفاضل علي بن عمر بن طه باعلوي، صحبة جواب سئل سيدنا وشيخنا العارف بالله أحمد بن محمد المدني القشاشي، وطلب منا السيد علي أن نتأمله ونكتب عليه ما ترجح لنا في ذلك))، وذكر صيغة السؤال، وفصل في الإجابة تفصيلاً دقيقاً، وعرف بالخبة وشبام والشحر وحوطها، وحكم إقامة الجمعة، وذكر حادثة سيل الإكليل الذي أخذ كثيراً من البشر في عام ٦٩٩ المذكور في تاريخ باسراحيل، وذكر خراب قرية الخبة بسيل الإكليل ١٠٤٩هـ، وختم جوابه بقوله: ((وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. قال ذلك الفقير إلى الله تعالى أحمد بن محمد مؤذن جمال الأصبحي عفا الله عنه وتولاه بلطفه في الدارين... وقال حررته ضحى يوم السبت تاسع جمادي الأول سنة أربع وستين بعد الألف، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

لم ينتبه أحد من القائمين على هذا المؤلف (مجموع طه) إلى أن وفاة صاحب المجموع كانت سنة ١٠٦٢ على قول الشلي، أو ١٠٦٣ على قول صاحب التلخيص الشافي والحبشي، في حين يقول العلامة أحمد مؤذن باجمال في متن المجموع نفسه إنه حرّر الجواب عام ١٠٦٤هـ! أي إن باجمال يذكر أن طه بن عمر ما زال على قيد الحياة في عام ١٠٦٤هـ! فتأمل!

ومن مسائل الأحوال التي تعرّض لها المجموع مسألة الكفاءة في النكاح، قال الجامع في ص ٤٣٣: ((وممّا أفادنيه العلامة أحمد مؤذن أن مذهب مالك أن الكفاءة لا تُعتبر إلا في الدّين فقط، وقد عمل به بعض مشايخنا لمصلحة اقتضت ذلك، أو خوف مفسدة. وقال الفقيه المذكور ناقلاً عن السيد العلامة العارف بالله أبوبكر بافقيه قال: حيث وقع عقد قال به إمام ولو مرجوحاً فلا يُنقض في حق العوام، وإنما حل المنع قبل أن يقع العقد)). وفي ص ٤٤٩ ذكر مسألة: ((سأل الفقيه عبدالرحمن بن سراج الدين الشريف العلامة علي بن

عبدالرحمن عن مسألة في الكفاءة، فأجاب بقوله: وَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَى أَصُولِ الْمَذْهَبِ خُصُوصًا فِي الْأَنْكَحَةِ تَعَبٌ وَأَتَعَبٌ، وَمَنْ تَتَبَعَ الْفَتَاوَى فِي ذَلِكَ يَجِدُ الْمَخْلَصَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَإِنْ مَذْهَبُ مَالِكٍ أَنَّ الْكِفَاءَةَ لَا تُعْتَبَرُ إِلَّا فِي الدِّينِ أَيْ الْإِسْلَامِ فَقَطْ، وَقَدْ عَمِلَ بِهِ بَعْضُ مَشَايخِنَا لِمَصْلَحَةِ اقْتِضَاتِ ذَلِكَ (أَوْ خَوْفِ مَفْسَدَةٍ))، وَذَكَرَ وَاقِعَةً حَالًا بِمَنْطَقَةِ الْخَرِيبَةِ بَدْوَعْنَ فَقَالَ: ((عَقَدَ الْفَقِيهَ سَلِيمَانَ بَا حَوِيرِثَ وَهُوَ نَائِبُ الْخَرِيبَةِ بِامْرَأَةٍ وَلِيهَا غَائِبٌ بَرَجَلٌ ظَنَّهُ الْفَقِيهَ كَفَوًا لَهَا وَهُوَ لَيْسَ كَفَوًا لَهَا، فَلَمَّا قَدَّمَ الْوَلِيَّ رَفَعَ الْأَمْرَ إِلَى قَاضِي الشَّحْرِ عَبْدِ اللَّهِ بِاعْمَرٍ، وَادَّعَى عَدَمَ الْكِفَاءَةِ، وَتَحَقَّقَتْ، فَقَرَّرَ الْعَقْدَ الْمَذْكُورَ الْفَقِيهَ بِاعْمَرٍ^(١)). وَفِي ص ٤٥٢: ((وَعُقُودَ سَيِّئُونَ مَعْظَمُهَا بَغِيرَ كَفَوٍ؛ لِأَنَّ فِيهَا اخْتِلَاطَ عِبِيدَ وَعَتَقًا وَأَرَاذِلَ كَثِيرَةً، وَلَا يُمْكِنُ إِلَّا التَّقْلِيدُ... وَمَنْ خَطَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: وَزَوَّجَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْخَطِيبِ نَائِبَ تَرْيَمِ بِنْتٍ بَلْغَرِيبٍ وَهُوَ مِنْ بَيْتِ الْعِلْمِ يَزِيدِي عَامَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَأَلْفَ)). وَهَذَا دَلِيلٌ آخَرٌ مِنَ الْأَدْلَةِ الَّتِي تَثْبِتُ كِتَابَةَ الْمَجْمُوعِ بَعْدَ وَفَاةِ طَهْ بْنِ عَمْرِ. قُلْتُ: وَيَتَبَيَّنُ مِمَّا مَرَّ أَنَّ عُلَمَاءَ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ كَانُوا عَنْدهُمْ سَعَةُ اطِّلَاعٍ وَتَقَبُّلٌ لَأَرْاءِ الْمَذَاهِبِ الْمَعْتَبَرَةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُتَأَخَّرُونَ، فَقَدْ أَثَارَتْ مَسْأَلَةُ الْكِفَاءَةِ صِرَاعًا مَشْهُورًا بَيْنَ الْحُضَارِمِ أَدَّى إِلَى قِيَامِ مَدْرَسَتِي الْعُلُوبِيِّينَ وَالْإِرْشَادِ فِي جَاوَةِ.

وَفِي ص ٤٥٢: ((وَمِنْ أَجْوَبَةِ الْعَلَامَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْخَطِيبِ التَّرِيمِيِّ قَالَ: وَأَمَّا مَسْأَلَةُ عَسْكَرِ الزَّيْدِيَةِ فَفِي النَفْسِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ كَبِيرٌ مِنْ حَيْثُ تَزْوِيجُهُمْ فِي نِسَاءٍ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الصَّلَاحِ، وَيُظْهَرُ لَنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُبْتَدِعِ فِي كَلَامِ الْأُئِمَّةِ هُوَ مَنْ يَعْتَقِدُ مَذْهَبًا مِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْبِدْعَةِ فِيمَا هُمْ مَخْطُؤُونَ فِيهِ مِنْ مَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِ الْأَصُولِيَّةِ، وَلَوْ فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَوْ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ، كَالِدُخْلِ عَلَى رُؤُوسِ هَذِهِ الْأُئِمَّةِ الصَّحَابَةِ ﷺ، بِدَلِيلِ إِحْقَاقِهِمْ فِي الْكِفَاءَةِ بِالْفَاسِقِ، إِذْ لَا يَكُونُ فَاسِقًا إِلَّا حِينَئِذٍ، وَأَمَّا مَجْرَدُ النِّسْبَةِ إِلَى الْجِهَةِ فَلَا عِبْرَةَ بِهَا، وَالْعَامِيُّ الْمُحَضِّضُ لَا مَذْهَبَ لَهُ مَعِينًا يُلْزِمُهُ الْبَقَاءُ عَلَيْهِ)). وَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نَرَى تَسَامُحَ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي تَزْوِيجِ الْعَوَامِ مِنَ الزُّيُودِ؛ كَوْنِ الْعَامِيِّ لَا مَذْهَبَ لَهُ، وَلَا يُؤْخَذُ بِجَرِيرَةِ قَادَةِ الزَّيْدِيَّةِ، فَيَالَهُ مِنْ إِنْصَافٍ دَعَتْ إِلَيْهِ الشَّرِيعَةُ السَّمْحَاءُ، بِالرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ مَدَاهِنْتِهِمْ لَمَنْ تَعَرَّضَ لِسَبِّ الصَّحَابَةِ ﷺ.

وَقَالَ الْفَقِيهَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بِاجْمَالِ الْأَصْبَحِيِّ فِي (مَطَالِعِ الْأَنْوَارِ فِي بَرُوجِ الْجَمَالِ بَيَّانِ مَنَاقِبِ آلِ بَاجِمَالٍ^(١)): ((أَعْلَمُ أَنَّ بَاجِمَالَ - بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ - يَنْتَسِبُونَ إِلَى كِنْدَةَ الْقَبِيلَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَكَانُوا مَلُوكَ حَضْرَمَوْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَنَقَلَ عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَرَّاجٍ أَنَّهُ قَالَ فِي مَوَاهِبِ الْبَرِّ الرَّؤُفِ إِنَّ جَدَّ آلِ بَاجِمَالِ ثَوْرَ بْنَ مُرْتَعٍ - بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِ الْمُثَنَاءِ الْفَوْقِيَّةِ الْمُشَدَّدَةِ - بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ ثَوْرٍ بْنِ عَفِيرٍ، هُوَ كِنْدَةُ كَمَا فِي التَّهْذِيبِ، وَكَانُوا وُلَاةَ ثَوْرٍ، فَأَخَذَهَا آلُ بَاجِمَالِ، فَانْتَقَلُوا إِلَى شَبَامَ، وَجَدَهُمُ الْجَامِعُ لَجَمِيعِهِمْ هُوَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، فَجَمِيعُهُمْ مَنْسُوبُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ مُعَاوِرًا لِلشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بِاعْبَادِ الْقَدِيمِ، ثُمَّ قَالَ: (فَإِذَا كَانَتِ الْقَبِيلَةُ مَنْحَصِرَةً فِي جَدٍّ مَعْلُومٍ وَتَشَعَّبَ أَوْلَادُهُ أَفْخَاذًا فَإِذَا مَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَجَهِلَ أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ مَعَ تَحَقُّقِ أَنَّ جَدَّهُ هُوَ لِأَيِّ الْمَوْجُودِينَ وَالْمَيِّتِ زَيْدٌ، لَكِنْ جُهِلَتْ الْوَسَائِطُ، فَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُتَأَخَّرُونَ؛ فَأُفْتِيَ أَبُو قِضَامٍ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ الْمُتَوَسِّطِينَ بَيْنَ الْمَيِّتِ وَالْجَدِّ الْمَذْكُورِ وَالْأَحْيَاءِ وَالْجَدِّ هَذَا لِتَعْرِفَ أَصُولَهُمُ الْمَعْدُودَةَ، وَأُفْتِيَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفْقَهَاءِ تَبَعًا لِأَبِي قِضَامٍ وَخَالَفَ الْعَلَامَةُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ مَخْرَمَةَ، وَقَالَ: هَذَا مِنَ الْإِثْرِ الْمَحْصُورِ بِالْإِسْتِحْقَاقِ، وَقَالَ: وَمَحَلُّ مَعْرِفَةِ الْوَسَائِطِ فِي الْقَبِيلَةِ الْمُنْتَشِرَةِ، وَأَمَّا مَعَ الْإِنْحِصَارِ الْمُحَقَّقِ فَلَا يُحْتَاجُ لِمَعْرِفَةِ الْوَسَائِطِ)، فَإِنْ عُلِمَ أَعْلَى دَرَجَةِ الْإِثْرِ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ وَادَّعَى ذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَابِ الْمِيرَاثِ الْمَحْصُورِينَ فِي ذَلِكَ الْجَدِّ الْمَذْكُورِ فَيُوقَفُ الْمِيرَاثُ إِلَى إِقْرَارِهِمْ بِالْأَقْرَبِ أَوْ مَنَاقِلَتِهِمْ بِالْأَقْرَبِ؛ لِأَنَّ الْإِثْرَ وَالْحَالَةَ هَذِهِ مُحَقَّقٌ مَحْصُورٌ فِيهِمْ، وَجَرَى عَلَى مَا قَالَهُ أَبُو مَخْرَمَةَ الْفَقِيهَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَرَّاجٍ وَقَالَ: فِي كَلَامِ الشَّهَابِ ابْنِ حَجَرَ مَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ، وَالَّذِي نَعْتَمِدُهُ مَا قَالَهُ أَبُو مَخْرَمَةَ لِأَنَّ الْعِلَّةَ تَقْتَضِيهِ)).

وورد في المجموع في مفطرات الصيام عند ذكره للدخان ناقلًا عن الشمس البرماوي في كتاب الإيعاب - ذُكِرَ التَّنْبَاكُ، قَالَ فِي ص ١٤٨: ((وإن قلنا إن الدخان عَيْنٌ فليس هو المراد بالعين في باب الصيام، قال: ولا أعلم في ذلك من البخور أو دخان الطعام خلافاً. انتهى. وفي الإمداد والتحفة ما يوافقه، فعلم أن استعمال التَّنْبَاكِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْتَادَ لَا يُفْطِرُ، لَكِنْ الْأَوَّلَى عَدَمُ إِظْهَارِ مِثْلِ ذَلِكَ لِأَسِيْمَا لِلْعَوَامِ. أَه)).

(١) من خلاصة الأثر للمحبي ١/ ٢٢٤. وما بين القوسين في المجموع ٣٧٧.

هذه الظاهرة الغريبة في القرن الحادي عشر كانت مثار جدل فقهي بين الأدباء والفقهاء عند بدء ظهورها، ما بين محلل لها ومحرم؛ لعدم ورود النص، ولا غرابة في ذلك، لكن الغرابة كل الغرابة في الحكم بعدم الفطر للخواص، والتحذير من إظهار ذلك للعوام! ونظير هذا ما جاء في مختصر تشييد البنيان^(١) لعمر بن محمد بن طه وهو من علماء القرن الحادي عشر: ((نقل عن الفقيه عبد السلام النزيلي أنه سأل الفقيه محمد بن علي بن محمد بن مطير عن التتن المسمى عندنا بالتنباك، هل هو حرام؟ أو مكروه؟ خاتم للمروءة ويفطر الصائم أم لا؟ فكان جوابه بحله، وأنه ليس بخاتم للمروءة، وليس بمفطر للصائم مع كراهته، قال عمر بن محمد: واعتمده شيخنا يوسف بن عابد وغيره، لكن لا ينبغي إشاعة ذلك عند الجهلة، بل يُزجر المتعاطي ذلك نهار رمضان. أه)).

غير أن شيخنا الشيخ عبدالرحمن بكير رحمه الله لم يمرر هذه الفتوى في تحقيقه، فقال: ((لسنا مع هذه الإجابة لا من قريب ولا من بعيد، والقول بها مبطل لحكمة الصيام من أصله... فكم من هؤلاء المتعاطين من هو مستعد لمواصلة الصوم عن الأكل والشرب، لكنه غير مستعد للصوم عن التنباك بكافة أنواعه ساعة واحدة)).

وقد كان لعلماء حضرموت وأدبائها في القرن الحادي عشر قصب السبق في رفض أي جديد ودخيل على ثقافة المجتمع الحضرمي، فكان أول من حذر من التنباك في حضرموت فيما أعلم في القرن الحادي عشر الأديب الكبير الشاعر عبدالصمد بن عبدالله باكثير المتوفى بالشحر سنة ١٠٢٤هـ، فقال رحمه الله كما في الديوان:

ولا تجنح إلى التنباك إني	نصحتك أن فيه أشياء تضرّك
هو العار الذي يدني ويردي	هو الداء الدفين فلا يغرك
شراب مهلك لا تشتريه	وضم إليك نقدك في مصرك
وإن ناداك للتنباك داع	فقل عني إليك كُفيت شرك
أيتبع بدعة صارت إلينا	دسيسة كافر بالله أشرك
شراب من حميم ليس فيه	سوى مرض القلوب فلا يغرك
فأوله سُعال واصفرار	إلى سل يعود فهات عذرك
لئن قالوا وجدنا فيه نفعاً	لقد قالوا محالاً ليس يُدرك

ووقف آخرون في جانب إباحة التنباك والدفاع عنه، قال الأديب الصوفي عبدالغني النابلسي وهو من هواة شرب الدخان، خلافاً لما قاله باكثر، وله رسالة في إباحته بعنوان (الصلح بين الإخوان في إباحة الدخان):

رشفت دخان التبغ لا عن سفاهة
ولا عبث يزري بقدري ولا يزري
ولكن أداوي نار قلبي بمثلها
كما يتداوى شارب الخمر بالخم
وقال أيضاً:

شربنا دخان التبغ لاعن مودة
له بل هو الممقوت عند ذوى الحجا
ولكن شيطان الهموم بصدرا
عصانا فدخلنا عليه ليخرجا

وقال المحبي في (خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر) في ترجمة الحسن بن أبي بكر بن سالم المتوفى بعينات ١٠٤٤هـ: ((وكان شديد الإنكار على من يشرب التبغ، واعتنى بإزالته من تلك الديار، وصنف الشيخ مُحَمَّد عَلِيّ بن عَلان المَكِّي في حرمة مصنفين أحدهما يُسمّى (تحفة ذوى الإدراك في المنع من التنباك)، والآخر (إعلام الإخوان بتحرّيم الدُّخان)، وتبعه بعض الحَفِيَّة في تحرّيمه، وممن أفتى بعدم الحرمة تلميذ ابن حجر الهيتمي وأحد من اجتمع بهم الجامع في مكة، وأكثر النقل عنه، الشيخ عبدالعزیز الزمزمي^(١)، والشيخ عبدالله بن سعيد باقشير من شافعية الحجاز، إلا لَمَنْ حصل له به ضَرَر. ثم قال المحبي: قلت: وظهور التنباك المُسمّى بالتبغ وبالتنن بجهة الغرب والحجاز واليمن وحضر موت كَانَ في سنة اثنتي عشرة وألف، كما وجدته بخط بعض المكيين. أه)).

وجاء في المجموع رسالة كاملة للعلامة أحمد بن محمد مؤذن باجمال بعنوان (بيان حكم المصادقة بخط الحاكم المجرد وبيان ما يلزم به حكمه على العامة^(٢))، كتبها في ١٠٧٠هـ منكرًا فيها على الفقيه عبدالرحمن باهارون في تساهله في قبوله الأهله، بل قال في أثنائها: ((نعم لا يظن ظانًّا أنَّ لا نقبل حكم الفقيه باهارون مع شيوع تهوُّره، فإنَّا نحسن الظن به، فإن وصل مع خطه شاهدان عدلان قبلناه وعلى الرأس حتمًا، والغالب أنَّه لا يسري في ذلك الليل إلا عامي أرسله الدولة مجهول الحال يحتاج إلى تركية عند نائب سيئون لو شهد، فإذا كان

(١) مفتي الحرمين في القرن الحادي عشر. انظر مجموع طه ٥٣٥.

(٢) انظرها في المجموع من ص ٥٨٠ - ٥٨٨.

الأمر كما ذكرنا فليعلم الأمير الناصح لله ورسوله القائم نيابة بنصرة الدين يحب مولاه، مولانا السلطان بدر بن عبدالله^(١)، أن هذه مناظرة في الدين يجب على الأمير تبليغها وعرض كتابي هذا على فقهاء تريم ومتفقيها واحداً واحداً، وليكتب كل واحد بأمانة الله عليه ما يعلمه من حال السيد الفقيه عبدالرحمن، فإنهم الخبراء بحاله))، وقبل نهاية الرسالة يقول: ((ورأيت أن هذا واجب على علماء تريم وغيرهم والسيد علي بن عمر بن طه والأمير يوسف القائم بتريم؛ ليتضح الحق، ويكون رمضان سنة تسع وستين من سنتنا هذه حيث يستهل الأربعاء)).

خاتمة :

في ختام هذا البحث المتواضع الذي كُتِبَ في وقت قياسي، ولولا أننا قد بدأنا فيه من قبل لما أتممناه، وذلك لما مرَّ به كاتبه من أحداث جلييلة خلال مدّة كتابته، فقد توفّى الله رفيقة دربي وأم أولادي رحمها الله إثر حادث حريق، وبعدها بأيّام انتقل والذي العزيز رحمة الله تغشاه إلى الدار الآخرة، هذه أحداث توالى عليّ وأنا بصدد كتابة هذا البحث، مؤثرة على كل مجريات حياتي، فله ما أخذ وله ما أعطى، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وألتمس المعذرة إن حصل خلل أو قصور في بحثي هذا فقد كتبته في الظروف التي ذكرتها، ولا يفوتني أن أشكر للدكتور عبدالله الجعدي، فقد كان إصراره دافعاً لاستمراره في إتمام البحث.

هذا البحث تحدث عن كتاب مجموع طه، وهو كتاب من القرن الحادي عشر، مما يجعل لهذا البحث أهمية كبيرة؛ إذ يتعرض هذا الكتاب لوقائع أحوال في ذلك العصر، ومدى ما وصل إليه العلم والعلماء الحضارم في ذلك الزمان في مجالات شتى ومنها الفقه.

وقد استوقفتني في هذا البحث جملة من المسائل منها كثرة العلماء وإنصافهم وتقبلهم للمذاهب المعتمدة، كما في مسألة الكفاءة، وكذلك كثرة المؤلفات التي نقل عنها المجموع والتي ذُكرت فيه. كما توقفتُ طويلاً عند ضياع هذه المصادر والمؤلفات الجلييلة، وذكرتُ بعض النقول التي تحدثت عن هذا الضياع، وأشارت إلى شيء من أسبابه، ذلك لأنّ ضياع

(١) هو حفيد بدر أبو طويرق، وهو الذي حصل بينه وبين الشيخ العمودي حاكم دوعن حرب، وتدخل الإمام الزيدي المتوكل في الصلح بينهما ١٠٦٦ هـ. انظر صفحات من التاريخ الحضرمي لبازير ٢٠٢.

هذه المصادر أوجعنا كثيرًا لما في ضياعها من ضياع ثروة فكرية وعلمية كبيرة تعد خسارة فادحة لأبناء حضرموت.

وكانت لنا وقفة مع بعض وقائع الأحوال في ذلك العصر، كما أشرنا في هذا الصدد إلى بعض الأمور المثارة في الكتاب، كمسألة دخول التمباك، وموقف علماء حضرموت وأدبائها منه.

وهذا البحث يأتي في إطار مشاركة في المؤتمر العلمي الثالث (التاريخ والمؤرخون الحضارم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر) الذي دعا إليه مركز حضرموت للدراسات.



علماء حضرموت وأثرهم الدعوي والاجتماعي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (الإمام عبد الله بن علوي الحداد نموذجاً)

محمد علوي عبدالرحمن باهارون
مدير دار الحامي للدراسات والنشر وخدمة التراث الحضرمي

مقدمة :

يعد القرنان الحادي عشر والثاني عشر من القرون التي امتدت إليها آثار الحركة العلمية في حضرموت في القرن العاشر الهجري، وظهر على الساحة العلمية العشرات من العلماء الفطاحلة في شتى فنون المعرفة الإنسانية.

ويُعدُّ الإمام المجدد عبدالله بن علوي الحداد (١٠٤٤-١١٣٢هـ) من أبرز الحضارمة الذين ظهروا في تلك المدّة، وكان مشهوراً في أقطار العالم أكثر من شهرته في بلده وإقليمه الحضرمي، وهو من أشهر علماء العلويين الحضارمة، كان له أثر في التعليم والإرشاد والإصلاح بين القبائل، وكان من أبرز العلماء الذين واجهوا الأفكار الإباضية والزيدية التي أرادت أن تجتاح حضرموت، وتجد لها أرضاً خصبةً في ترابها، ولكن ذلك الإمام بعلمه وتقواه وورعه استطاع أن يصرف الحضارمة عنهم بما ألفه من مؤلفات علمية قيمة، ناقش في بعضها تلك الأفكار العقدية بفكر العالم الواعي ولسان المرشد الداعي، حتى استحق أن يُلقَّب بـ(شيخ الإسلام، وقطب الدعوة والإرشاد).

وفي هذه الدراسة نبسط الحديث في أهم آثاره العلمية والاجتماعية، مستعرضين جهوده في ذلك، وجهود تلاميذه الذين ازدانت بهم الديار الحضرمية والدوعنية والساحلية بما قاموا به من جهود في القضاء والتعليم والإرشاد والإمامة والخطابة والإفادة.

- وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة مباحث وخاتمة على النحو الآتي:
- ♦ الإمام الحداد ونزري سير من حياته وأثره الدعوي في حضرموت.
- ♦ الإمام الحداد مواقفه وتصديه للفرق القادمة إلى حضرموت.
- ♦ تلاميذه وأثرهم العلمي الدعوي والاجتماعي في حضرموت.

أولاً: الإمام الحداد ونزري سير من حياته وأثره الدعوي في حضرموت

كان ميلاده سنة ١٠٤٤ هـ بمنطقة السير من ضواحي مدينة تريم، ونشأ بها تحت رعاية والده السيد علوي بن محمد الحداد، وأمه الشريفة سلمى بنت عيدروس بن أحمد الحبشي، مع إخوته عمر وحامد وأحمد، في بيئة علمية لا تنجب إلا فحول الرجال، وقد ذكر عنه مترجموه أنه كان صاحب ذكاء وقادٍ وفطنة، وله المجاهدات العظيمة وهو في سن الصبا، وفوق ذلك كان كفيلاً فقد بصره بمرض الجدري وهو ابن أربع سنوات، ولكن عوّضه الله منه بقوة الحافظة والذكاء والفطنة ونور البصيرة.

وفي ربوع الغناء تريم وبين مساجدها وزواياها شبَّ وترعرع الإمام الحداد تحفه العناية الإلهية، في البكرة والعشية، وقد تلقى علمه على عدد من شيوخ تريم في تلك الحقبة المباركة. وتظهره الأيام علماً من الأعلام، متصدراً للتدريس في مدينة تريم، ومتنقلاً بين مناطق حضرموت للدعوة إلى الله بقوله وفعله وقلمه، ووفد إليه الطلاب من شتى مناطق الجزيرة العربية وغيرها؛ ليكرعوا من معينه الرقراق، ولم يستفد منه من أبناء تريم إلا أشخاص معدودون.

ورغم شهرته العلمية في الآفاق إلا أنه كان مهضوماً في مجتمعه لا يرى له أي فضل! حتى كانوا يسمونه بالعيّوز أي الأعمى! ولكنه لم يكثر لذلك، فقد نصح وعلم وأرشد حتى استحق أن يُطلق عليه «قطب الدعوة والإرشاد»، وما زالت كتبه تُقرأ وتُداول مثبتة للناس أنه جدير بذلك اللقب، فقد انتشرت كتبه العلمية لا في حضرموت وحدها بل في شتى مناطق العالم في إفريقيا وإندونيسيا والهند، وترجمت إلى اللغات الأعجمية كالإندونيسية والإفريقية والإنجليزية وغيرها، وخصص لها في مكتبات أوروبا - وبالتحديد في باريس - جناح خاص بها مطبوعة ومخطوطة، كما أخبرني شيخنا الداعية السيد حسين بن عبدالقادر بلفقيه رحمه الله تعالى.

كما قام الإمام الحداد بتثبيت قواعد الطريقة العلوية الحضرمية وترسيخها، والتي أشار إليها بقوله:

والزم كتاب الله واتبع سنة واقتد هداك الله بالأسلاف
أهل اليقين لعينه ولحقه وصلوا واثم جواهر الأصداف
راح اليقين أعز مشروب لنا فاشرب وطب واسكر بخير سلاف
هذا شراب القوم سادتنا وقد أخطا الطريقة من يقل بخلاف

وقد قام بترتيب أدعية خاصة تُقرأ بعد المغرب والعشاء، تُعرف بـ(راتب الحداد)، وهي مجموعة من الأذكار والأدعية النبوية والتوسلات بأسماء الله الحسنى، استخلصها من كتب السنة المتعددة، وصاغها في أسلوب تصوفي، وانتشرت في شتى بلاد العالم العربي والإسلامي، وما زالت تُقرأ إلى اليوم.

ومنها أيضاً (الورد اللطيف) الذي يُقرأ بعد صلاتي الفجر والعصر، و(حزب النصر) الذي يُقرأ بعد الظهر، وغيرها من الأدعية والأوراد.

وكانت وفاة الإمام الحداد بتريم في ذي القعدة سنة ١١٣٢ هـ عن عمر ناهز التسعين عاماً، وقد مضى منذ وفاته ثلاثمائة عام وما زال ذكره يتردد على الألسنة، وكتبه تُقرأ في المجالس، وقصائده تُنشد في المحافل والمجالس، وما ذاك إلا لإخلاصه في تأليفها ونظمها^(١).

ترجم للإمام الحداد جميع من تحدث عن حضرموت في القرن الثاني عشر، ومنهم تلميذه النجيب العلامة الحبيب أحمد بن زين الحبشي، ومما قاله في ترجمته:

((كان في العلوم والمعارف البحر الذي لا ساحل له، بلغ رتبة الاجتهاد في علم الإسلام والإيمان والإحسان، وهو المجدد في هذه العلوم لأهل هذه الأزمان، وذلك ظاهر من حيث طريق الظاهر جلي، ومن حيث طريق الباطن يعرفه أهل ذلك المقام العلي... وكان ﷺ أخذ من الاستقامة والاتباع لجده المصطفى ﷺ بالحظ الأوفر، والنصيب الأكبر، وكان آخذاً بالعفو، أمراً بالعرف، معرضاً عن الجاهلين، وقد وقع له من الوقائع في العمل بهذه الأخلاق الشريفة ما لا ينضبط، وقد رأيت منه من ذلك الشيء الكثير مع تأخر انتسابي إليه وصحبتني له... وكان في الزهد في الدنيا والتوكل على الله في أعلى غاياتها وأسنى نهاياتها، ولا يبالي

(١) باهارون، الكنز المدفون في ترجمة الحبيب محمد بن هارون، ص ٣٤-٣٧.

بإقبال الدنيا وإدبارها، بل يبادر بالإنفاق في الحال من غير إمهال، وإذا ظهر على الناس قحطٌ زاد في الإنفاق، وتوسّع في إدخال الإرفاق... وكان في رفضه لشهوات الدنيا بالمقام العالي، وكان شديد الرجاء في الله تعالى والخوف منه سبحانه غزير الدمعة، وهذا مقتضى التحقق بمقام محبة الله تعالى، إذ من لازمه الخوف والإشفاق، وإلا فإني سمعته كثيرًا يقول: أغلب أحوالنا صدق الرجاء وحسن الظن في الله تعالى بالنسبة إلينا وإلى جميع المسلمين، لكن أعطينا لسان الخوف رحمةً بالخلق، إذ هم كثير ولاغترار بالملك الجبار... وكان يتكلم على الأحاديث النبوية بالكلام الحسن العجائب مما لا يوجد في كتاب، وكذا الآيات القرآنية من حيث العلوم الظاهرة والفهوم الدنية ممّا تقر به العيون، ولا وقع في الأفكار والظنون، من السر المصون، والعلم المضنون به على أهل العقول والظنون، وكان في العبادة والمجاهدة مقدّم فرسانها، لم يعرف أنه صلّى منفردًا، ولا ترك قيام الليل^(١).

ويقول عنه الأستاذ المحقق محمد ضياء شهاب: ((نادرة الدهر وعلامة العصر، ذو الأعمال الجمّة، والآراء البارزة الباقية، والآراء الحصيصة... كان عابدًا مذ كان صغيرًا، فصارت العبادة تخامر روحه، شغوفًا بمختلف العلوم، يميل إلى الأدب والشعر، وهكذا ما زالت ترتقي به معارفه، وتسمو به مداركه، حتى أصبح لا يُجارى ولا يُشَقُّ له غبار، فبلغ رتبة الاجتهاد، ذا موهبة نادرة وعبقريّة خلاصة، ألّف كتبًا كثيرةً ما زالت إلى الآن منتشرة متداولة، طُبِعَ الكثير منها عدة طبعات، وانتفع به خلائق، سواء أكان انتفاعًا مباشرًا أم غير مباشر، كان قوي العارضة، متين الحجة، وتخرّج على يديه الكثير من رجال العلم^(٢))).

ويقول عنه الأستاذ عمر أبوبكر باذيب في شرحه المختصر لراتبه الشهير: ((تصدر للدعوة إلى الله في بلده تريم وفي عموم القطر الحضرمي، وانتشرت دعوته الإرشادية وقيامه بنصرة السنة المحمدية في كثير من الأقطار، فاستفاد من تلك الدعوة المباركة الجم الغفير، وصلاح مجتمعه كما صلح به غيره، وما ذاك إلا بتوفيق من الله سبحانه، لما كان عليه الإمام الحداد من ورع وتقوى وزهد، مع علم ومعرفة وعمل وحسن نية، مع صلاح اعتقاد وحسن ظن بالمسلمين.

(١) المسلك السوي في جمع فوائد مهمة من المشرع الروي، ص ٢٨٧ - ٢٩٢، بتصرف.

(٢) المشهور، عبدالرحمن محمد، شمس الظهيرة، ج ٢ ص ٥٦٨.

اهتم كثيرًا بإصلاح مجتمعه حاكمًا ومحكومًا، عالمًا ومتعلمًا، وكان له في تبصير الجاهل بأمور دينه أسلوب حكيم، ترى ذلك في كتبه الدعوية الإرشادية المنتشرة، حتى اشتهر بأسلوبه ذاك، وأطلق عليه بحق: (قطب الإرشاد).

ألّف من الكتب النافعة الكثير، منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط، وتُرجمت بعض كتبه النافعة إلى اللغات الإنكليزية، والفرنسية، والملايوية، والإندونيسية، و السواحلية، والتركية، والأوردية (الهندية)^(١).

مؤلفاته العلمية ومميزاتها:

للإمام الحداد مجموعة من المؤلفات الثرية والنظمية التي بلغت الآفاق وسارت بها الركبان وانتشرت في البلدان، ومن تلك المؤلفات القيمة:

- ◆ النصائح الدينية والوصايا الإيمانية.
 - ◆ الدعوة التامة والتذكرة العامة.
 - ◆ إتحاف السائل بجواب المسائل.
 - ◆ النفائس العلوية في المسائل الصوفية.
 - ◆ الفصول العلمية والأصول الحكيمة.
 - ◆ سبيل الازكار والاعتبار بما يمر بالإنسان وينقضي له من الأعمار.
 - ◆ رسالة آداب سلوك المريد.
 - ◆ رسالة المعاونة والمذاكرة والمؤازرة.
 - ◆ ديوان الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم، الذي يقول عنه: ((من كان عنده كفاه)).
 - ◆ تثبيت الفؤاد في مجموع كلامه، جمعه تلميذه العلامة أحمد بن عبدالكريم الحساوي.
- ويمتاز أسلوبه الكتابي في عباراته وجُمَلِه ومعانيه بالقوة والرصانة والبلاغة والوضوح، وإذا كان معظم كتاب عصره وبلغاء زمنه قد يذهبون إلى السجع، وينساقون مع المحسنات اللفظية، ويرونها أقرب إلى القلوب وأعذب في السمع، فإن المترجم قد جانب السجع المتكلف، فهو قلما يجري على لسانه إلا ما يأتي عفواً من القول، وجاءت به السليقة، فمعظم

(١) نزهة الطالب في روضة الراتب، ص ٣٧.

همه في معنى ما يقول ليأخذ السامع إلى الغاية السامية من روح العبارة وسمو المعنى، في أسلوب سهل ممتنع، وألفاظ قريبة الأخذ، إذا شرح موضوعاً علمياً فضّله بما يفهمه العامي كما يفهمه طالب العلم، ومع ذلك فهو يربأ بنفسه أن يترك العامي على جهله، والطالب المبتدئ في حيرته، فقال: «وينبغي للشيخ والعالم إذا سألته مريده أو تلميذه عن شيء يضر علمه أو لا يألّفه فهمه أن ينظر، فإن عرف من حال السائل أنه إن أخبره بعدم أهليته لا ينكسر قلبه انكساراً يضره في دينه، ولا ينفر منه نفرة يعرض بها عن مطلوبه، فليخبره، وإلا فلتنزل له في جوابه إلى حد علمه وفهمه»^(١)

وقد أثنى عليه وعلى مؤلفاته علماء حضرموت ومصر والحجاز وغيرها من الأقطار، يقول العلامة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية وعضو جماعة كبار العلماء سابقاً في مقدمته لكتابه النصائح الدينية: ((انتصب لتربية المريدين، وإرشاد السالكين، فقصده الناس من أكثر الأمصار، ونفع الله به في غالب الأقطار، وارتحل وتنقل في البلاد، للدعوة والإرشاد، ونشر العلم بين العباد، وكان مؤلفاً واضحاً في عبارته، قوياً في أسلوبه، محققاً في بحثه، مدققاً في نقله، واضح الحجة، باهر المحجة، فياًصاً في البيان، يدعم بحثه بآيات من القرآن وبالأحاديث النبوية والأقوال المأثورة عن الأئمة، ويتنزع من دخائل النفوس ووساوس الصدور كل شبهة، ويعالج كل نزعة، حتى لا يبقى مقالاً لقائل، ولا جواباً لسائل))^(٢).

أثره الإصلاحية في مجتمع حضرموت:

للإمام الحداد أثر إصلاحي لا يُنكر في نشر الأمن والسلام والفضيلة في المجتمع الحضرمي بشتى أطرافه، كان كثير الاهتمام بشؤون المجتمع، عاملاً للإصلاح، يكتب الأعيان والحكام والسلاطين، يرشد وينصح، وينتقد ما عليه بعض الناس ممّا لا يرضي الله تعالى، كما ينتقد الجهلاء والمغرورين من أي طائفة أو طبقة كانوا، لا يسكت على كظمه، بل ينتقد بعض المتصوفة الذين تخالف ظواهرهم الشرع الشريف، وله آراء قيمة وجريئة أودعها

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٦٩-٥٧٠.

(٢) النصائح الدينية والوصايا الإيمانية للإمام الحداد، ص ٣-٤، تحقيق وتعليق الشيخ حسنين محمد مخلوف، مطبعة المدني القاهرة.

كتبه ومكاتباته، وكثيراً ما يوجه أعماله للإصلاح بين القبائل المسلحة المتخاصمة، كتدخله في الإصلاح بين آل العمودي عندما احتدم النزاع بينهم، ودخلوا في عراك مسلح. ليس هذا فقط، بل كان السيد الحداد يرشد الزّراع في شؤون الزراعة، وكان هو نفسه يملك مزارع ويربي الدواجن، هذا بجانب إكرامه للمحتاجين، وسخائه للقاصدين والطلبة والأقارب، يربي الأيتام وينفق عليهم من ماله، بل يحث أرباب الأموال على الإنفاق على الفقراء والمشاريع الخيرية وتشيد المساجد والسقايات وغيرها^(١).

شارك الإمام الحداد مضطراً في المجال السياسي من أجل وطنه وشعبه، مع أنه مكفوف البصر، وليس في أيام شبابه فحسب بل وفي كهولته وشيخوخته، فكان يكتب توجيهات لبعض السلاطين الكثيرين كعمر بن علي بن عبدالله، ومحمد بن بدر، وبعض معاونيهم.

وكان يشير عليهم في نواح اجتماعية فيحترمون إشارته، ومن ذلك ما قرره السلطان من جمع الزكوات وتوزيعها، فأشار عليهم بترك ذلك، ولم يزل بهم حتى ألفوه، وكان له مسوغات في ذلك، من أهمها عدم استعدادهم لوضع ذلك في موضعه الشرعي، وجعلها أهم مورد لحكومة إسلامية في ميزانيتها، ثم توزيعها بكميات كبيرة ومبالغ ضخمة تُصرف في مجالات اقتصادية للمستحقين تحت إشراف حكومة رشيدة، إلى آخر ما هنالك.

وكان قد خصّص ابنه محمداً للقيام بوساطات بالنيابة عنه بين القبائل وغيرهم للإصلاح بينهم، وأعدّه للدبلوماسية القبلية المحلية، ولما نشب بين آل العمودي - وفيهم من يقاتلونه ويتصلون به للاستفتاء والاستشارة - نزاع مسلح، تدخل بينهم الحداد، وأرسل ابنه المذكور للتوفيق بينهم، فنجح، وقد زوج ابنه محمداً في قبيلة آل كثير، كما صاهر أحد بنيه الآخرين آل قصير التميميين، وكل هذا من أجل توثيق عُرى المودة والإخاء بينه وبين القبائل المسلحة^(٢).

وفي مكاتبات الإمام الحداد عدد من الرسائل التي كان يرسلها إلى سلاطين آل كثير مرشداً ومنتقداً وناصحاً لهم، ومنها رسالة جامعة إلى السلطان بدر بن عبدالله الكثيري، تقع في ١١ صفحة، ابتدأها بسورة العصر وحديث النبي ﷺ: ((الدين النصيحة))، أمره فيها أن يشكر الله على ما خوله من الملك والسلطان، وأن يُبلغ في الشكر، ثم ذكره بقوله: ((واعلم

(١) تعليقات شمس الظهيرة، مرجع سابق، ص ٥٦٨.

(٢) الشاطري، محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، ص ٣٢٤.

- أصلحك الله - أن الله إنما ولاك أمر عباده وممكنك في بلاده، ليختبرك، فإن وجدك شاكراً له على ما أولاك، وعاملاً بطاعته فيما ولأك، متّعك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى، وجمع لك بين ملكي الآخرة والدنيا، وإن وجدك غافلاً عن شكره، وذاهلاً عن إقامة أمره، سلبك الملك العاجل، وحال بينك وبين الملك الآجل... والشكر الظاهر هو أن تكثر من الثناء على الله، وتعمل بكتابه وسنة رسوله، فيمن ولاك من عباده، فتحوط رعيّتك بالنصيحة، وتعاملهم بالشفقة والرحمة، وتهتم لما يصلحهم، كاهتمامك بمصالح نفسك ومصالح بيتك، وتبالغ في تفقدهم، والتفتيش على ما فيه المصلحة لهم، فتتصر مظلومهم، وتغيث ملهوفهم، وتفك عانيهم، وتصفح عن جانيهم، فإن الله تعالى سائلك عنهم^(١).

ومن مكاتبتة للسلطان محمد بن بدر: ((عليكم بإضمار الخير، والعزم على العمل به في كل وقت، حسب الاستطاعة، وتفقدوا أمور الرعية، وانظروا في أحوالهم، وكفّوا بعضهم عن ظلم بعض، وأنصفوا المظلوم وكونوا معه، حتى يستوفي من ظالمه، وافتحوا الباب وفرغوا السمع لكل من رفع مظلمة، الحذر الحذر من التغافل عن نصرة المظلوم؛ فإنها الخراب، واصبروا على القيام بما كلفتم، والله عون لكم، وأهل طاعته معكم ما أنصفتهم وعدلتهم، وأوصوا الذين وليتموهم جمع زكاة الفطر بالمسامحة والرفق، فإنهم ربما طلبوها ممن لا تجب عليه وضايقوه في ذلك، وكذلك فرقوا منها في كل بلد ما تيسر على المستحقين، ولو أمكن السكوت عن طلبها من المسلمين، لكان حسناً وخيراً، ولكن الخيرة فيما اختاره الله وقدره، وعسى الله أن يفتح لكم أبواباً من الرزق الذي في خزائن رحمته يغنيكم به عن الرعية، وتقدرّون به على التفرغ بالنظر فيما يصلحهم؛ وما ذلك على الله بعزيز. وعليكم بالتسبب في حصول ذلك بالصبر الجميل، وأن تسيروا بالسيرة الحسنة؛ فإن الصبر أول والفتح والنصر بعده؛ ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٢))).

ولما حاصر تريم السلطان عمر بن جعفر الكثيري الذي نصحه الإمام الحداد بأن يضع يده في يد يافع في تدبير السلطنة وإصلاح شؤونها وأرسل له رسالة إلى المشقاص، ولكنه أبى،

(١) مكاتبات الإمام الحداد، ج ١ ص ٣٤-٣٦.

(٢) مكاتبات الإمام الحداد، مرجع سابق، ج ١ ص ٩٢، ٩٣.

فهجم على تريم في شهر ربيع الأول سنة ١١٣٠هـ، واحتل قليلاً من ديارها وحصر يافع في حصونهم، وصادر أموالهم، وطلب من الأهالي ما هو مدخر عندهم من ذخائر، وما تحت أيديهم من أموال يافع المحصورين، وبقي الحال كذلك، واشتدت الضائقة على الناس وعلى المحصورين، بل وعلى المهاجم نفسه. فلم تأت جمادى الأولى إلا والسلطان يتطلب الرأي من عقلاء السادة، ويشير بطرف خفي إلى ابتغائه توسطهم في الأمر، فكان مما أجابه به الإمام الحداد قوله: ((وأما الرأي الذي ينبغي أن تأخذوا به، ولعله يحصل في كل المطلوب أو بعضه، فتنظر، فإن حصل سعي من أحد السادة، وخصوصاً من آل الشيخ أبي بكر من غدوة أو بعده فلا بأس، وبعض الويل أهون من بعض، وإن لم يحصل سعي فجدوا على حملة واحدة، فذلك أمكن وأحسن، واجعلوها على أرباع البلد أو أثلاثها، ويكون بعض المضايقة بالليل أولى، فإن القوم يرمون، وهو قل ما يصيب بالليل، وإن وقعت الحملة مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً فالإنسان يأخذ ويعطي ويصيب ويخطي، وهذا إن شاء الله مما يبض الوجه عند القريب والبعيد، وأما التفرق من غير أن تصيب من المحارب شيئاً ففيه سواد الوجه وقبح الأحداث في هذه الجهة وفي غيرها، والحرب سجال، والدهر والمشية لله والقدرة الظاهرة والقوة الغالبة، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

يرى الجبناء أن الجبن حزم و تلك خديعة الطبع اللئيم^(١)

والجدير بالذكر أن الإمام الحداد كان من دعاة العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، وكان ممن يميلون إلى توزيع كثير من أموال الأغنياء على الفقراء، وقد أثر عنه أنه يقول: ((لو مكنتني أهل حضرموت أو أغنياء حضرموت من أموالهم لأنفقت ثلثيها على المعوزين لعدم إخراجهم الزكاة)). وكان دوماً يحمل الأغنياء تبعه بخلهم على الفقراء وعدم مشاركتهم بأموالهم في المشاريع العامة، ونجد ذلك في كلامه المسمى (تثبيت الفؤاد بكلام القطب الحداد)، وكان يعكس صورة المجتمع الذي عاش فيه الحداد، ونجد خلاله كثيراً من ميول الحداد إلى العدالة الاجتماعية في الناحية الاقتصادية، بحيث تبذل كل المحاولات مع الأغنياء لتوجيه أموالهم نحو القيام بالمشاريع العامة، وسد حاجة أهل الفاقة والعوز بصورة أوسع مما نجدها في كلام الدعاة الآخرين^(٢).

(١) تاريخ الدولة الكثيرة، ص ١٣٠-١٣٢.

(٢) أدوار التاريخ الحضرمي، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

ثانياً: الإمام الحداد مواقف وتصدية للفرق القادمة إلى حضرموت

مما يذكر للإمام الحداد وتشهد له به كتب التاريخ الحضرمي مواقف الرائدة وجهاده العلمي في مواجهة بعض الفرق التي اجتاحت حضرموت مثل الإباضية والمعتزلة والروافض والخوارج، وقد ناقش أفكارهم ورددها عليهم بأدلة الكتاب والسنة، وسعى في تثبيت عقيدة أهل السنة الجماعة في نفوس الحضارمة في مؤلفاته وترتيباته، ومنها راتبه الشهير الذي ما زال يُتلى في الكثير من مساجد حضرموت واليمن وفي الهند وإفريقيا وغيرها، وسبب إملاء الإمام الحداد لهذا الراتب هو خروج بعض فرق المبتدعة إلى حضرموت الذين يقولون بقول القدريّة و المعتزلة، فطلب بعض الفضلاء منه، كما قال الشيخ عبدالله باسودان ((أن يملئ شيئاً من الأذكار النبوية يلهج بها أهل الجهة، ويجتمعون عليها، ويجعل فيها شيئاً من العقائد الإيمانية؛ ليحصنوا بذلك معتقدهم، خوفاً عليهم من تلبس تلك الفرقة، ولا سيما على العوام. فأملئ هذا الراتب، واشتهر عند الخاص والعام، وكان ابتداء ترتيبه بالحاوي في مسجده سنة ١٠٧٢هـ)). واشتهر هذا الراتب شهرة واسعة، وكانت تُقرأ في مساجد حضرموت وراتب أخرى لمشايخ معروفين، فاكتمى الناس براتب الإمام الحداد، وواظبوا على قراءته في مساجد مدن حضرموت وقراها، وبقية مدن اليمن، ويُقرأ في الحجاز وبعض بلدان نجد وفي الأحساء وفي قطر وعمان، وفي شرق إفريقيا في كينيا وزنجبار وغيرها، وفي شرق آسيا في إندونيسيا وماليزيا وغيرها، وفي الهند، وكذا في العراق والشام ومصر والمغرب وغيرها من البلدان^(١).

ويذكر العلامة فضل بن علوي مولى الدولة (١٢٤٠ - ١٣١٩هـ) في كتابه (أدلة الراتب) أن سبب ترتيبه أن بعض الفضلاء من أهل حضرموت لما سمع بخروج الزيدية إلى الجهة الحضرمية في سنة ١٠٧١هـ طلب من سيدنا القطب عبد الله الحداد - نفعنا الله به - أن يملئ شيئاً من الأذكار النبوية، يلهج بها أهل الجهة، ويجتمعون عليها، ويجعل فيها شيئاً من العقائد الإيمانية؛ ليحصنوا بذلك معتقدهم، خوفاً عليه من تلبس تلك الفرقة، ولا سيما على العوام؛ فأملئ سيدنا هذا الراتب، واشتهر عند الخاص والعام^(٢).

(١) نزّه الطالب، مرجع سابق، ص ٤١-٤٣.

(٢) أدلة الراتب، ص ٢٥.

وقد بسط الإمام الحداد القول في مجموع كلامه المسمى (تثبيت الفؤاد) في مناقشة الفكر الزيدي، فمن ذلك قوله متحدثاً عن الزيدية وقدمهم لحضرموت: ((وأول ما حصل الغيار من مجيء الزيدية، وبقيت كالنار تزيد، ولا يدرون، وكان حصوله باختيار أهل الجهة واختيار الزيدية، وكان في الجهة عسف والزيدية مظهرين الدين، وما كانوا أهل دهاء، وأرادوا أن يولوا أحداً منهم، فغلبوا عليهم لثلاثي عشر في الجهة ظلمان... وحكاية هؤلاء في الجهة مثل حكاية بخت نَصْر في بيت المقدس مع بني إسرائيل، إلا كل شيء على قدره، من حيث الزمان والمكان والناس، وإن كان الأمور لا بد فيها من التقدير، فلما حصلت منهم تقصيرات وذنوب، حصلت لهم العقوبات، وإن كان أولئك كفاراً، وفي تلك الأرض أولاد الأنبياء، فهؤلاء يقولون: (لا إله إلا الله) بألسنتهم، وقلوبهم خلية منها، وبين أظهرهم الأشراف، وأولئك قد جاسوا خلال الديار، فكذلك هؤلاء بل نزلوا في الديار، فزادوا عليهم بهذه... والدنيا كلها إلى نقص، ولكن قد ينقص في بعض الزمان الدين والدنيا، فانظر كيف صار أهل البدعة من الزيدية وأهل عُمان في هذا الوقت خيراً من أهل السنة! لما في أرضهم من الأمان، وشفقتهم على الرعية))^(١).

ويقول ناهياً عن الكلام في الخلاف الذي حصل بين الصحابة الذي أثاروه في تلك المدة: ((وينبغي للإنسان أن لا يتعمق في مطالعة الكتب التي فيها ذكر ما وقع لسيدنا علي من الحروب كالجمل وصفين وغير ذلك، لأنها توغر الصدور، ولا بد ما يمر عليه القليل منها في شيء من الكتب، وإن بُلي العالم بذلك واحتاج إلى النظر فيما ذكر، فليتوسط ولا يُمعن، وإنما نظرنا فيه حين وصلت الزيدية إلى هذه الجهة، وسألونا عن أشياء فأجبناهم عنها، وكان في السائل منهم إنصاف، حتى إنه مال إلى ما قلناه، وودَّ الإقامة عندنا، وكان من الزيدية بمكان، وكان متجرداً للأمر والنهي، وقالوا لنا: لأي شيء قدَّمتم على أبيكم علي بن أبي طالب غيره؟ فقلنا لهم: هو الذي قدَّم غيره وفضَّله على نفسه، فقدَّمناه نحن أيضاً وفضَّلناه لتقدمه له وتفضيله اقتداءً به. فقالوا: إنما ذلك تقية. فقلنا: إننا لسنا مثله في قوته وشجاعته وصولته، فإذا فعل ذلك للتقية، فمن أقوى منه أو مثله في الشجاعة والقوة، فالتقية التي وسعته هو، تسعنا نحن أيضاً^(٢).

(١) الحساوي، أحمد عبد الكريم، تثبيت الفؤاد، ج ١ ص ٢٧٢-٢٧٨.

(٢) تثبيت الفؤاد، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩٣، ٢٢٤.

ثم ذَكَر الصحابة وما جرى بينهم، وقال: ((الذين بايعوا سيدنا علياً من أهل الحديبية نَحْو مائة رجل، ومن أهل بدر وأحد والمهاجرون والأنصار، ولم يَتَخلف عن بيعته من الأنصار سِوَى رجلين أحدهما كان صغيراً))، وأكثر في ذلك، ثم قال: ((إنما مرادنا من ذِكر ذلك لِيَكُونَ في بالكم، فربما تسمعون فيما يأتي بأشياء من هذا القبيل، فلا تُنكرونها وتَبْقون حسنين الظن بأصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، فالله الله بحسن الظن بالصحابة، نُوصيكم بذلك كثيراً، استوصوا بحسن الظن فيهم، وما كان لنا مطالعة في ذلك إلا لما وَصَلوا الزيدية إلى الجهة، احتجنا إلى المطالعة فيها، فطالعنا بِقَدْر ما نحتاج إليه^(١).

وكان تلاميذه يستشيرونه في ما يقوم به الزيدية، بعد أن تلاشت سلطة سلاطين آل كثير، وأصبح الأمر والنهي في حضرموت لهم، من إلزام المؤذنين بزيادة (حيّ على خير العمل) في الأذان، كما هو متواتر عنهم، وأنَّ جميع المساجد التزمت بذلك، إلا مؤذن مسجد بني علوي بتريم الشيخ عبدالله بن عمر بارضوان بافضل الذي رفض ذلك^(٢)، ومن الدعاء لإمامهم في خطبة الجمعة، ففي مكاتبه لتلميذه الشيخ أحمد بن عبدالله باوزير يقول له: ((وما ذكرتم من أنكم كُلفتم أن تدعو لإمام الزيدية في الخطبة، فبعض الشر أهون من كله، وليس في الدعاء له كبير محذور، ولكن المحذور إعطاء الزكاة لهم، يحكمون فيها بخلاف حكم الله ورسوله، فينبغي بل يجب أن لا تسلم إليهم، إلا بشرط أن يضعوها حيث وضعها الله، فإذا علمت هذا فلا وجه لترك صلاة الجمعة بسبب الدعاء لأهل البدعة، بل لو أُمَّ الناس مبتدع لم يجر ترك الجمعة إلا بشروطها. وقد كان السلف الصالح يصلون خلف ولاية الجور والفسق والابتداع، ويُدعى لهم على المنابر في أيامهم، ولم يُنقل لنا عن أحد منهم إنكار ذلك. نعم، بلغنا عن بعضهم إنكار الدعاء للظالم بالبقاء والتمكين، قال: لأن من دعا له بذلك فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه. وأما الدعاء لهم بالصلاح والهداية فلا بأس به، بل هو مستحب. ويكفي في سقوط الكراهة التي تترتب على الثناء والدعاء لهؤلاء، وجود الإكراه، لأننا ما فعلنا مختارين، بل مكرهين. وعلى الجملة: فاستشرف هذه الطائفة الطاغية إلى هذه الجهة والتفاتهم إليها مفسدة عظيمة وبلية عجيبة وداهية دهياء ومصيبة عظيمة. فيحق لكل مؤمن أن يتوجه إلى

(١) المرجع نفسه.

(٢) بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام، ص ٨٧، ١٢٤.

الله على نعت الاضطراب والافتقار في دفع شروهم، ورد ما يصدر منهم من البغي عليهم، وانعطاف ما يجيء منهم من الأذى إليهم. وهذه الأزمان لا يستغرب فيها الفتن والمحن^(١). هكذا كان الإمام الحداد يأمر تلاميذه بالانقياد لما قاله العلماء وعدم المصادمة التي ربما تؤدي إلى شر مستطير، وتوصل إلى ما لا يُحمد عقباه، وهذا ما نلمسه في مجموع كلامه ومكاتباته، فقد كان مرشدًا ومنقذًا من تلك الفتن، ولهذا تواتر عن السلف الصالح ومنهم الإمام أحمد قولهم: حاكم غشوم ولا فتنة تدوم.

ومن أولئك الزيدية الذي سألوا الإمام الحداد: الشيخ أحمد بن محمد الغشم الزيدي الذي أقام مدةً بمدينة تريم، قدّم له بعض المسائل التي يختلفون فيها مع عقيدة أهل السنة، وذلك في جمادى الأولى سنة ١٠٧٢ هـ، وقد أجابه الإمام الحداد بنقسي علميٍّ أورد فيه الدليل والتعليل، مبينًا له مذهب أهل الحق، حتى كاد يرجع عن معتقده، كما تقدم ذكره، ومن تلك الأسئلة: ما قولكم في أفعال العباد؟ فأجابه: اعلم وفقك الله تعالى أن مذهبنا والذي نعتقه وندين الله تعالى به، أن لا يكون كائن من خير وشر ونفع وضر، إلا بقضاء الله تعالى وقدره وإرادته ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وعندنا لذلك من النصوص السمعية الواضحة في الكتاب والسنة ومن البراهين العقلية المسلمة عند كل ذي بصيرة ما يجمل عن الحصر، وكتب أئمتنا التي ألفوها في علم أصول الدين طافحة بذلك، وهي في أيديكم.

ومذهبنا برزخ بين مذهبين: أحدهما مذهب الجبرية القائلين إنَّ العباد مجبورون على ما يأتون ويذرون، مقهورون مضطرون في كل حال، تضاهي أفعالهم أفعال الناسي والمُكره بل أفعال المجنون والنائم، وهذا المذهب يعرف بطلانه ببديهة العقل، لو لم يدل دليل على كونه باطلاً.

والثاني: مذهب المعتزلة القائلين إنَّ أفعال العباد الاختيارية خلقٌ لهم، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا.

وأما هيئة الكسب الذي نقول به فهو شيء يعرفه الإنسان من نفسه، إذ لا يعزب عن عاقل الفرق بين أفعاله الاضطرارية والاختيارية، وأنه في الاضطرارية منها مجبور، وفي الاختيارية غير مستقل.

(١) المكاتبات، مرجع سابق، ج ١ ص ١٧٠-١٧١.

والذي ذكرناه من مذهبنا أولاً يجب عندنا اعتقاده والإيمان به، ولا يصح الإيمان بدونه، وهو أن كل شيء أي شيء كان لا يكون إلا بقضاء الله تعالى ومشيئته سبحانه.

ومع ذلك فنحن نحس المطيع ونثني عليه ونحثه على التشمير في الطاعة، ونحذره الوقوع في المعصية، ونقول بإثابة الله تعالى له.

ونبغض العاصي وننهاه عن المعصية، وندعوه إلى الطاعة، ونقول بمعاقبة الله تعالى له، ونقيم الحدود، ونرفع المظالم إلى الولاة، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونعد قول العاصي مناً إذا قال عندما يقال له: لم عصيت؟ قال: هذا بقضاء الله وقدره، من أعظم الذنوب. والرضا بقضاء الله تعالى واجب عندنا، ومحله أن ترضى بأفعاله تعالى جملة، وأنها فضل وعدل.

ومن الرضا عندنا: سكون القلب عند ورود المصائب في الأنفس والأموال، وحصول الشدائد من المخاوف والفاقات، والرضا بالمعاصي معدود عندنا من كبائر الذنوب.

وسأله أيضاً عمّن حارب علياً - كرم الله وجهه - ونازعه من المسلمين؟

فأجابه: أعلم أن الذين باشر علي رضي الله عنه قتلهم بنفسه بعد أن خرجوا عليه، ثلاث طوائف: الأولى: أهل الجمل، الزبير وطلحة وعائشة رضي الله عنهم أجمعين، وأهل البصرة، خرجوا عليه بعد أن بايعوه يطلبون بدم عثمان رضي الله عنه. ولم يكن رضي الله عنه قتله ولا أمر بقتله ولا رضيه. ولكنه قبل البيعة من قتلته ولم يسلمهم؛ لأمر رأى في صلاح الدين واجتماع المسلمين في ذلك الحين، فلم يفتن له الخارجون عليه.

الثانية: أهل صفين معاوية وعمرو بن العاص وأهل الشام، ولم يبايعوا علياً، وخرجوا عليه يطلبون بدم عثمان.

الثالثة: أهل النهروان، وهم الخوارج، وقد بايعوه وقتلوا معه، ثم خرجوا عليه ينقمون تحكيم الحكمين يوم صفين، وما قاتل علي رضي الله عنه أحداً من هذه الطوائف إلا بعد أن دعاهم إلى الاجتماع والألفة والدخول في الطاعة، فأبوا.

وكلهم بغاة عندنا ومنازعون وخارجون بغير حق صريح وصواب واضح، نعم من خرج منهم وله في خروجه شبهة فأمره أخف ممن خرج ينازعه في الأمر ويطلبه لنفسه، والله أعلم بنياتهم وسرائرهم، وسلامتنا في السكوت عنهم. (تلك أمة قد دخلت).

وقال علماؤنا في شأن الزبير ومن معه ومعاقبة ومن معه: إنهم اجتهدوا فأخطأوا فلهم عذر. وعلى كل حال فغاية من خرج على الإمام المرتضى من أهل التوحيد المقيمين للصلاة المؤتين للزكاة أن يكون عاصياً، والعاصي عندنا لا يجوز لعنه بعينه.

وليس الخروج على الأئمة عندنا كفرًا، بل لا يجوز عندنا لعن أحد إلا إذا علمنا أنه مات كافراً، وأن رحمة الله تعالى لا تناله بحال كإبليس. ومع ذلك فلا فضيلة في لعن من هذا وصفه، ويجوز عندنا لعن العاصين والفاسقين والظالمين عموماً.

وأما الحسن والحسين (عليهما السلام) فهما أماما حقاً قد استجمعت فيهما شرائط الإمامة، وكملت أهليتهما لها.

فأما الحسن فبايعه أهل الحل والعقد ممن كان في طاعة الإمام علي، وذلك بعد مقتله، فلما سار إليه معاوية بجموع أهل الشام يقصد حربه، وسار هو إليه بجموع أهل العراق، فحين تقارب الفريقان، نظر الحسن نظر الرحمة والشفقة على الأمة؛ ليتم الله تعالى له ما قال جده (عليه السلام) فيه: (إن ابني هذا سيد، وإنني أرجو أن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين). الحديث.

فعند ذلك خلع نفسه وبايع لمعاوية على أن يكون له الأمر من بعده، في شرائط اشترطها. فمات رضي الله تعالى عنه قبل معاوية، فجعل الأمر معاوية إلى ولده يزيد، فبايعه الناس طوعاً وكرهاً، وأبى الحسين (عليه السلام) أن يبايع، فعند ذلك كتب إليه أهل العراق أن يصير إليهم ليملكوه عليهم، فأجابهم رضي الله تعالى عنه إلى ذلك وسار يقصد العراق. فكتب يزيد إلى عامله بها: عبيد الله بن زياد يحثه على حرب الحسين رضي الله تعالى عنه والوقعة به، فقام بذلك، ووافقه أهل العراق عليه بعد أن بايعوا الحسين، ودخلوا في طاعته بزعمهم، فقتل هنالك شهيداً في طائفة من أهل بيته رضوان الله عليهم.

والذي قتله والذي أمر بقتله والذي أعان على ذلك عندنا من الفاسقين المارقين عاملهم الله بعدله أجمعين.

وليس يزيد عندنا بمنزلة معاوية؛ فإن معاوية (عليه السلام) صحابي، وليس يترك الفرائض ويتتهك المحارم مثل يزيد، فيزيد فاسق بلا شك؛ لأنه كان يترك الصلاة، ويقتل النفس، ويزني، ويشرب الخمر، وحسابه على الله تعالى.

وسأله الزيدي المذكور: ما قولكم في هذه الجموع التي نراها في مساجدكم، تشد فيها الأشعار الغزلية بالنغمات الطيبة والألحان الموزونة؟

فأجابه: اعلم أنها ليست عندنا من الذكر، ولا هي مثله، ولكنها شيء مباح، وتركها أفضل، وقد أنشد الشعر عند رسول الله ﷺ واستنشد، وربما تمثل عليه الصلاة والسلام بالبيت والبيتين منه، وأنشد في مسجده بحضرته، أنشده حسان وغيره، ويثبت الجواز بمرة إذا لم يقع النهي عنه.

وهو وإن كان لم يُنشد عند رسول الله ﷺ بالألحان، فإنه مهما صح إنشاده بدونها لم يحرم إنشاده بها، حتى يدل على تحريمه دليل واضح من السنة، ولم يرد ذلك.

وبعض الفضلاء الأخيار العارفين بالزمان وأهله وما هم عليه من الكسل عن العبادة، وقلة الرغبة في الخير يرى أن جمعهم على الذكر لله تعالى مع إدخال شيء فيه من الأشعار الصحيحة المعاني والمباني، مما لا بأس به؛ لأن للنفس ميلاً إليها، فيقودهم بواسطته إلى الاجتماع على ذكر الله تعالى، ولكل امرئ ما نوى، والمطلع على السرائر هو الله سبحانه وتعالى.

ومن ساء ظنه وخبث طوبته رأى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، ولا أقل من الإنصاف ولا أقل من التوقف في مواطن الإشكال.

ومن لم يعرف الحق وجب عليه طلب معرفته من أهله، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو رد، وكل ما فارق هدي السلف الصالح فهو شر، إن كانت المفارقة على سبيل المضادة والمعادنة، وإلا فالحق واسع. والجواز غير الفضيلة، وليس الجائز كالمندوب، ولا المندوب كالواجب. ونحن على بصيرة من أمرنا وهدى من ربنا، وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بين أظهرنا، ولسنا جاهلين بأمر الدين ولا مبتدعين فيه، ولا متبعين الأهواء المضلة، ولا متحكمين بعقولنا في دين الله تعالى، ونقبل الحق ممن جاء به ونرجع إليه، ولا نكابرو ولا نقلد الرجال.

فافهم ما ألقيناه إليك وأمليناه عليك من الجواب على أسئلتك، فإنه ما من كلمة من الكلام الذي أوردناه إلا وعندنا لها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وكلام أئمة الهدى أدلة واضحة حذفناها اختصاراً. وخير الكلام ما قل ودل. (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً).

والظاهر أنك متعصب على مذهبك، لا تقبل إلا ما وافقه، ولا ترى الحق إلا فيه، فإن صح هذا فليس للكلام معك فائدة، اللهم إلا إن كنت تعتقد في مذهبك أنه حق، وأن الحق ليس محصوراً فيه ومقصوراً عليه، حتى تضلل وتخطيء من خرج عنه قيد شبر. فإن كنت كذلك أعني لا تعتقد أن الحق مقصور على مذهبك، فللكلام معك فوائد، ولأجلها وعلى رجاء حصولها أجنبناك.

منها أن لا تعتقد خلو هذه الجهة عمن يعرف الحق، ويقدر على التعبير عنه، ويناضل ويدافع من حاد عنه بلسانه وسيفه وسانه وأنصاره وأعوانه، حسب استطاعته وإمكانه، ولن يذم بالعجز والقصور من بذل الاستطاعة واستفرغ الطاقة.

ومنها: أنك أقمت في هذه المدينة - أي تريم - مدة وتزعم أنك تحبها، وتحب أهلها، وقد حان حين مفارقتك لها، فلا ينبغي أن تسير منها منطوياً على سوء الظن بأهلها لما رأيت منهم بزعمك، وهم أهل البيت الذين طهرهم الله تعالى، وفرض عليك وعلى سائر المسلمين مودتهم وموالاتهم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب^(١).

بهذه الإجابات القيمة وضع الإمام الحداد الدواء الناجح على الجرح، وفند تلك الشبهة والمزاعم التي يثيرها اليوم كثير من الروافض والخوارج للوقية في صحابة النبي ﷺ ليخدموا بها أعداء الله باسم الدين وباسم النصر لآل البيت والسنة المطهرة، وهم بريئون منها كبراء الذئب من دم يوسف.

كما كان للإمام الحداد أثر بارز في التحذير من التصوف الفلسفي الذي يرمي إلى وحدة الوجود وإلى الشطح وغيرها، فلهذا كانت مؤلفاته خير شاهد على ذلك، كما يقول حفيده مفتي حضرموت العلامة عبدالله بن محفوظ الحداد المتوفى سنة ١٤١٧هـ: ((إن أهل حضرموت القدماء إنما كان تصوفهم بالزهد في الدنيا والتزام كتاب الله وسنة رسوله على غرار الأوائل الصادقين أمثال الجنيد وأصحابه. وكل عمل يُعرض على كتاب الله وسنة رسوله، فما شهد له أخذوا به، وما خالفه نبذوه، والشاهد على ذلك كُتِبَ الإمام الحداد:

(١) النفائس العلوية في المسائل الصوفية ص ٨٠-٨٣، دار الحاوي للطباعة والنشر التوزيع، الطبعة الأولى سنة ١٤١٤هـ، والمكاتبات ج ١ ص ٣٥١-٣٦٠.

النصائح والدعوة التامة والمعاونة والمذاكرة، وهو إمامهم في القرن الحادي عشر. فهل يجد المنكرون فيها ما يُنكر وهي متداولة بين الجميع؟ بل إنهم قد كانوا يحذرون أشد التحذير من التصوف المنحرف المؤدي إلى القول بالباطن وبذو الظاهر، أو ذلك الذي يؤدي إلى القول بوحدة الوجود؛ لأنهم أبعد الناس عنه. حتى لقد سئل الإمام الحداد: هل تقولون بوحدة الوجود؟ قال: لا، نحن نقول بوحدة الشهود، يعني نشهد الله في كل شيء؛ لأن مخلوقاته دليل عليه لا أنها هو. ولهذا كانوا يحذرون من قراءة كتب ابن عربي وابن سبعين والحلاج وأصحابهم، ولهذا فإن من الظلم المقصود تعميم الحكم على التصوف والصوفية وفيهم الصادقون الملتزمون بالكتاب والسنة^(١).

ثالثاً: تلاميذه وأثرهم العلمي الدعوي والاجتماعي في حضرموت

للإمام الحداد تلاميذ كثر أخذوا عنه العلوم الشرعية واللغوية العقلية والنقلية، وتصدروا للتدريس، وقاموا بتأليف المؤلفات، وانتشروا في شتى مناطق حضرموت الوادي والساحل واليمن وعمان والأحساء وإفريقيا والهند وغيرها، لا نستطيع أن نحصرهم، ومن أبرزهم:

- ◆ أبنائه الأئمة الأعلام: الحسن، والحسين، وعلوي، وسالم، ومحمد، وزين.
- ◆ الإمام الحسين بن عمر بن عبدالرحمن العطاس المتوفى سنة ١١٣٩ هـ.
- ◆ الإمام العلامة أحمد بن زين الحبشي المتوفى سنة ١١٤٥ هـ.
- ◆ العلامة محمد بن زين بن عمر بن سميط المتوفى سنة ١١٧٢ هـ.
- ◆ العلامة عمر بن حامد المنفر المتوفى سنة ١١٥٤ هـ.
- ◆ السيد العلامة عمر بن عبدالرحمن البار المتوفى سنة ١١٥٨ هـ.
- ◆ الشيخ محمد بن ياسين باقيس المتوفى سنة ١١٨٣ هـ.
- ◆ علامة الدنيا الإمام عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه المتوفى سنة ١١٦٢ هـ.
- ◆ العلامة سقاف بن محمد السقاف المتوفى سنة ١١٩٥ هـ.

وحسبنا في هذا المبحث أن نشير إلى ما كان لتلاميذه الأفذاذ من أثر اجتماعي ودعوي في مجتمعات حضرموت ساحلاً ووادياً، فهذا تلميذه العلامة الحسين بن عمر بن عبدالرحمن

(١) التوعية الدينية عن طريق الخطب المنبرية، ج ١ ص ٣٠، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

العطاس يفاوض قائد جيش الزيدية الصفي بن أحمد بن القاسم، عندما وفد إلى حضرموت في آخر شهر رجب الأصم سنة ١٠٧٠ هـ انتصاراً لحليفه السلطان بدر بن عمر بن بدر الكثيري ضد ابن أخيه السلطان بدر بن عبدالله بن عمر الكثيري، عندما أرسله والده الإمام عمر بن عبدالرحمن العطاس مع أخيه سالم لمفاوضته وثنائه عن المحاربة، وكتب له معهما كتاباً قال فيه: ((انظر إلى أهل حضرموت بعين الرحمة ينظر الله إليك بها)). فلما قرأه قال لمن عنده: ((إني لما نظرت إلى هذا الكتاب طرح الله في قلبي الرحمة العامة لأهل حضرموت)). ثم قال لهما: ((إني أرى عليكما سيما الخلافة ومخايل النجابة، إن قبلتما مني هذه الأرض وجهتها إليكما، والله لولا ما ابتليت به من هذا الجيش لأتيت إلى والدكما وزرته)). كما نقل تلك الحادثة بالتفصيل تلميذه السيد العلامة علي بن حسن العطاس في كتابه القرطاس^(١).

وذاك تلميذه العلامة الكبير أحمد بن زين الحبشي يقوم بنشر الدعوة العامة في قرى وبلدان حضرموت ودوعن، وتأليف عشرات الكتب، وبعضها شرح لقصائد شيخه الحداد كالعينية والبائية والرائية، وقد انتشرت مؤلفاته، ومنها الرسالة الجامعة، في أقاصي البلاد، وقام ببناء الكثير من المساجد والزوايا في وادي حضرموت^(٢).

وهذا تلميذه العلامة محمد بن زين بن سميظ ينتقل إلى شبام ويتصدر في مدارسها في زاوية بن أحمد قرابة أربعين سنة، ناشراً للعلوم الفقهية والحديثية والسلوكية، وترجم لشيخه في (غاية القصد والمراد)، واختصره في (بهجة الفؤاد)، وتلاميذه في (أنس الراغب)، وقام ببناء وتجديد بعض المساجد والسقايات للشرب^(٣)، وكان له مع زميله العلامة سقاف بن محمد السقاف أثر بارز في أيام الغزو المكرمي الخارجي على حضرموت، كما يحدثنا الأستاذ محمد بن هاشم عن ذلك الأثر الاجتماعي بقوله: ((خرج حسن وهبة المكرمي في النصف الأخير من القرن الثاني عشر، وهو من البحرين من جهة عمان، خرج إلى حضرموت، وحط على شبام حرسها الله ومعه جيش كبير من نواحي اليمن، وطال حصره لشبام، واضطربت حضرموت لقدمه، وظل الناس في خوف شديد، وحارت العقول في شأنه، وكان الإمام

(١) العطاس، مصطفى عبدالرحمن، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت ص ٩٥، ٩٦، ١٠٤.

(٢) بن سميظ، محمد بن زين، قرّة العين وجلاء الرين ص ٣٩-٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص س-ظ.

محمد بن زين بن سميط العلوي يهدئ البلاد ويشبتهم، وقد كاتب المكرمي وأحسن له الخطاب، وقال له فيه: إِنَّ الأولى لك أن تنصرف عن البلدة ما زلت مجللاً محترماً وإلا فما يدريك ماذا يكون بعد؟ فرد عليه المكرمي ردّاً جميلاً، وكان السيد المشار إليه كهفاً وملجأً ومنشطاً للجند الوطني، حتى قال بعضهم: لولا الحبيب محمد لاختلدنا. وكان يقول لهم: اثبتوا فالأمر هين دون ما تتوهمون. ولم تطل إقامة المكرمي تحت شبام، بل رحل عنها مكسوراً بعد أن هلك من رجاله العدد الكثير، واضطر إلى المصالحة بعد أربعين يوماً.

والرجل إباضي، ومعه من الجند نحو أربعة آلاف، فكان يتظاهر بنصر الشريعة الغراء، ويدعي أنه إنما جاء لمحو سلطة الطاغوت، وكان ذلك في عصر الإمامين العلويين محمد بن زين بن سميط وسقاف بن محمد الصافي، ولما أظهر المكرمي من العدل ونصرة الشريعة، كتب الإمام سقاف إلى الإمام محمد بن زين يطلب منه الدعاء للمكرمي والدعاية له، فأجابه: إن يك هو على حق فإننا نكتفي في الوقت الحاضر بدعاء المنابر له. يشير إلى قولهم في الدعاء: وأصلح مَنْ في صلاحه المسلمين إلخ، ولكن المكرمي لم يلبث أن أظهر ما هو منطو عليه من الدعوة الإباضية، واندفعت جنوده في نهب الأموال وانتهاك الحُوط وقطع السبل وإهلاك الحرث، فانقلبت الدعاية ونفرت القلوب منه.

ويقال إن المكرمي كان صاحب سحر وشعوذة وطلاسم، وإنه لما حط رحاله تحت شبام وسكن في بعض بيوت السحيل وحار في أمرها، اعتزل الناس في موضع وحده، وجعل ينصب أعلاماً معه، ويتمتم بتمايم، ويسطر طلسمات لم تغن عنه شيئاً^(١).

في حين يذكر صاحب تاريخ الشعراء الحضرميين أن المكرمي جاء إلى حضرموت عام ١١٧٥ هـ وهو نجدي، بجيش جرار عسكر به في مسيل شبام الكائن في ضاحيتها الجنوبية لاكتساح حضرموت من أقصاها إلى أقصاها، وإخضاعها تفتيلاً ونهباً وعبثاً، بدعوى العقيدة السيئة، وحمل الحضرميين على اعتناق مذهبه الوهابي، فإننا نرى الرعب والهلع قد غمرا عموم الحضرميين نساء ورجالاً وأطفالاً.

وإذا كانت حضرموت كلها قد جنت عن مناهضته ومنازلة جيوشه؛ لقلّة الحضرميين السلاحيين، وكثرة جموعه، وقوة بأس النجديين، وضعف الوطنيين وتخاذلهم وتفرق

(١) تاريخ الدولة الكثيرة، مرجع سابق، ص ١٥٥، ١٥٦.

كلمتهم، ولم يصمد له غير السيد سقاف بن محمد السقاف متفاوضاً معه في أحد بيوت شبام، بعد أن علم المكرمي مكانته ونفوذه، وما زال يفاوضه لإقناعه حتى أسفرت المفاوضة عن اقتناع تام، والحيلولة بينه وبين حضرموت، فیرتحل إلى نجد من غير أن یمس حضرموت بإیذاء، كما تعهد لمفاوضه بذلك^(١).

وعلى العموم فالمكرمي خارجي من الخوارج، وهو ما يوصف به الإباضية والوهابية عقدياً، كما ذكره مفتو المذاهب الأربعة السنية ابن عابدين الحنفي والصاوي المالكي وابن دحلان الشافعي ومحمد النجدي الحنبلي، يقول المؤرخ الطيب بامخرمة: ((المُكرمي: بالضم وسكون الكاف، من ينسب إلى عسكر مكرم جماعة، وبفتح الكاف وتشديد الراء طائفة من الخوارج نسبوا إلى مكرم كذا في «الزوائد»))^(٢).

خاتمة :

يعد الإمام الحداد من أبرز علماء حضرموت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، وقد كان له أثر فعال وكبير في مجالات الحياة الدعوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وكان له أثر كبير في الإصلاح الاجتماعي في حضرموت، وتكتظ مكاتبه بهذا الشأن، وكذلك مجموع كلامه المنشور، فقد كان رجلاً وطنياً غيوراً على وطنه، مجاهداً بالكلمة والفعل، لم يعتكف في محرابه متبتلاً، بل كان يرسل السلاطين ومعاونيهم، وينصح لهم، وربما حذرهم من عواقب الأمور، لأنه بصالح السلطان يصلح الدين، ويقوم بإصلاح ذات البين، وعقد الصلح بين القبائل المتناحرة في وادي حضرموت ودوعن والساحل، وربما أرسل لذلك أحد أبنائه أو طلابه، وكان يرشد الطلاب والمستفتين، فقد كان حقاً كما ينعتة أجدادنا الحضارمة «حداد القلوب».

كما قام بمواجهة الأفكار الدخيلة على حضرموت كالفكر الزيدي المعتزلي، والفكر الإباضي الخارجي، والتصوف الفلسفي، وبيّن فسادها، وحرّر عقيدة أهل السنة والجماعة

(١) السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين ج ٢ ص ١٧٣.

(٢) النسبة إلى المواضع والبلدان ص ٦٠٤.

الفرقة الناجية والسواد الأعظم من المسلمين تحريراً مفصلاً، وختم بها كتابه الفريد المسمى بـ(النصائح الدينية والوصايا الإيمانية) الذي ألفه عام ١٠٨٩ هـ.

هذا هو الإمام الحداد، ذلك الشيخ الكفيف الذي سبق زمنه، كما يقول عنه الأستاذ محمد التونسي في كتابه (العرب في إندونيسيا): «أن السيد عبدالله بن علوي الحداد جاء قبل أوانه، فهو شخص عظيم يجب أن يقارن بأعظم علماء اليوم»^(١).

وهذه مؤلفات العلمية القيمة التي اشتملت على زبدة علم التصوف السني الذي كان يدعو إليه بحاله ولسانه وقلمه، والذي أحياه أجدادنا الحضارمة وعاشوه في حياتهم اليومية القائمة على النسك والزهد والورع والخوف من الله، ونقلوه إلى مهاجرهم المتعددة، وكان الإمام الحداد حاضراً معهم في حلهم وترحالهم بأوراده المأثورة، كراتبه الشهير الذي يقرأ بعد حزب القرآن قبيل أذان العشاء أو بعده أو بعد الصلاة مباشرة، وورده اللطيف الذي يقرأ بعد صلاة الفجر، وقصائده الابتهالية التي يلهجون بها في جميع أحوالهم (يا رب يا عالم الحال، إليك وجهت الآمال، فامن علينا بالإقبال، وكن لنا واصلح البال)، (ألا يا الله بنظرة من العين الرحيمة، تداوي كل ما بي من أمراض سقيمة)، وغيرها من القصائد التي يتزين به ديوانه، والتي تنشد في المجالس والمناسبات المختلفة، وهي تحدد القلوب والأرواح إلى بلاد الأفراح، وبمؤلفاته الإرشادية التي تقرأ في روحاتهم العصرية.

وجدير بنا أن نختم هذه الدراسة بما ختم به الأستاذ الشاطري ترجمته للإمام الحداد بقوله: ((يمتاز الحداد بتاريخ حافل بالنبوغ والحصافة والتفوق، وقد صُنِّفَت مصنفات كثيرة عن حياته المديدة السعيدة، يمكن أن يستمد منها بغزارة من أراد الكتابة بإسهاب عنه، وحبذا لو قدم من أراد شهادة الدكتوراه من أبناء هذه البلاد عن هذا الإمام))^(٢).

نأمل أن نكون وفقنا فيما توخيناه من هذا البحث، وأتقدم بخالص الشكر والتقدير لإدارة مركز حضرموت للدراسات والتوثيق والنشر على عقد مثل هذه المؤتمرات العلمية القيمة التي تخدم التاريخ والتراث العلمي لحضرموت، وتبرز جهود أولئك الأعلام، راجين لهم التوفيق في أعمالهم المستقبلية، والله من وراء القصد.

(١) شمس الظهيرة، مرجع سابق، ج ٢ ص ٥٧١.

(٢) أدوار التاريخ، مرجع سابق ص ٣٣٦.

قائمة المصادر والمراجع

١. أحمد بن زين الحبشي، المسلك السوي في جمع فوائد مهمة من المشرع الروي، تحقيق عبدالرحمن طه الحبشي، دار مقام الإمام أحمد بن زين، حضرموت ٢٠٠٤م.
٢. أحمد عبدالكريم الحساوي، تثبيت الفؤاد بذكر مجالس القطب عبدالله الحداد، نسخة إلكترونية، المكتبة الشاملة.
٣. الطيب بن عبدالله بامخرمة، النسبة إلى المواضع والبلدان، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مركز الوثائق والبحوث، أبوظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
٤. عبدالرحمن محمد المشهور، شمس الظهيرة في نسب أهل البيت من بني علوي، تحقيق وتعليق محمد ضياء شهاب، الطبعة الأولى، علم المعرفة، جدة، ١٩٨٤م.
٥. عبدالله بن حسن بلفقيه، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، تعليق العلامة علوي بن طاهر الحداد، تحقيق وتقديم مصطفى عبدالرحمن العطاس، تريم للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٦. عبدالله بن علوي الحداد، النصائح الدينية والوصايا الإيمانية للإمام الحداد، تحقيق وتعليق الشيخ حسنين محمد مخلوف، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٦م.
٧. عبدالله بن علوي الحداد، النفائس العلوية في المسائل الصوفية، دار الحاوي للطباعة والنشر التوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٨. عبدالله بن محمد السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، الطبعة الثالثة، مكتبة المعارف، الطائف، ١٤١٨هـ.
٩. عبدالله محفوظ الحداد، التوعية الدينية عن طريق الخطب المنبرية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٠. عمر أبوبكر باذيب، نزهة الطالب في روضة الراتب، دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.



١١. فضل بن علوي مولى الدويلة، أدلة الورد والراتب، نسخة إلكترونية، المكتبة الشاملة.
١٢. محمد بن أحمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م.
١٣. محمد بن زين بن سميطة، قرة العين وجلاء الرين في مناقب الإمام أحمد بن زين، دار مقام الإمام أحمد بن زين، حضرموت، ٢٠٠٨م.
١٤. محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرة، تريم للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م.
١٥. محمد عبدالقادر بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام، الطبعة الأولى، دار حضرموت للدراسات والنشر، ٢٠٠١م.
١٦. محمد علوي باهارون، الكنز المدفون في ترجمة الحبيب محمد بن هارون، تحت الطباعة.
- مكاتبات الإمام عبدالله بن علوي الحداد، عني بطبعه: علي بن عيسى الحداد، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ١٩٨٠م.



المظاهر السياسية والحضارية للسلطنة الكثيرة في مدينة الشحر وعلاقاتها الخارجية خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي

محمد حسين محمد بن الشيخ أبوبكر
جامعة حضرموت

الملخص:

يتناول هذا البحث المظاهر السياسية والحضارية للسلطنة الكثيرة في الشحر وعلاقاتها الخارجية، وتحديدًا خلال القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، تلك السلطنة التي نشأت في حضرموت، حيث شهدت البلاد عددًا من الأحداث السياسية كانت نتيجتها بروز عدد من الكيانات السياسية المستقلة في أهم المدن الحضرمية كالشحر وسيئون وتريم وشبام، وهي كيانات كانت أشبه ما تكون بدويلات المدن. وتكمن الأهمية التاريخية للسلطنة الكثيرة في أنها تمكنت من توحيد أجزاء واسعة من حضرموت تحت سلطة واحدة، كما ربطت مناطق الساحل الحضرمي بداخله.

يهدف البحث إلى محاولة سبر أغوار التاريخ، وعرض وتتبع المحاولات الأولى لنشأة السلطنة الكثيرة، ثم المراحل والمنعطفات السياسية التي خاضها السلاطين والأمراء الكثيرون في سبيل تثبيت سلطتهم، والمخاطر والتحديات التي واجهتها السلطنة، وازدياد الصراع الأسري الكثيري على الحكم، وما نتج عنه من تدخل القوى الخارجية مثل الدولة القاسمية في شمال اليمن والقبائل اليافعية، مما أدى إلى ضعف السلطنة الكثيرة تدريجيًا ثم انهيارها.

كما تضمن البحث علاقات السلطنة الكثيرة بالقوى الدولية والإقليمية حينذاك مع كل من البرتغاليين والدولة العثمانية، إضافة إلى الدولة القاسمية في شمال اليمن وأخيرًا مع الهولنديين.

وفي جانب المظاهر الحضارية حاولنا تتبع بعض تلك المظاهر، والتي شملت التوسع العمراني لمدينة الشحر في تلك الحقبة، إضافةً إلى النواحي العلمية وكذا الجانب الاقتصادي، وما تميزت به السلطنة الكثيرة من استقرار سياسي آنذاك ألقى بظلاله على ازدهار التجارة وانتعاشها في ميناء الشحر. وخير دليل على ذلك ما وصلنا من معلومات مفيدة من وثائق التجار الهولنديين، والتي تعود إلى القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وأول من بدأ هذا العمل هو (فن دن بروك)، في ٣٠ مايو ١٦١٣م / ١٠٢٢هـ، وسجّل وصفًا دقيقًا لميناء الشحر، ونشاطه التجاري، وقائمة المكوس والأوزان، وأنواع العملة، وأسعار السلع السارية في الشحر، والسفن التي وصلت إليها.

تكمّن أهمية الموضوع في كونه يسلط الضوء على جانب مهم من جوانب التاريخ السياسي والحضاري للسلطنة الكثيرة في مدينة الشحر، ولتاريخ حضرموت عمومًا. يتبع البحث منهج البحث التاريخي، مع الاستفادة من المنهج الوصفي والتحليلي، وينتهي بخاتمة مع أهم النتائج والتوصيات وقائمة بالمصادر والمراجع.

كلمات مفتاحية: مدينة الشحر - المظاهر السياسية - الحضارية - العلاقات الخارجية - التوسع العمراني.

المقدمة:

كان للموقع الجغرافي لمدينة الشحر أثرٌ مهمٌ في الحياة السياسية، فقد اهتمت جميع القوى المحلية والخارجية بالسيطرة على المدينة؛ طمعًا في مينائها الشهير الذي يمثل عصب الحياة الاقتصادية في حضرموت، بما يتمتع به من تجارة واسعة، ممّا شكل دافعًا اقتصاديًا لفت أنظار تلك القوى.

وعظم بذلك شأن المدينة، وأقبل التجار والعلماء والأدباء على الإقامة بها والتردد إليها، ولم تستطع أية مدينة ساحلية في حضرموت أن تنافسها أو تجاريها في مضمّار^(١).

تقع مدينة الشحر على الشريط الساحلي لمحافظة حضرموت، يحدها من الغرب مدينة المكلا ومديرية غيل باوزير، ومن الشرق مديرية الديس الشرقية والريدة وقصير، ومن

(١) باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، ط١، (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٧٥م)، ص ١٧٣.

الشمال غيل بن يمين والأطراف الجنوبية لهضبة حضرموت، ومن الجنوب بحر العرب^(١). وتقع الشحر أيضًا على ساحل بحر العرب على خط عرض ١٤،٤٤ شمالًا، وخط طول ٤٩،٣٩ شرقًا^(٢)، وتبعد عن مدينة المكلا بنحو ٦٥ كيلو مترًا تقريبًا إلى الشرق. والشحر: بكسر الشين وسكون الحاء بعد راء مهملة، هي ساحل اليمن، الممتد بينها وبين عُمان^(٣)، وكانت الشحر اسمًا يُطلق على جميع ساحل حضرموت وأرض المهرة إلى عُمان، ثم صار في عُرف متأخر اسمًا للمدينة التي كانت تسمى (الأسعاء) وهي أهم مدينة على الساحل حينذاك^(٤)، وهي ميناء حضرموت، ويُنسب إليها اللبان الشحري^(٥). وتعد الشحر أقدم ميناء في جنوب شبه الجزيرة العربية، فقد كانت الميناء الثاني لمملكة حضرموت القديمة، والميناء الأول والرئيس لحضرموت في العصور الوسطى^(٦). ويعود ارتفاع شأن مدينة الشحر - التي كانت تسمى من قبل بالأسعاء على الأرجح - وتحولها إلى مركز رئيس من مراكز الحياة السياسية لحضرموت في العصور الوسطى، وذلك بسبب موقعها الاقتصادي المهم مثلها مثل عدن وظفار. وقد استمرت مكانتها المهمة هذه حتى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي^(٧).

(١) المركز الوطني للمعلومات، الجمهورية اليمنية، التقسيم الإداري لمحافظة حضرموت، مديرية الشحر، ٢٠١٠م.

(٢) عكاشة، محمد عبد الكريم، قيام السلطنة القيعطية والتغلغل الاستعماري في حضرموت، ط ٢، (الأردن: دار ابن رشد للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م)، ص ٣٢.

(٣) الحامد، صالح بن علي، تاريخ حضرموت، ط ١، (جدة: مكتبة الإرشاد، ١٩٧٦م)، ج ١، ط ٢، ص ٥٥٧.

(٤) السقاف، عبدالرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت، المسمى إدام القوات في ذكر بلدان حضرموت، تحقيق: إبراهيم المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، ط ١، (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ٢٢٧.

(٥) بامخرمة، أبو محمد عبدالله الطيب، تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل، ط ٢، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ج ٢، ص ٦٦.

(٦) Serjent R.B the ports of Aden and Shihr (medieval Period) 1981، p.45

(٧) Serjent R. the ports of Aden and shihr (medieval Period) B1981p.207-224

ارتبط تاريخ حضرموت منذ أن دخل الإسلام إليها بتاريخ الدولة العربية الإسلامية العام، إذ أصبحت جزءاً من الكيان الإسلامي السياسي الكبير، فقد خضعت لعاصمة الخلافة في المدينة المنورة، ثم الكوفة، ثم دمشق، ثم بغداد، وذلك لمدة قرنين من الزمان^(١).

وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بدأت اليمن تشهد قيام الدويلات المستقلة عن الحكم العباسي، وخضعت حضرموت أو أجزاء منها لحكام تلك الدويلات ومن هذه الدويلات التي قامت في اليمن ومدت نفوذها إلى حضرموت ومدينة الشحر: الدولة الزيدانية (٢٠٤ هـ - ٣٠٩ هـ / ٨١٩-٩٢١م)، ثم الدولة الصليحية (٤٣٦ هـ - ٥٣٢ هـ / ١٠٤٤-١١٣٧م) التي بسطت نفوذها على الشحر سنة (٤٥٥ هـ / ١٠٦٣م)، وعندما ضعف حال الصليحيين انقسمت حضرموت على ثلاث نواح مستقلة هي تريم وشبام والشحر، وقامت في الثالثة سلطنة آل فارس، وكان أولهم عبد الباقي بن فارس بن راشد بن إقبال الكندي الحضرمي، ومركزهم مدينة الشحر^(٢)، وتعود نشأة هذه الإمارة إلى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري (١١-١٢م).

أما الدولة الأيوبية (٥٦٩ هـ - ٦٢٦ هـ / ١١٧٦-١٢٢٨م) فقد امتد نفوذها إلى حضرموت ومدينة الشحر سنة (٥٧٥ هـ / ١١٧٩م)، ولم يكن الحكم الأيوبي في حضرموت حكماً مباشراً، ولذا فقد شهد الربع الأخير من القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع الهجري (١٢-١٣م) تمردات واسعة في حضرموت هدفها رفض التبعية للأيوبيين، وقد نجحت قبيلة نهد في تحقيق الاستقلال وفرض سيادتها على حضرموت الساحل والداخل، وكان ذلك في سنة (٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م).

وعندما قامت الدولة الرسولية باليمن (٦٢٦ هـ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨-١٤٥٤م) حكمت الشحر ما بين سنة (٦٧٧ هـ - ٨٣٦ هـ / ١٢٢٨م - ١٤٣٢م)، وكان حكم الرسولين يتأرجح بين القوة والضعف، فقد ناوشتهم القبائل المجاورة في داخل المدينة وخارجها، وبسبب تلك المناوشات وكذا الضعف العام الذي دبّ في أوصال دولة الرسولين؛ استطاع محمد بن

(١) الجعدي، عبدالله سعيد، (دكتور)، السلطنة الكثيرة الأولى في حضرموت (٨١٤-١١٤٣ هـ/

١٤١١م-١٧٣٠م)، ط١، تريم للدارسات والنشر، تريم، حضرموت، ٢٠١٤م، ص١٩.

(٢) بامطرف، محمد عبد القادر، الشهداء السبعة، ط٢، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن،

١٩٨٣م، ص ٢٩. عكاشة، محمد عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٣٠.

سعيد بن فارس -ويكنى بـ(بادجانة)- من احتلال الشحر وإنهاء الوجود الرسولي فيها سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٥٤م، ونقل مركز إمارته من حيريج إلى الشحر، وقد ساعده في ذلك المئات من أبناء الشحر^(١).

وبعد ذلك حاول الطاهريون (٨٥٠ هـ - ٩٢٣ هـ/ ١٤٤٦-١٥١٧م) مد نفوذهم إلى الشحر، غير أن أبا دجانة تصدى لتلك المحاولات، ولم يكتف بذلك بل حاول في سنة (٨٦١هـ/ ١٤٥٦م) احتلال عدن عاصمة الدولة الطاهرية، إلا أنه فشل، ووقع أسيرًا في يد الطاهريين، وسقطت الشحر بأيديهم سنة (٨٦٦هـ/ ١٤٦١م)، لكنهم ما لبثوا أن جلوا عنها بعد أربعة أعوام؛ بسبب الصعوبات التي كانوا يواجهونها في شمال اليمن، وأنابوا عنهم في حكم الشحر بدر بن محمد الكثيري، وهذه هي المرة الأولى التي يحكم فيها آل كثير الشحر. وفي سنة (٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م) توفي السلطان محمد سعيد أبو دجانة في حيريج، وخلفه ابن أخيه الأمير فارس بن مبارك، وكان شابًا طموحًا، فهاجم مدينة الشحر وانتزعها من السلطان بدر بن محمد الكثيري، ولكن في سنة (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م) استعاد السلطان بدر بن محمد الكثيري الشحر، وهو أول من حكمها من آل كثير^(٢). وكان ذلك أول اتصال لآل كثير بالشحر^(٣).

لم يطل المقام ببدر بن محمد الكثيري في الشحر، إذ طرده منها الأمير سعد بن مبارك بن فارس بادجانة، واستولى عليها في سنة (٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م)، وبقي حاكمًا بها إلى أن انتزعها منه السلطان جعفر بن عبدالله الكثيري^(٤) سنة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) بعد معركة نشبت بينهما

(١) بامطرف، محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٣٤، ٣٣.

(٢) شنب، أحمد بن عبدالله بن علوي، تاريخ حضرموت، المسمى تاريخ شنب، ط ٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٤م.

(٣) الحامد، صالح علي، المرجع السابق، ص ٥٣٧.

(٤) السلطان جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري: كان تاجرًا في ظفار، ثم شجعه الشيخ عمر المحضار على تولي سلطنة بور. وفي سنة ٩١٠هـ/ ١٤٩٥م انتزع الشحر من آل بادجانة، وقتل في بور سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م، وهو والد عبدالله بن جعفر الذي سميت باسمه دولة آل عبدالله الكثيرية. بامطرف، المرجع السابق، الحاشية ٧، ص ١٢٣.

على مشارف قرية تباله^(١). وبذلك سقطت الشجر نهائياً بيد الكثيرين^(٢).

قيام السلطنة الكثيرة:

إن تاريخ السلطنة الكثيرة كان في أغلبه تاريخ الصراع القبلي في حضرموت، وقد اختلفت فيه أدوار آل كثير من موقع الدفاع عن النفس إلى المشارك والمهاجم، وذلك باختلاف تطور أدوار النفوذ الكثيري في حضرموت^(٣).

يُعد علي بن عمر بن جعفر الكثيري، الذي وُلِدَ في ثمانينيات القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي (٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م)، أوّل سلطان يُحوّل القبيلة الكثيرة إلى دولة منظمة، وهو أوّل من نُودي به سلطاناً من آل كثير في حضرموت، وكان ذلك في سنة (٨١٤هـ/ ١٤١١م)^(٤). وحقيقة الأمر أن هناك نجاحات ميدانية حققها السلطان المؤسس علي بن عمر الكثيري، كان أهمها توسيع نطاق نفوذ آل كثير في داخل حضرموت وساحلها، وتمكنهم من السيطرة على عدّة من القرى والبلدات المهمة في حضرموت^(٥).

إن الأهمية التاريخية للسلطان علي بن عمر تكمن في أنه كان المنقذ لآل كثير؛ فقد جابه التحديات المفروضة، وأعاد تنظيم صفوف الكثيريين، ونقلهم إلى وضع أفضل مما كانوا عليه قبل، ولكنه لم يستمر في الحكم طويلاً، إذ توفي في سنة (٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م)^(٦).

بعد وفاة السلطان علي بن عمر الكثيري تعاقب على حكم السلطنة إلى سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م سبعة سلاطين من أبنائه وأحفاده، وقد تميزت مدة حكمهم باستمرار الصراع وآثاره

(١) تباله: قرية تقع على نحو سبعة أميال إلى الشمال من الشجر.

(٢) بافقيه، الطيب محمد بن عمر، تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط ١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٩م، ص ١٥. عكاشة، محمد عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٣٠، ٣١. بامطرف، محمد عبد القادر، المرجع نفسه، ص ٣٧، ٣٤.

(٣) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ٣٧.

(٤) باوزير، سعيد عوض، ص ٩٦. عكاشة، محمد عبد الكريم، المرجع نفسه، ص ٣١.

(٥) بن هاشم، محمد، تاريخ الدولة الكثيرة، أشرف على طباعته: محمد علي الجفري، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٢٠. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٦) باوزير، سعيد عوض، المرجع السابق، ص ٩٦. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ٤٠.

السلبية في الحياة العامة في حضرموت، وفي استقرار السلطنة.

وأمام مصاعب التوسع الكثيري في حضرموت الداخل الذي فرضه التوازن القبلي إلى مدى بعيد وجّه الكثيرون اهتمامهم إلى ساحل حضرموت.

وبعد وفاة السلطان علي (المؤسس) خلفه ابنه عبدالله (٨٢٥هـ - ٨٥٠هـ / ١٤٢٢م - ١٤٤٦م) والذي يُمثل الجيل الأول والامتداد الطبيعي لحكم والده، غير أنّه في السنوات الأخيرة من حكمه دخل أبناؤه محمد وبدر في صراع على بعض الأراضي، ويبدو من هذا الخلاف (الأخوي) أنّ الصراع على السلطة بدأ يظهر قبل وفاة والدهم السلطان عبدالله^(١).

وفي سنة ٨٥٠هـ تولّى الحكم من بعده ابنه محمد، ولكن مدة حكمه لم تدم طويلاً، إذ تذكر المصادر أنّه مات فجأة، سنة (٨٥٥هـ / ١٤٥١م)^(٢). وتولّى السلطنة بعده أخوه بدر في ما يشبه الاستيلاء، ويدل على ذلك الخلاف الذي دبّ بينه وبين أبناء أخيه السلطان محمد.

وخلال مدة حكم السلطان بدر الطويلة (٨٥٥ - ٨٩٤هـ / ١٤٤٦ - ١٤٨٨م) انشغلت السلطنة بنزاعات جديدة، وفي أواخر أيام السلطان بدر بدأت الخلافات الأسرية تبرز وخاصة بين أخيه جعفر وابن أخيه محمد. وكان من أخطر حالات الصراع في تلك المرحلة - خروج الأخوين بدر وعبدالله ابني السلطان السابق محمد بن عبدالله على عمهم السلطان جعفر، وقد بدأ خروجهما سنة (٩٠١هـ / ١٤٩٥م) مستغلين غياب السلطان جعفر عن وادي حضرموت، وانشغاله في مدينة الشحر بترتيب أوضاعها بعد أن سيطر عليها^(٣).

توفي السلطان جعفر سنة (٩٠٥هـ / ١٤٩٩م) على أرجح الروايات، واختلف المؤرخون في كيفية وفاته؛ فهناك من يرى أنه اغتيل في حصن بلدة بور، في حين يرى آخرون أنه مات فجأة^(٤).

(١) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ٤٠ - ٤١.

(٢) شنب، أحمد بن عبدالله، المرجع السابق، ص ١٧٩. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع نفسه، ص ٤١.

(٣) بافقيه، محمد بن عمر الطيب، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: عبدالله بن محمد الحبشي، ط ١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٩م، ص ١٩. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢.

(٤) الكندي، سالم بن محمد بن حميد، تاريخ حضرموت المسمى العدة المفيدة في تاريخ قديمة وحديثة، تحقيق: عبدالله بن محمد الحبشي، ط ١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩١م، ص ١٥٦.

وعلى أي حال فقد خلفه ابنه عبدالله الذي قتل في بداية حكمه اثنين من إخوته، بعد صراع طويل عاصره السلطان عبدالله بين أبيه وأبناء أخيه، والذي زعزع كيان السلطنة، لهذا لجأ إلى هذا الإجراء الذي يصفه شنبل بقوله: «إنه يقال قتلهم لأمر جرى منهم عليه»^(١).

لقد تزامن الصراع الأسري الكثيري مع دخولهم في صراعات مع قوى متعددة في ساحل حضرموت وداخلها، وأحياناً يتداخل هذا الصراع حتى تصعب تجزئته^(٢).

وبعد وفاة السلطان عبدالله بن جعفر الكثيري سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) تولى السلطنة ابنه محمد، وكان أول أعماله بعد توليه السلطنة مباشرة مهاجمة تريم، والدخول في صراع مع آل يمان استمر لسنوات. ويبدو أن السلاطين سئمووا هذا النزاع، فقد اتفق كل من السلطان محمد بن عبدالله الكثيري والسلطان من آل يمان محمد أحمد بن سلطان على الصلح لمدة ست سنوات، وذلك في سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)^(٣).

ومنذ بداية النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي برز الأمير بدر بوطويرق على حساب أخيه السلطان محمد.

السلطان بدر بن عبدالله الكثيري (بوطويرق) (٩٢٧هـ - ٩٧٥هـ/ ١٥٢٠م - ١٥٦٧م) :

هو بدر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري، وكنيته المحلية (بوطويرق)، وهو أشهر سلاطين آل كثير على الإطلاق، وُلد سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٦م، أي بعد أن احتل جده جعفر الشحر بعام واحد^(٤).

تولى السلطان بدر (بوطويرق) من سنة (٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م حتى ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م)، وقد شارك في حكم السلطنة إلى جانب أخيه الأكبر محمد منذ وقت مبكر من حياته، وبالنسبة للسلطنة الكثيرية فقد بلغت قمة اتساعها وقوتها في مدته^(٥).

بامطرف، المرجع السابق، الحاشية ٧، ص ١٢٣. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ٤٤، ٤٢.

(١) شنبل، أحمد عبدالله، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٢) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ٤٢، ٤٤.

(٣) بافقيه، محمد بن عمر الطيب، المرجع السابق، ص ٨٧. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ٦١.

(٤) بامطرف، محمد عبدالقادر، المختصر في تاريخ حضرموت العام، ص ٤٣.

(٥) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ٧٢.

وفي عهده هاجم البرتغاليون مدينة الشحر سنة (٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م) في سلسلة غاراتهم الانتقامية ضد مدن الحامي والشحر وعدن، كما كانت له علاقات ودية مع الدولة العثمانية التي عبّرت عن صداقتها له بأن أرسلت له مجموعة من الجنود الأتراك إلى الشحر لمساعدته تحت قيادة رجب التركي^(١).

ويُعد السلطان بدر بوطويرق من أطول السلاطين الكثيريين مكثاً في سدة الحكم؛ لكونه تولّى الحكم وهو شاب. وخلال تلك الحقبة الحافلة بالأحداث والتحديات انتهت حياة السلطان بوطويرق السياسية في داخل مقر حكمه، وبسبب أقرب الناس إليه.

السلطان عبدالله بن بدر الكثيري (٩٧٦-٩٨٤هـ/ ١٥٦٨-١٥٧٦م) :

شارك أباه في حكم السلطنة، ولكن في ٢٣ من ربيع الأول سنة (٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م) قام بالانقلاب على سلطة أبيه (بدر)، وتورد المصادر أنه «هجم الأمير عبدالله مع بعض أتباعه على والده وهو في حصن سيئون، وألقى القبض عليه وسجنه في حصن مريمة، وهو المكان الذي كان السلطان بدر بوطويرق قد جعله سجنًا للأمرءاء الكثيريين الخارجين عليه»^(٢).

لقد شكّل هذا الغزل بهذه الطريقة سابقة فريدة في تاريخ السلطنة الكثيرية، وجرأة ليس لها مثيل في التاريخ الحضرمي^(٣). ولا شك في أن السلطان عبدالله سعى وحرص على تحسين صورته أمام رعاياه، ويبدو أنّ الغالبية كانت تريد التغيير، ولكن ليس بالطريقة التي قام بها، وعلى أي حال فإنّ أوّل المخاطر التي واجهها السلطان عبدالله جاءت من قبل أخويه الأمير عمر وجعفر اللذين رفضا تنحية والدهما بتلك الطريقة، وفتح ذلك صفحة جديدة من صفحات الصراع الأسري الكثيري بعد نحو ربع قرن من نهايته.

وبالنسبة للأمير عمر الذي لم تتخذ معارضته شكل عمل عسكري محدد، فقد أُلقي القبض عليه وسُجنَ في حصن مريمة، وظل مسجوناً فيه حتى نُودي به سلطاناً على حضرموت^(٤).

(١) بامطرف، محمد عبدالقادر، المختصر، ص ٨٣.

(٢) صلاح، البكري، المرجع السابق، ص ١٢١. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٣) البكري، صلاح، المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٣.

(٤) باحنان، محمد علي، جواهر تاريخ الأحقاف، ج ٢، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢٠٢. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٦١.

وكان للسلطان عبدالله بن بدر تعظيم حميد للعلم والعلماء والقضاة، وكان له حسن الاختيار في توظيفهم، فمنح رتبة قاضي القضاة للعلامة الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن سراج الدين باجمال^(١). كما ولّى الفقيه العلامة محمد بن عبد الرحيم باجابر التدريس والإشراف على المدرسة البدرية في الشحر^(٢).

أما الأمير جعفر الذي كان حاكمًا لمدينة الشحر وأعمالها نيابة عن أبيه فكان موقعه يساعده على إعلان العصيان، وطلب الولاية لنفسه، ولذلك فقد كان أول عمل يقوم به السلطان عبدالله بن بدر القضاء على تمرد أخيه، وإعادة مدينة الشحر إلى حظيرة السلطنة، فقدم على رأس حملة عسكرية متجهة إلى الشحر، وحاصرها وأجبر أخاه على مغادرتها إلى بلدة حيريج.

السلطان جعفر بن عبدالله بن بدر الكثيري (٩٨٥هـ - ٩٩٠هـ / ١٥٧٠ - ١٥٨٢م) :
تولّى الملك بعد أبيه، ومكث به ست سنوات، ولكنه لم يكن كأبيه في حسن التصرف والحزم، فقد دخل في صراع غير سائغ مع قبيلة نهد، واتخذ إجراءات قاسية تجاههم، منها منعه وارداتهم من الدخول إلى أسواق البلدات القريبة من مناطقهم ولا سيما (هينن) و(الهجرين)، وقد لقي السلطان جعفر حتفه بسبب هذه السياسة، إذ اغتاله أفراد من قبيلة الظلفان النهديّة سنة ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م^(٣).

السلطان عمر بن بدر أبو طويرق (٩٩٦هـ - ١٠٢١هـ / ١٥٨٧ - ١٦١٢م) :
يُطلق عليه السلطان العادل، وهو من أعظم الشخصيات السلطانية الكثيرة بروزًا وأهمها شأنًا، اشتهر بالعدل والفضل، ترجم له الشلي في تاريخه فقال: «هو سلطان حزموت بالشحر، وكان حسن الشمائل، وافر العقل، كثير العدل»^(٤). ويُعد من أشهر أبناء السلطان

(١) تُنظر ترجمته في الحياة العلمية من بحثنا هذا.

(٢) بن هاشم، محمد، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٣) بن هاشم، محمد، المرجع السابق، ص ٨٨. باوزير، سعيد عوض، المرجع السابق، ص ١٣٣. البكري، صلاح، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠١. باحنان، محمد علي، المرجع نفسه، ص ٢٠٣. الجعدي، عبدالله سعيد، المرجع نفسه، ص ١٦٣.

(٤) الشلي، محمد بن أبي بكر بن عبدالله (ت ١٠٩٣هـ): عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق: إبراهيم المقحفي، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، الجمهورية اليمنية، مكتبة الإرشاد ومكتبة تريم، ص ٢٤٢.

بدر بوطويرق، والذي كان مسجوناً منذ عهد أخيه السلطان عبدالله ثم ابنه جعفر ثم حفيده عبدالله الذي خُلِعَ من الحكم^(١). ولم تشر المصادر إلى كيفية خروجه من السجن واستلامه للحكم^(٢).

حظيت السلطنة الكثيرية في عهده بدعم الدولة العثمانية، الذي مكَّنه من الانتصار على بعض القوى المحلية المتمثلة في آل العمودي المعارضين لحكمه وعلاقته بالعثمانيين. وكان من أبرز المواجهات بين الجانبين تلك التي جرت سنة (١٠١٤هـ / ١٦٠٥م)، والتي عُرفت بـ(معركة النقعة)^(٣)، وانتصر فيها السلطان عمر بن بدر على خصومه بمساندة قوة عثمانية.

إنَّ نتائج المساعدة العثمانية للسلطان عمر بن بدر لم تكن قاصرةً على تمكينه من تحقيق انتصارات على أعدائه فحسب، بل ساعدت أيضاً في خلق حالة من الهدوء والاستقرار استمرت حتى وفاته^(٤).

وفي سنة (١٠٢١هـ / ١٦١٢م) توفي السلطان عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري سلطان حُضر موت، وكانت وفاته بالشحر، وقد ورد عند الشلي: «وكان رحمه الله حسن السمائل، وافر العقل، كثير العدل، ذا سيرة مرضية، والتفات إلى الرعية، وسلوك حسن مع سائر البرية، حسن السياسة، صادق الفراسة، صاحب أخلاق ألطف من النسيم، وأبهج من الدر النظيم، قَلَّ أن ورد إليه أحد من الغرباء إلا وصدر يُثنى عليه الثناء الجميل، أو وفد إلى ساحته بعض الفضلاء إلا وانصرف يشكر ما أسدى إليه من البر الجزيل، وكان شجاعاً مقداماً»^(٥). وفي عهده اطمأنت النفوس وكثر الخصب، وزكا الزرع، وزاد الرخاء، ورخصت الأسعار^(٦).

(١) بافقيه، محمد بن عمر، المرجع السابق، ص ٤٤٦. الكندي، سالم بن حميد، العدة المفيدة لتواريخ قديمة وحديثة، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، ج ١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩١م.

(٢) الجعيدي، عبدالله سعيد، المرجع نفسه، ص ١٦٣.

(٣) النقعة: قرية تقع بالقرب من غيل باوزير، وإلى الشمال الغربي من مدينة الشحر.

(٤) الجعيدي، عبدالله سعيد، المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(٥) الشلي، محمد بن أبي بكر باعلوي، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، ص ١٣٤، ١٣٣.

(٦) صلاح، البكري، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٠.

السلطان عبد الله بن عمر (١٠٢١هـ-١٠٤٥هـ/١٦١٢م-١٦٣٥م):

تولى السلطنة بعد أبيه سنة ١٠٢١هـ/١٦١٢م، وأورد الشلي في عقد الجواهر أنه «أحسن القيام بالملك، وأظهر السطوة والفتك، وقهر البادية وغيرهم، فهابته النفوس، وطأطأت له الأعناق والرؤوس، وأمنت البلاد، واطمأنت العباد»^(١).

وفي عهده اشتدت حركة المقاومة اليمنية ضد السيطرة العثمانية على اليمن، التي تزعمها الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد، وقد التزم السلطان الكثيري بالخط الذي سار عليه أسلافه، وهو الإبقاء على التبعية للسلطة الاسمية للدولة العثمانية، ووقف في الموقع غير المؤيد لحركة المقاومة^(٢). وقد حرص سلاطين آل كثير على المحافظة على ولائهم للدولة العثمانية مدة بقائهم في اليمن؛ ليتمتعوا بالحماية العثمانية^(٣). وعلى الرغم من عدم وقوف السلطان الكثيري في الموقف المساند للمقاومة فإنه حرص على عدم إظهار أي عداة عملي ضد الإمام، ففي سنة (١٠٤١هـ/١٦٣١م) بعث السلطان عبدالله رسالة إلى الإمام المؤيد أبلغه فيها أنه أصبح من المحبين للإمام ودولته، وذكر فيها أن علاقته مع العثمانيين إنما جاءت ليتجنب شرهم وليحافظ على مصالح السلطنة التجارية.

وحقيقة الأمر لم تتخذ هذه العلاقات طابعاً عملياً، فقد ظلت الأمور داخل السلطنة تدار على ما كانت عليه، وكان واضحاً أن ذلك التودد للإمام الذي طرأ على السلطان عبدالله لم يكن بنية صادقة أفتنته بالولاء للقاسميين، بل كان نوعاً من المراوغة السياسية فرضتها الظروف الجديدة لليمن، كما أن مدة حكم السلطان عبدالله لم تطل بعد ذلك، إذ يقال إنه تنازل عن الحكم لأخيه بدر. وقد غادر السلطان عبدالله حضرموت متوجهاً إلى مكة، وهناك توفي سنة (١٠٤٥هـ/١٦٣٥م)^(٤).

السلطان بدر بن عمر بن بدر أبي طويرق:

تولى السلطنة بعد أن تنحى أخوه عبدالله عنها، وقد أدى هذا التنحي المفاجئ وتولية

(١) الشلي، محمد بن أبي بكر باعلوي، المرجع نفسه، ص ٢٦٤.

(٢) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٣) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٤) بن هاشم، محمد، المرجع السابق، ص ٩٣. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق،

ص ١٦٦. الشلي، محمد بن أبي بكر باعلوي، المرجع نفسه، ص ٢٤٢.

بدر بن عمر الحكم إلى تجدد الصراع الأسري الكثيري، وتزامن هذا مع خروج العثمانيين من اليمن وقيام الدولة القاسمية (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م)، فدخلت العلاقات الكثيرية القاسمية مرحلة جديدة.

كان السلطان بدر بن عمر يميل إلى الدولة القاسمية، واستمر في العلاقات الودية معها، إذ تبادل الرسائل والهدايا مع أئمتها طول مدة حكمه للسلطنة الكثيرية، ولعل ما دفعه إلى تعزيز الصلات بالدولة القاسمية هو الاستقواء بدعمها ومساندتها، ولا سيما أن وصوله إلى الحكم جاء على حساب بناء سلفه، غير أن نتيجة تلك السياسة التي اتبعها السلطان بدر كانت عكسية على الصعيد الداخلي للسلطنة، وعلى موقفه الداخلي بالذات، واستغل ابن أخيه الأمير بدر بن عبدالله هذا التقارب لكسب الرأي العام في حضرموت ضده، إذ أُشيع عنه أنه اعتنق المذهب الزيدي^(١).

وعندما تولى إسماعيل بن القاسم الإمامة بعد أخيه المؤيد سنة (١٠٥٤هـ- ١٠٨٧هـ/ ١٦٤٤-١٦٧٦م) بدأ تفكير الدولة القاسمية في التوسع يتخذ طابعاً عملياً ولا سيما في المناطق الجنوبية التي تتوافر فيها الظروف المواتية لجعلها مجالاً رحباً للتوسع. وبالنسبة لوضع السلطنة الكثيرية فقد عزز السلطان بدر بن عمر علاقته بالإمام الجديد، وتواصل معه بالرسائل معبراً عن طاعته وانصياعه له. وربما جاء ذلك الموقف لاستجداء مساعدته ضد ابن أخيه الذي كان يهيئ للانقلاب عليه^(٢).

وفعلاً في سنة (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م)، وخلال انشغال السلطان بدر بن عمر باحتفال عائلي، استغل الأمير بدر بن عبدالله تلك المناسبة، فجمع أنصاره من آل كثير وبعض قبائل الشنافر، وتمكنوا من دخول الحصن، وألقوا القبض على السلطان بدر بن عمر، وأجبروه على كتابة التنازل عن السلطة لابن أخيه، وأمر عسكره بالطاعة للسلطان الجديد^(٣).

(١) بن هاشم، محمد، المرجع السابق، ص ٦٩. باوزير، سعيد عوض، المرجع السابق، ص ١٦١. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٣) الشلي، محمد أبوبكر، المرجع السابق، ص ٢٦٤. الكندي، سالم بن حميد، المرجع السابق، ص ٢٣٩.

وبالنسبة لموقف الدولة القاسمية من هذه التطورات فقد حاول الإمام إسماعيل إقناع السلطان الجديد بالطرق السياسية لإطلاق سراح عمه من السجن وإعادته إلى الحكم، ولكن هذه الجهود باءت بالفشل، ولم تصل إلى نتيجة حاسمة. وبدأ الإمام فعلاً يستعد منذ سنة (١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م) للتقدم إلى حضرموت لاحتلالها، وفعلاً دعا الإمام القبائل للتطوع لمهاجمة السلطنة الكثيرية، ومضى الجيش الإمامي في تحقيق أهداف الحملة، وهي كما أسلفنا السيطرة على حضرموت، وإزاحة السلطان بدر بن عبدالله الكثيري عن الحكم، ووضع عمه بدر بن عمر مكانه.

وفي الخامس من شعبان (١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م) جرت المعركة الفاصلة بين الطرفين، وكان جيش الدولة القاسمية من الكثرة والقوة بحيث حسم المعركة لمصلحته رغم استئصال قوات السلطنة^(١). أما مدينة الشحر فقد أرسلت إليها حملة مؤلفة من ٦٠٠ جندي يرافقهم الأمير علي بن بدر بن عمر الكثيري ليكون حاكماً عليها من قبل أبيه السلطان الذي عاد إلى الحكم. وهكذا دخلت حضرموت والسلطنة الكثيرية مرحلة جديدة من تاريخها وهي السيطرة القاسمية المباشرة.

وكما وصلت الدولة القاسمية أوج اتساعها في عهد الإمام إسماعيل، فقد شهدت السنوات العشر الأخيرة من حكمه بداية ضعف الدولة، وانتشار الفوضى السياسية، وقد عانت من المشاكل الخارجية المتمثلة في استمرار الهجمات العمانية على السواحل التابعة لها، مما أفقدها جزءاً كبيراً من عائداتها. أمّا السلطنة الكثيرية فقد شهدت في السنوات العشر بعد عودة السلطان بدر بن عمر إلى سدة الحكم نوعاً من الاستقرار والهدوء النسبي، ولا سيما فيما يتعلق بالعلاقات الكثيرية القاسمية^(٢). ومكث السلطان نحو ستين في حضرموت، ثم عزم على الحج، وتوفي في المدينة المنورة سنة ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م^(٣).

السلطان محمد بن بدر (المردوف) (١٠٧٣هـ-١٠٨٠هـ/ ١٦٦٢-١٦٦٩م) :

هو السلطان محمد بن بدر بن عمر بن بدر أبي طويرق الملقب بالمردوف، خلف أباه

(١) الشلي، محمد أبوبكر، المرجع السابق، ص ٣٤٨. الوزير، عبدالله علي، المرجع السابق، ص ١٦٣. الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٣) بن هاشم، محمد، المرجع السابق، ص ١٠٠.

عندما توجه إلى الحرمين، ثم تولى السلطنة بعد وفاة والده، بأمر الإمام إسماعيل سنة ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م. ويبدو أن السلطان محمدًا عمل على تصفية حساباته مع آل كثير المخالفين لسياسته، وكذا مع بعض القبائل التي ساندت الانقلاب على والده. ومكث في الحكم سبع سنوات، وتوفي سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م^(١).

كانت وفاة السلطان محمد المردوف (١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م) بداية التملل في العلاقات الكثيرة القاسمية. ويبدو أن خلفاء السلطان محمد أدركوا أن الإذعان المطلق لسلطة الدولة القاسمية خلال المدة السابقة كان على حساب مصالحهم الاقتصادية، وأن هناك حاجة لتعديل الوضع، وشجع على هذا الموقف انتشار التمردات ضد الحكم القاسمي في مناطق اليمن المختلفة^(٢).

أما سيادة الدولة القاسمية على مدينة الشحر فقد تأرجحت بين مُدِّ من القوة والضعف، وكان الضعف غالبًا، ومن مظاهره اضطراب الأمير المعين من قبل الإمام إلى مصلحة مندوبي السلطنة الكثيرة في الشحر، عندما تحدث الاختلافات المتعلقة بالإدارة فيها^(٣)، ومع هذا فقد ظلت الشحر خاضعة للدولة القاسمية طوال حكم الإمام المتوكل إسماعيل^(٤).

وفي عهد الإمام المؤيد محمد بن إسماعيل (١٠٩٢-١٠٩٧هـ/ ١٦٨١-١٦٨٥م) انتشرت الفوضى، وتمرد الأمير حسن الكثيري سنة (١٠٩٢هـ/ ١٦٨٢م)، وانفرد بحكم الشحر التي كان يحكمها نيابة عن الدولة القاسمية^(٥)، ولعجز الإمام المؤيد عن إزاحته؛ أوعز للسلطان علي بن بدر بالقضاء عليه، فتحرك السلطان على رأس قوة إلى الشحر، تدفعه

(١) بن هاشم، محمد، المرجع السابق، ص ١١٢.

(٢) الجعيد، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٣) الوزير، عبدالله بن علي، تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي. تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم، ط ١، (صنعاء: مركز الدراسات، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ٢٢٨.

(٤) الجعيد، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٥) باحنان، محمد علي، جواهر تاريخ الأحقاف، ج ٢، القاهرة: مطبعة الفجالة الجديدة، ١٩٦٢م، ص ٢١٠.

الرغبة في السيطرة عليها، والاستفادة من إمكاناتها الاقتصادية، وتمكن فعلاً من دخول الشحر في السنة نفسها^(١).

وأخيراً أدى ضعف الدولة القاسمية في حضرموت إلى بروز القبائل الياضية التي بدأت تدخل تدريجياً في المعادلة السياسية في حضرموت، حتى أصبحت لها اليد الطولى فيها، وقد تبدى ذلك في عهد السلطان بدر بن محمد (المردوف) (١١٠٧-١١٢٠هـ/ ١٦٩٥-١٧٠٨م)، ومنذ هذا العهد بدأ العد التنازلي لانحياز السلطنة الكثيرة^(٢).

العلاقات الخارجية للسلطنة الكثيرة:

ارتبطت السلطنة الكثيرة بعلاقات خارجية فرضتها الظروف السياسية في تلك الحقبة، وقد اتسمت تلك العلاقات بالمد والجزر. وتتناول هنا عرض تلك العلاقات خلال المدة الزمنية التي يغطيها البحث، ومن أهمها:

علاقة السلطنة الكثيرة بالدولة العثمانية:

تعود العلاقات الكثيرة العثمانية إلى عهد مبكر، ولا سيما منذ سنة (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) عندما استعان السلطان بدر بقوة عثمانية مسلحة بالبنادق حققت له انتصارات سريعة على مناوئيه في المناطق الداخلية من حضرموت. وعند التهديدات البرتغالية للسواحل العربية والإسلامية تطلعت السلطنة الكثيرة كغيرها من الإمارات الإسلامية في الساحل الهندي إلى الدولة العثمانية، بعد سقوط الدولة المملوكية في مصر، ليضطلع العثمانيون بأعباء المقاومة الإسلامية ضد البرتغاليين في المحيط الهندي^(٣).

وفي سنة (٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م) أعلنت السلطنة الكثيرة تبعيتها للدولة العثمانية. وقد حرص سلاطين آل كثير على المحافظة على ولائهم للدولة العثمانية مدة بقائهم في اليمن، ليتمتعوا بالحماية العثمانية من هجمات البرتغاليين على سواحل السلطنة، وبمعنى آخر فإن بقاء الحكم العثماني يخدم مصلحة السلطنة الكثيرة، ولا سيما أن مساوئ الحكم

(١) بن هاشم، محمد، المرجع السابق، ص ٨٨.

(٢) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٨٢. بن هاشم، محمد، المرجع نفسه، ص ٨٨.

(٣) بن هاشم، محمد، المرجع السابق، ص ٤٣.

العثماني لم تمتد إلى مناطقها، واكتفى العثمانيون بالضريبة السنوية التي كان يدفعها السلاطين للولاء العثمانيين^(١).

كما شهدت العلاقات الكثيرة العثمانية تطوراً ملحوظاً بعد حملة سنان باشا، ولا سيما في عهد السلطان عمر بن بدر الكثيري، فقد قدّم العثمانيون الدعم العسكري ضد المناوئين له في حضرموت، ومن جانب آخر نجد السلطان عمر قدّم المساعدة للعثمانيين عندما اشتدت حركة المقاومة اليمنية بقيادة الإمام القاسم بن محمد.

وأخيراً فإنّ العلاقات بين السلطنة الكثيرة والدولة العثمانية شهدت نوعاً من الضعف والانكماش ثم التدهور، وذلك مع اشتداد حركة المقاومة ضد العثمانيين وإرغامهم على الانسحاب ومغادرة اليمن.

علاقة السلطنة الكثيرة بالدولة القاسمية :

بعد خروج العثمانيين من اليمن وقيام الدولة القاسمية (١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م) دخلت العلاقات الكثيرة مرحلة جديدة، وتزامن ذلك مع اعتلاء السلطان بدر بن عمر العرش، والذي شهد عهده نوعاً من الاستقرار. ومن المعروف أنّه بعد وفاة الإمام المؤيد محمد بن القاسم في عام (١٠٥٣هـ / ١٦٤٤م) نشب صراع على العرش بين أخوين للإمام، هما الأمير أحمد بن القاسم والأمير إسماعيل بن القاسم، انتهى بتنازل الأمير أحمد لأخيه إسماعيل بن القاسم الذي لُقّبَ بالمتوكل، والذي حكم اليمن من سنة (١٠٥٤هـ - ١٠٨٧هـ / ١٦٤٤ - ١٦٧٦م)، وقد امتد نفوذه إلى حضرموت^(٢).

إن علاقة الدولة القاسمية بالسلطنة الكثيرة قد تأرجحت بين عهودٍ من القوة والضعف، وكان الضعف غالباً، ومن مظاهره اضطراب الأمير المعين من قبل الإمام إلى مصالحة مندوبي السلطنة الكثيرة في الشحر، عندما تحدث الاختلافات المتعلقة بالإدارة فيها^(٣)، ومع هذا فقد ظلت الشحر خاضعة للدولة القاسمية طوال حكم الإمام المتوكل

(١) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٢) عكاشة، محمد عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٣٤.

(٣) الوزير، عبدالله بن علي، تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي. تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم، ط ١، (صنعاء: مركز الدراسات، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ص ٢٢٨.

إسماعيل. وعلى أي حال فقد استفاد الأئمة في اليمن من حالة الامتنان التي شعر بها بعض السلاطين الكثرين، وأبقوا لهم الولاية العامة على حضرموت، ولكن أشرفوا مباشرة على الموانئ الحضرمية ولا سيما الشحر وظفار، وأرسلوا الولاة من قبيلهم عليها؛ ليضمنوا وصول عائداتها الضخمة إليهم.

علاقات السلطنة الكثيرة بالهولنديين:

منذ بداية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي أخذ النفوذ البرتغالي في الضعف والانحيار؛ نتيجة المنافسة القوية التي واجهها على يد الهولنديين والإنجليز والمقاومة العربية، وقد فشلت محاولات البرتغال في صد منافسة هؤلاء التجار الأوربيين الجدد، ولم يكد ذلك القرن يتصف حتى فقدت البرتغال معظم أجزاء إمبراطوريتها الساحلية الواسعة^(١).

إن هذه التطورات على الصعيد الدولي ألقت بظلالها على السلطنة الكثيرة، ولا سيما أن القوى الأوربية الجديدة التي ظهرت بعد البرتغاليين من هولنديين وإنجليز وفرنسيين اتخذت في طابع تحركاتها الأولية في السواحل العربية طابعاً تجارياً.

ومع اقتراب القرن السادس عشر الميلادي من نهايته، نجح الهولنديون في عبور رأس الرجاء الصالح، وفي عام ١٦١٤م أرسلت هولندا أسطولاً تجارياً إلى عدن للحصول على موطن قدم للتجارة، ونجحوا في إقامة وكالة لهم في (الشحر)^(٢).

ودخلت إنجلترا حلبة المنافسة التجارية الاستعمارية، وتحالفت مع هولندا ضد البرتغال، ولكن عندما حصلت شركة الهند الشرقية الهولندية في سنة ١٦١٨م على إذن من السلطان العثماني في الموانئ اليمنية، صعب ذلك على الإنجليز، فاصطدموا مع الهولنديين في معركة بحرية في المياه اليمنية بالبحر الأحمر، إلا أن أساطيل الدولتين كانت تشترك في الهجوم على الأساطيل البرتغالية، حتى تم لهما القضاء على سيادة البرتغال على البحار الشرقية، حينما استولى الهولنديون على كثير من سفن البرتغاليين في عام ١٦٢٢م.

(١) الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٢) الحبيشي، حسين علي، اليمن والبحر الأحمر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٠.

كان الاهتمام الهولندي باليمن واضحاً منذ بدايات القرن السابع عشر، وبالرغم من تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢م؛ إلا أنه لم تُرسل سفينة هولندية إلى الجزيرة العربية إلا في أغسطس ١٦١٤م. لكن لم يكن مقدراً للهولنديين أن يُنشئوا مع شبه جزيرة العرب نفسها علاقات كذلك التي أنشأها البرتغاليون، وذلك لأنّ الهولنديين من أتباع المذهب البروتستانتي، خلافاً للبرتغاليين الكاثوليك المتعصبين للمسيحية (الصلبيين)، فلم يوفد الهولنديون مُنصرين، ولم يبنوا قلاعاً، بل اكتفوا بارتياح أربعة موانئ هي: المخا وعدن والشحر وقشن، وأحياناً الحديدية، قانعين بإنشاء وكالتين تجاريتين في المخا والشحر، تركوا فيهما وكلاء تجاريين للشركة ليس غير، ذلك أنهم وجَّهوا جُلَّ جهودهم نحو بلاد الهند.

أبحر بروكه^(١) نحو ميناء الشحر، وهو ميناء حضر موت الرئيس، فاستقبله سلطانها عبدالله الخاضع للعثمانيين استقبلاً يليق بحليف السلطان العثماني، معلناً له أنّ المنطقة ستكون مفتوحة دائماً أمامه كلما قصدتها تاجرًا محترمًا، وذلك في ١٩ سبتمبر ١٦١٥م، واستأجر بروكه منزلاً ترك فيه ثلاثة رجال مع القليل من البضائع والنقود، وكان من جملة مهامهم تعلم اللغة العربية، وهكذا شيد في الشحر وكالة هولندية^(٢).

والجدير بالذكر أن بروكه سجّل وصفًا لميناء الشحر ذكر فيه بدقة الموقع وعرضه بالنسبة لخط الاستواء، والمرسى والقلعة الحصينة التي تمثل درعاً بارزاً في مقاومة أي هجوم، والتي لا فائدة منها في حالة قصف الميناء بقنابل المدافع، وذكر أنّ ميناء الشحر هو ميناء حضر موت الرئيس، وأنّ مكان إقامة السلطان هو مدينة الشحر، أمّا عن السكان فقد قال إنهم ذوو استقامة ولطف، يحبون مصادقة الغير، متواضعون ذوو طبيعة هادئة، ومؤمنون إيماناً ثابتاً برسالة النبي محمد. وفي سنة ١٠٢٥هـ/ الموافق ١٦ يوليو ١٦١٦م استقبل السلطان عبدالله بن عمر الكثيري (فن دن بروكه) استقبلاً شخصياً في قلعة الشحر^(٣).

(١) فن دن بروكه: رحالة هولندي مندوب عن شركة الهند الشرقية الهولندية، قام برحلة إلى اليمن سنة (١٦١٤م) بتكليف من الحاكم الهولندي لمقاطعة الأورانج الهولندية بجنوب أفريقيا بمهمة استطلاع الإمكانات التجارية لليمن. زار عدة موانئ، منها: عدن والشحر وقشن والمخا. وسجّل وصفًا دقيقاً لميناء الشحر ونشاطه التجاري.

(٢) براور، ك.خ. وكبلانيان، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٣) براور، ك.خ. وكبلانيان، المرجع نفسه، ص ٥٥.

المبحث الثاني: المظاهر الحضارية

التوسع العمراني والحياة العلمية والاقتصادية:

كانت الشحر هي المدينة الأولى في ساحل حضرموت من حيث اتساع رقعتها وكثرة سكانها ومركزها التجاري والسياسي، كونها أهم الموانئ التي تصدر منها وترد إليها حاصلات البلاد و وارداتها، ولأن الحكومات الحضرمية التي تنفرد بشؤون الساحل تتخذ الشحر عاصمةً لها، والحكومة التي تتخذ عاصمتها في الداخل ويمتد سلطانها إلى الشواطئ الجنوبية تجعل من الشحر العاصمة الثانية لها، فعظم بذلك شأن المدينة، وأقبل التجار والعلماء والأدباء على الإقامة بها والتردد عليها، فلم تستطع لذلك أي مدينة ساحلية أخرى أن تنافسها أو تبرز معها في مضمارة^(١).

ويذكر باحسن أن «هذه المدينة المباركة قد اشتملت في آخر الزمان على سبع حارات قائمة المباني، عامرة بالأهالي، فأولها حارة القرية، وكانت العمارة بها سابقاً، وبها سوق الخان القديم، ثم حارة المجرف، ثم حارة الرملة، وهؤلاء الثلاث أقدم ما كان بها، ثم حارة أبي عوين، ثم حارة أبي غريب، ثم حارة الحوطة، ثم حارة الخور»^(٢).

ومدينة الشحر مقسمة على أحياء أو حارات، يفصل بعضها عن بعض مساحات واسعة^(٣). والشحر احتفظت بأسماء أحيائها القديمة إلى وقتنا الحاضر^(٤).

وتمثل حارة (أو حيّ) القرية تاريخياً النواة الأولى للمدينة، إذ يؤكد بامطرف أن قبيلة كهلان (كندة) التي نزحت إليها من شرق الجزيرة العربية في رحلتها التاريخية المعروفة في القرن السادس الميلادي هي التي وضعت خطة هذا الحي والسكن والاستيطان به^(٥). ويحتل مخطط حارة القرية مكاناً متميزاً على شاطئ البحر الجنوبي للمدينة، وعلى ضفاف مسيال وادي سمعون الشرقي الذي تصب سيولُهُ في البحر. أما حدودها الشرقية فتتمثل في منخفض يشكل ممراً لمياه الأمطار إلى ساحل البحر، والذي يقع بينها وبين ما يُعرف اليوم

(١) باوزير، سعيد عوض، المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٢) باحسن، المصدر السابق، ورقة ٥.

(٣) براور، ك.خ وكبلانيان، المرجع السابق، ص ٥٤.

(٤) Serjeant, R.B. the ports of Aden and Shihr (medieval Period) "p130

(٥) بامطرف، محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٢٥-٢٦.

بحيِّ المجرف. أما حدودها الشمالية فشارع ممتد من مسيال وادي سمعون الشرقي إلى مقبرة مسجد عمرو، ويُعرف هذا الشارع باسم (مطراق حنين)^(١).

أمَّا بامطرف فيقسم حارات المدينة على إحدى عشرة حارة شاملة لأسواقها وأماكن أربطة الخيل ومحط القوافل، وتحدث عن مكوناتها السكانية التي استوطنت تلك الحارات، فذكر «أنَّ المدينة تتكون من عدة أحياء متفرقة تفصلها عن بعضها ساحات واسعة»^(٢).

نشطت الحركة العمرانية في مدينة الشحر خلال تلك الحقبة، وهذا ما يؤكده قول القبطان الهولندي (فن دن بروكه) في ٢٩ ديسمبر ١٦١٤م في وصف الشحر: «إنَّ المدينة كبيرة المساحة، ومعظم هذه البيوت مشيدة من اللبن والطين، وخارجها من الجير، وسقوفها مسطحة على مثال البيوت في عدن. كما تقع هنا قلعة من الطين واللبن لها تحصينات بارزة مستديرة، ويقع فيها الملك عادة، وبالقرب من الشاطئ يوجد مركز الجمر، كما يوجد هنالك ٣ مساجد كبيرة وصغيرة»^(٣). كما يفيد وصفه للحركة التجارية في المدينة تنوع جنسيات سكانها، يقول: «وينتج القسم الأكبر من دخل المدينة عن التجارة النشطة التي تمارسها الشعوب الأجنبية الموجودة هنا والآتية من جميع الأقطار، ويحتل البانيانون المكان الرئيس»^(٤).

ولا شك أنَّ القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي شهد نموًّا عمرانيًّا، وذلك لما امتاز به من استقرار أمني نعم المواطنين فيه برحاء العيش، واكتظاظ المدينة بالتجار والعلماء وزوايا العلم والمساجد، فقد أقيمت عدد من المساجد في أواخر القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر، ومنها على الترتيب أُقيم شرقًا مسجد عديد، يليه مسجد أحمد بن الشيخ أبي بكر، وغربًا مسجد بن أحمد، ثم مسجد عبدالله بن شيخ العيدروس، ثم مسجد بن قضيمني، ثم مسجد باهارون، وفي الجنوب الغربي منه وعلى الضفة الغربية لوادي سمعون أُقيم مسجد بن إسماعيل، يليه باتجاه الجنوب الغربي للمدينة مسجد بافقيه، وجنوبًا مسجد الحداد^(٥).

(١) الملاح، عبدالرحمن عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢.

(٢) بامطرف، المرجع نفسه، ص ٣٩-٤٢.

(٣) براور، ك.خ وكبلانيان، المرجع السابق، ص ٥٤، ٥٥.

(٤) براور، ك.خ وكبلانيان، المرجع نفسه، ص ٥٨.

(٥) الملاح، عبدالرحمن عبد الكريم، المرجع نفسه، ص ٨.

وقد شهدت الشحر خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي نبوغ الكثير من الفقهاء والعلماء، ومنهم:

القاضي محمد بن عبدالله باعمرو (كان حياً سنة ١٠١٦هـ):

هو العلامة الفقيه القاضي، أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد بن علي باعمرو، الشحري الحضرمي، كان قاضياً في الشحر، واشتهر بكنته (أبوبكر)، وجعلها بعضهم اسمه، في حين جاء اسمه عند الأستاذ الحبشي في مصادره (ص ٥٠٩): «أبوبكر محمد». وهو الأرجح. وكان أخوه وابنه فقيهين أيضاً، مما يدل على أن هذا البيت بيت علم.

شيوخه: درس على أخيه أحمد بن محمد باعمرو، ثم سار إلى مكة المكرمة، وأدرك الشيخ ابن حجر، فشارك أخاه في الأخذ عنه، وأخذ بزيد عن الشيخ عبدالرحمن بن زياد (ت ٩٧٥هـ) مفتي زيد واليمن، وعن الشيخ عبد الرحمن البجلي، والشريف القاضي محمد بن حسن باعلوي التريمي (ت ٩٧٣هـ)، والشيخ العارف الحسين بن الفقيه عبدالله بلحاج بافضل (ت ٩٧٩هـ)، والعلامة محمد بن أحمد بن الطيب الزبيدي^(١).

القاضي عبدالرحمن بامطرف (كان حياً سنة ١٠١٦هـ):

هو الشيخ الفقيه القاضي عبدالرحمن بامطرف، القنزلي الكندي الشحري الحضرمي، كان متولياً قضاء الشحر، وعُزل عنه في رمضان سنة ١٠٠٥هـ، وعُيِّن مكانه الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن سراج باجمال (ت ١٠٣٣هـ)، واستمر باجمال على القضاء إلى سنة ١٠١٦هـ، وخلفه في منتصف ذلك العام أخوه الفقيه القاضي محمد (ت ١٠١٩هـ)^(٢).

الفقيه أحمد بن عبدالرحمن سراج الدين باجمال (ت ١٠١٨هـ):

هو العلامة الفقيه المحقق الشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن سراج الدين باجمال الكندي الغرني الحضرمي، مولده ببلدة الغرفة، ونشأ في حجر أبيه، وحفظ القرآن الكريم. أخذ عنه جماعة، أجّلهم الفقيه المؤرخ أحمد بن محمد مؤذن باجمال الشهير بالصبحي أو الأصبحي

(١) باذيب، محمد أبوبكر، جهود فقهاء حضرموت في خدمة المذهب الشافعي، ط ١، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص ٥٨٦.

(٢) باذيب، محمد أبوبكر، المرجع السابق، ص ٥٨٨.

(ت ١٠٧٠هـ) نسبةً إلى بلدة (ذي أصبح) بحضرموت، وابنه الفقيه العلامة عبدالله بن أحمد سراج الدين باجمال، وغيرهما^(١).

الفقيه محمد بن عبدالرحمن سراج الدين باجمال (ت ١٠١٩هـ):

هو العلامة الفقيه المحقق الشيخ محمد بن عبدالرحمن سراج الدين باجمال، أخو الشيخ أحمد، ونشأ في حجر أبيه العالم الصالح. ارتحل إلى الشحر وأخذ عن شيخ أبيه الشيخ الفقيه علي بايزيد (ت ٩٩٦هـ) ولازمه. وتصدر للتدريس والفتوى، وتولى القضاء في: تريم، والشحر، وشبام، والغرفة، وله رحلات علمية إلى دوعن والمشقاص، وكان زاهداً كريماً، تخرج به جماعة، وانتهت إليه رئاسة الفقه في جهته، وكانت ولايته قضاء الشحر في منتصف عام ١٠١٦هـ خلفاً لأخيه القاضي عبدالله بن عبد الرحمن بن سراج^(٢).

الحياة الاقتصادية:

كانت الشحر من أكبر المراكز التجارية، وقد أضفى ميناؤها عليها أهمية كبرى، وجعلها تزدهر اقتصادياً، إذ ربط ساحل حضرموت وداخلها بالعالم الخارجي، فكانت السفن المحملة بالبضائع من شرق أفريقيا ومصر والهند وغيرها ترسو في هذا الميناء، وفي المقابل كانت المنتجات الحضرمية تجمع في ميناء الشحر، التي كانت سوقاً تتم عن طريقها عملية التبادل التجارية في البيع والشراء، وبذلك أصبح الميناء مجال جذب للتجار، كما أصبح مطمئناً لكثير من القوى السياسية الداخلية والخارجية ولا سيما البرتغاليين والعثمانيين ثم الهولنديين والإنجليز وغيرهم؛ لأهمية مردوده المالي من الرسوم والضرائب والمكوس المفروضة على تجارة الصادرات والواردات، والذي استفادت منه السلطنة الكثيرة آنذاك في تصريف أمورها المالية.

ومما يدلنا على الأهمية الاقتصادية لمدينة الشحر ومينائها؛ أنه كان يُطلق على من يحكم ميناءها لقب (قابض الحنجور)؛ لأنه يستطيع بالسيطرة على الشحر أن يخنق التجارة أو أي نشاط خارجي^(٣).

(١) الشلي، محمد، عقد الجواهر والدرر، ص ١١٩. باذيب، محمد أبوبكر، المرجع نفسه، ص ٥٨٩.

(٢) الشلي، محمد، نفسه، ص ١٢٣. باذيب، محمد أبوبكر، نفسه، ص ٥٩١.

(٣) سارجنت، آر. بي، مصادر التاريخ الحضرمي، ترجمة سعيد عبد الخير النوبان، الكويت، جامعة الكويت، ١٩٩٠م، ص ١٣١.

ويصف لنا الشحر قائد البعثة الهولندية (فن دن بروكه) فيما دونه في تقريره عن مدينة الشحر قائلاً: «يقع المركز التجاري (الشحر) المشهور في العربية السعيدة، على ارتفاع ١٤ درجة و ٥٠ دقيقة من العرض الشمالي، و ١٧ درجة انحراف متزايد تجاه الشمال الغربي على الجانب البحري، في مكان ذي أرض قاحلة، وتقف السفن هناك على الشاطئ قريباً من البحر. والمسافة إلى المدينة تقارب طلقة مدفع»^(١).

كما يفيد وصفه للحركة التجارية في المدينة تنوع جنسيات سكانها، فيذكر أن القسم الأكبر من دخل هذه المدينة ينتج عن التجارة الناشطة التي تمارسها الشعوب الأجنبية الموجودة هنا والآتية من جميع الأقطار. ومن بين هذه الشعوب يحتل البانيانون المكان الرئيس، ويصفهم بأنهم أشد الناس مكرًا. وفي الأشهر فبراير ومارس وأبريل نجد هنا سفناً من الساحل الهندي أي من غوا وكمبايا وسورات وديو ودامان ونخينا وبرومينس وجوجة، مشحونة بالأقطان وأقمشة (الدوتيا) الكثيرة و(الكنكن) والبفتة، بالإضافة إلى العمائم والنيلة، ولكن هذه الأخيرة قليلة؛ لأن معظمها يُرسل إلى القاهرة^(٢). في حين يرسل أهالي قشن والشحر جلبات كثيرة إلى جزر القمر ومدغشقر وإلى ساحل مالندة. وتحمل هذه السفن عند العودة الأرز والدخن والزنجبيل^(٣) والعنبر الأبيض.

ومن الساحل المقابل المسمى (زيلع)، يأتي الكثير من الماشية مثل الثيران والخراف ذوات الذنب والدجاج وأنواع أخرى مشابهة من الحيوانات اللذيذة. ومن قرية (دردرة) الواقعة مقابل الشحر تَأتي سنوياً كميات كبيرة من سلال التمر والحصر الأخرى التي تباع وتطلب في كل أنحاء الجزيرة العربية^(٤).

وفي الشحر تُصنع النيلة أيضاً. ومن حضرموت تأتي إلى هنا سنوياً كميات كبيرة من الأفيون، ومن الجبال تأتي الكثير من العقاقير غالية الثمن وغير المعروفة، كما يُقام السوق الرئيس هنا في الصباح وفي المساء المتأخر، وذلك بسبب الحرارة الشديدة في أثناء النهار.

(١) براور، ك.خ وكبلانيان، المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢) يعدُّ (فن دن بروكه) وكذلك سائر مستخدمي شركة الهند الشرقية، الزنجبيل بضائع، ولذلك فهو يذكرهم مع المنتجات المختلفة الأخرى.

(٣) براور، ك.خ وكبلانيان، نفسه، ص ٥٤، ٥٥.

قائمة المكوس والأوزان وأنواع العملة وأسعار السلع السارية في الشحر والسفن التي وصلت إليها :

حررها (فن دن بروك) عام: ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م
في بداية مارس يصل إلى الشحر تجار كثيرون ذوو شأن، من حلب والإسكندرية وجدة والسويس، ويجلبون معهم البضائع التي سيأتي ذكرها، بالإضافة إلى كمية كبيرة من النقود التي يُقال إنها تزيد على (٣٠٠,٠٠٠) قطعة من فئة الثمانية ريالات نقدًا، و(١٦,٠٠٠) بندقي ذهبي أو دوقاتية مجرية، هذا بغض النظر عن النقود التي ليس لكتبة الجمرک علم بأمرها.
كما يجلبون الزعفران، والأقمشة البركانية، والأقمشة المحلية، والأقمشة الهرمزية، والدمسقات، والأقمشة الصوفية الإيطالية، والخیوط الذهبية، والخیوط الحريرية للخياطة، والكثير من منتجات نورنبرغ مثل السكاكين والأجراس والنظارات والمقصات الصغيرة والمرايا والسيوف التركية، بالإضافة إلى متنوعات من البضائع الصغيرة. ويتم مقايضة كل هذه البضائع والنقود المذكورة بالتوابل التي تكون جاهزة في الوقت الذي تنزل فيه السفينة المسماة (المنصوري) من قناة السويس، والتي تصل إلى الشحر دائمًا في شهر سبتمبر بالضبط، وتعود من الشحر محملةً بالتوابل. ويملك هذه السفينة سلطان القسطنطينية الكبير، ولا يحق لأية سفينة أخرى القيام بهذه الرحلة.

مكوس مدينة الشحر ورسومها الجمركية :

- ◆ أولاً يجب أن يدفع من قيمة كل البضائع 5 %.
- ◆ وتُحسب قيمة البضائع دائماً 110 %، مما يؤدي إلى نسبة مئوية كلية مكونة من 1/2 5 بالمائة.
- ◆ ثم رسم جمركي آخر يسمونه أجرة السمسرة نسبته: 1 %.
- ◆ ثم للمستأجر للزنة في الميزان عند بيع البضائع 1 %.
- ◆ ثم رسم جمركي هدية للملك^(١) 1 %.
- ◆ ثم رسم جمركي آخر نسبته: 1 في الألف.

(١) أي سلطان الشحر الكثيري.

- ◆ ثم للميزان في الجمر ك $1\frac{1}{2}$ في الألف.
- ◆ ثم لكتاب الملك: 2 في الألف.
- ◆ ثم للكتاب في مركز المكوس: $\frac{1}{2}$ ٪.
- ◆ ثم للعمال الذين يحملون البضائع من على ظهر السفينة إلى داخل الجمر ك ومن هناك إلى داخل المستودع: $\frac{1}{2}$ ٪.
- والخلاصة أنه يبلغ مجموع قيمة المكوس والرسوم الجمركية والتكاليف في هذا المكان: $9\frac{1}{2}$ ٪.
- ولكنه يوجد دواء جيد لتفادي هذا كما نصحني وأعلمني به الكثير من الأصدقاء المقربين^(١).

الأوزان في الشجر

- يختلف وزن الشجر عن بهار الصين^(٢)؛ لكونه أخف منه بـ (90) بونت^(٣).
- ◆ البهار الشجري الواحد يساوي 15 فراصلة.
- ◆ الفراصلة الواحدة تساوي 20 بونت^(٤).
- ◆ البونت الواحد يساوي رطلاً واحدًا أي 14 أونسية و 9 (إنغلسية)^(٥).

سعر الخزف الصيني في الشجر

- ◆ الصحف الكبيرة رقم 2^(٦) مقابل 1 إلى $1\frac{1}{2}$ ريال للقطعة الواحدة.

(١) للأسف لا يزيد المحرر هنا شيئاً على هذه الملاحظة اللافتة للنظر، ولكن يقول (فن دن بروك) في صفحة ٩٢: «إنه من الممكن تفادي هذا كما حذرني منه بعض الأتراك المهمين، الذين هم أصدقاؤني المقربون، وذلك بدفع رشوة بسيطة». (قارن ص ٩٢) (وهـ ٣).

(٢) بهار الصين: هو وحدة وزن تساوي ٣ (بيكول) picol، وكانت تعادل في الوثائق الهولندية في أثناء الفترة المعينة ٣٧٥ (بونت) pond هولندي، أي ١٨٥٢٨٤ غراماً.

(٣) من المحتمل أن يقصد هنا الـ (بونت) الهولندي ولكن مقابلة الموازين هذه ليست دقيقة تماماً، إذ وزن بهار الشجر يبلغ ٢٧١ بونناً هولندياً، أي إنه أخف من البهار الصيني بـ (١٠٤) بونات.

(٤) المقصود هنا الـ (بونت) المحلي أي الشجري.

(٥) الإنغلس: وحدة وزن هولندية تعادل ١،٥٤ غم.

(٦) يشير الرقم هنا إلى سعة الصحف وكبرها، ويميز بين الصحف (الكاملة) و (النصفية) و (الثلثية) و (الرابعة).

- ◆ صحاف أصغر منها رقم 3 مقابل 1 ريال للقطعة الواحدة.
- ◆ صحاف الزبدة مقابل 2 إلى 2½ ريال للكورجة الواحدة.
- ◆ فناجين الشاي مقابل ¼ 2 إلى 3 ريالات للكورجة الواحدة.
- ◆ أنواع مختلفة من الخزف الصيني سعرها نسبي، ولكن يفضل الناس الخزف الكبير الحجم.

أسعار البضائع في الشحر

- ◆ الفلفل 47 ½ ريال للبهار الواحد.
- ◆ القرفة من سيلان 15 ريالاً للبهار الواحد.
- ◆ القطن مقابل 16 إلى 30 ريالاً للبهار الواحد.
- ◆ الحديد مقابل 10 إلى 12 ريالاً للبهار الواحد.
- ◆ القرنفل الفراسلة الواحدة مقابل 13 ريالاً.
- ◆ سيقان القرنفل مقابل 10 ريالات.
- ◆ السكر للفراسلة الواحدة مقابل 1 إلى 3 ريالات.
- ◆ الأقمشة المخملية مقابل 15 إلى 18 ريالاً للقطعة الواحدة.
- ◆ الأقمشة الأطلسية مقابل 14 إلى 16 ريالاً للقطعة الواحدة.
- ◆ الدمسقات مقابل 10 إلى 11 ريالاً للقطعة الواحدة.
- ◆ الأكمار الباتانية مقابل 1½ إلى ريالين.
- ◆ الأقمشة الهرمزية المزدوجة مقابل 4 إلى 5 ريالات للقطعة الواحدة.
- ◆ الأقمشة الهرمزية المفردة مقابل 3 ريالات للقطعة الواحدة.
- ◆ كاتي (catij) واحد من الحرير الصيني مقابل 5 إلى 6 ريالات للواحد.

لقد نشطت حركة التجارة والسفن بين موانئ السلطنة الكثيرة وموانئ الدول المجاورة من الخليج والهند وشرق إفريقيا ومصر والشام، كما حرص سلاطين آل كثير على ازدهار التجارة، بل إن بعضاً من السلاطين مارس التجارة، فقاموا بتأمين السبل وحماية الأرواح والأموال. وعموماً فقد اتسع نطاق التجارة بين مدن السلطنة في ساحل حضرموت وداخلها.

وخلاصة القول إن قيام السلطنة الكثيرة لم يكن بالأمر اليسير، فقد اصطدمت تحركات آل كثير الطموحة بمقاومة القوى القبلية والكيانات السياسية الصغيرة القائمة وقتذاك، وتطلب تغيير الوضع السياسي في حضرموت لمصلحتهم جهوداً مضيئةً واستغرق وقتاً طويلاً، كما تتبعنا في هذا البحث المحاولات الأولى لنشأة السلطنة الكثيرة، ثم المراحل والمنعطفات السياسية التي خاضها السلاطين والأمراء الكثيرون في سبيل تثبيت سلطتهم، والمخاطر والتحديات التي واجهتها السلطنة، وازدياد الصراع الأسري الكثيري على الحكم، وما نتج عنه من تدخل القوى الخارجية، مثل الدولة القاسمية في شمال اليمن والقبائل اليافعية، ما أدى إلى ضعف السلطنة الكثيرة تدريجياً، ثم انهيارها.

كما تطرقنا في هذه الدراسة إلى علاقات السلطنة الكثيرة بالقوى الدولية والإقليمية حينذاك مع كل من البرتغاليين والدولة العثمانية، إضافة إلى الدولة القاسمية في شمال اليمن، وأخيراً مع الهولنديين.

وفي حاولنا تتبع بعض المظاهر الحضارية، والتي شملت التوسع العمراني لمدينة الشحر في تلك الحقبة، إضافة إلى النواحي العلمية وكذا الجانب الاقتصادي، وما تميزت به السلطنة الكثيرة من استقرار سياسي آنذاك أتى ثماره من ازدهار التجارة وانتعاشها في ميناء الشحر، وخير دليل على ذلك ما وصلنا من معلومات مفيدة من وثائق التجار الهولنديين، تعود إلى القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وأول من بدأ هذا العمل هو (فن دن بروك) الذي بدأها في ٣٠ مايو ١٦١٣م / ١٠٢٢هـ، وسجل وصفاً دقيقاً لميناء الشحر ونشاطه التجاري وقائمة المكوس والأوزان وأنواع العملة وأسعار السلع السارية في الشحر والسفن التي وصلت إليها.

الخاتمة وأهم النتائج:

♦ إن قيام السلطنة الكثيرة لم يكن بالأمر اليسير، فقد اصطدمت تحركات آل كثير الطموحة بمقاومة القوى القبلية والكيانات السياسية الصغيرة القائمة وقتذاك، وتطلب تغيير الوضع السياسي في حضرموت لمصلحتهم جهوداً مضيئةً، واستغرق زمناً طويلاً.

- ◆ تكمن الأهمية التاريخية للسلطنة الكثيرة في أنها تمكنت من توحيد أجزاء واسعة من حضرموت تحت سلطة واحدة، كما ربطت مناطق الساحل الحضرمي بداخله.
- ◆ تأرجحت علاقات السلطنة الكثيرة بالقوى الدولية، وكذا بالقوى الرئيسة في اليمن، واتسمت في كثير من الأحيان بالتبعية الاسمية، ومثلت حضرموت لتلك القوى منطقة غنية استفادت من الضرائب التي تجنيها منها. وقد حافظت السلطنة في أثناء تعاملها مع تلك القوى على كيانها السياسي.
- ◆ كانت الشحر تعد من أكبر المراكز التجارية، وقد أضفى ميناء الشحر على المدينة أهمية كبرى، وجعلها تزدهر اقتصاديًا، إذ ربط سواحل حضرموت وداخلها بالعالم الخارجي.
- ◆ أصبحت مدينة الشحر مطمعا لكثير من القوى السياسية الداخلية والخارجية، ولا سيما البرتغاليين والعثمانيين ومن بعدهم الهولنديون والإنجليز وغيرهم؛ نظرًا لأهمية الميناء وما يجنيه من عائدات الرسوم والضرائب والمكوس المفروضة على تجارة الصادرات والواردات التي استفادت منها السلطنة الكثيرة في تصريف أمورها المالية.
- ◆ شهدت مدينة الشحر نموًا عمرانيًا خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي؛ لما امتاز به هذا القرن من استقرار أمني، ورخاء في العيش، واكتظاظ المدينة بالتجار والعلماء وزوايا العلم والمساجد.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

- ♦ باحسن، عبدالله بن محمد: النفحات المسكية في أخبار الشجر المحمية، مكتبة الأحقاف للمخطوطات بترميم، مجموعة الكاف رقم (٢٢٠١).
- ♦ باحنان، محمد علي، جواهر تاريخ الأحقاف، ج ٢، القاهرة: مطبعة الفجالة الجديدة، ١٩٦٢م.
- ♦ باذيب، محمد أبوبكر، جهود فقهاء حضرموت في خدمة المذهب الشافعي، ط ١، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- ♦ بافقيه، الطيب محمد بن عمر، تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط ١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٩م.
- ♦ بامخرمة، أبو محمد عبدالله الطيب، تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل، ط ٢، مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- ♦ بامطرف، محمد عبد القادر، الشهداء السبعة ضد الغزو البرتغالي على مدينة الشحر، الطبعة الثانية، دار الهمداني، عدن، ١٩٨٣م.
- ♦ بامطرف، محمد عبد القادر، المختصر في تاريخ حضرموت العام،
- ♦ باوزير، سعيد عوض ١٩٥٧، صفحات من التاريخ الحضرمي، الطبعة الأولى، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٧٥م.
- ♦ براور، ك. خ و كبلانيان: اليمن في أوائل القرن السابع عشر الميلادي_ مقتطفات من الوثائق الهولندية المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لجنوب الجزيرة العربية، ١٦١٤-١٦٣٠، ط ٣، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء.
- ♦ بن هاشم، محمد، تاريخ الدولة الكثيرة، قام بالإشراف على طباعته: محمد علي الجفري، القاهرة، ١٩٤٨م.

- ♦ الجعدي، عبدالله سعيد (دكتور): السلطنة الكثيرة الأولى ٨١٤-١١٤٣هـ / ١٤١١-١٧٣٠م، ط١، تريم للدراسات والنشر، ١٤٣٥ / ٢٠١٤م.
- ♦ الحامد، صالح بن علي، تاريخ حضرموت، ط١، جدة: مكتبة الإرشاد، ١٩٧٦م.
- ♦ الحبشي، حسين علي، اليمن والبحر الأحمر، بيروت، ١٩٩٢م.
- ♦ سارجنت، أر. بي، مصادر التاريخ الحضرمي، ترجمة: سعيد عبد الخير النوبان، الكويت، جامعة الكويت، ١٩٩٠م.
- ♦ السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت، المسمّى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تحقيق: إبراهيم المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- ♦ الشاطري، محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، ط٢، عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٣م.
- ♦ الشلي، محمد بن أبي بكر بن عبدالله (ت ١٠٩٣هـ): عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق: إبراهيم المقحفي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، الجمهورية اليمنية، مكتبة الإرشاد ومكتبة تريم.
- ♦ شنبل، أحمد بن عبدالله، تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل، تحقيق: عبدالله الحبشي، ط١، ١٩٩٤م.
- ♦ صلاح البكري، في جنوب الجزيرة العربية، ط١، مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٣٦م.
- ♦ عكاشة، محمد عبد الكريم، قيام السلطنة القعيطية والتغلغل الاستعماري في حضرموت، ط٢، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٨٥م.
- ♦ الكندي، سالم محمد بن حميد، تاريخ حضرموت المسمّى العدة المفيدة في تواريخ قديمة وحديثة، تحقيق: عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩١م.
- ♦ المركز الوطني للمعلومات، التقسيم الإداري لمحافظة حضرموت، مديرية الشحر، ٢٠١٠م.



♦ الملاحى، عبد الرحمن عبد الكرىم: ملامح التوسع العمرانى لمدينة الشحر، أوراق مخطوطة، مكتبة المؤلف، الشحر، ٢٠٠٦م.

♦ الوزىر، عبد الله بن على، تاريخ اليمن خلال القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر المىلادى. تحقيق: محمد عبد الرحىم جازم، ط ١، (صنعاء: مركز الدراسات، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).

المراجع الأجنبية:

- ♦ Serjeant, R.B. the ports of Aden and shihr (medieval Period), studies in Arabia History and Civilization.London, 1981.

ضعف الدولة الكثيرة ونهايتها

الأسباب والنتائج (١٠٠٠-١١٤٣هـ/١٥٩١-١٧٣٠م)

أ. يسلم صالح بن دهلوس

الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة في الدولة الكثيرة على الحكم

إن من أقوى الأسباب التي أضعفت الدولة الكثيرة الصراع بين أبناء السلطان بدر بن عبدالله بوطويرق وأحفاده على الحكم في الدولة، ولعل أبرز وأخطر هذه الصراعات والمنازعات على السلطة والوصول إلى الحكم هو الانقلاب على حكم السلطان الشرعي الذي شهدته الدولة الكثيرة، وحالات شبيهة من هذا النوع، والذي يعد سابقة خطيرة في تاريخ الدولة الكثيرة، وكان أول انقلاب في تاريخ هذه الدولة هو انقلاب السلطان عبدالله بن بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري على والده السلطان بدر بوطويرق في ٢٣/ ربيع الأول/ ٩٧٦هـ- ١٥٦٨م، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل فتح الباب على مصراعيه لتدخل الدولة الكثيرة في دوامة صراعات لم تنته إلا بنهايتها.

ففي حكم السلطان عبدالله بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق الكثيري تأجج الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، وكان أقوى المعارضين^(١) لانقلابه على والده منذ بداية عهده أخاه جعفر الذي حاربه ووجد من يتحالف معه كالأمير مسعود بن ناصر الذي عمل على تحريض المهرة ضد أخيه السلطان المنقلب، واستمرت الصراعات والحروب بين السلطان عبدالله بن بدر من جهة، وأخيه جعفر والأمير ناصر والمهرة من جهة أخرى إلى نهاية حكمه. وكان لذلك الأثر السلبي الذي أثقل كاهل الدولة الكثيرة بالنفقات المادية والبشرية، فقد

(١) بن هاشم، محمد: حضرموت، تاريخ الدولة الكثيرة، النفقة السلطانية، أشرف على الطباعة: محمد علي الجفري، ج ١، ط ١، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، ص ٥٤، بافقيه، محمد بن عمر الطيب: تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: محمد عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٣٩٢-٣٩٣.

خسرت الدولة أعدادًا من القادة الأمراء والعسكريين من القبائل المتحالفة، ومنهم آل كثير؛ لأنَّ هذه الحروب تتطلب الكثير من تجهيزات الحملات المختلفة على المهرة، أو التصدي لغارات المهرة المتحالفة مع جعفر بن بدر بن عبدالله والأمير ناصر بن مسعود.

وكان من أبرز المعارضين له أيضًا أخوه عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق، ولم يتردد السلطان عبدالله بن بدر في سجنه عندما أحسَّ منه أول عمل يسئ إليه، وظل عمر بن بدر في السجن حتى وفاة أخيه السلطان عبدالله بن بدر (٩٨٥هـ/١٥٧٧م)، فقد تحفظ عليه الأخير خوفًا من معارضته الشديدة.

وبعد وفاة السلطان عبدالله بن بدر استفحلت الصراعات وتعمقت، فقد تولى بعده ابنه جعفر بن عبدالله بن بدر بوطويرق (٩٨٥هـ/١٥٧٧م)، واستمر في الحكم حتى قتله سنة (٩٩٠هـ/١٥٨٢م) أحدُ معارضيه في الحكم، ليتولى الحكم بعده ابنه عبدالله بن جعفر بن عبدالله، إلا أن حكمه لم يستمر بسبب خروج جده من السجن السلطان عمر بن بدر الذي تولى حكم الدولة الكثيرة بالقوة، إذ انتزع الحكم من عبدالله بن جعفر سنة (٩٩٦-١٠٢١هـ/١٥٨٧-١٦١٢م)، وقد تميزت مدَّة حكمه بشيء من الاستقرار، واشتهر السلطان عمر بن بدر بالعدل، فقد كان وافر العقل كثير العدل، وكانت سيرته مَرْضِيَّة.

ولعل السبب في بروز ظاهرة الانقلابات والإقصاء والعزل التي أشرنا إليها يعود إلى أن الدولة الكثيرة تفتقر لنظام معين تحدد من خلاله الشروط اللازمة لتولي السلطان الحكم، وأيضًا تفتقر لنظام يحدد طريقة تعيين ولي العهد.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الصراعات تُؤدِّ الضغائن والأحقاد، ليس فقط بين أفراد الأسرة الكثيرة الحاكمة بل تتجاوزها إلى قبيلة آل الكثير عامَّةً، إذ تسببت في تصدع الأسرة نفسها، كما أدت إلى اختلاف القبائل الحضرمية، وزعزعت تحالفها، وكان لكل ذلك أثره السلبي في القيادة العسكرية.

بعد وفاة السلطان عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق الكثيري سنة ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م بالشحر، تولى الحكم ابنه عبدالله بن عمر الذي استمر في الحكم ثلاث سنوات، ثم تركه طواعيةً، وسلَّمه لأخيه السلطان بدر بن عمر بن بدر سنة ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م فكان أول حاكم حضرمي يترك الحكم وبريقه وما يترتب عليه من امتيازات في الجاه والثروة والتقلب

في نعيم السلطة وجبروتها، واختار بلاد الحرمين ليتفرغ للعبادة والزهد في الدنيا، فعاش بقية حياته في بلاد الحجاز متنقلاً بين الحرمين^(١).

تدخلات أئمة اليمن من الزيدية في شؤون الدولة الكثيرية للدخول إلى حضرموت

بدأ أئمة اليمن من الزيدية يسعون للوصول والدخول إلى حضرموت، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة الكثيرية عملياً، وفي مدّة تولي الإمام المؤيد محمد بن القاسم بن محمد (١٠٢٩-١٠٤٦هـ/١٦٢٠-١٦٣٦م) أرسل كتباً إلى سلطان الدولة الكثيرية في حضرموت وأعيانها، وفي هذه الحقبة كانت حضرموت تحت حكم السلطان بدر بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري بوطويرق.

ومن الذين ردوا على رسائل الإمام الزيدي ردّاً صريحاً الشيخ العلامة علي بن عبدالله العيدروس المتوفى ١٠٤١هـ/١٦٣١م الذي رفض الإذعان لطاعة الإمام؛ لأنّ سلاطين حضرموت وأهلها متمسكون بمذهب أهل السنة والجماعة في الأصول والفروع على المذهب الشافعي، الذي يختلف عن مذاهب الزيدية وغيرها من الفرق الشيعية^(٢)، التي تقول بحصر الإمامة في ذرية علي بن أبي طالب (عليه السلام) من ابنيه الحسن والحسين.

أمّا أهل العلم في حضرموت ومنهم علماء العلويين فعقيدتهم من الإمامة كعقيدة غيرهم من سكان حضرموت، وهي عقيدة أهل السنة والجماعة^(٣).

وظل أئمة اليمن الزيدية خلال هذه المدّة ينتهزون كل فرصة للتدخل في شؤون الدولة الكثيرية؛ ليتمكنوا من تحقيق أغراضهم، ومدّد نفوذهم إلى حضرموت، وإدارتها سياسياً ومالياً وإدارياً، وفرض مذهبهم على أهلها^(٤). ولعلمهم وجدوا ضالّتهم في السلطان بدر بن عمر الذي

(١) بن هاشم، محمد: الدولة الكثيرية، ج ١، ص ٦٣-٦٧.

(٢) باوزير، سعيد عوض: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديث، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٧٨-٧٩، ١٠٢-١٠٣.

(٣) باوزير، سعيد عوض: صفحات من التاريخ الحضرمي، مكتبة الثقافة، عدن، ط ١، ١٩٥٧م، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٤) المؤلف نفسه: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

تولى السلطة سنة ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م، الذي لم تكد قدماءه تستقران في حكم الدولة الكثيرة، حتى بدأ تبادل الرسائل والمكاتبات مع إمام اليمن الزيدي، وكان مخلصاً في ولائه للزيدية شديد التعلق بهم، وأخذ يكاتبهم، وأُشيعَ عنه اعتناقه للمذهب الزيدي، فازدادت الهوة اتساعاً والحالة حرجاً، حتى خطبوا للإمام في وادي حضرموت والشحر وظفار وغيرها، وعظم ذلك عند أهل حضرموت، واستمر السلطان بدر بن عمر في مكاتبته للإمام بنوع من المجاملة ظناً منه أنه سيكتفي بذلك^(١).

ولكن كانت سياسته هذه تلقى معارضة شديدة، ومن المعارضين لها بدر بن عبدالله بن عمر الذي بدأ يسعى للوصول إلى الحكم، وإبعاد الزيدية عن التدخل في شؤون الدولة الكثيرية، والحفاظ على استقلال حضرموت، وأخذ يعد العدة لذلك ويجمع آل الكثير والشنافر، ويعقد جلسات سرية، وكان هوى آل كثير وميلهم مع السلطان بدر بن عبدالله بن عمر وإخوانه، أضف إلى ذلك نفور أهل حضرموت من السلطان بدر بن عمر، بعد أن أُشيعَ عنه ميله للمذهب الزيدي، وذكر الإمام في خطبة الجمعة في عهده، ورأى السلطان بدر بن عبدالله الفرصة مواتية، فطلع إلى الحصن سنة (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م) مع جماعة آل كثير، وألقى القبض على عمه بدر بن عمر وابنه محمد المردوف في الحصن بسيئون، ليتولى حكم الدولة الكثيرية^(٢)، ويعد هذا الانقلاب الثاني في تاريخ الدولة الكثيرية.

وتواصلت محاولات تدخل أئمة اليمن في شؤون الدولة الكثيرية، والدخول إلى حضرموت، وبينما كان السلطان بدر بن عمر في الحبس (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م) أخذ يكاتب الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد، أنه سيسلم له أمر حضرموت من جانبه، فكتب الإمام إلى السلطان بدر بن عبدالله بن عمر بسرعة إخراج عمه السلطان بدر بن عمر من السجن^(٣)، واستمر في مكاتبته السلطان بدر بن عبدالله، وطلب منه أن يولي عمه

(١) ابن هاشم، محمد: تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٦٩-٧٤، أبوطالب، حسام الدين محسن: تاريخ اليمن عصر الاستقلال عن الحكم العثماني الاول ١٠٩٦هـ-١٠٦٠هـ، مطابع المفضل صنعاء، ج ١، ص ١٤.

(٢) ابن حميد، سالم بن محمد: تاريخ حضرموت المسمى بالعدة، ص ٢٣٨-٢٤٢.

(٣) العبدلي، أحمد فضل بن علي محسن: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ١٠٢-١٠٨، الشاطري، محمد بن أحمد: أدوار التاريخ

على ولاية ظفار، وكانت لهجة المكاتبات بين الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد والسلطان لا تعدو حد المجاملات، وكان السلطان بدر بن عبدالله بن عمر يراوغ ويماطل في التنفيذ، وفي الوقت نفسه يظهر الطاعة للإمام المتوكل، ولكنه ييطن له غير ذلك حتى أوفد الإمام المتوكل إلى السلطان مندوبه صالح بن حسين الذي ألح عليه في إطلاق سراح عمه السلطان بدر بن عمر من السجن، حينها استجاب السلطان بدر بن عبدالله في إطلاق عمه من السجن وتوليته ولاية ظفار، وبعدها تحسنت العلاقة بين السلطان بدر والإمام، فقد تبادلوا الرسائل، واعتذر السلطان بدر بن عبدالله للإمام عن سجنه لعمه في رسالة خاصة، وأرسل إليه الرسائل والهدايا من الخيول له ولأولاده وأقاربه، وأعلن له الولاء والطاعة، وأرسل ما تقرر على حضرموت من الزكاة وزكاة الفطر وحصته من رسوم الجمارك لميناء الشحر، وبعث له بالأموال من الذهب والقروش والخيول الجياد^(١).

إلا أن الصلات الودية التي نشأت بين الإمام المتوكل والسلطان بدر بن عبدالله لم تستمر إلا زمنًا يسيرًا، وتغير الموقف تمامًا، وحدث ما لم يكن في الحسبان، وذلك بعد مطالبة جعفر بن عبدالله بن السلطان بدر بن عبدالله بولاية ظفار التي سبق أن أعطيت له، وتولى أمرها بعد الإفراج عنه من سجن تريس بعد وصول أخيه السلطان بدر بن عبدالله إلى سدة الحكم، واعتراضه على الاستجابة للإمام وانتزاع ظفار منه وتسليمها للسلطان بدر بن عمر بن عبدالله بن بدر، وصارت الأمور بالاتجاه الآخر، وبالاتفاق بين الأخوين اتجه جعفر أخو السلطان بدر إلى ظفار، واستولى عليها وقتل ابن عمه بعد اشتباك قواته المؤلفة من آل كثير مع قوات عمه الذي فر هاربًا بحرًا إلى عدن، ثم إلى ذمار، لاجئًا إلى الإمام مع ولديه محمد وعلي^(٢).

الحضرمي، دار المهاجر، المدينة المنورة، تريم، حضرموت، ط ٣، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ج ٢، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(١) الجرموزي، مطهر بن محمد: تحفة الأسماع والأبصار، تحقيق عبدالحكيم الهجري، صنعاء ط ١٩٩٧، ص ١/ ٨٨٣-٨٩٣، ابن هاشم، محمد: تاريخ الدولة الكثيرة، ج ١، ص ٦٨-٧٢، ابن حميد، العدة المفيدة، ج ١، ص ٢٣٨-٢٤٢، أبو طالب حسام الدين، تاريخ اليمن عصر الاستقلال عن الحكم العثماني، ص ٥٥.

(٢) ابن حميد، سالم بن محمد: تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة، ج ١، ص ٢٣٨-٢٤٢.

ويبدأ الإعداد سنة (١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م) لإرسال جيش من الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم بن محمد إلى حضرموت بقيادة الصفي أحمد بن الحسن، وقد تمكن هذا الجيش من احتلال مناطق حضرموت المختلفة سنة (١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م)، التي كانت تخضع لحكم السلطان بدر بن عبدالله بن عمر، الذي هزم جيشه، ثم ولي السلطان بدر بن عمر الكثيري حكم حضرموت من قبل الإمام المتوكل^(١)، وعيّن ابنه علي عاملاً على الشحر من قبل الإمام، وتم تنصيب القضاة وجمع الزكاة والفطرة في جهات حضرموت المختلفة، وبذلك انتهت مهمة الصفي أحمد بن حسن والجيش الزيدي حسب أوامر الإمام إسماعيل، إضافة إلى زيادة أفراد الجيش وزيادة نفقاتهم حتى أوشكت أموال أحمد بن الحسن وخيله وجماله على النفاد، لهذا عاد الجيش الزيدي إلى صنعاء، وبذلك دخلت حضرموت مرحلة التبعية لحكم الأئمة الزيدية، وقد تميز حكم السلطان بدر بن عمر بن بدر بوطويرق الكثيري بالولاء والطاعة للإمام المتوكل إسماعيل، وبعد وفاة السلطان بدر بن عمر بن بدر سنة (١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م) عين من قبل الإمام ابنه محمد المردوف الذي أصبحت حضرموت في عصره تعاني ظروفاً مختلفة، وتمر بأسوأ أحوالها، واستمر محمد المردوف في الحكم سبع سنوات، وتوفي سنة (١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م)^(٢).



تنامي نفوذ ووجود العسكر من يافع في حضرموت

منذ عهد السلطان بدر بن عبدالله بوطويرق أصبح عسكر يافع في جيش الدولة الكثيرية^(٣)، وحين آلت الأمور إلى ما آلت إليه من أحداث وصراعات بين سلاطين الأسرة الكثيرية الحاكمة، وجد العسكر من يافع الفرصة سانحة للقيام بالدور الفعال والمؤثر في أحداث الدولة الكثيرية واستغلالها لتعزيز وجودهم وتقوية نفوذهم.

(١) باوزير، سعيد عوض: صفحات من التاريخ الحضرمي، ص ١٦٤-١٦٧، بامطرف، محمد عبدالقادر: لمحات من تاريخ اليمن، دار الثقافة، الشحر، ١٩٨٣م، ص ٧٧-٧٨.
(٢) ابن هاشم، محمد: تاريخ الدولة الكثيرية، ج ١، ص ٨٢-٨٨، الجرموزي: المرجع السابق، ص ٩٩٥-٩٩٦/أ.

(٣) بافقيه، محمد عمر: تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، ص ٤٢.

إن ضعف السلاطين وقصر همتهم وقلة هيبتهم، جعل الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، في الوقت الذي كان ينمو فيه نفوذ وهيمنة العسكر من يافع، وأصبح لهم كلمة مسموعة، فعندما حدث الانقلاب الثاني من قبل السلطان بدر بن عبدالله بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويروك الكثيري على عمه السلطان بدر بن عمر سنة (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) - وسبقت الإشارة لذلك - طلب الأمير عنبر أحد القادة والمقربين من السلطان بدر الحماية من عسكر يافع، فاستجابوا له، وطلبوا له الأمان من السلطان بدر بن عبدالله، فأعطاه الأمان، وبعدها اتجه إلى عينات^(١).

وبحكم العلاقة التي تربط الشيخ أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم صاحب عينات والشيخ أبا بكر بن هرهرة اليافعي وزياراتهما المتبادلة، وما كان للشيخ بن أبي بكر بن سالم من المكانة في يافع، فقد وصل الشيخ أبو بكر هرهرة في سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م إلى حضرموت، ودخل سيئون، وطلع إلى حصن سيئون؛ ليقابل السلطان عيسى بن بدر بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري، ثم سار باتجاه عينات، وعند العودة قابل عيسى بن بدر في حصن سيئون، وزار الشيخ أحمد عمر بابعبد نائب المنصب بالغرفة؛ بهدف توثيق العلاقات بين الطرفين^(٢).

وتواصلت زيارات يافع إلى حضرموت، ففي سنة (١١١٣هـ/١٧٠١م) وصل إلى حضرموت الشيخ عمر بن صالح بن هرهرة، وكان يرافقه خمسون رجلاً من يافع ومن آل القعيطي، ورتب هذه الزيارة إلى مدن حضرموت شبام والغرفة وسيئون وتريم وعينات، وقابل الشيخ أحمد بن عمر بابعبد في الغرفة الذي أكرم ضيافته هو ومن معه، وقابل السلطان عيسى بن بدر في سيئون فأحسن استقباله، وأكرم ضيافته.

وفي تريم احتفل السلطان بدر بن السلطان محمد المردوف بن السلطان بدر بن عمر بقدوم الشيخ صالح بن عمر بن هرهرة، ونظّم له استقبلاً رسمياً يليق بكبار الشخصيات، علماً بأن السلطان بدر بن محمد المردوف تربطه بيافع علاقة مصاهرة، إذ تزوج أخت النقيب عبدالله بن همام قائد الحماية (الرتبة) لحراسة السلطان في تريم، ثم زار الشيخ أحمد

(١) ابن هاشم، محمد: تاريخ الدولة الكثيرة، ص ٧٠.

(٢) ابن حميد، سالم بن محمد: العدة المفيدة، ص ٢٣٨-٢٤٠، د. الجعدي، عبدالله سعيد: السلطنة الكثيرة الأولى، ص ١٨٩-١٩٢.

بن الحسين بن أبي بكر بن سالم، وجلس أيامًا في عينات^(١)، ووصف بعض المؤرخين الحضارمة هذه الزيارة بأنها ليست عادية ولا يقتصر هدفها على زيارة الشيخ ابن أبي بكر^(٢) بقدر ماهي تأسيس لنشاط مستقبلي ليافع في حضرموت، ففي مدة حكم السلطان بدر بن محمد المردوف بن بدر بن عمر، الذي بدأ بسياسة جديدة تتميز بالموازنة والمرونة مع الأئمة الزيدية، وتتحاشى القطيعة والنفور من الإمام الزيدي، ولا تعني الانسجام والطاعة والولاء التام للإمام^(٣)، أخذ ينتهج سياسة تهدف إلى إعادة ترتيب الوضع السياسي في حضرموت أملاً باستعادة مجد الأجداد، وخاصة جده السلطان بدر بوطويق، وكان يعتقد بإمكانية الاستفادة من عسكري يافع لتحقيق غايته، وقد وقع تحت تأثير الشيخ أحمد بن الحسين بن الشيخ بن أبي بكر بن سالم الذي أشار عليه بالاستفادة من العلاقة مع الشيخ صالح بن عمر بن هرهرة، وأيضًا تحت تأثير صهره عبدالله بن همام.

كل هذه المؤثرات جعلت السلطان بدر بن محمد المردوف بن السلطان بدر بن عمر يفكر بجدية في إحضار عسكري من يافع، ولتحقيق ذلك اتجه إلى يافع يرافقه الشيخ صالح بن عمر بن هرهرة سنة (١١١٦هـ/ ١٧٠٤م)، وبعد ذلك عاد من يافع وبصحبه الشيخ صالح بن هرهرة، ومعه ستة آلاف رجل، ووصلوا إلى حضرموت ونزلوا قريبًا من قرية الهجرين^(٤) غرب وادي حضرموت. وأزعج هذا الأمر السلطان عمر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن عمر بن بدر، الذي جهز جيشًا يتكون من ألف وخمسمائة رجل، منهم مائة خيال، ومعهم عدد من سلاطين آل كثير وآل عبدالله، وعدد آخر من آل كثير، ومعه نحو مائتين من الزيود تهدف لمحاربة قدوم يافع إلى حضرموت، فالسلطان عمر بن جعفر الكثيري يحمل العداء ليافع، ويرفض وجودهم في حضرموت، وله علاقة طيبة بالإمام، ويعظم شعائرهم الدينية، وكان يميل إلى بقاء تبعية حضرموت للإمام الزيدي.

-
- (١) العبدلي، فضل أحمد علي محسن: هدية الزمن وأخبار لحج وعدن، ص ١٠٨-١١١، ابن حميد، سالم محمد: العدة المفيدة، ص ٢٤٩، ٢٦٢-٢٦٩.
- (٢) ابن هاشم، محمد: تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٨٤-٨٥.
- (٣) ابن حميد، سالم بن محمد: المرجع السابق، ص ٢٢١-٢٢٢.
- (٤) العبدلي، أحمد فضل بن علي محسن: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ص ١٠٧، ١١١، ابن هاشم، محمد: الدولة الكثيرية، ص ٨٩-٩٣.

وتحت قرية الهجرين دارت معركة بين الطرفين خلّفت عددًا من القتلى والجرحى، وأدرك السلطان عمر بن جعفر أنّ الهزيمة محققة، ففرّ من ساحة المعركة متجهًا إلى سيئون^(١)، وظل الاختلاف على أشده بين السلطانين بدر بن محمد المردوف والسلطان عمر بن جعفر، وفي هذه الظروف اتخذ السلطان عيسى بن بدر بن علي بن عبدالله بن عمر سيئون منطقة نفوذ لحكمه^(٢).

إن الصراع والتنافس على الحكم بين سلاطين الأسرة الحاكمة أحدث انقسامًا كبيرًا بينهم، ودفع بكل طرف إلى البحث عن مجموعة من الأفراد وتجنيدهم في عسكره، فاتجه بعض السلاطين إلى خارج حضرموت، منهم من سار إلى جهة الإمام الزيدي وكوّن له جيشًا من الزيود، وبعضهم سار إلى جهة العواتق والواحدي، وآخر سار إلى جهة يافع. ويعبر عن وضع حضرموت في هذه المدة المؤرخ سالم بن حميد بقوله: «كثر التخالف والتنافر والتصادم بين الدولة الكثيرية البين»، وأضاف قائلاً: «واستقوت عليهم الأجانب خصوصًا الفئة اليافعية، واستولت على ممالكهم وبلدانهم، وخرجوا منها حتى انتهاء رسم الدولة الكثيرية من تلك البلاد وخصوصًا المسفلة، ولم يبق اسم الدولة إلا في محلات قليلة». وعن حالة حضرموت السياسية يضيف قائلاً: «وفي الوقت نفسه لا تزال الجيوش تخرج إلى حضرموت من اليمن، وكذلك الحروب والوقائع بين يافع والشنافر والعوامر وبني ظنة وغيرهم»^(٣).

كما أشار المؤرخ محمد أحمد الشاطري إلى أنّ حالة حضرموت آنذاك، وما ترتب على استعانة السلطان بدر بن عمر بوطويق الكثيري بالإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم الذي أرسل الجيش الزيدي لغزو حضرموت، وكذلك استعانة حفيد السلطان بدر بن محمد المردوف بعساكر من يافع - أدّى إلى إضعاف الدولة الكثيرية وسلاطينها^(٤).



(١) ابن حميد، سالم محمد: العدة المفيدة، ص ٢٦٤-٢٦٢.

(٢) ابن هاشم، محمد: المرجع السابق، ص ٩٠-٩٣، ابن حميد، سالم بن محمد: العدة المفيدة، ص ٢٤٢-٢٦٢.

(٣) ابن هاشم، محمد: المرجع السابق، ص ٩٠-٩٣، ابن حميد، سالم بن محمد: العدة المفيدة، ص ٢٤٢-٢٦٢.

(٤) الشاطري: محمد أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، ج ٢، ص ٢٤٤-٢٤٥.

أوضاع حضرموت المضطربة والمتوترة وإشاعة الفوضى

في سنة (١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م) تعرضت حضرموت لأحداث غريبة عن العادات والأعراف المألوفة بين الحضارمة، ومخالفة بشكل صريح لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد اشترك في القيام بهذه الأعمال المشينة بعض من أفراد أسرة السلاطين آل كثير، منهم محسن بن السلطان عمر بن بدر الذي تزعم مجموعة من آل كثير وبعضاً من الشنافر ومن العوامر وآل جابر ومن حولهم، تقوم هذه المجموعة بممارسة أساليب العنف والقوة والسطو والنهب، ويُعبّر عن ذلك المؤرخ ابن حميد بقوله: «فلا يزالون يلعبون في حضرموت». وتعني هذه العبارة فيما تعنيه، أن تلك المجموعة تجردت من أي اعتبارات، ولم تستنكف عن تصرفاتها العبيثة، فقاموا بغارة على دمون سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م، وأشعلوا الحرائق في الدور وبعض الغرف وسلبوا الرعايا مواشي لهم من الأبقار والحمير^(١)، ثم اتجهوا إلى الغرف ديار آل زيدان بني ظنة من سكان هذه المنطقة، فأحرقوا ونهبوا، وقد تصدى لهم آل تميم وعدّوا ذلك تحدياً لهم وتعدّياً على حرمة مشارح ومسارح آل بني ظنة، وساندتهم في هذا الموقف الحامية من عسكر يافع في تريم، ونتيجة لهذا الاشتباك والقتال سقط قتلى من آل كثير ومن حالفهم وآل تميم ومن حالفهم.

وتكررت هذه الغارات، لكن آل تميم وآل زيدان وعسكر يافع طاردوا الشنافر من آل الكثير والعوامر وآل جابر إلى تاربة^(٢)، ولكن هذه المجموعة لم تتوقف عن ممارسة مثل هذه الأعمال، وأغاروا على سيئون. ووصف ابن حميد هذه الأعمال البشعة بقوله: «لعبوا بها، وفسقوا فيها». ولم يتعرض لهم أحد، وكانت الحامية من عسكر يافع، فعندما سمعوا بهذه الأعمال اتجهوا إلى حصن سيئون وتحصنوا فيه، فعبر عن هذا الموقف ابن حميد بقوله: «تمرّج بالجرذ فالهر غائب». وهذا تعبير يظهر غياب هيبة الدولة وعجزها عن حماية رعاياها. وفي المقابل ظهر لمهاجمة هؤلاء بعض من آل كثير، وتولوا الحراسة، واتفقوا على القيام بحماية بعض بيوت يافع في سيئون لمعرفة بينهم، وكما قاموا بحماية بعض دور الرعية

(١) ابن حميد، سالم محمد: تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة، ج ١، ص ٣٠٠، ابن هاشم، تاريخ ص ٨٩-٩٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠٠-٣٠١، ابن هاشم، محمد: تاريخ الدولة الكثيرة ص ١٠٦.

بسيئون مقابل دراهم دفعها الرعايا لهم^(١).

استمرت هذه المجموعات تمارس هذه الأعمال المشينة دون توقف، مستغلة حالة الاضطراب والفوضى السياسية والاجتماعية التي تمر بها حضرموت آنذاك، وقد تداعت هذه المجموعة ودعت غيرها من الشنافر آل كثير والعوامر آل جابر، فاتجهوا إلى تريم، وهناك طلعوا إلى حصن السعادة وهدفهم غزو مناطق آل تميم الذين بدورهم تداعوا لموجهتهم، وناصرهم العسكر من يافع، ودارت معركة شديدة في موقع باجلحبان^(٢)، وأسفرت عن قتلى وجرحى، ومن الذين أصيبوا في هذه المعركة محسن بن السلطان عمر بن بدر، أصيب بطلق ناري في حلقه، وأُسْعِفَ إلى قرية مدودة شمال سيئون، ثم نُقِلَ إلى غرب مدودة قرية بحيرة، وأصيب واحد من آل تميم من بني ظنة.

وفي هذه الظروف تدخل الشيخ العلامة حسين بن عبدالله العيدروس ليصلح بين الطرفين، وتمكن من إيقاف الحرب بين الطرفين، واحترم كلا الطرفين حُكْمَهُ^(٣)، غير أن هذا الصلح لم يُنْهَ حالة الفوضى والاضطراب التي تمر بها حضرموت، ففي يوم الأربعاء ٧ رمضان سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م اعتصب مجموعة أخرى تقدر بنحو مئتين وسبعين، ويحملون بنادق، ومعهم عدد من الخيل من آل كثير وبعض من نهد يتزعمهم السلطان عيسى بن بدر، فدخلوا جعيمة وهدفهم آل سعيد فرع من آل كثير، فأخربوا غرفهم، وأتلفوا زراعة لهم، وأحرقوا بعض الغرف، وظلوا في جعيمة إلى اليوم الثاني وقت الضحى، إلا أن آل سعيد لم يعترضوهم، وعاد السلطان عيسى بن بدر إلى سيئون دون أن يقتل أو يجرح منهم أحد^(٤).

لم تتضح لنا الأسباب الحقيقية للقيام بمثل هذه الأعمال، إلا أنها تبدو كالعقوبة للقبائل لمواقفها الموالية لأحد طرفي الصراع المحتدم بين أفراد الأسرة الكثيرة الحاكمة، والذي كان له أثره السلبي في الانقسامات والتصدع بين فروع قبيلة آل كثير وبقيّة قبائل حضرموت، وكان لهذا أثره في جميع سكان حضرموت، وحالة الأمن والاستقرار.

(١) ابن حميد، سالم بن محمد: العدة المفيدة، ص ٣٠٠.

(٢) باجلحبان: منطقة تقع غرب السور شرق الجبل عند مدخل تريم.

(٣) ابن حميد، سالم بن محمد: العدة المفيدة، ص ٣٠١.

(٤) ابن حميد، سالم بن محمد: العدة المفيدة، ص ٢٤٣-٢٤٤.

وفي سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م حدث أن أحد الرعية من قرية شحوح قام ينادي السكان بصوت عالٍ بأن له بقرة وحمار سُرقا من أمام بيته، وطلب المساعدة لنجدته باستعادة حقه، وعندما لم يجد من يجيبه اتجه إلى سيئون، وأبلغ الناس بما حدث، ونادى فيهم بصوت عالٍ، فاستجاب له جعفر بن السلطان عيسى بن بدر بن عمر بن بدر، وأخذ مجموعة، منهم من ركب الخيل ومنهم من يمشي على رجله، واتجهوا شمالاً إلى عقبة مدودة، وعرفوا من قاموا بالسرقة، وألزمهم بإعادة البقرة والحمار لصاحبهما^(١).

وساءت أحوال حضرموت وأصبح السكان لا يأمنون على أنفسهم وأموالهم في بيوتهم، في ظل ظروف السياسة المعقدة نتيجةً لحكم إمامي ضعيف، وليس له وجود في الواقع، وسلطين آل كثير أصبحوا في حالة من الضعف، تأخذهم الصراعات في ما بينهم إلى أسوأ حالات التصدع، وعسكر يافع المهتمين بتعزيز نفوذهم وزيادة نشاطهم والسعي الحثيث لكي يكون لهم موضع قدم في حضرموت، ونشاط عشائري قبلي فوضوي يهدد حياة السكان وممتلكاتهم وحقوقهم بالسلب والنهب رغم فقرهم وقلة ما بأيديهم^(٢). وانتقد العلامة الشيخ عبدالله بن علوي الحداد ما يمارسه بعض الأفراد المنتسبين لقبائل حضرمية معروفة بقوله: «أنا لا أقدر أن أحكم بكفرهم ولا بإسلامهم، إن حكمت بكفرهم فهم ينطقون بالشهادتين، ويصلون، وإن حكمت بإسلامهم، فهم يستحلون قتل الأنفس البرية وينهبون الحلال»^(٣).

وفي سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م مارس بعض الأفراد من آل كثير والشنافر أعمال ترويع للسكان الآمنين في بيوتهم، إذ يأتي هؤلاء بيوت الناس في سيئون مساءً في هيئة عصابات هدفها السرقة والسلب والنهب، ويتم التهديد بالقتل في حال قيام المجني عليه بطلب النجدة أو حتى الحديث عما جرى له، وهي أعمال لم تعرفها حضرموت خلال تاريخها، ولم تسلم تريم من ظهور مثل هذه الأعمال المشينة أعمال السلب والنهب، ففي سنة ١١١٩هـ- ١٧٠٧م ارتفع صراخ سكان تريم من جور ما لحق بهم من ضرر وظلم وانتشار المفاسد من طغاة عسكر يافع، ولم يستطع عقلاء عسكر يافع إيقافهم عند حدهم، بل

(١) ابن حميد، سالم بن محمد، العدة المفيدة، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) الشاطري، محمد بن أحمد: أدوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر، المدينة المنورة، ج ٢، ط ٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ٣٢٣.

تعب السلطان بدر بن محمد المردوف من سوء الحال، وهو الآخر لم يتخذ أي إجراءات ضد عسكر يافع، فاستغاث بالعلامة علي بن أحمد بن الشيخ أبي بكر الذي تدخّل وأخذ عهداً منهم بأن يكفوا عن هذه الأعمال.

يجري هذا مع ما تمر به حضرموت من أحوال سياسية واجتماعية سيئة أدت إلى انتشار حالة الفوضى واضطراب الأحوال وعدم الأمن والاستقرار، فإنها تعاني حالة اقتصادية صعبة أدخلت الناس في ضائقة من العيش، فقد ارتفعت الأسعار في شهر رجب سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م، حتى بلغ سعر الطعام الحب البر سبعة مصاري بأوقية^(١)، وسعر الذرة تسعة مصاري بأوقية، وسعر التمر خمسة وعشرون رطلاً بأوقية، وكثيراً ما تتعرض حضرموت لمثل هذه الظروف بسبب الجفاف وعدم سقوط الأمطار.

وتعد المواسم الزراعية من أهم ما يترقب الناس قدومه، ففي موسم قطع التمور على سبيل المثال يتوافد الناس من مختلف القبائل والمناطق إلى تاربة الشهيرة بالزراعة وكثرة التمور؛ لينالوا حظهم من فرص العمل في هذا الموسم، وليحصلوا على شيء من ثمار هذه الشجرة الطيبة المباركة، وقد تحدث في هذه الأثناء بعض أعمال السرقة والسلب والنهب لمحاصيل التمور من قبل بعضهم، ممّا يستدعي القيام بمهام الحراسة من قبل بعض ذوي الشوكة والقوة مقابل أجور غالباً ما تكون من المحاصيل نفسها، ومن ذلك ما فعله الأمير منصور بن سالم بن عنبر الذي تحرك ومعه ستون بندقاً للقيام بحماية النخيل من المتقطعين وسُرّاق التمور^(٢).

وترتبط الحياة الاقتصادية لسكان حضرموت بالظروف الطبيعية من حالات الجفاف وسقوط الأمطار، ففي حالة الجفاف تغلو أسعار أقوات الناس من الحبوب مثل القمح والذرة وكذلك التمور والنبق، وعند سقوط الأمطار يعم الخير، وترخص الأسعار.

(١) ابن حميد، سالم بن محمد: العدة المفيدة، ص ٢٤٣-٢٥٣. وتم ضرب العملة في عهد السلطان بدر بوطويرق سنة ٩٣٤هـ-١٥٢٧م، وضربت العملة إلى فضية ونحاسية من الريال والبقشة، كما تداولوا عملات أخرى مثل الأوقية، وكان الريال الواحد يساوي أوقية من الفضة، والأوقية تساوي ٦٠ درهماً.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٥٠-٢٥٢.

وبنهاية حكم السلطان جعفر بن عمر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن عمر الكثيري سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م ينتهي تاريخ الدولة الكثيرة التي كان لها الأثر البارز في تاريخ حضرموت في مُدَّة طويلة من تأسيسها إلى نهايتها ٨١٤هـ / ١٤١١م أكثر من ثلاثمائة عام، وكان لهذا الحدث البارز نتائجه السلبية في تاريخ حضرموت الحديثة.



قائمة المصادر والمراجع

١. أحمد فضل بن علي محسن العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.
٢. ثابت صالح اليزيدي، الدولة الكثيرة الثانية في حضرموت: نشأتها، صراعاتها، التدخلات الأجنبية، دار الثقافة العربية، جامعة عدن، الشارقة، عدن، ط ١، ٢٠٠٢م.
٣. حسام الدين محسن أبوطالب، تاريخ اليمن عصر الاستقلال عن الحكم العثماني الأول من سنة ١٠٥٦-١١٦٠هـ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مطابع المفضل صنعاء، ج ١.
٤. سالم بن محمد بن حميد الكندي، تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء. ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٥. سعيد عوض باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٩٦١م.
٦. سعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، مكتبة الثقافة، عدن، ١٩٥٧م.
٧. سعيد عوض باوزير، معالم تاريخ الجزيرة العربية، دار الكاتب العربي، مصر، ط ١، ١٩٥٤م.
٨. عبد الله سعيد الجعدي، السلطنة الكثيرة في حضرموت (٨١٤-١١٤٣هـ/١٤١١-١٧٣٠م)، تريم للدراسات والنشر، تريم - حضرموت، ط ١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
٩. عبدالله بن حسن بلفقيه، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، تعليقات علوي بن طاهر الحداد، تحقيق مصطفى بن عبدالرحمن بن عبدالله العطاس، تريم للدراسات والنشر، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.



١٠. محمد أحمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر، المدينة المنورة،
تريم، ط٣، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
١١. محمد عبد القادر بامطرف، لمحات من تاريخ اليمن، مطبعة الثقافة، الشحر،
١٩٨٣م.
- مطهر بن محمد الجرموزي، تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب
الأخبار، تحقيق عبد الحكيم عبد المجيد الهجري، صنعاء ط١، ١٩٩٧م.

علماء حضرموت وأثرهم الحضاري خلال القرن الحادي عشر الهجري علماء تريم أنموذجاً

علي سالم علي باهادي
نائب مدير مركز الرناد للتراث والآثار والعمارة

المقدمة:

شهدت حضرموت خلال القرن العاشر الهجري استقراراً نسبياً في أوضاعها، بعد التحركات والجهود التي قام بها السلطان بدر أبو طويرق ومحاويلته توحيد الجغرافيا الحضرمية في دولة مركزية واحدة.

لكن ذلك الاستقرار لم يدم طويلاً، إذ شهدت حضرموت خلال القرن الحادي عشر الهجري عدّة من الحوادث التي أربكت المشهد العام فيها، كان أبرزها تصاعد وتيرة النزاع الداخلي في الأسرة الكثيرة، ووصول قوات الدولة القاسمية إلى حضرموت، وفرض سلطتها عليها، وقد أدت تلك الحوادث إلى تحلل السلطة الحضرمية الهشة أمام القوى الأجنبية، كما أحدثت تغييراً ديمغرافياً في المنطقة.

هذا البحث يحاول تتبع حركة العلماء الحضارم داخل المجتمع خلال تلك المرحلة الصعبة في تاريخ حضرموت، ورصد آثارهم الحضارية وإسهاماتهم التي حاولوا بها إصلاح ذلك المجتمع وحل مشاكله؛ استشعاراً منهم لخطورة المهمة الملقاة عليهم، وقياماً بما يفرضه عليهم دينهم من بذل النصيح والإرشاد.

وقد قسمت الدراسة على تمهيدٍ تناول تحليل المصادر التي اعتمد عليها البحث، ثم مبحثين وخاتمةٍ تتضمّن أهمّ ما خلص إليه الباحث في الموضوع.

كل الشكر والتقدير لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر على جهوده الجليّة في توثيق التاريخ الحضرمي، وإعادة كتابته بطرق علمية عبر الاستمرار في إقامة المناشط والفعاليات العلمية.

التمهيد

تحليل مصادر الدراسة

استوت هذه الدراسة بعد أن اعتمدت على مجموعة من المصادر، وكانت كتب التراجم وكتب الرقائق والتصوف عمودها الفقري الذي استندت عليه، ومن أهمها:

١- مؤلفات المؤرخ محمد بن أبي بكر الشلي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م التاريخية والتراجمية، وهي:

أ- المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل باعلوي. وهو كتاب في التاريخ المحلي لحضرموت، ويقع في جزأين تضمنا ذكر حضرموت ومدنها وبالأخص تريم، وتراجم أكثر من ٢٥٠ شيخاً من علماء بني علوي بن عبيدالله المهاجر، ويقدم هذا الكتاب مادة تراجمية جيدة لعلماء هذه الأسرة، رغم ما شاب بعض تلك المعلومات من أخطاء يُعذر فيها مؤلفه؛ لبُعده عن تريم، فقد وضع كتابه في مكة.

ب - عقد الجواهر والذّرر في أخبار القرن الحادي عشر. ويرصد أبرز أحداث ذلك القرن من وفيات الأعلام والأمرء، والحوادث الاجتماعية، والكوارث الطبيعية، وقد اختصت حضرموت بنصيب جيد من ذلك.

٢- شرح العينية. للعلامة أحمد بن زين الحبشي. وهو شرح لقصيدة شيخه الإمام عبدالله بن علوي الحداد، المسمّاة بـ(العينية)، والتي أورد فيها عدداً كبيراً من الأعلام.

٣- بهجة الزمان وسلوة الأحزان في ذكر طائفة من الأعيان. للسيد محمد بن زين بن علوي بن سميّط. وهو في الأصل الجزء الثالث من كتابه التراجمي (غاية القصد والمراد في ترجمة الإمام الحداد)، وقد جعل الجزء الثالث منه ترجمة لأصحاب الإمام الحداد وأقرانه.

٤- صلة الأهل بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل. وهو سيرة ذاتية لأسرة آل أبي فضل الأسرة العلمية العريقة بتريم.

قدمت مصادر الدراسة مادة تراجمية جيدة عن أعلام حضرموت وحظي القرن الحادي عشر بنصيب وافر منها، لكن ممّا يؤخذ على المؤلفين الإطراء للمترجمين والثناء المبالغ فيه، والانصراف إلى عبارات السجع المتكلف، والاهتمام بذكر كرامات المترجمين وخوارق عاداتهم دون الالتفات - في بعض الأحيان - إلى نتائجهم العلمي وإسهاماتهم الحضارية في

الحَقَبِ التي عاشوا فيها، وكان ذلك النوع من الكتابة التاريخية قد ساد تلك الأزمان، وأصبح المؤرخ رهيئ ذلك النوع من الأسلوب، حتى ظهر الجيل الجديد من المؤرخين الحضارم في القرون الهجرية الأخيرة، ومع ذلك تصور تلك المصادر لنا الحياة العلمية في حضرموت من خلال تراجم العلماء، وتقدم مادة تاريخية جيدة للباحث الذي يسبر أغوارها، وقد حظي القرن الحادي عشر بتراجم عدد من العلماء التريميين الذين اختص البحث بدراستهم.

منهج الدراسة:

اتبعت هذه الدراسة منهج البحث التاريخي من خلال تتبع ذكر أولئك الأعلام في بطون كتب الطبقات والتراجم وغيرها من كتب التاريخ، وما أنتجوه من تراث معرفي إنساني. ثم منهج التحليل والوصف والمقارنة، وقد أدرجت في الدراسة علماء كانت وفياتهم في العقود الأولى من القرن الثاني عشر، وذلك لأن الكثير من جهودهم كانت في القرن الحادي عشر الهجري، وحاولنا بقدر ما سمحت لنا به المصادر أن نضع أمام كل عالم يُذكر سنة وفاته، وإلا فهو من علماء ذلك القرن.

المبحث الأول: تريم التسمية والجغرافيا وأوضاعها خلال القرن الحادي

عشر الهجري

١- تسمية تريم وجغرافيتها:

لمدينة تريم إرث حضاري وتاريخ كبير وشهرة تعدت محيطها الجغرافي، ومع ذلك فقد اختلف المؤرخون في سبب تسمية تريم بهذا الاسم، فيذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان أن تريم إحدى مدينتي حضرموت؛ لأن حضرموت اسم للناحية بجملتها، ومدينتها شباب وتريم، وهما قبيلتان سميت المدينتان باسميهما^(١). في حين يذكر مرتضى الزبيدي في كتابه تاج العروس أن تريم سميت باسم بانيها تريم بن حضرموت^(٢)، وأقدم ذكر لمدينة تريم في النقوش المسندية التي تعد المصدر الأول والأهم في تاريخ اليمن القديم هو ما جاء في النقش الموسوم بـ(إرياني ٣١-٣٢)، والنقشان يعودان إلى نهاية القرن الثالث وبداية القرن

(١) الحموي ياقوت، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٢٨.

(٢) الزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس، منشورات مكتبة الحياة، مصر، ١٣٠٦ هـ، ج ١، ص ٧٦٣١.

الرابع الميلادي في مدة ضم حضرموت إلى الدولة المركزية الحميرية^(١)، ومن المرجح أن تكون نشأة تريم قبل ذلك التاريخ بأزمان بعيدة.

وتعد تريم من كبريات مدن حضرموت، وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة شبام على بُعد ٤٢ كم، وتبعد عن سيئون - عاصمة وادي حضرموت اليوم - مسافة ٣٢ كم إلى الشمال الشرقي منها.

و تريم من أشط مدن حضرموت من الناحية العلمية، وقد حظيت بشهرة علمية لا تضاهيها أية مدينة أخرى، فضلاً عن شهرتها الدينية خلال تاريخها الإسلامي، التي جعلت أهلها وساكنيها لا يفضلون غيرها بعد مكة والمدينة وبيت المقدس، واشتهرت بكثرة مساجدها بالنسبة إلى سكانها ومساحتها، وذلك ناتج عن شهرتها العلمية وكبرها واتساعها، وهي عامرة بالعلم والعلماء ومراكز التعليم والمكتبات^(٢).

٢- الوضع السياسي في القرن الحادي عشر:

شهدت حضرموت في مطلع القرن التاسع الهجري قيام السلطنة الكثيرة الأولى (٨١٣هـ)، واستطاعت تلك السلطنة بعد اتساعها إزاحة عدّة من الدويلات والقوى المحلية في حضرموت عن المشهد السياسي.

وكانت تريم في مطلع القرن العاشر الهجري تحت سيطرة آل يمانى الذين جعلوا المدينة حاضرة لدولتهم، وتعد السيطرة على تريم معضلة سياسية واجهت آل كثير منذ أن نشأت دولتهم، وقد تطلع للسيطرة عليها أكثر سلاطينهم؛ لما لها من مكانة مهمة وبُعدٍ روحي عميق لدى الحضارم، ولهذا بعد أن اعتلى السلطنة السلطان بدر بن عبدالله المكنى بأبي طويرق سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م تطلع للسيطرة عليها مستفيداً من تغيّر موازين القوى لصالحه في شبام، فتقدّم نحوها وحاصرها عشرين يوماً، اضطر بعدها سلاطين آل يمانى لتسليمها ومغادرتها، وبذلك تنتهي سلطتهم فيها، وتبدأ تريم مرحلة جديدة في تاريخها تحت لواء الدولة الكثيرة، وقد حرص سلاطينها على إبقاء تريم بعيدة عن الصراع السياسي، وكان لعلماء تريم مكانة

(١) الرباكي أحمد صالح، الجديد في تاريخ تريم القديم، ص ١٢٧.

(٢) عبدالنور محمد يسلم، الحياة العلمية في حضرموت في القرنين السابع والثامن الهجريين، ص ٤٨.

مهمة لدى سلاطين آل كثير، فقد حرص أبو طويرق على الجلوس مع الإمام علوي باجحدب نقيب العلويين في زمانه، والاستماع لنصائحه، وحذا حذوه من أتى من بعده من السلاطين. وقد تولّى السلطنة بعد إقالة أبي طويرق ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م ابنه عبدالله إلى وفاته سنة ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م، ليخلفه ابنه جعفر إلى سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م، ثم عمر بن السلطان بدر أبي طويرق إلى سنة ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م الذي كثر اتصاله بعلماء عصره كالشيخ أبي بكر بن سالم العلوي، ثم تولى بعده ابنه عبدالله بن عمر بن بدر، وقد اعتزل الحكم بعد لقائه بالحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوي في عينات، وتصفّو على يديه، ثم قصد مكة وأقام بها إلى أن توفي، وتولى بعده أخوه بدر بن عمر بن بدر الذي تولى السلطنة بإشارة السيد الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوي سنة ١٠٢٤هـ، وكان السلطان بدر قد أقام للشرع الشريف بحضرموت عدّة محاكم، وبنى عدة مساجد منها مسجد السلطان الواقع شمال حصن الرناد تريم، وأوقف أوقافاً كافية له^(١).

وكانت السلطنة الكثيرة خلال كل تلك الحقب لا تسلم من النزاعات الأسرية داخل البيت الكثيري، حتى أصبحت سمة سائدة أن كل من تولى السلطنة يقف في وجهه إخوته أو أبناء عمومته ينازعونه على سيادة حضرموت، مستعينين بأي قوة لتحقيق مآربهم، وقد أدى ذلك في نهاية المطاف إلى إضعاف سلطة آل كثير وتقلص نفوذهم في حضرموت، وتزايد الأطماع الخارجية عليها.

في العام ١٠٥٨هـ وثب بدر بن عبدالله بن عمر على عمّه بدر بن عمر وابنه محمد، وتم إرسالهما إلى حصن مريمة مكبلين، بعد اتهامهم بموالاة أئمة اليمن ومكاتبتهما، بل أشيع عن بدر بن عمر اعتناقه المذهب الشيعي، وتعد تلك الحادثة بداية دخول الأئمة الزيديين إلى حضرموت، إذ ابتدأت بمراسلات الإمام مع السلطان بدر بن عبدالله لإطلاق سراح عمه وابنه اللذين سُجنا بسبب صلاتهما به.

وبعد أن أُطلق سراحهما استمرت الأوضاع تسير نحو الأسوأ، حتى أعلن الإمام الزيدي النفير إلى حضرموت من غير تأخير، وجمعت الجيوش وقامت الخطباء والدعاة في صنعاء ودعت إلى الجهاد، وكان ذلك سنة ١٠٦٩هـ، وسار الإمام نحو حضرموت ومعه السلطان

(١) بن هاشم محمد، تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٦٩.

بدر بن عمر، وكان وصولهم حضرموت آخر شهر رجب ١٠٧٠هـ، وحاولت بعض القبائل الوقوف ضد تلك الجموع المتدفقة، لكنها انهزمت وانهزم جيش السلطان بدر بن عبدالله، وفرَّ هارباً بنفسه، وسلمت الحصون والمصانع بحضرموت لقائد جيش الإمام.

امتد النفوذ الزيدي خلال تلك الحقبة إلى حضرموت، وقد حاول الزيدون فرض بعض تفاصيل مذهبهم على أهل حضرموت الشوافع، إذ منعت الزيدية راتب الإمام الحداد، وتُؤدِّي بأن يُزاد في الأذان (حيَّ على خير العمل)، ولم يقدر أحد على المخالفة إلا عبدالله بن عمر بارضوان بافضل المؤذن في مسجد باعلوي في تريم، الذي رفض تلك الإضافة، واستمرَّ على الأذان المعتاد من أول مُدَّة الزيدي إلى آخرها، وكان كلما هددوه بأنهم سيفعلون ويفعلون به سكت ولم يجب، وسلَّمه الله من معاقبتهم.

وكان لعلماء حضرموت وتريم أثر بارز في محاولة إيقاف ذلك الصراع بحضرموت، فقد نصح الإمام عمر بن عبدالرحمن العطاس السلطان الكثيري بعدم الوقوف في وجه الجيش الزيدي، ومحاولة حل المسألة سلمياً؛ لما علم من تخاذل قومه عنه، وبعد أن وقعت مصانع حضرموت في قبضة الزيديين وفرَّ السلطان هارباً - كتب الإمام العطاس كتاباً إلى الإمام أوفده مع ولديه حسين وسالم، فقابلهما بكل تبجيل، وقال لهما: أرى عليكما سيماء الخلافة ومخائل النجابة، وقرأ في كتاب العطاس قوله: انظر إلى أهل حضرموت بعين الرحمة ينظر الله بها إليك، قال: لما نظرت هذا طرح الله الرحمة العامة في قلبي لأهل حضرموت^(١).

أمَّا الإمام الحداد فقد سعى بوصفه مصلحاً اجتماعياً وعالماً وفقهياً إلى محاولة إيقاف تلك الفوضى بالكلمة الصادقة والنصيحة المخلصة والموقف الثابت، ففي مكاتباته للسلطان بدر بن عبدالله ركَّز على الزكاة وضرورة التقيد بطريقة جمعها وتوزيعها وفقاً للمذهب الشافعي، بحسب ما هو معتاد في حضرموت من قيام الأفراد بتوزيعها بأنفسهم دون تسليمها للحاكم، وكانت الدولة القاسمية قد فرضت مبلغاً سنوياً من الزكاة والضرائب على حضرموت، وكان الإمام الحداد يدرك حجم تلك الصعوبات التي تواجه السلطان الكثيري

(١) بن هاشم، مصدر سابق، ص ٧٣.

من قبل الأئمة الزيديين، فأمره بمداراتهم عند خوف الشر بما لا يضر الدين، كذكر إمامهم في الخطبة، وإضافة ما طلبوه في الأذان، وحمل شيء من المال إليهم دون الزكاة^(١). وبذلك حاول الإمام الحداد مشاركة السلطة بالنصيحة والرأي والكلمة الصادقة.

وبدخول جيش الإمام إلى حضرموت انتهت السلطنة الكثيرة، وأصبح السلطان عديم القوة، واستبدت يافع بالإدارة، واستولت على أملاك الدولة وقسمتها بين عشائرها، وبدأ النفوذ الكثيري في الانحسار^(٢).

٣- ملامح الأوضاع العلمية في تريم:

حافظت تريم خلال العصور الوسطى والحديثة على مركزها بوصفها عاصمة حضرموت الدينية، وقد اشتهرت تريم بكثرة مساجدها، وكانت المساجد والزوايا والبيوت هي مكان التعليم الأساسي، يلتقي فيها طالب العلم مباشرة بشيخه، ويتطور الطالب أو (المريد) في تلقي العلوم الدينية ابتداءً من القراءة وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم إلى التفسير والحديث والأصول والفقه والتصوف والمنطق والفرائض والفلك والنحو، وتُعطى الإجازة في هذه العلوم من الشيخ للمريد مباشرة، أو عن طريق المراسلة، وتوضح تراجم أعلام القرن الحادي عشر الهجري الكتب التي كانت تدرس في مختلف الفنون والعلوم وطبيعة الحياة العلمية عمومًا.

وكانت تريم مقصدًا للعلماء وطلاب العلم من حضرموت وخارجها، وكانت مجالسها العلمية تعقد في أوقات مختلفة يتم فيها مناقشة المسائل والإشكالات العلمية، وتصل إلى علمائها الرسائل من مناطق شتى تستفتيهم أو تطلب منهم النصح والمشورة، وكانت تريم لا تضاهيها في حضرموت أي مدينة من حيث الأهمية الدينية والعلمية، ولهذا مثلت المرجعية لمن أشكلت عليه مسألة أو أراد الرأي والنصيحة^(٣).

(١) الجعدي عبدالله سعيد، مجتمع تريم في مكاتبات السيد عبدالله بن علوي الحداد، ص ١٠٩.

(٢) لمزيد من تفاصيل تلك الأحداث السياسية ينظر: تاريخ الدولة الكثيرة لمحمد بن هاشم، السلطنة الكثيرة الأولى في حضرموت للدكتور عبدالله الجعدي.

(٣) الجعدي عبدالله سعيد، مجتمع تريم في مكاتبات السيد عبدالله بن علوي الحداد، ص ١٠٧.

المبحث الثاني: الأثر الحضاري لعلماء تريم في القرن الحادي عشر الهجري

أولاً: أثر العلماء في تولي المناصب ومناصبه الحاكم:

١- تولي مناصب القضاء والإفتاء والنقابة:

تميز علماء حضرموت بكرهم للشهرة والابتعاد عنها وإيثارهم للتواضع، وقد سار علماء تريم على هذا النهج، وعُرفَ عن بعضهم التواضع والعزلة^(١)، ورغم ذلك اقتضى الواقع أن يتولى بعض منهم المناصب كالقضاء، وكانوا لا يقبلونه إلا بعد شدة مطالبتهم بذلك، وقلما نجد من يعرض نفسه لتلك المناصب، وقد تولي مجموعة من العلماء منصب القضاء في تريم خلال ذلك القرن، كان أبرزهم: القاضي عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد بن عبدالرحمن (توفي بتريم ١٠١٤هـ) الذي تولي الإفتاء والقضاء^(٢). وتولى المؤرخ محمد باجمال (توفي في الغرفة ١٠١٩هـ) قضاء تريم^(٣). وممن تولّى قضاء تريم أحمد المشهور بن عبدالرحمن بلفقيه (توفي بتريم ١٠٤٨هـ)^(٤). واشتهر حسين بن محمد بن علي بن أحمد مولى عديد بالإصلاح بين الناس، فسعى السيد زين العابدين العيدروس لترشيحه لتولي منصب قضاء تريم^(٥).

وكانت لشهرة تريم العلمية ومكانة علمائها لدى الحضارم وغيرهم أثر في تولي بعض علماء تريم منصب القضاء خارج مدينتهم، مثل القاضي علوي بن عبدالله بن محمد جمل الليل الذي تولي قضاء الشحر، وتوفي بها سنة ١١١٧هـ^(٦).

- المناصب الدينية مثل الإفتاء: أوردت المصادر مجموعة ممن تولي الإفتاء في تريم خلال تلك المدّة، منهم:

(١) ومن أولئك العلماء: عبدالرحمن بن علوي بن أحمد بافقيه (١٠٤٧هـ)، عُرضَ عليه القضاء مراراً فامتنع.

(٢) الشلي، عقد الجواهر ص ١١٠. والمشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٣٧.

(٣) الشلي، عقد الجواهر، ص ٩٠.

(٤) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ٣٩٧.

(٥) المشهور، شمس الظهيرة، ج ٢، ص ٥٤١.

(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩١.

العلامة محمد الهادي بن عبدالرحمن بن أحمد شهاب الدين (١٠٤٠هـ)، وابنه أحمد بن محمد (١٠٤٥هـ)، والعلامة أحمد المشهور بن عبدالرحمن بلفقيه (١٠٤٨هـ).

- وأما المناصب الاجتماعية مثل النقابة^(١) فقد تولاهما السيد عبدالله بن شيخ بن عبدالله العيدروس (١٠١٩هـ)، والسيد زين العابدين عبدالله بن شيخ العيدروس (١٠٤١هـ)^(٢).
- وظيفة المنصب: وهي وظيفة دينية اجتماعية يقوم بها كبير أفراد القبيلة في حضرموت، وقد تولى منسبة آل عيدروس في عدن أحمد بن عمر العيدروس الذي رحل من حضرموت واستقر بعدن^(٣).

٢- مناصحة الحاكم وتقديم المشورة:

نظراً لعدم وجود تطلعات لعلماء تريم إلى السلطة فقد اتجه لهم سلاطين الدولة الكثيرة وطلبوا مجالستهم وآراءهم السياسية والاقتصادية، فقد ذكرت المصادر الحضرمية حرص السلطان بدر أبي طويرق عند دخوله تريم على مقابلة الإمام أحمد باجحدب العلوي الذي كان يهرب من ملاقاته، حتى ذهب السلطان إلى بيت باجحدب، وقدم إليه بالهدايا والأموال، إلا أن الشيخ باجحدب لم يقبل شيئاً من تلك الهدايا والأموال لشدة ورعه، وقال له موصياً وناصحاً: الله الله في العدل فقد كان والدك طيباً مع الناس، وأنت الله الله فيهم. ولما رجع السلطان بدر قال لجماعته: الحمد لله الذي جعل في ولايتي مثل هذا الإمام. وصار يفتخر به^(٤).

وكان الإمام زين العابدين بن عبدالله بن شيخ العيدروس نقيب العلويين ذا رأيٍ خبيراً بأمور كثيرة كالزراعة والطب، وكان السلطان عبدالله بن عمر الكثيري يعتمد عليه في أمور البلاد، وكثيراً ما يلتقي به ليستشيره في أمور الدولة، وكان النقيب العيدروس حريصاً على

(١) النقابة: تنظيم اجتماعي قائم على وحدة النسب، وقد أحدثها في حضرموت آل أبي علوي بهدف التعاون والتآزر ونصرة المظلوم. عبدالنور (الحياة العلمية في حضرموت في القرنين السابع والثامن الهجريين) ص ٣٢٥.

(٢) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٠٧، ١٠٣.

(٣) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص ١٥٣.

(٤) بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرة، ص ٧٧.

الدفاع عن دولة آل كثير بالرأي والتدبير والمكاتبات إلى زعماء القبائل، ولما استولى الإمام الحسين بن القاسم على اليمن كتب لسلطان حضرموت وأعيانها كتباً يدعوهم لطاعته، فكان العيدروس ممن أجاب خطاب الإمام وحاول فيه مداراته^(١)، وقد يكون السلطان الكثيري هو من دعاه لإجابته؛ لكي لا يظهر عند الإمام الحسين بن القاسم بأنه رافض لدعوته.

ولمكانة النقيب زين العابدين العيدروس في بلاط الدولة الكثيرية لدى السلطان عبدالله بن عمر الكثيري - فقد حضر جنازته في تريم عندما توفي في سنة ١٠٤١ هـ.

وبالنظر في مكاتبات الإمام الحاد للسلطين الكثيرين نجد مادة تاريخية جيدة، وتبرز أيضاً حرص الداعية الحضرمي على تقديم النصيحة والمشورة للسلطان قيماً بحق العلم، وكان قد تعاقب على حكم السلطنة الكثيرية في حياة الإمام الحداد ثمانية من السلطين الكثيرين ابتداء من السلطان بدر بن عمر الكثيري وانتهاء بالسلطان عمر بن جعفر، وكان الإمام الحداد يبتدئ بمكاتبتهم استشعاراً بخطورة المهمة الملقة على العلماء وشفقةً على الأهالي، وكان في رسائله يقدم النصيحة العامة، ويحثهم على تفقد أمور الرعية.

وعند امتداد نفوذ سلطة الدولة القاسمية إلى حضرموت برزت مشكلة جمع الزكاة، وقد احتلت هذه المسألة جزءاً كبيراً من مادة مكاتبات الإمام الحداد مع السلطين، إذ بين لهم ضرورة التقيد بطريقة جمع الزكاة وفقاً للمذهب الشافعي على ما هو معتاد في حضرموت من قيام الأفراد بتوزيعها بأنفسهم دون تسليمها للحاكم، وكان الإمام الحداد مستشعراً التهديد الزيدي للسلطين الكثيرين، فلم ينسَ تقديم المشورة لهم بلغة دبلوماسية، فيقول: نعم لا بأس من مداراتهم عند خوف الشر بما لا يضر الدين كذكر إمامهم في الخطبة وحمل شيء من المال إليهم. وقد أتى ذلك في رسالة بعثها إلى السلطان بدر بن عبدالله^(٢).

وكان الإمام الحداد ملائماً للوضع الاقتصادي بحضرموت، ويدرك الصعوبة التي تواجه السكان في مُدَدِ الجفاف التي تنتج عن انحباس الأمطار لمواسم طويلة، وقدم رأيه بضرورة أن تبقى الزكاة بيد الأفراد وتوزع وفق قواعد المذهب الشافعي على المستحقين من أهل البلد الذين هم أولى بها.

(١) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٠٧.

(٢) الجعدي عبدالله سعيد، مجتمع تريم في مكاتبات السيد عبدالله بن علوي الحداد، ص ١٠٩.

فظل يقدم النصح والمشورة في إعادة النظر في مسألة تسليم الزكاة للحاكم، وقد راسل السلطان بدر بن عمر، وأعرب عن تمسكه برأيه السابق في إبقاء الزكاة بيد الأفراد، وخاطبه بنوع من المرونة.

وراسل الحداد كذلك السلطان محمد بن بدر بن عمر، وحثه على تغيير تلك البدعة، وربط حلول مشاكل السلطنة بترك تلك الطريقة غير المعهودة في جمع الزكاة.

وقد توسم الإمام الحداد في السلطان محمد بن بدر خيراً فسعى إلى إحداث تغيير من داخل السلطنة وفي أعلى مناصبها، فكتب إلى السلطان محمد بن بدر رسالة في أثناء غياب والده للحج يمكن وصفها بالخطيرة، شجّعه فيها على إجراء تغيير في سياسة والده المالية للقاسميين، وطلب منه الإشارة، ووعد بال دعم. وتكمن أهمية هذه المكاتبة التاريخية في كونها أول مكاتبة تشجع على التمرد على الدولة القاسمية، وقد دلت تلك المكاتبات على الرؤية العميقة عند الحداد، حتى جعله السلطان عمر بن جعفر الكثيري مستشاراً له في بعض الأمور، فكان يقدم له النصح والمشورة، وبلهجة حادة أحياناً عندما يرى الحداد أن الأوضاع بدأت تخرج عن السيطرة.

واستمرت مكاتبات الحداد تلاحق الأحداث، وتحاول تقديم النصيحة المخلصة بهدف الحفاظ على تماسك المجتمع، ووضع حد للفوضى المستشرية، ولكن التطورات وواقع الحال كانت أكبر وأسرع من أن تلاحقها هذه النصائح^(١).

وتعد تلك النصائح مواقف وطنية تحسب للإمام الحداد في الدفاع عن حضرموت وعقائدها، ولا سيما وقوفه ضد تدخلات الدولة القاسمية في حضرموت، ومحاولة فرض تعاليم المذهب الزيدي داخل النطاق الحضرمي الشافعي، بالرغم من علائق النسب بين العلويين والقاسمين، وبالرغم من المغريات التي قد يحصل عليها لو أبدى رغبته في الميل إلى جانب الدولة القاسمية.

بقي الإمام الحداد لهم بالمرصاد بمراسلاته للسلطين الكثرين، وبوقوفه ضد علمائهم، فيذكر صاحب كتاب (بهجة الزمان) أنه لما خرجت طائفة الزيدية إلى حضرموت وكان فيهم المباحثون في علم العقائد والسير - كان الإمام الحداد وهو في سن الشباب يباحثهم،

(١) الجعدي عبدالله سعيد، مجتمع تريم في مكاتبات السيد عبدالله بن علوي الحداد، ص ١٠٩.

ويسألونه فيفضحهم في الجواب، ويأتيهم بفصل الخطاب، وينطقه الله بالصواب، وقد استشعر معاصروه ذلك الجهد، فقال أحدهم (وهو العلامة الأديب عبدالله أبو بكر الخطيب) إنه لولا عبدالله الحداد بين ظهرائنا لافتضحنا^(١).

ويتسع جهد العلماء التريبيين وعلاقتهم الشورية في أروقة الحكم ليصل إلى مواطن المهجر الحضرمي، فكان للعلماء القبول لدى بعض سلاطين الهند وسلاطين جزر الأربيل الإندونيسية وسواحل الشرق الأفريقي، بل تزوج أعداد منهم بنات الأمراء والوزراء بعد أن نالوا إعجاب أولئك المسؤولين فضلاً عن بقية شرائح المجتمع، وقد ساعدتهم تلك الزيجات والصلات الاجتماعية على التعمق داخل مجتمعات المهجر، واستطاعوا التحرك في مساحة أكبر لنشر الإسلام وتعاليمه، ولم يغفلوا توظيف تلك العلاقات في مشاريعهم التجارية في تلك النواحي.

فقد ذكر المؤرخون أن زين العابدين بن مصطفى العيدروس (ت ١١٢٧هـ) الذي ولد بتريم، وتلقى تعليمه بها، رحل إلى الهند، وتزوج بنت أمير البلاد، وكان له القبول في النصيح والإرشاد^(٢). وتزوج كذلك العلامة محمد بن أحمد الشلي (عم مؤلف المشرع) بابنة أحد الوزراء بعد أن رحل إلى الهند وذاع صيته العلمي، فقد اشتهر بعلم الحديث والفقه والعربية والفرائض وعلم الميقات^(٣). وعندما وصل عبدالله بن حسين بن محمد مولى عبيد إلى الهند كان الوزير صاحب كنور عبدالوهاب يكرمه، وزوجه ابنته، وأجلسه في صدارة مجالسه، وكان عالمًا بالكيمياء، وفارسًا، وله تأليف وأشعار حسنة^(٤).

وكذلك كان أبو بكر بن أحمد بن حسين بن عبدالله بن شيخ العيدروس (ت ١٠٤٨هـ) قد رحل إلى الهند واستقر بدولة أباد، وكان السلطان شاهجهان متصلاً به مقرباً له في بلاطه^(٥). وكان شيخ بن عبدالله بن شيخ العيدروس (ت ١٠٤١هـ) قد اتصل بالوزير عنبر والسلطان

(١) بن سميح محمد بن زين، بهجة الزمان وسلوة الأحران، ص ٧٧.

(٢) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٥.

(٤) المشهور، شمس الظهيرة، ج ٢، ص ٥٤١.

(٥) الشلي، المشرع الروي، ج ٢، ص ٢٤. المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١١٤.

برهان نظام شاه والسلطان عاد شاه. واتصل محمد بن عبدالله بن شيخ العيدروس (١٠٣١هـ) بسلطان سورت^(١).

وكان جعفر الصادق بن علي زين العابدين العيدروس (١٠٦٤هـ) يعد أحد ناشري العلم في الدكن، وكانت قصته مع الدكن الهندية قد بدأت بمباحثة من علمائها بحضور حاكم الدكن، فأجاب عن تساؤلاتهم بالجواب الشافي، فأعجب به العلماء والحاكم الذي قرّبه من بلاطه وأصبح مستشاراً له، ولا سيما أنه كان شاعراً ومؤلفاً وناغماً في العلوم الدينية والعربية والحساب والفلك^(٢).

وكان أحمد بن أبي بكر بن أحمد الشلي (شقيق مؤلف المشرع) عالماً أديباً، قد رحل إلى الهند واتصل به الملك عنبر وتقرب إليه ملوك آخرون، ثم رحل إلى الحرمين، ثم إلى تريم وبها توفي سنة (١٠٥٧هـ)^(٣). ويبدو أن سمعة العلماء الحضارم كانت تسبق وصولهم إلى تلك المناطق، فعند وصول علوي بن عمر بن عقيل جمل الليل إلى الهند استقبله بعض وزراء السلطان ريحان، وأكرمه السلطان فيما بعد^(٤).

أمّا الإمام الحداد فقد ظل الداعية المصلح الاجتماعي المتفرد المهتم بالإنسان الحضرمي حيثما حل أو ارتحل، فقد بعث برسالة من تريم إلى أحد أمراء الهند ويدعى (ياقوت خان)، وطلب منه الرفق برعاياه الحضارم، لأنّهم مقلون لا يحملهم على السفر والتغرب من أوطانهم وأولادهم إلا ذلك^(٥).

ثانياً: أثر العلماء في بناء المساجد

تميزت مدينة تريم بكثرة المساجد فيها بالنسبة إلى مساحتها وعدد سكانها، وكان الأثرياء والميسورون يتسابقون إلى تشييد المساجد وعمارتها إيماناً منهم بأهمية المسجد وأثره في المجتمع، وكان لعلماء القرن الحادي عشر نصيب بارز في عمارة بيوت الله وتشييدها، فبعد

(١) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩١.

(٥) الجعيدي عبدالله سعيد، مجتمع تريم، ص ١٠٧.

مسح المصادر المتاحة استطعنا أن نوثق عددًا من المساجد التي بُنيت في ذلك القرن بجهود العلماء، وهي:

١. مسجد أحمد بعيديد الذي بناه الإمام أحمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن علي مولى عديد (١٠٤٧هـ).
٢. مسجد الأبرار بالسحيل للإمام عبدالله بن شيخ العيدروس (توفي ساجدًا في صلاة العصر ١٠١٩هـ)، وله أيضًا مسجد النور بالتربة، وبنى قرب مسجد النور سيلاً لإرواء المارين، وغرس نخيلاً.
٣. المساجد التي بناها الإمام عبدالله بن علوي الحداد (١١٣٢هـ): مسجد الفتح (الحداد) بالحاوي، بُني سنة (١٠٨٣هـ)، ومسجد الأوابين في النويدرة، بُني سنة (١١٠٤هـ)، ومسجد الحداد (الحد) في منطقة السبير، بناه في المكان الذي وُلِد فيه.
٤. مسجد الحصاة بالسوق، وهو أحد المساجد القديمة، يعود تأسيسه إلى القرن الثامن الهجري، أسسه السلطان عبدالله بن يمان، ثم جدد عمارته العلامة أحمد بن حسين بلفقيه (ت ١٠٤٨هـ).
٥. مسجد السلطان الثاني، الذي بناه السلطان بدر بن عمر الكثيري (ت ١٠٧٣هـ)^(١)، ويدو أنه بناه بتوجيه من علماء تريم الذين كانت صلاتهم به قوية.
٦. مسجد بايعقوب بالمجف، الذي بناه الشيخ عبدالرحمن بن محمد بايعقوب.
٧. مسجد بلفقيه، ويقع في منطقة الرضيمة، مؤسسه العلامة أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بلفقيه (ت ١١٠٣هـ)، بناه بمساعدة بعض المهندسين الهنود، ولم يستخدم العود فيه إلا في الأبواب فقط، كما بنى ذلك الإمام قبة نبي الله هود^(٢).
٨. مسجد خرد بالخليف، وأسسّه زين عمر بن عبدالله بن علوي خرد، في مطلع القرن الحادي عشر.
٩. مسجد دحمان بالنويدرة، أسسه العلامة عبدالرحمن بن محمد بن عمر بلفقيه الشهير بدحمان المدني (ت ١١١١هـ)^(٣).

(١) بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٩٥.

(٢) باغوث خالد، الدرر الثمينة في تاريخ مساجد تريم، ص ١٤٨.

(٣) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ٣٩٧.

١٠. مسجد شجعة (فضل بامقاصير)، وهو مسجد قديم أسسه السلطان شجعة بن راشد سنة ٥٧١هـ، ثم جدده الشيخ فضل بن سالم بافضل سنة ٩١٨هـ، ثم عمره العلامة علي بن صالح المحجوب السقاف سنة المتوفي ١٠٥١هـ^(١).
١١. مسجد شهاب الدين بالفجير، أسسه القاضي عبدالرحمن بن أحمد بن شهاب الدين (ت ١٠١٤هـ).
١٢. مسجد شيخ عديد بالنويدرة، أسسه العارف بالله شيخ بن عبدالرحمن بن شيخ عديد (ت ١٠٦٨هـ)^(٢).
١٣. مسجد علوي بثبي، أسسه العلامة علوي بن عبدالله بن أحمد بن حسين العيدروس (ت ١٠٥٥هـ).
١٤. مسجد مديحج بالسوق، أسسه العلامة محمد بن عقيل بن شيخ الشهير بمديحج (ت ١٠٠٥هـ).
١٥. وقد أسهم علماء ذلك القرن في تجديد جامع تريم أشهر مساجدها وأقدمها، وقد تم تجديده عدة مرات، فقد قام الشيخ مكي بن أحمد بافضل بعمارتها، وشاركه الشيخ محمد بن أحمد بامصباح باحنان^(٣)، ويذكر المؤرخ محمد بن عبدالله الخطيب في مخطوطه (البرد النعيم) أنه في ذلك التجديد للجامع تم العثور على قبر موجه للقبلة العيسوية^(٤).
- وأسهم العلماء في مواطن المهجر في تشييد المساجد، فقد بنى أحمد بن عيدروس بن عبدالله بن شهاب الدين مسجداً بالحبشة في منطقة أوسه^(٥).

(١) باغوث خالد، الدرر الثمينة في تاريخ مساجد تريم، ص ١٦٤.

(٢) بن سميح، بهجة الزمان، ص ٦.

(٣) باغوث، الدرر الثمينة، ص ٦٨.

(٤) الخطيب، البرد النعيم، ص.

(٥) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٨٣.

رابعاً: الإسهامات و الأثر العلمي

١- أثر العلماء في التدريس والتعليم وإرشاد العامة وتوجيههم:

تعد وظيفة التعليم من أجل وظائف العلماء والدعاة، إذ يحرص العلماء على إقامة الدروس العامة والخاصة اقتداءً بالمعلم الأول محمد ﷺ، ويمكن تقسيم العلماء والمدرسين على قسمين:

١- المؤدبون ومعلمو الصبيان.

٢- الشيوخ والمعلمون في المراحل العليا.

أولاً: المؤدبون ومعلمو الصبيان:

وهم الذين يتولون تعليم الطالب في بيته أو في المعاملات والكتاتيب، إذ يتلقى فيها الطالب المبادئ الأساسية لعلوم العربية وقواعد القراءة والكتابة وأساسيات الدين كالوضوء والصلاة، وغالبًا ما يكون المعلمون من أسر المشايخ التي اشتهرت بالصلاح والاستقامة، ويتقاضى المؤدبون أجرًا على ما يقومون به من وظيفة التأديب والتعليم، وقد حفظت لنا المصادر الحضرمية في تراجم الأعلام الحضارم ذكر بعض أولئك الذين تولوا تربيتهم وتدريسهم في الصغر، منهم: المعلم عبدالله بن عمر باغريب^(١)، والمعلم عمر بن عبدالله الخطيب، والمعلم محمد باعيشة^(٢)، والمعلم عبدالله باجمعان، والفقير محمد بن أحمد باجبير، والفقير عبدالله أبوبكر الخطيب^(٣)، والإمام عبدالرحمن بن عمر بارقية^(٤)، والشيخ أبو بكر الجوهري بافضل، والشيخ سالم بن أحمد بن عمر بافضل^(٥). ويبدو أن ذكر أولئك الأعلام على هامش التراجم قد أدى إلى سقوط أسماء الكثير منهم، على الرغم من الأثر المهم الذي لهم في المجتمع.

(١) الشلي المشرع الروي، ج ٢، ص ١٧. وذكر الشلي أنه قد ختم القرآن عنده حفظاً وهو ابن عشر سنين.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠، ٤٦.

(٣) بن سميظ، بهجة الزمان، ص ٣٩، ٧٧.

(٤) الشلي، عقد الجواهر، ٧٤.

(٥) بافضل، صلة الأهل، ٢٥١.

ثانياً: الشيوخ والمعلمون في المراحل العليا:

وهم الصنف الذين يُطلق عليهم (العلماء)، والذين تمتعوا بمنزلة عالية في المجتمع، واختلف العلماء في النشاط العلمي؛ فمنهم المقلون في التدريس المؤثرون الخلوة والانعزال، ومنهم الذين أفنوا حياتهم في التدريس رافضين أي عمل يُعرض عليهم؛ خوفَ التقصير في عملهم العلمي، فتنقلوا من مكان إلى آخر، ومن مسجد إلى زاوية، ومن حلقة إلى مجلس، فكثُر مريدوهم وطلابهم، ومن هؤلاء العلماء:

عبدالرحمن بن محمد السقاف (١٠١٢هـ) الذي كان يجلس للتدريس العام في مسجد باعلوي بعد العشاء، والقاضي عبدالرحمن بن شهاب الدين (١٠١٤هـ) الذي مارس التدريس والتعليم إلى جانب القضاء والإفتاء، والإمام عبدالله بن شيخ العيدروس (توفي ساجداً في العصر ١٠١٩هـ) الذي جلس للتدريس في مسجده بسحيل تريم، وأخذ عنه عدد من المريدين^(١)، والعلامة زين الدين بن حسين بافضل (١٠٢٦هـ) الذي كان شيخ وقته وأوانه، وانتصب للإقراء والتدريس والنفع العام، وبرع في العلوم وطارت شهرته، ورحل إليه الناس للأخذ عنه، وأثنى عليه فضلاء عصره، وكان من العقل بالمنزل الأعلى، يُستشار في المعضلات، ويُعوَّل عليه في المشكلات والمسائل العلمية^(٢)، وأحمد بن محمد بن عبدالرحمن شهاب الدين الذي كان له درس خاص في إحياء علوم الدين، وكان الشيخ أحمد بن علي بن عبدالرحمن باقشير (١٠٧٥هـ) قد اشتهر بالتجويد والقراءات، فأخذ عنه الناس من تلك العلوم، وكذلك اشتهر بالتجويد عبدالله بن سعيد باقشير (١٠٧٦هـ) الذي جلس للتدريس في مكة، وانتفع به الكثير من أهل مكة واليمن والشام والعراق^(٣).

وقد اشتهر محمد بن محمد بارضوان بافضل بتدريس الفرائض والميقات والحساب، وممن أخذ عنه الشلي، وذكره في المشرع (توفي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر)^(٤).

(١) الشلي، عقد الجواهر، ص ٨٧، ١١٠.

(٢) الشلي، عقد الجواهر، ص ١٤٦. بافضل، صل الأهل، ص ٢٢٤.

(٣) الشلي، عقد الجواهر، ص ٣١٨.

(٤) بافضل صلة الأهل، ص ٢٣٢.

وقد جلس للتدريس في المسجد الحرام بإجازة شيوخه المؤرخ محمد بن أبي بكر الشلي (١٠٩٣هـ)، وبعد أن عجز قام بالتدريس في بيته^(١)، أمّا والده أبو بكر الشلي (١٠٥٣هـ) فقد جلس للدرس العام في مسجد آل أبي علوي بتريم بعد وفاة شيخه أبي بكر بن علي المعلم^(٢). وكان الشيخ سالم بن أحمد بن عمر بافضل ذا ذكاء وحفظ وإتقان للعلم، خصوصاً الفقه والنحو والقراءات، حتى إن الإمام الحداد كان يثني عليه ويحيل عليه، ويقول: ((إنه بقية القراء من آل أبي فضل)). وكان يستغرق أوقاته في التعليم، حتى عندما كبر في آخر عمره كان لا يزال يُقرأ عليه في الإحياء والعوارف للسهروردي، وتوفي في صنعاء وهو في طريقه إلى الحج^(٣).

واشتهر عقيل بن عبدالرحمن بن عقيل باهتمامه بعلوم القوم وتحقيق اصطلاحات الصوفية، وكان عبدالله بن أحمد بن عبدالرحمن الأسقع باعلوي قد رحل إلى الهند والحرمين وأخذ عن شيوخها، ثم عاد إلى تريم ليتفرغ لتدريس العلوم، وانتفع به كثير من الناس^(٤). وكان عبدالله بن أحمد بن حسين العيدروس الصليبية (١٠٥٣هـ) قد اشتهر بعلم الأنساب، وكان مشاركاً في العلوم العقلية، أمّا علي بن عبدالرحمن بن محمد الحبشي (١٠١٢هـ) فقد اشتهر برواية الشعر والأدب^(٥).

واشتهر بالتدريس أبوبكر بن عبدالرحمن شهاب الدين (١٠٦١هـ)، إذ كان محدثاً منفرداً في عصره بعلو الإسناد، وعندما بنى السيد محمد بن عمر بافقيه مدرسةً بتريم فوّض إليه التدريس بها من تلاميذه الحداد والشلي^(٦).

أمّا الإمام عبدالله بن علوي الحداد الذي برز منذ النصف الثاني للقرن الحادي عشر الهجري فقد كان وحيد زمانه متميزاً على أقرانه، قصده طلاب العلم من نواحي حضرموت

(١) الشلي، المشرح الروي، ج ٢، ص ١٩. المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ٣٤٦.

(٢) الشلي، المشرح الروي، ج ٢، ص ٢١.

(٣) بافضل، صلة الأهل، ص ٢٥٠.

(٤) بن سميّط، بهجة الزمان، ص ٣٧.

(٥) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٠١.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

واليمن والحجاز وبلاد المغرب العربي، وتتلذذ على يديه بعض مَنْ هو أَسَنُّ منه وَمَنْ هو في طبقتة. وقد أثار الإمام الحداد في الأمة تأثيراً بالغاً بكلامه وقلمه وقدوته وتلاميذه، أما بكلامه فبدروسه ومجالس وعظه وإرشاده التي كان يعقدها في تريم، وفي تنقله بين حضرموت واليمن والحجاز في أثناء أسفاره للحج، أما قلمه فمؤلفاته الشهيرة والتي تُرجم بعضها إلى لغات أجنبية، وأما الاقتداء فلكونه قدوة يُقتدى به، ومثالاً للسلوك المحمدي، وأمّا تلاميذه فقد ذكر صاحب كتاب (بهجة الزمان وسلوة الأحران) منهم ما يقارب المائة والخمسين من العلماء والصالحين^(١)، ويبدو أن ذلك العدد من التلاميذ هم خواصهم الذين تعمّقت صلاتهم به، وتوجد أعداد كثيرة أخذوا عنه خلال أسفاره، أو قصدوه لأوقات قليلة.

٢- نتائجهم العلمي وأثرهم في التأليف:

يعطي النتاج العلمي صورة عن الحياة العلمية في المجتمع وسيرها، وعن أهم العلوم المتداولة في ذلك العصر واستخدامها، ومن خلال حصر ما أمكن حصره من المصادر المتاحة، نجد علوماً لم نعر على نتاج علمي فيها، على الرغم من بروز علماء لهم اهتمام بتلك العلوم، ومن خلال النظر في النتاج العلمي نجد أن التزكية والتصوف هما أكثر العلوم المسيطرة على التأليف والنتاج العلمي لعلماء ذلك القرن، وذلك يعطينا صورة عن الحياة العامة في تريم خلال تلك الحقبة، وعن سيادة التصوف والاهتمام بتزكية النفوس ومحاسبتها، وربما تكون الأوضاع المضطربة التي عاشتها حضرموت آنذاك سبباً في اتجاه العلماء للكتابة في تهذيب النفوس وكبح جماح شهواتها؛ رغبةً وإسهاماً منهم في إصلاح المجتمع.

(أ) العلوم الشرعية: وهي العلوم المتصلة بالكتاب والسنة من حيث التدوين والشرح والتحليل، ومن أمثلتها: كتاب الدر الثمين في بيان المهم من الدين لأبي بكر بن عبد القادر العيدروس (١٠٣٨ هـ)^(٢). ويذكر بن سميّط في كتابه بهجة الزمان أن للإمام عبدالله بن أحمد الأسقع باعلوي له تصانيف عجيبة في العقائد، وله نظم رائع، وكان أحمد بن زين الحبشي هو السبب في تأليفها^(٣).

(١) البدوي مصطفى حسن، الإمام الحداد مجدد القرن الثاني عشر، دار الحاوي، ط ١، ص ٦.

(٢) الشلي، عقد الجواهر، ص ٢٠٢.

(٣) بن سميّط، بهجة الزمان، ص ٣٧.

وفي مجال المنظومات نظم أحمد بن علي باقشير (١٠٧٥هـ) أرجوزة في علم الفرائض وشرحها. وألف عبدالله بن سعيد باقشير (١٠٧٦هـ) شرح الإرشاد، واختصر نظم عقيدة اللقاني، وشرح نظمه، واختصر بريق الزنجاني نظمًا وشرحه، ونظم الحكم وشرحه، ونظم آداب الأكل وشرحه^(١). ولأبي بكر الشلي (١٠٥٣هـ) كتاب في فضل رمضان والصيام^(٢). وألف أحمد بن أبي بكر بن عبد الهادي باشعبان بافضل (توفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري) كتاب المنتقى الذي يحتوي على بيان المهمات الدينية والآداب المرضية، وقد فرغ من تأليفه سنة (١٠٧٩هـ)، وله مراسلات مهمة مع الإمام الحداد يستفسر فيها عن بعض المسائل^(٣).

وللإمام الحداد عدد من الكتب ألفها في شبابه مثل كتاب رسالة المعاونة والمؤازرة في الراغبين في سلوك طريق الآخرة، ورسالة المذاكرة، ألفهما سنة (١٠٦٧هـ) وسنه إذاك ست وعشرون سنة، وكتاب النصائح الدينية والوصايا الإيمانية، فرغ من تأليفه سنة (١٠٧٩هـ).
ب) علوم العربية: فقد صنف أحمد بن عبدالله بافضل (١٠٤٤هـ) حاشية على القصيدة الطرائفية، وله ديوان، ونظمه كثير حسن، لذلك سموه بالسودي؛ تشبيهًا بالشيخ عبد الهادي السوداني الشهير، وله كذلك مراسلات بديعة مع علماء عصره^(٤). وألف أحمد بن حسين بن محمد مولى عديد (١٠٥٢هـ) كتابًا شرح فيه الأجرومية، وشرح الملحّة ومختصرها، وله أشعار حسنة غريبة^(٥). ولأبي بكر الشلي (١٠٥٣هـ) كتاب في ألفاظ غريبة في اللغة^(٦).

ج) علم التصوف والتزكية: مثل كتاب الفتوحات القدسية في الخرقّة العيدروسية لأبي بكر بن عبد القادر العيدروس (١٠٣٨هـ)، وله أيضًا أبيات في السلوك وشرحها، سمّاها غاية الضرب في شرح نهاية الطلب، وله شرح على قصيدة العيدروس التي مطلعها (كل من لم

(١) الشلي، عقد الجواهر، ص ٣١٨.

(٢) الشلي، المشرع الروي، ج ٢، ص ٢٢.

(٣) بافضل، صلة الأهل، ص ٢٤٦.

(٤) الشلي، عقد الجواهر، ص ٢٣٣.

(٥) المشهور، شمس الظهيرة، ج ٢، ص ٥٤١.

(٦) الشلي، المشرع الروي، ج ٢، ص ٢٢.

يمنع نفسه^(١). وألف أحمد بن عبدالله بن أحمد العيدروس شرحاً على قصيدة أبي بكر العيدروس:

هات يا حادي فقد آن السلو وتجلي عن سما قلبي الصداء^(٢)

وللشيخ محمد بن عبدالله بن سلمان الخطيب (توفي بعد ١٠٢٥ هـ) عدد من المؤلفات في التزكية والتصوف مثل الحكم الرئيسة والذخائر النفيسة والواردات الربانية والاستغاثات الإلهية، والوصايا الفتحية والنصائح الإحسانية، ومحجة الأنبياء وحجة الأولياء^(٣).

وألف محمد بن عبدالله بن شيخ العيدروس (١٠٣١ هـ) كتاب إيضاح أسرار علوم المقربين، الذي طبع مرات عدة في مصر والهند^(٤).

(د) التراجم والتاريخ والسير: من نماذجها كتاب الحقائق الخضرة في سيرة النبي ﷺ وأصحابه العشرة، وكتاب إتحاف الحضرة العزيزة بعيون السيرة الوجيزة لأبي بكر بن عبدالقادر العيدروس (١٠٣٨ هـ)^(٥)، وألف شيخ بن عبدالله بن شيخ العيدروس (١٠٤١ هـ) كتاب السلسلة العيدروسية، وتحتوي على تراجم أعلام تلك الأسرة^(٦).

وكان محمد بن أبي بكر الشلي (١٠٩٣ هـ) وحيد عصره في علم التاريخ والتراجم، وبالرغم من استقراره في مكة لكنه تريمي الأصل، إذ بها وُلد ونشأ وتلقى تعليمه الأولي، وتعد مؤلفاته التاريخية مصدراً مهماً لمن أراد الكتابة عن تلك الحقبة، وأشهر مؤلفاته: السناء الباهر في التذليل على النور السافر في أخبار القرن العاشر، وعقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، والمشرع الروي في مناقب السادة آل أبي علوي^(٧). وذكر الشلي في المشرع أن هناك مجموعاً في التاريخ جمعه والده أبو بكر الشلي في تاريخ أهل عصره وزمانه

(١) الشلي، عقد الجواهر، ص ٢٠٢.

(٢) بن سميظ، بهجة الزمان، ص ٤٥.

(٣) الخطيب، محمد بن عبدالله، البرد النعيم (مخطوط)، ص ٨٨. الخطيب محمد بن عبدالله، محجة الأنبياء وحجة الأولياء، دراسة المحقق د/ عبدالنور، ص ١٠.

(٤) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٠٥.

(٥) الشلي، عقد الجواهر، ص ٢٠٢.

(٦) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٠٥.

(٧) الشلي، المشرع الروي، ج ١، ص ١٩.

ومجريات دهره وأوانه، لكنه لم يكمله، فأخذ منه الابن بعض تراجم من وجده على شرط كتابه (المشروع)، ويذكر أيضًا أن والده اختصر كتاب الغرر لمحمد بن علي خرد^(١).

وقد تميز الشيخ محمد بن عبدالله بن سليمان الخطيب (توفي بعد ١٠٢٥هـ) بمؤلفاته التاريخية، وأهمها البرد النعيم في نسب الأنصار خطباء تريم، والتاج الكريم في نسب الأنصار خطباء تريم، وهو نظم، الدر البيان الأشرف العظيم شرح التاج الكريم، الدوح القديم في نسب الأنصار خطباء تريم، البرق اللامع والمهند القاطع، والمائتا حكاية^(٢).

هـ) العلوم التطبيقية: ألّف الإمام محمد بن أبي بكر الشلي رسالة في الميقات في علم المجيب وشرحها، وذكر أنه انتفع بها الكثير من الطلاب في الحرمين واليمن والهند ومصر، وألّف رسالتين في علم الميقات بلا آلة، ورسالة في معرفة ظل الزوال كل يوم لعرض مكة المكرمة، ورسالة في معرفة اتفاق المطالع واختلافها، ورسالة في المقنطر، ورسالة في الإسطرلاب، وله رسالة في شرح رسالة الإمام السنوسي في المنطق^(٣).

ونظم أحمد بن علي باقشير (١٠٧٥هـ) أرجوزة في علم الحساب وشرحها. وأوردت المصادر ذكر عبدالله بن عمر بامصباح (١٠٣٩هـ)، وذكرت اهتمامه بعلم الهندسة، وأنه أسهم في تعمير عدد من سواقي السيول وفق قواعد علمية متقنة، لكنها لم تشر إلى شيء من مؤلفاته في تلك العلوم^(٤).

وكان لعلماء ذلك القرن إسهامهم في مجال الترجمة من خلال الترجمة التي قام بها الإمام جعفر الصادق بن علي زين العابدين العيدروس (١٠٦٤هـ) لكتاب جده العقد النبوي إلى اللغة الفارسية التي تعلمها وأجادها، واشتهر بنشر العلم في الدكن^(٥).

٣- أثرهم في اقتناء الكتب ونسخها وبناء المكتبات ووقفها:

من أجل استمرار عملية التعليم ولا سيما في المراحل العليا يتطلب الأمر وجود

(١) الشلي، المشروع الروي، ج ١، ص ٢٢.

(٢) الخطيب، محمد بن عبدالله، البرد النعيم (مخطوط) ص ٨٦.

(٣) الشلي، المشروع الروي، ج ١، ص ١٩.

(٤) الشلي، عقد الجواهر، ص ٢٠٦.

(٥) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١١٧.

مكتبات، وكان الحصول على الكتاب أمراً مُضنياً وشاقاً، وخاصة للطلاب الذين ينتمون لأسر غير ميسورة، فحرص عدد من العلماء على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة، وتزويدها بالكتب عبر طلبها من المهجر أو اقتنائها في أثناء الأسفار وخاصة في مواسم الحج، ولاهتمامهم بطلاب العلم أوقف بعضهم تلك المكتبات عليهم، وأوردت المصادر التي وقفنا عليها مجموعة من العلماء الذي أسهموا في هذا الجانب، أبرزهم:

- العلامة أحمد بن عمر الهندوان (١١٢٢هـ) الذي رحل إلى الهند ومكة، وجلب معه إلى تريم عددًا من الكتب القيمة، حتى إن الإمام الحداد لما وقف عليها ورأى كثرتها وجمعها لفنون العلم من الفقه والسير والتصوف وغيرها، أنشد:

جزى الله خيرًا سيدًا وابن سيد وعلامةً من آل طه الأطايب
على جمعه كتبًا يعز اجتماعها لنفع عباد الله من كل طالب^(١)

- القاضي عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد بن عبدالرحمن (ت ١٠١٤هـ): كانت له مكتبة كبيرة أوقفها على طلبة العلم^(٢).

- العلامة علي بن حسين بن عمر بن حسن بن شهاب (ت ١٠٦٩هـ) أوقف كتبًا كثيرة على طلاب العلم.

وكان عقيل بن عبدالله بن عقيل (ت ١٠٢٢هـ) له مكتبة نفيسة^(٣). واشتهر جماعة من العلماء بنسخ الكتب وبخطوطهم الحسنة مثل: علي بن أبي بكر الجنيد (ت ١٠٧٠هـ) الذي اشتهر بنسخ الكتب^(٤)، وعلوي بن عمر بن عقيل جمل الليل (ت ١٠٥٤هـ) الذي كان مولعًا بنسخ الكتب بخطه الجميل^(٥). كما اشتهر أحمد بن أبي بكر الشلي (ت ١٠٥٧هـ) بخطه الجميل الذي صار معروفًا لدى أهل جهته^(٦).

(١) بن سميطة، بهجة الزمان، ص ٣٨.

(٢) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٣٧.

(٣) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٨٣، ٣٦٩.

(٤) الجنيد، العقود العسجدية، ص ٢١.

(٥) المشهور، شمس الظهيرة، ج ٢، ص ٤٩١.

(٦) الشلي، المشرع الروي، ج ٢، ص ٤٦.

٤- أثرهم في بناء مؤسسات التعليم:

اشتهرت تريم بالإضافة إلى كثرة مساجدها بمعلماتها وزواياها العلمية مثل زاوية الشيخ سالم بافضل التي بنيت في القرن السادس الهجري، ومعلمة باغريب، ومعلمة أبي مريم المتخصصة في حفظ القرآن، وتخرج في تلك الزوايا الكثير من علماء تريم والطلاب الوافدين إليها الذين بلغت شهرتهم أقاصي المعمورة، ومن أشهر تلك الأبنية التعليمية التي شيدت في القرن الحادي عشر الهجري في تريم:

- قبة مسجد الأبرار بالسحيل التي بناها الإمام عبدالله بن شيخ العيدروس (توفي ساجداً في صلاة العصر ١٠١٩هـ)^(١) إلى جوار مسجده وبيته، لتشكل مجتمعا دينياً وتعليمياً قصده الناس من نواح شتى، ودُرست فيه العلوم المختلفة.

- وبنى السيد محمد بن عمر بافقيه مدرسة بتريم، وفوض عملية التدريس فيها إلى أبي بكر بن عبدالرحمن شهاب الدين (١٠٦١هـ) الذي كان محدثاً منفرداً في عصره تميز بعلو الإسناد، ومن أشهر تلاميذه: الحداد والشلي^(٢).

- وقام القاضي عبدالرحمن بن شهاب الدين (ت ١٠١٤هـ) بتعمير زاوية الشيخ علي^(٣) إحدى أقدم الزوايا العلمية بتريم، والتي ما زال نشاطها العلمي مستمراً إلى اليوم.

خامساً: الأثر الاجتماعي للعلماء

الإنفاق على الفقراء واستقبال الضيوف وإكرامهم:

نظراً للوضع الاقتصادي العام في حضرموت وُجِدَت شريحة من المساكين والفقراء وذوي الحاجة، وأخذ العلماء على أنفسهم الإنفاق عليهم، وذلك الإنفاق لم يكن من العلماء الأغنياء فقط، بل شاركهم فيه المتوسطون في المعيشة، ويحرص العلماء على إخفاء صدقاتهم وأعمال الخير رجاء الثواب الكامل من الله تعالى، لذلك لم تدوّن الكثير من تلك الأعمال في المصادر المتاحة، ومن أمثلة ذلك:

(١) الشلي، عقد الجواهر، ص ١٢٩. المشهور، شمس الظهيرة، ج ٢، ص ١٠٣.

(٢) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٣٨.

(٣) الشلي، المشرع الروي، ج ٢، ص ١٦٩.

الإمام زين بن عبدالله الذي اشتهر بإطعام الفقراء والإنفاق عليهم حتى تكثر عليه الديون، وبعد سدادها يعود مرة أخرى للإنفاق والصدقة^(١). وكان منزل محمد بن أبي بكر بن محمد بن علي بن عقيل (ت ١٠٦٢هـ) متدي ومقصداً للزائرين والمحتاجين والضيوف. وكذلك أبو بكر بن أحمد بن حسين بن شيخ العيدروس (ت ١٠٤٠هـ) كان مأوى للغرباء والوافدين، مُنفقاً على المحتاجين^(٢).

واشتهر زين العابدين بن مصطفى العيدروس (١١٢٧هـ) بكثرة أعمال البر، فهو الذي شاد المساجد والسقايات المسبلة، وأوقف عليها نخلاً، وأعتق الأرقاء والإماء وأوقف لهم أوقافاً تكفيهم مدى الحياة^(٣).

وكان الإمام عبدالله الحداد مقصداً للغرباء والطلاب، وكان يخرج كل سنة إلى وادي دمون والغبرة على سبيل التنزه والتروح، ويأخذ معه الأولاد والأصحاب وطلاب العلم^(٤)، وقام بعده ابنه الحسن لإيناس القاصدين وإيواء الغرباء والمساكين وإطعام الفقراء والجائعين^(٥). وكان للإمام محمد بن أحمد بن عبدالرحمن بافضل نخلٌ في منطق القوز شرقي تريم، واستأجر ناساً لسقيه، وفي إحدى المرات التي ذهب فيها لزيارة نخله وجدهم يسقونه بدواب أناس آخرين، فعاتبهم وأوقف ذلك النخل وتصدق به^(٦).

أثرهم في خدمة المجتمع:

لم يكن العلماء بمعزل عن المجتمع الذي يعيشون فيه، بل كانوا مخالطين للناس، معاشين لهم، مشاركين في أفراحهم وأحزانهم، فقد اشتهر الشيخ عبدالله بن عمر بامصباح العدل (ت ١٠٣٩هـ) بالخبرة في الهندسة وإصلاح سواقي السيول، وكان يقوم بتجهيز الموتى من غسل وغيره، ويكون عند المصيبة بمنزلة صاحب البيت^(٧).

(١) المشهور، شمس الظهيرة، ج ٢، ص ٤٨٦.

(٢) الشلي، المشرع الروي، ج ٢، ص ٢٤.

(٣) المشهور، شمس الظهيرة، ج ١، ص ١٠٩.

(٤) بافضل، صلة الأهل، ص ٢٥١.

(٥) بن سميطة، بهجة الزمان، ص ١٣٥.

(٦) بافضل، صلة الأهل، ص ٢٥١.

(٧) الشلي، عقد الجواهر، ص ٢٠٨.

ومن أعمال البر التي قام بها العلماء تجاه مجتمعهم توفير الماء من خلال حفر الآبار، فقد قام الإمام أحمد شهاب الدين الأصغر (ت ١٠٣٣هـ) بحفر ثلاث آبار وجعلها مُسَبَّلَةً للناس، منها بئر السعادة بالنويدرة، وأتى أحد أحفاده بعد عقود وبنى بجوارها مسجد شهاب الدين^(١).

الخاتمة

- ◆ شهد القرن الحادي عشر الهجري بداية تخلخل النظام السياسي في حضرموت، وذلك بعد الصراعات الدامية التي شهدتها البيت الكثيري الحاكم، ممّا أغرى عدداً من القوى المحلية والخارجية بسط نفوذها في حضرموت، والإجهاز على السلطنة الكثيرة الهشة التي أنهكها الصراع الداخلي.
- ◆ انعكست الأوضاع السياسية على بقية الأوضاع العامة في حضرموت، ولم تكن تريم بمعزل عن بقية أرجاء المنطقة، فقد شهد ذلك القرن اشتداد موجة هجرة علماء تريم إلى عدد من المراكز العلمية في اليمن كالشعر وعدن والمراكز الإسلامية في الحجاز، واكتظت بهم مدن الساحل الهندي، لكنّ عدداً من العلماء قرروا البقاء في وطنهم، محاولين تغيير تلك الأوضاع بأقصى جهودهم.
- ◆ كان لأولئك العلماء إسهامات وأدوار بارزة في مجتمعهم في الجانب السياسي بمناصحة الحاكم وتقديم المشورة له، وفي الجانب العلمي عبر التدريس وبناء المؤسسات العلمية وبناء المساجد، إذ تم رصد أكثر من عشرين مسجداً وثلاث مؤسسات تعليمية أسهم في تشييدها أو ترميمها علماء ذلك القرن.
- ◆ أما عن النتاج العلمي فمن خلال النظرة العامة إليه نجد أن التزكية والتصوف هما أكثر العلوم المسيطرة على التأليف لعلماء ذلك القرن، وذلك يعطينا صورة عن الحياة العامة في تريم خلال تلك المدة، وسيادة التصوف والاهتمام بتزكية النفوس ومحاسبتها، وربما تكون الأوضاع المضطربة التي عاشتها حضرموت آنذاك سبباً في

(١) باغوث، الدرر الثمينة، ص ١٦٧.

اتجاه العلماء للكتابة عن تهذيب النفوس وكبح جماح شهواتها؛ رغبةً وإسهامًا منهم في إصلاح المجتمع.

♦ تبقى صفحات العلماء مضيئة في سفر التاريخ الحضرمي، وهذه الدراسة جهد متواضع لإبراز جهودهم، وعرفانًا بفضلهم على مجتمعاتهم التي عاشوا فيها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١. الحموي ياقوت، معجم البلدان (نسخة إلكترونية).
٢. الزبيدي مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس (نسخة إلكترونية).
٣. الحبشي، أحمد بن زين، شرح العينية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، سنغافورة.
الخطيب محمد بن عبدالله بن سليمان:
٤. البرد النعيم في نسب الأنصار خطباء تريم (مخطوط).
٥. محجة الأنبياء وحجة الأولياء، تحقيق د. محمد عبد النور، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، تريم للدراسات والنشر.
بن سميط، محمد بن زين بن علوي.
٦. غاية القصد والمراد في ترجمة الإمام الحداد.
٧. بهجة الزمان وسلوة الأحزان في ذكر طائفة من الأعيان، عني بطبعه: علي بن عيسى الحداد، د.ت.
الشلي محمد بن أبي بكر:
٨. عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق إبراهيم المقحفى، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
٩. المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي، الطبعة الأولى، ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م، المطبعة العامرة الشرفية، مصر.

ثانياً: المراجع والدراسات الحديثة:

١٠. بن هاشم محمد، تاريخ الدولة الكثيرة، أشرف على طبعه: محمد علي الجفري، ١٩٤٨م.

١١. باغوث، خالد سعيد محمد، الدرر الثمينة في تاريخ مساجد تريم ومعالمتها القديمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، مكتبة دار الفقيه، تريم.
١٢. الجعيدى، عبدالله سعيد (الدكتور) مجتمع تريم في مكاتبات السيد عبدالله بن علوي الحداد، ضمن أبحاث ودراسات فعاليات ملتقى تريم الثقافي، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، المكلا.
١٣. الجنيد عبدالقادر بن عبدالرحمن، العقود العسجدية في نشر بعض مناقب أفراد الأسرة الجنيدية، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، سنغافورة.
١٤. الرباكي، أحمد صالح، الجديد في تاريخ تريم القديم، ضمن أبحاث ودراسات فعاليات ملتقى تريم الثقافي، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، المكلا.
عبدالنور، محمد يسلم (الدكتور):
١٥. الحياة العلمية في حضرموت في القرنين السابع والثامن للهجرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
١٦. الحياة العلمية في تريم في القرن العاشر الهجري، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، تريم للدراسات والنشر.
١٧. المشهور، عبدالرحمن بن محمد، شمس الظهيرة في نسب أهل البيت، تحقيق محمد ضيا شهاب، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، عالم المعرفة، جدة.
١٨. الندوي مصطفى حسن، الإمام الحداد مجدد القرن الثاني عشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، دار الحاوي.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
كلمة المركز.....	٧
ملاح فن السيرة الذاتية في كتاب: (سفينة البضائع وضمنينة الضوائع) للحبيب علي بن حسن العطاس.....	٩
المرجعية الفكرية للتدخل الخارجي في حضرموت حملة الإمام الزبيدي المتوكل على الله إسماعيل في القرن الحادي عشر الهجري.....	٥٥
كتاب (المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي) قراءة تحليلية.....	٨٩
تراجم الشلي (ت ١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م) في كتابه «المشرع الروي» في القرنين ١١، ١٢ الهجري قواعد وبيانات تحليلية.....	١٠١
رحلة يافع إلى حضرموت أو رحلة الشيخ عمر بن صالح بن هرهرة ١ من ذي القعدة ١١١٧- ١ رجب ١١١٨هـ / ١٥ فبراير عام ١٧٠٦ - ٩ أكتوبر ١٧٠٦م.....	١٢١
حضرموت في كتاب السيرة المتوكية - بين المؤلف والمحقق إشكالية تناول.....	١٦٩
مجموع طه وثيقة علمية وتاريخية من وثائق القرن الحادي عشر الهجري.....	١٩٧
علماء حضرموت وأثرهم الدعوي والاجتماعي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (الإمام عبدالله بن علوي الحداد نموذجًا).....	٢١٧
المظاهر السياسية والحضارية للسلطنة الكثيرية في مدينة الشحر وعلاقاتها الخارجية خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.....	٢٤١
ضعف الدولة الكثيرية ونهايتها الأسباب والنتائج (١٠٠٠-١١٤٣هـ / ١٥٩١-١٧٣٠م).....	٢٧٣
علماء حضرموت وأثرهم الحضاري خلال القرن الحادي عشر الهجري علماء تريم أنموذجًا ...	٢٨٩

التَّارِخُ وَالْمُؤَرَّخُونَ الْحَضَارِمَةُ

(في القرنين الحادي عشر والثالث عشر الهجريين /
السابع عشر والثامن عشر الميلاديين)

يضم هذا الكتاب الأبحاث التي شاركت في المؤتمر العلمي الثالث لمركز
حضر موت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، وقد تناولت:

♦ ملامح فن السيرة الذاتية في كتاب: (سفينة البضائع وضمنية الضوائع)
للحبيب علي بن حسن العطاس.

♦ المرجعية الفكرية للتدخل الخارجي في حضر موت حملة الإمام الزيدي
المتوكل على الله إسماعيل في القرن الحادي عشر الهجري.

♦ كتاب (المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي) قراءة تحليلية.

♦ تراجم الشلي (ت 1094هـ / 1683م) في كتابه «المشرع الروي» في القرنين 11، 12
الهجري قواعد وبيانات تحليلية.

♦ رحلة يافع إلى حضر موت أو رحلة الشيخ عمر بن صالح بن هريرة 1 من ذي القعدة
1117 - 1 رجب 1118هـ / 15 فبراير عام 1706 - 9 أكتوبر 1706م.

♦ حضر موت في كتاب السيرة المتوكلية - بين المؤلف والمحقق إشكالية التناول.

♦ مجموع طه وثيقة علمية وتاريخية من وثائق القرن الحادي عشر الهجري.

♦ علماء حضر موت وأثرهم الدعوي والاجتماعي في القرنين الحادي عشر
والثاني عشر الهجريين (الإمام عبدالله بن علوي الحداد نموذجاً).

♦ المظاهر السياسية والحضارية للسلطنة الكثيرة في مدينة الشحر وعلاقاتها
الخارجية خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

♦ ضعف الدولة الكثيرة ونهايتها الأسباب والنتائج (1143-1000هـ / 1730-1591م).

♦ علماء حضر موت وأثرهم الحضاري خلال القرن الحادي عشر الهجري علماء
تريم أنموذجاً.



دار الفواق الحديثة للنشر والتوزيع
واتس آب: +2001008170225

